



الهيئة العامة لقصور الثقافة

ذاكرة المكتبات



حكايات المكتبات القديمة



اللوحة للفنان على دسوقي

حسين فوزي



الهيئة العامة لقصور الثقافة

جاءتكم من القاهرة

محمد بن عبد الوهاب

خاتمة الكنبه (٢٢)

رئيس التحرير	رئيس مجلس الإدارة
د. عبد القادر القط	محمد غنيم
مدير التحرير	أمين عام النشر
مسعود شومان	محمد السيد عيد
سكرتير التحرير	الإشراف العام
جمال العسكري	فكري النقاش

المراسلات : باسم مدير التحرير
على العنوان التالي ١٦ أ ش أمين سامي - القصر العيني
رقم بريدى : ١١٥٦١

إلى صديق
العلامة والجراح الكبير
الدكتور محمد كامل حسين

مقدمة

كنت واقفاً بظهر تلك السفينة العلمية ذات يوم من أيام نوفمبر ١٩٣٣ ،
أتطلع إلى شاطئ صخري ، وجبال مقطبة الأسارير ، شبيهة بالكثير غيرها
مما رأينا على هذا الشاطئ الجنوبي لشبه جزيرة العرب . وكانت السفينة
تتجه إلى جونة وسط تلك الجبال ، لتلقى بمراسيها أمام الجزيرة الوحيدة
المسكونة من مجموعة جزائر « خوريا موريا » . فرأيت خلال المنظار شيخاً
واقفاً إلى جوار راية حمراء ، ظهر فيما بعد أنها شال عمامته ربطه إلى عكازه .
وكان الرجل شيخ جزيرة « الحلانية » . وتعداد سكانها أربعون نفساً .

لم أعرف لماذا هتف في نفسى هاتف تلك اللحظة بكلمة « السندباد » .
وهو اسم نشر بسحره موكباً من ذكريات الطفولة والمراهقة . وجعلت الكلمة
والموكب يرتفعان من أطباق الشعور السفلى إلى نطاق أكثر تنبهاً ، والسفينة
تقترب من شاطئ جزيرة « الحلانية » ، حتى لبست كلمة « السندباد » صورة
الشيخ الواقف إلى شال عمامته . كما تلتقي الصورة المزدوجة للبرقيات ، في
أجهزة التصوير الدقيقة ، علامة على أن العدسات اتخذت موضعها الذي يسمح
بتصوير واضح المعالم والحدود .

وتابعت تلك السفينة العلمية رحلتها في البحر العربي إلى خليج عمان .
ثم انحدرت إلى كراتشي ميناء السند . وعادت تذرع المحيط الهندي غرباً
وشرقاً ، وجنوباً وشمالاً . فلم يمكن لي على ظهر السفينة من أن أفكر
في أمر العلاقة بين شيخ الحلانية والسندباد البحري بأكثر من أنني تصورت

الرحالة العربي الخيالي واقفاً بشاطئ جزيرة قفراء ، بعد حادث من حوادث أسفاره ، يلوح لمركب عابر بشال عمامته . كما كان يلوح ذلك الشيخ لنا . ولكنى بعد عودتى إلى مصر فى سنة ١٩٣٤ أحسست بأننى سلكت البحار التى ركبها السندباد فى سفراته المشهورة . وكان إحساساً غريباً . لأننى فى ذلك الوقت ، وقبل أن أعرف من أمر أسفار السندباد ما عرفت ، لم يكن فى ذهنى منه إلا أنه بطل قصة مغامرات بحرية ، تبدو فيها دواب البحر للسفار جزائر ، وتخرج عليهم من الأعماق خيول تجر أعرافها على الأرض ، وحيات تبتلع الأفيال ، ومن السماء طيور تحجب وجه الشمس ، وتحمل الناس فى مخالبها .

ومع ذلك قدرت بعد إيابى من رحلتى الهندية أن إحساسى فيما يتعلق بالسندباد جدير بالعناية والفحص . فأعدت مطالعة قصته بعيون تفتحت على أرجاء بحر الهند . ورأيت أن القصة لا بد تخفى فى ثناياها معارف إيجابية تواردت على ألسنة الرحالين العرب . وكنت أعرف من تاريخ الاكتشافات البحرية أن لهؤلاء فضلاً كبيراً على الملاحة فى البحار الشرقية إبان القرون الوسطى . وذكرت أن العلم شهاب الدين بن ماجد النجدى كان دليل فاسكو داجاما فى رحلته من ماليندى ، على الشاطئ الشرقى للقارة الإفريقية ، إلى قليقوط على الشاطئ الغربى لشبه جزيرة الهند .

كما خرجت من مطالعات عابرة فى كتابى « عجائب المخاوفات » للقزوينى و « مروج الذهب » للمسعودى بأن ثمت معارف بحرية فى كتب العرب جديرة بالمراجعة على أساس ما حققه علم البحار . وذكرت

كتاباً قرأته كثيراً في صغرى مع قصة السندباد ، عنوانه « عجائب الهند »
لمؤلف غريب الاسم يشبه أن يكون شير يار أو بزرجمهر . ولكنى كنت
واثقاً من كلمة « الناخلداه » مضافة إلى اسمه ، واسم بعض من نسب إليهم
حكاياته . وهى الكلمة التى سمعتها بأذننى على ألسنة الصوماليين فى منبسة
وعدن وبريم وغيرها ، يطلقونها على ربان السفينة .

انطوت نفسى عند هذا على أمنية أحققها يوماً ، هى فحص تلك الكتب
وما إليها لتحديد مركزها فى تطور الجغرافيا البحرية ، وللتعرف على ما تصفه
من أحياء مائية ، وظواهر بحرية وجوية ، ومواضع من البحر الشرقى تبدو
أسمائها غريبة على من اعتاد سماع أسماء غيرها بالحيط الهندى . وانضمت
تلك الأمنية إلى صفوف الأمنانى تنتظر دورها . ولم أكن أحسب آتياً لولا
الغمرة التى تردى فيها العالم منذ خريف سنة ١٩٣٩ ، وما أدت إلى من قيام
العقبات الكبيرة فى طريق الأسفار البحرية ومتابعة بحوثها . والسفر بالبحر
هو وسيلتنا الأساسية للاستقصاء ، بقدر ما هو هوايتنا وبؤرة رغباتنا
الملحة نحو المعرفة .

حقت بى من جراء ذلك أزمة نفسية لم أجد منها مخرجاً إلا فى دراسة
المسائل التى أنشئ على بعضها هذا الكتاب . فهو حقاً وليد أزمة . عقدتها
رغبة جياشة فى ركوب البحر ، دون إمكان تحقيقها والعالم على ما هو فيه
من شر وفتنة .

وانصرفت الأزمة إلى ملافاة الحاضر . هروباً إلى الأزمنة الغابرة
والأمكنة النائية .

« هريث السندباد القريم » رحلة خيالية في الزمان والمكان على السواء .
بقدر ما كان « سندباد مصري » رحلة واقعية . فأننا أعود بخيالى إلى المحيط
الهندي ، لا كما عرفته منذ نحو عشر سنوات ، بل كما عرفه البحريون
العرب فيما بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر . قبل عصر الاكتشافات
البحرية الكبرى ، التى بدأت بوصول بارتولوميو دياز إلى رأس الأعاصير
فى الطرف الجنوبي من القارة الافريقية ، ثم باقتحام فاسكو داجاما بحر الهند ،
وتباشره بدورانه حول ذلك الرأس المفرع حتى أطلق عليه اسم رأس الأمنية
الطيبة ، أو « الرجاء الصالح » . وأتبعته برحلة كولومبوس إلى العالم الجديد
وهو يحسب أنه يسلك طريقاً غربياً إلى الهند وبلاد الذهب والطيب
والأفاويه . وبلغت أروع أدوارها حينما استطاع ماجلان أن يذرع البحر
عرضاً ، ويتم دائرة الأرض بأسطوله الشراعى .

دليلى وقائدى ، فى رحلتى الخيالية ، ذلك الرحالة العظيم الذى أخرجته
لناس غيلة كاتب عربى مجهول — ربما كان مصرياً — يعزى إليه جزء
أو كل من كتاب « ألف ليلة وليلة » أوسع مؤلفات الأدب العربى صيناً
فى الخافقين .

والسندباد هو معلمى البحرى الأول . فأننا إذا رجع برحلتى الخيالية إلى القرون
الوسطى ، أعود بها أيضاً إلى طفولتى حينما عرفت البحر أول ما عرفت فى قصة
« السندباد البحرى » وكتاب « عجائب الهند » المنسوب إلى بزرك بن شهر يار
الناخداة الراهمزى .

رأيت البحر عياناً فيما بعد . وكانت أول رحلاتى على سطحه من

الإسكندرية إلى ... جزيرة العجمي ! وأول سفرى الكبير عبر مياهه
كان إلى فرنسا لأحبس نفسى على دراسته .

ولمت بالبحر صبيا قبل أن أراه ، وعرفته مرافقا . واستغرق غرامى
للبحر قبل أن ألقاه لقاء الوصال عشرين عاما من عمرى . وكان هذا اللقاء على
لسان من الأرض فى الشمال الغربى من فرنسا ، فى أقرب البلاد اتصالا بالبحر ،
ووقوعا تحت سحره ، وخضوعا لأهواله : البريتانى ، حيث تصطفق أمواج
الأتيانوس ، وتخرج الأساطير والخرافات من بطون الأعاصير ، وهزيم الرعود .
عرفت فيما بعد بحر الشمال ، وفيورد اسكندنافيا ، وشواطئ اسكتلندا ،
ونواحي من البلطيق ، وركنا من الأطلنطى ، والبحر الأسود ومرمرة
والأدرياتيك ، ومعظم البحر الأبيض المتوسط . ثم ذرعت البحر الأحمر والمحيط
المندى إلى أبعد من عشر درجات جنوبى خط الاستواء ، وشرقا إلى بحر
بنغالة . قليل من كثير بنفسى أن أرتاده كاملا . لأن حب البحر يزداد
قوة كلما أمعن فيه الصب تجوبا وتجوالا .

ولا أنسى فى هذا الغرام علمين من أعلامه : أول حبى للبحر فى قصة
السندباد . ووصالى للبحر على شاطئ البريتانى فى بلاد فنستير [متهى الأرض]
وقد أتكلم يوما عن لحظات الوصال فى الجو المعتم المتلبد ، وعبق اليود يملأ
عرانينى ، وقتاد الشاطئ يجرح قدمى . أو فوق مراكب الصيادين بين ضجيج
الآلات ، ورفرة السمك يتساقط من الشباك على ظهر السفينة . حين أدركت
أن «موجا كالجبال» ليس صورة شعرية فحسب ، وعرفت كيف ينفذ الزهرير
من أطراف الأنامل وأرنبة الأنف إلى مخ العظام . كما رأيت الجليد فى

الصباح الباكر يتدلى من الحبال والصواري ، ويدرج جوانب السفينة في أكفانه الناصعة البياض .

إلا أنني لم أنته بعد من التحدث عن اللحظات الأولى في غرامى . فعند ما كتبت رحلتى الهندية اخترت عنوانا لها اسم السندباد معلى الأول .
واليوم أخصص للسندباد هذا الكتاب . وليس السندباد شخصا أو حكاية . إنما السندباد عهد بأ كمله . قرأت قصته طفلا على أنها « حدوتة بالبحر ملتوتة » ، وشابا باعتبارها علما من أعلام الأدب في الشرق والغرب . ثم عدت إليها في محنة الحرب كخلاصة لعهد من أزهى عهود الدولة العربية ، عهد الملاحة الجسور ، والمجازفات الخطيرة في مجموعة البحار الجنوبية التي عرفت في ذلك الوقت باسم « البحر الشرقى العظيم » .

بدأت رحلتى الخيالية إلى هذا البحر الشرقى حبا في السندباد ، ورغبة في التقرب إليه ، وتوثيق أواصر معرفتى به ، وأنا شاعر بأن قصته تخفى الكثير مما كنت أجهل . ولكنى لم أتصور أن يكون وراءها ما وراءها من معارف وآثار وبحوث . لم أتوقع أن يكون السندباد دليلي إلى أكثر مما ورد في حكاياته . كالمعلم الذى نحسب في طفولتنا أن كل جعبته من العلم هي البسائط التي نتلقاها عنه .

ولست أدعى أنني أحطت بنواحي الموضوع علما ، أو أنسب لنفسي فضل اكتشاف الصلة بين السندباد والجغرافيا العربية في القرون الوسطى . فإذا كنت قد توصلت بمجهودى الشخصى إلى تفهم هذه الصلة ، فقد اكتشفت أثناء مراجعاتى أن المستشرقين كانوا أسبق إلى ما أنا اليوم بسبيله . وإني

أرجع الفضل لذويه إذ أعترف بفضلهم لا كبجاعة علماء فحسب ، بل كخدم أمناء للنصوص العربية الجغرافية . فبفضلهم استطعت أن أطلع تلك النصوص مراجعة مصححة ، مبوبة مشروحة . وبفضل تخصصهم وعلمهم كونت صورة للعالم كما كان يتصوره أبناء خرداذبة وسعيد وحقول ، وأبو القداء والبيروني والإصطخري والشريف الإدريسي . بل لم يكن هذا الكتاب ممكنا بشكله الحالي لولا :

Langlès, S. de Sacy, von Hammer. Reinaud, Mehren, Ed. Lane, Wüstenfeld, Quatremère, B. de Meynard, C. de Vaux, de Goeje, van der Lith, G. Ferrand.

ولعلني إذ أقدم في ثنايا هذا الكتاب صفحات مجهولة من تلك المكتبة العربية الزاخرة التي صرفوا عمرهم في نشر مجلداتها ، أكون نجحت في إظهار ناحية من نواحي فضلهم على الآداب العربية جمعاء . وساعدت في نفس الوقت على أن أضع بين أيدي الشباب نصوصا عربية ذات خطر علمي وأدبي وتاريخي ، لا يجدونها في الكتب التي اعتادوا مطالعتها . وإذا أرادوا البحث عنها في كتبها الأصلية لاقتهم صعوبة العثور على هذه الكتب . فإذا ظفروا بها نفرتهم أصاليب القدماء في عرضهم للمسائل دون تنسيق ولا ترتيب ، وأعوزتهم الحاجة إلى فهم الكثير من المعارف التي تستقر وراء تلك النصوص أكثر مما تسنين .

ولقد كنت بين أن أخفي بالخفة والطلاوة الفنية في سبيل نشر تلك النصوص القديمة ، أو أن أخلص من هذه دفعة واحدة فيكسب الكتاب سهولة وسلاسة . وكلا الأمرين عيّن على المؤلف . أما الصعب — وهو الطريق الذي جازفت بملوكه — فهو أن ألثم بين العاملين حتى لا أنوت على القارئ

فائدة ، ولا أحرمه لذة . وبينى وبينى نفسى أنى كنت أكثر نزوعا إلى التخفيف .
وأخيرا أرجو أن يشترك معى من يهيمه أمر تلك النصوص فى إسداء
الحمد ، والإقرار بالفضل لأصدقائى فى مكتبى بلدية الإسكندرية وجامعة
فؤاد الأول . إذ بدونهم لم أكن لأستطيع أن أخص المراجع هادئا فى عقر
دارى ، وأتخير منها ما تخيرت . وقد أقيمت المكاتب العامة لمثل هذا كما أظن ،
لا بالمطالعة المحدودة بمكان ووقت ، خصوصا إذا كان المكان ثقيل الظل ،
والوقت حكوميا أو يكاد . إلى الأساتذة إتيين كومب وحسن محمود وبشير
الشندى أقدم شكرى على ما طوقوا به عنق من جميل لا أنساه .

وأقدم شكرى الأخوى إلى الصديق حسن محمود ، الذى أضاف إلى جميله
فى مكتبة جامعة فؤاد الأول ، عنايته الشخصية بمراجعة نص الكتاب
مراجعة المكاتب المتمكن ، والفنان المرفه الحس ، وتفضله بإيداء ملاحظات
الصديق الوفى ، لا يغمض عينيه على هفوة ، فى لباقة ورقة من أخص خصائصه .
كذلك أشكر الصديقين ، محمود طاهر لاشين ، القصصى الكبير ، الذى
أنخر بصداقته ، وأعتز بوده . وصديق شيبوب ، صاحب المذهب الرفيع فى النقد
الأدبى بكل ما تعيه هذه الكلمة من معنى التفانى فى الأدب والوفاء لأهله ،
على فضلها فى مراجعة الكتاب ، تحت ظلال حسن الظن وعطفهما الأخوى .
وكيف أؤدى واجب الحمد إلا خجلا ، وآيات الثناء إلا متلعنا ، لرجل
نصب حياته لخدمة الثقافة عامة ، وأشاع فى الشباب على تعدد نزعاته
وتطورها ، والشيوخ برغم ما تنطوى عليه نفوسهم من تخرج المحافظة ، حب
للفن والعلم والأدب ، على أساس خير المجموع ، وفنائل التعاون والمهدى .

عرف هذا الأخ الأكبر ، صديق العلم والعلماء ، ظهير أهل الفن والأدب ،
بأمر « هدية السندباد القديم » ، وبرغبتي في إهدائه لأخ عزيز علينا سوريا ،
فلم يثنه عمل متواصل ، ليس أقله إنشاء جامعة فاروق الأول ، في أوقات
عصيبة ، ليس أسهلها تهديد مصر في كيانها ، عن أن يدعوني إليه لأقرأ
عليه الكتاب . فإذا أضفت إلى ذلك كيف لمست زعامة هذا الرجل للأدب
العربي ، وعرفت سر قيادته للفكر المصري المعاصر — وآيتهما حبه العميق
لبلاده ، وإدراكه العالي لرسالتها — فقد أوحيت بشخصيته إلى الأذهان ،
وأجريت اسمه على الأفواه . إلى أستاذنا الدكتور طه حسين أزجي كلمة
شكر متواضعة ، أرجو أن تفصح عن بعض ما أحمله له في نفسي من عرفان
بجميله ، وحب له ، وإعجاب بسجاياه .

الإسكندرية . سبتمبر ١٩٤٠ — يونيه ١٩٤٢

ملاحظة : تجنبت الهوامش فيما يكاد يكون تجنباً تاماً . واكتفيت في حالات الضرورة
القصوى بوضع قارئ [. . .] في سياق الكلام يتضمن على ما كان ينبغي
أن يوضع في الهوامش ، مراعيًا في هذا عدم توزيع انتباه القارئ .
والفقرات الموضوعة بين " . . . " نصوص منقولة عن مراجعها
العربية ، أو مترجمة عن مراجع غير عربية .

حديث السندباد القديم

مقدمة

الكتاب الأول	الكتاب الثاني
بين الواقع والأساطير	القصص البحرية العربية
صفحة	صفحة
٣ البحر الشرقى الكبير ...	١٨١ القصص البحرية العربية ...
١٣ التاجر سليمان	١٩٢ القرن دلى الثالث
٣٣ كتب العجائب	٢١٩ حسن البصرى
٤٣ عجائب الهند	٢٣٥ عبد الله البرى والبحرى ...
٥٧ بين الواقع والأساطير	٢٥٦ رحلات السندباد البحرى ...
٦٧ الرخ	٢٦٢ I- الجزيرة المتحركة والخيول البحرية
٧٦ التنين	٢٧١ II- رحلة جوية إلى وادى الماس
٩٣ شجرة الوقواق	٢٨٢ III- الغول الأسود
١٠٩ جزائر النساء	٢٩٠ IV- السندباد يدفن حيا ...
١٢٠ بنات الماء وشيوخ البحر ...	٣٢٠ V- شيخ البحر
١٣٦ الدر والؤلؤ	٣٢٨ VI- رحلة نهريّة فى كهف
١٥٧ الصنبر والبال	٣٤٦ VII- مقبرة الأفيال

خاتمة



خریدار الماس الزرقاء الكبر و الماس و الماس و الماس
الاسم الماس و الماس و الماس و الماس و الماس

مهرشیر
مهرشیر

الكتاب الأول

بين الواقع والأظن

البحر الشرقى الكبير

التاجر سليمان

كتب العجائب

عجائب الهند

بين الواقع والأظن

الرخ

التين

شجرة الوفوان

جزائر الفناء

بنات الماء وشيوخ البحر

الدر واللؤلؤ

العنبر والبال

البحر الشرقى الكبير

قال أبو القاسم عبيد الله بن خرداذبة فى منتصف القرن التاسع الميلادى :
”الأرض مدورة كتدوير الكرة ، موضوعة فى جوف الفلك كاللحة فى جوف
البيضة ؛ والنسيم حول الأرض وهو جاذب لها من جميع نواحيها إلى الفلك .
وبنية الخلق على الأرض أن النسيم جاذب لما فى أبدانهم من الخفة ، والأرض
جاذبة لما فى أبدانهم من الثقل ؛ لأن الأرض بمنزلة الحجر الذى يجتذب
الحديد . والأرض مقسومة بنصفين بينهما خط الاستواء ، وهو من المشرق
إلى المغرب ، وهذا طول الأرض ؛ وهو أكبر خط فى كرة الأرض ، كما
أن منطقة البروج أكبر خط فى الفلك . وعرض الأرض من القطب الجنوبى
الذى يدور حول سهيل ، إلى القطب الشمالى الذى يدور حوله بنات نعش “ .
وأضاف الشريف الإدريسى فى منتصف القرن الثانى عشر : ” واستدارة
الفلك فى موضع خط الاستواء ثلثائة وستون درجة ... وبين خط الاستواء
وكل واحد من القطبين تسعون درجة ، واستدارتها عرضا مثل ذلك ؛
إلا أن العمارة فى الأرض بعد خط الاستواء أربعة وستون درجة . والباقي
من الأرض خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجود ، والخلق بجملته على الربع
الشمالى من الأرض ؛ وأيضا فإن الربع الجنوبى وهو الذى فوق خط الاستواء
غير مسكون ولا معمور لشدة الحر به ، وممر الشمس وهى فى أسفل فلكها
على سمتها ؛ فجفت مياهه ، وعدم حيوانه ونباته لعدم الرطوبة ، لأنه لا يكون
الحيوان والنبات أبدا إلا حيث تكون المياه والرطوبات . والأرض فى

ذاتها مستديرة لكنها غير صادقة الاستدارة ، فمنها منخفض ومرتفع ، والماء يجري فيها من أرفعها إلى أخفضها ، والبحر المحيط يحيط بنصف الأرض إحاطة متصلة دائرتها كالمنطقة لا يظهر منها إلا نصفها ؛ فكأنها عند الصفة بيضة مفرقة في ماء ، والماء في طست ؛ فكذلك الأرض نصفها مفرق في البحر ، والبحر يحيط به الهواء وهذا الربع المسكون من الأرض قسمه العلماء سبعة أقاليم ، كل إقليم منها مار من المغرب إلى المشرق على خط الاستواء . وليست هذه الأقاليم بخطوط طبيعية ، ولكنها خطوط وهمية موجودة بالعالم النجومى ؛ وفي كل إقليم منها عدة مدن وحصون وقرى وأم لا يشبه بعضهم بعضا ؛ وأيضا فإن في كل إقليم منها جبالا شامخة ، ووهادا متصلة ، وعيونا وأنهارا جارية ، وبركا راكدة ، ومعادن ونباتا وحيوانات مختلفة وقسم ابن خرداذبة الأرض المعمورة على أربعة أقسام : ”أروفي ومنها الأندلس والصقالب والروم وفرنجة وطنجة . ولوبية ومنها مصر والقلزم والحبشة والبربر وما والاها والبحر الجنوبي . . . وإيتونيا وفيها تهامة واليمن والسند والهند والصين . واسقوتيا وفيها أرمينيا وخراسان والترك والخزر“ .

وتحدث أبو الريحان البيروني في أوائل القرن الحادى عشر عن البحار فقال : ”أما البحر الذى فى مغرب المعمورة وعلى ساحل بلاد طنجة والأندلس ، فإنه سمي البحر المحيط وسماه اليونانيون أوقيانوس ؛ ولا يلجج فيه ، إنما يسلك بالقرب من ساحله ؛ وهو يمتد من عند هذه البلاد نحو الشمال على محاذاة أرض الصقالبة ؛ ويخرج منه خليج عظيم فى شمال الصقالبة . . . ويمتد إلى قرب أرض بلغار بلاد المسلمين ، ويعرفونه ببحر ورنك وهم أمة على ساحله ،

ثم ينحرف وراءهم نحو المشرق ، وبين ساحله وبين أقصى أرض الترك
أرضون وجبال مجهولة خربة غير مسلوكة . . . وأما امتداد البحر المحيط
الغربي من أرض طنجة نحو الجنوب فإنه ينحرف على جنوب أرض
سودان المغرب وراء الجبال المعروفة بجبال القمر التي تتبع منها عيون نيل
مصر ، وفي سلوكه غزر لا تنجو منه سفينة . . . وأما البحر المحيط من جهة
الشرق وراء أقصى أرض الصين فإنه أيضا غير مسلوكة ، ويتشعب منه خليج
يكون منه البحر الذي يسمى في كل موضع من الأرض التي تحاذيه ، فيكون
ذلك أولا ببحر الصين ، ثم الهند ؛ ويخرج منه خليجان عظام يسمى كل واحد
منها بحرا على حدة ، كبحر فارس والبصرة الذي على شرفيه تيز مكران ،
وعلى غربيه في حياه فرضة عمان ، فإذا جاوزها بلغ بلاد الشحر التي يجلب
منها الكندر ، ومر إلى عدن وانشعب منه هناك خليجان عظيمان أحدهما
المعروف بالقلم وهو ينعطف فيحيط بأرض العرب حتى تصير به كجزيرة ؛
ولأن الحبشة عليه بحذاء اليمن فإنه يسمى بهما ، فيقال لجنوبيه بحر الحبشة ،
وللسمالي بحر اليمن ، ولجميعهما بحر القلم ؛ وإنما اشتهر بالقلم لأن القلم
مدينة على منقطعه حيث يستدق ويستدير عليه السائر على الساحل نحو
أرض البجا . والخليج الآخر المقدم ذكره هو المعروف ببحر البربر ، يمتد
من عدن إلى سفالة الزنج ، ولا يتجاوزها مركب لعظم المخاطرة فيه ، ويتصل
بعدها ببحر أوقيانوس الغربي . . . ثم في وسط المعمورة في أرض الصقالبة
والروس بحر يعرف بـننطس عند اليونانيين ، وعندنا يعرف ببحر طر بز ندّة
لأنها فرضة عليه ، ويخرج منه خليج يمر على سور مدينة القسطنطينية ،

ولا يزال يتضايق حتى يقع في بحر الشام الذي على جنوبيه بلاد المغرب ،
إلى الإسكندرية ومصر ، وبمخاضهما في الشمال أرض الروم والأندلس ؛
وينصب إلى البحر المحيط عند الأندلس في مضيق يذكر في الكتب بمعبدة
هيرقلس ، ويعرف الآن بالزقاق ، يجري فيه ماؤه إلى البحر المحيط . . .
وبالقرب من طَبْرِسْتان بحر فرضته جُرْجَان . . . وقد سمي باسم كل بقعة
حاذياها ، ولكن اشتهاره عندنا بالخَزَر ، وعند الأوائل بجرجان ، وسماه
بطليموس بحر أرقانيا ، وليس يتصل ببحر آخر . . .“

وقال أبو الحسن المسعودي في منتصف القرن العاشر: ”البحر الحبشي
هو بحر الصين والهند والسند والزنج والبصرة والأبلة وفارس وكرمان
وعُمان والبحرين والشَّحْر واليمن وأيلة والقزم — من بلاد مصر — والحبشة .
وليس في المعمور بحر أعظم منه“ .

وهذا البحر كما ذكر ابن خرداذبة ”هو البحر الشرقي الكبير ، طوله
من القزم إلى الوقواق أربعة آلاف وخمس مائة فرسخ“ .

بحر كله أَسْرار ومخاوف ؛ ما بين أعاصيره وتياراته ، وأمواجه الهوجاء
ودُردُوره ، وتُرُوشه وأقاصيره ، وفي المخلوقات التي تغشى مياهه ، أو تعيش
على شواطئه وجزائره ، والبراكين التي تضطرم في أحشائه ، أو تبدو من
بعيد للسُّفَار نارا بالليل ودخانا بالنهار . وفي شرقه بحر مجهول لا يلجج فيه ،
كثيف السحاب منخفضه ، مظلم معتم ، ماؤه كدر ثقيل كالقار الذائب ،
عرفه القدماء باسم البحر الزفتي أو الراكد . وسماه ابن بطوطة البحر الكاهل .
وفي غربه بلاد مصر والمغرب وأرض السودان ، أي قارة لوبيا ، وتمتد

حتى البحر المحيط الغربي ، وهو بحر الظلمات ؛ صعب المراس ” لا يعلم أحد ما خلفه ، ولا وقف بشر منه على خبر صحيح ، لصعوبة عبوره ، وظلام أنواره ، وتعظيم أمواجه ، وكثرة أهواله ، وتسلسل دوابه ، وهيجان رياحه ؛ وليس أحد من الربانيين يركبه عرضا ولا ملججا ، وإنما يمر منه بطول الساحل لا يفارقه ؛ وأمواج هذا البحر تندفع منغلقة كالجبال لا ينكسر ماؤها .

وقد حفظت مدينة لشبونة ذكرى شيبية مغامرة خرجت منها لتلجج في بحر الظلمات استكشافا لكنهه ، وسعيا إلى منتهاه ، إذ كان بتلك المدينة حتى عهد الشريف الإدريسي درب يعرف بدرب الثغرين ، وهم ثمانية رجال أبناء عمومة خرجوا في مركب زودوه للملاحة أشهراً ، وأوغلوا في البحر أول طاروس الريح الشرقية ، وجروا نحواً من أحد عشر يوماً حتى وصلوا إلى بحر غليظ الموج ، كدر الروائح ، كثير التروش ، قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ؛ لذلك ردوا قلاعهم واتخذوا سمتهم إلى الجنوب اثني عشر يوماً حتى خرجوا إلى « جزيرة الغنم » ، ونزلوا بها حيث وردوا عين ماء جارية ؛ ثم غادروها إلى الجنوب اثني عشر يوماً أخرى حتى وصلوا إلى جزيرة فيها عمارة وحرث ، فما وصلوا إلى البر حتى أحيط بهم في زوارق هناك ، وحملوا إلى مدينة يسكنها رجال شقر زعر طوال القدود ، واعتقلوا في بيت ثلاثة أيام ؛ ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي سألهم عن حالهم وفيما جاءوا فأخبروه بنحبرهم ، وحملهم بين يدي الملك في اليوم التالي ؛ فلما علم بهويتهم ضحك وقال للترجان : ” خبر القوم أن أبي أمر قوما من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا في عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء ، وانصرفوا من غير

حاجة ولا فائدة تجدى . وانصرفوا إلى موضع حبسهم حيث لبثوا حتى بدأ جري الرياح الغربية ، فقمّر بهم زورق ، وعصبت أعينهم ، وجُرّى بهم في البحر برهة قدرها القوم بثلاثة أيام ؛ ثم جيء بهم إلى بر وأخرجوا وكتفوا إلى خلف وتركوا على الساحل حتى سمعوا ضوضاء ، وأصوات ناس أقبلوا عليهم ، وحلوا وثاقهم ، وعرفوا حالهم ؛ وكانوا برابر فأعلموهم بأن بينهم وبين بلاد الأندلس مسيرة شهرين .

هذا كل ما عرفه القدماء عن المحيط الأطلنطي أو بحر الظلمات ، قبل أن تكتشف جزائر « الأزورس » ، أو يقوم كولومبوس بمغامرته الماثلة نحو الغرب بحثاً عن طريق الهند ؛ فيما عدا ما حدث به أفلاطون عن قارة الأطلانطيد التي غمرتها مياهه . وأقل منه ما عرفوه عن البحر الزنقي شرق آسيا .

ولا يلومن المغررون إلا أنفسهم . فقد يما أقام هرقل الجبار ، وقيل ذوالقرنين وقيل تبع ذو المنار الحميري ، بمدينة قادم وجزائر السعادة والخالدات غرب الأندلس ، أعمدة عليها تماثيل من نحاس تشير بيديها إلى الغرب منذرة أن لا ورأى مسلك ؛ وذكر ما يشبه ذلك عن جزائر في شرق الصين سماها الهنود « جَمَا كُوَطَة » ، والفرس « كَنَكْدِيز » .

أما البحر الشرقي الكبير فقد ركب ملاحو الفرس والعرب والصينيين من أقدم العصور ، وعرف بعضه البحريون من الفينيقيين واليونان ، وأطلق الفرس والعرب على أجزائه أسماء حسب مواضع الأرض التي تقع شواطئها عليه ؛ فهو بحر فارس فيما يعرف اليوم بالخليج الفارسي وخليج عمان ؛ وبحر لآز أو لآزوي أمام شواطئ الهند والمليبار غربي شبه جزيرة الهند ، وحول

أرخبيل السكايب والمحديب ، وبحر الهز كند فيما بين جزيرة سرنديب وقاع خليج بنغالة ؛ وبحر كلاء أو شلاهط بين جزائر النكوبار والاندمان وشبه جزيرة ملقا ، وجزائر الهند الشرقية أو الزابنج ؛ وبحر كندرنج ، وهو خليج سيام ؛ وبحر الصنف الذي يضرب شواطئ الهند الصينية ، والصنف صقع منها ؛ وبحر صنخى ، وهو بحر الصين ، سابع البحار التي يعبرها المسافر فيما بين البصرة أو سيراف وبين خانقو ميناء الصين الأكبر ؛ وإلى الشرق من الصين جزائر الوقواق .

أثار هذا البحر في نفوس سكان العالم القديم ، ودنيا القرون الوسطى ، نائرة العجب والروعة ؛ فقيعانه وبروره وجزائره تخرج للناس الدر والجوهر ؛ ومن الصين الحرير والفريند والكيمنخاو والمسك والعود والسروج والستور والصيلبنج والدارصيني والحولنجان والأواني من الغضار الطيب ؛ ومن الوقواق الذهب والأبنوس ؛ ومن الزابنج والهند العود والصندل والكافور والجوزبوا والقرنفل والقائلة والكبابة والنارجيل ، والثياب المتخذة من الحشيش ، والثياب القطنية المحملة ، ومن الفيل وقرون السكر كذن والفضة والعود من شواطئ قمرون [أى أسام] وأورنشين [أى أوريسا] ؛ والرصاص القلعي من شبه جزيرة ملقا ؛ ومن سرنديب الياقوت كله وأشباهه ، والماس والدر والبلور والسنباذج ؛ ومن كولم ملى وسندان بساحل الملبيار الفلفل ؛ ومن السند البقم والخيزران والساج والقسط والقنا ، والعاج والذهب والحديد والنحاس من سفالة الزنج ؛ والعنبر واللبان من بلاد الشجر ؛ ومن اليمن الوشى وسائر الثياب ، والعنبر والورس والبغال والحير .

بحر خفيف تهب على سطحه رياح موسمية هائلة ، كان القدماء يعتقدون بأن بعضها يندفع من أعماقه ؛ وترتاده « البوارج » وهي سفن القرصان ؛ ويسكن بعض جزائره المتوحشون آكلو لحوم البشر ؛ وتظهر من بطونه دواب مروعة بجرمها وشكلها ؛ تضرب المراكب فتحطمها ، أو هي تصعد فوقها نذرا بالإعصار ؛ وتطير في أجوائه طيور تحجب وجه الشمس ، ذكرها الصينيون باسم « فنج » ، والفرس باسم « سيموزغ » والعرب باسم العنقاء والرخ . فالبال أكبر حيوانات البحر طرا ، قد يبلغ طوله مائة أو مائتي ذراع في قول الحق ، أو أن هذا الطول بالباع لا بالذراع ، وقد تغلو ملكة القصص عند البحرين رأس الوال تمر بهم اليوم وذنبه بعد أربعة أشهر . وفي هذا البحر سمك على قدر البقريلد ويرضع ، وسلاحف استدارة السلحفاة منها عشرون ذراعا أو هي باعا ، حتى لتبدو كأنها جزيرة يخطبها الملاحون فينزلون بظهرها .

وبجبال الزابج حيات عظام تبلع الرجل والجاموس ، ومنها ما يتلع القيل ؛ وبمملكة الزابج جزيرة برطاييل يسمع البحر يرون منها العرف والطبول الليل كله ولا يرون مخلوقا ، فيقولون إن الدجال فيها ؛ ويخرج من البحر خيل مثل خيلنا لها أعراف تجرها على الأرض ؛ وبالزابج ببغاوات بيض وحمر وصفر تتكلم على ما لقنت بكلام فصيح ، ومن الطواويس خضر ورقط ، وبزاة بيض لها قنازع حمراء ، وقردة بيض عظام كأمثال الجواميس ، وخلق على صورة الإنسان يتكلم بكلام لا يفهم ، وبها من السنانير ألوان ولها أجنحة كأجنحة الخفافيش من أصل الأذن إلى الذنب ، وغيسة فيها ورد

إذا أخرج من الفيضة احترق .

وبجزيرة الرامني حيوان الكركدن أو الكركند ، دابة دون الفيل وفوق الجاموس ، تأكل الحشيش وتجتز كالبقرة ، لها قرن واحد في الجهة طوله ذراع وغلفه قبضتان ، فيه صورة من أول القرن إلى آخره ، فيستخذه أهل الصين مناطق تبلغ المنطقة ما بين ثلثمائة وأربعة آلاف دينار ؛ ويسكنها قوم عمارة يعيشون في الفياض ، كلامهم شبيه بالصغير ، صفار الأجسام طول الواحد منهم أربعة أشبار ، شعر رؤوسهم زغب أحمر ، يتسلقون على الأشجار بأيديهم من غير أن يضعوا أرجلهم عليها ؛ وبقر بها جزيرة فيها ناس سود مففلون يأكلون الناس أحياء ، ويشرحونهم تشريحاً . ولقد بحث أحمد بن واضح اليعقوبي عن أصل كل تلك المخلوقات فعرف أن ملكاً من ملوك الصين اسمه « عَيْثُنَان » سام أهل مملكته سوء العذاب ، ونفاهم إلى جزائر البحر . فكانوا يسرون في تلك الجزائر إلى مواضع فيها الثمار ليأكلوا ، ويمجدون بها الوحوش فأنسوا بها وأنست بهم ، فجاءت بينهم الخلق المشوهة ؛ وباد القرن الأول وأتى قرن بعد قرن فذهبت منهم لغاتهم ، وصاروا يتكلمون ما لا يفهم . ويزعم ابن واضح أن « عَيْثُنَان » اسم تفسيره بالعربية « خلقه الشر » .

وحكى صاحب « مختصر العجائب » أن الله خلق عشرين وألف أمة ، بعدد الكواكب الثابتة ؛ يسكن منها في جزائر البحار ستمائة ، وفوق القارات عشرون وأربعمائة ؛ وفي شرق العالم جنس يجمع بين الوحش والإنسان ، رأسه رأس أسد ، وآذانه طويلة وله ذيل ، وجسمه جنم إنسان ولو أن له

مخالب موضع الأيدي والأرجل ؛ وأقرب المخلوقات إلى الإنسان من كل هذه الأجناس جنس الوقواق ، وهن نساء معلقات بشعورهن إلى الأشجار يصحن « واق واق » ، ويسلمن الروح إذا فصلن عن الشجرة .

وبحر صَنْغِيّ هو أخبث البحار ، تخرج منه النذر بالإعصار مخلوقات سوداء شبيهة بصبيان الزنج طول الواحد أربعة أشبار ، يخرجون بالليل من الماء فيبيتون بالسفينة ، ويدورون فيها ولا يؤذون أحدا ، ثم يعودون إلى البحر ؛ ومجيئهم علامة الريح الكريه المسمى بالخب ، أشد الرياح عصفاً وهي جانا ؛ فيستعد البحريون لذلك ، ويلقون بالمتاع وبعض الجهاز إلى البحر ليدخلوا خفافاً في الزوبعة ؛ فإذا كتبت لهم النجاة تباشروا بطائر من نور يرى بأعلا الدقل كأنه شعلة نار .

وقد يُظَلَّ المراكب سحاباً أبيض فيخرج منه لسان رقيق طويل مع الريح العاصفة حتى يلتصق ذلك اللسان بماء البحر فيغلي له ماء البحر ويضطرب كالزوبعة الهائلة ، إن أدركت المركب ابتلعتة ؛ ثم يرتفع السحاب فيُمطر مطراً فيه قذى لا يُعرَف جاء من البحر أو السماء .

« والدُّرْدُور » موضع من البحر يدور فيه الماء كالرحى دورانا دائماً من غير فترة ولا سكون ، فإذا سقط إليه مركب أو غيره لم يزل يدور حتى يتلف . هذه هي صورة البحر الشرقي الكبير وبروره كما قامت في مخيلة العرب وغيرهم إبان القرون الوسطى .

التاجر سليمان

على جدران معبد «الدير البحري» بمصر العليا تصاوير رائعة تمثل مناظر سفن الملكة «حتشبسوت» من ملوك الأسرة الثامنة عشرة، عائدة من رحلتها إلى بلاد «بونت»، محملة بخيرات بلاد إلى الجنوب من البحر الأحمر، هي الصومال على ما يظن بعض الباحثين، أو بلاد الشَّعْر في رأى البعض الآخر.

وليست لهذا الأثر قيمته الفنية فحسب، ولكنه صورة من صور النشاط التجارى والملاحى لقدماء المصريين في البحار الشرقية منذ نيف وثلاثة آلاف عام؛ صورة تبدو فيها عناية الأسرات الملكية المصرية بما تنبته «بلاد الجنوب» من أشجار الطيب والأفاويه. وما تخرجه أرضها من معادن وحجارة ثمينة، وحيواناتها من عاج وجلود.

وجاء في كتاب «الملوك» من «العهد القديم»: "وعمل الملك سليمان سفنا في «عِصْيُون جابر» التى بجانب «أَيْلَةَ» على شاطئ بحر «سوف» [البحر الأحمر] فى أرض «إدوم»، فأرسل حيرَام فى السفن عبيده النواتى العارفين بالبحر مع عبيد سليمان، فأتوا إلى «أوفير» فأخذوا من هناك ذهباً أربع مائة وزنة وعشرين وزنة وأتوا بها إلى الملك سليمان". "لأنه كان للملك فى البحر سفن «ترشيش» مع سفن حيرام، فكانت سفن ترشيش تأتى مرة فى كل ثلاث سنوات حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقروداً ووطواويس".

اختلف العلماء في تحديد موضع بلاد «أوفير» فهي عند البعض سفالة الزنج ، وعند البعض الآخر مدينة ظفار على مقربة من مملكة سبا ؛ وقال الإدريسي يصف ظفار في عهده : ” كانت من أعظم وأشهر المدن ، سكنها ملوك اليمن . وكانت بها قصور «ريدان» . أما اليوم فقصورها خربة ، وسكانها قليلون “ .

وذكر هيرودوتس أن ملك مصر ، نيخاو بن بساماتيك ، من ملوك الأسرة السادسة والعشرين ، وجه عنايته إلى التجارة في البحر الإرتيري ، فابتنى عمارة على شاطئ البحر الأحمر ، وعين لها البحارة من الفينيقيين ، ” وأمر الفينيقيين على هذه المراكب أن يصلوا إلى البحر الشمالى [البحر الأبيض المتوسط] عن طريق أعمدة هرقليس ، ويعودوا من ذلك الطريق إلى مصر ... فسافر الفينيقيون في البحر الجنوبي ؛ فلما وافى الخريف نزلوا بشاطئ لوبيا وزرعوا الحنطة وانتظروا الرياح الموسمية ، ثم سافروا بعد الحصاد ؛ وبعد سفرهم مدى عامين وصلوا إلى أعمدة هرقليس في العام الثالث ، وعادوا منها إلى مصر . وحدثوا بعد عودتهم كيف كانت الشمس عن يمينهم عند ما داروا حول لوبيا . وهو أمر غير معقول ولو أن لغيرى أن يصدقه ؛ ذلك كان أول معرفة الناس بلوبيا “ . هذا ما نقله هيرودوتس عن المصريين حوالى خمسين ومائة سنة بعد بعثة نيخاو بن بساماتيك الملك . وما وجدته غير معقول دليل في ذاته على أن بعثة نيخاو تجاوزت بلاد الكفرة إلى رأس الأعاصير [الرجاء الصالح] ولو أنه ليس ما يثبت أو ينفي أنها واصلت طريقها مستديرة حول جنوب إفريقيا وصاعدة إلى الشمال حتى مضيق جبل طارق .

ليست هذه الرحلات شاهدا على أن شعوب العالم القديم حول البحر الأبيض المتوسط عرفت الكثير عن آسيا ؛ ولكنها بينة على أن صلات تجارية وجدت في الأزمنة الحالية ، بطريقة غير مباشرة على الأقل ، بين غرب آسيا والحوض الشرقى لذلك البحر . واتسعت معارف سكان هذا الحوض عن غرب آسيا بعد غزو الإسكندر لبلاد الفرس ووصوله إلى شمال الهند . ولم يترك البطالسة في مصر ، ولا من تولى الملك بعد الإسكندر في بلاد فارس ، أمر هذا الغزو عند ذلك الحد ؛ وتبوأ الإسكندرية وسلوقية مركزهما العظيم في ذلك العهد لأن البطالسة والسلوقيين تابعوا سياسة التعمير ، ووثقوا صلات البلاد التي يحكمونها بشواطئ البحر الحبشى ، وبما استطاعوا أن يعرفوه من بلاد آسيا ؛ فأنشأوا محطات بحرية على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر ، وعلى طوال الساحل الإفريقى حتى بر الزنج . كما عنيت الأسرة السلوقية بمرافق الخليج الفارسى . وكان أهمها في ذلك الوقت ميناء «أبولوجوس» [الأبله] عند مصب مجمع الدجلة والفرات ، وبقرب الموضع الذى أنشأ فيه عمر بن الخطاب فيما بعد مدينة البصرة .

كانت السفن الأجنبية تلتزم الملاحة الشاطئية في بحر الهند ، ولم تكشف عن سر الملاحة الموسمية التي عرفها ملاحو العرب والفرس منذ أقدم العصور حتى جاء الملاح اليونانى «هيتالوس» في القرن الأول الميلادى ولاحظ موسمية الرياح في المحيط الهندى ، فأدرك انتظام هبوبها ستة أشهر في العام من الشمال الشرقى ، والستة الأشهر الأخرى من الجنوب الغربى ؛ وتخير الموسم المناسب وعبر المحيط الهندى رأسا فيما بين مضيق باب المندب وبين

خليج « كَنْبَايَة » جنوبى بلاد السند ؛ ثم ترقب هناك موسم انعكاس الرياح وعاد إلى مبتدأ رحلته . وكانت رحلة هبالوس فتحا جديدا فى عالم الملاحة نشطت عقبه تجارة الأعطار والطيب والأفاويه بين شواطئ الهند وشواطئ البحر الأبيض المتوسط .

وكانت المراكب الصينية فى ذلك الوقت ، بل قبله بزمان طويل ، تسافر إلى جاوه وشبه جزيرة ملقا ، وسيلان وجنوب الهند ، وتتبادل متاعها مع ما تبحى به مراكب العرب والفرس من الخليج الفارسى أو عبر البحر الأحمر . ولقد طاف بالمحيط الهندى فى آخر القرن الثانى الميلادى ملاح يونانى لا يعرف اسمه ، ربما كان من أهل ميناء « بَرِنِيس » على شاطئ البحر الأحمر ، وترك أثرا مكتوبا لرحلته عنوانه : « الطواف بالبحر الإريتري » ، يدل على أن الدولة الرومانية أسست قواعد لها فى عدن ومواقع أخرى من بلاد اليمن ، وفى جزيرة سَقَطْرَى القائمة عبر رأس الأعطار ، أو ما يعرف اليوم باسم رأس « حافُونِي » ورأس « جَارْدَافُونِي » . وكانت سقطرى قد استعمرها العرب ثم اليونان فى عصور سابقة .

ويبدو أن الصلات بين الشرق والغرب كانت وثيقة فى أوائل القرن السادس ، بدليل إشارة المؤرخ أميانوس مارِكَلِينوس ، وهو يصف تولى الإمبراطور يولييانوس ، إلى أن « وفودا جاءت ترفع إليه التهنئة من وراء البحار ، من سرنديب واللكاذيب والمخلديب » .

وأرسل كسرى أنوشروان إبان هذا القرن السادس أسطولا لغزو جزيرة سرنديب ؛ وأشار الطبرى إلى أن آخر ملوك الدولة الساسانية حصنوا مدينة

الابلة لمقاومة غارات البوارج الهندية ، أى سفن القرصان ؛ وكانت تخرج من شواطئ السند وبلاد جزرات وساحل المليبار لقطع السبيل على مراكب التجارة .

لم يكن العرب بمعزل عن هذا النشاط البحرى الكبير ؛ فبناء عدن على بحر البربر ، وصحار فرضة عمان ، التى حلت مسقط محلها فى العصور الحديثة ، وغيرها ، كانت محطات تخطف إليها المراكب لتحمل منها الماء ؛ وكان أهل عمان والشحر وحضرموت يؤلفون شطرا هاما من ملاحى المحيط الهندى ، وقد احتفظوا بمركزهم الممتاز حول شواطئ ذلك المحيط حتى أجلاهم عنه البرتغاليون ومن جاء بعدهم من رجال الإمبراطوريات البحرية العظمى ؛ ومع ذلك فما زال العرب حتى العصور الحديثة قائمين بقسط غير ضئيل من الملاحة الأهلية فى أرجاء المحيط الهندى على سنايقهم التى يعرفها الإنجليز باسم « داو » Dhow ؛ والجاليات العربية الكبرى فى جزر الهند الشرقية والفلبين معظمها من الحضرميين ؛ كما أن الهانين استعمروا جزيرة سقطرى وبر الزنج منذ أقدم العصور .

استقر تجار العرب والفرس على شواطئ السند والهند وجزيرة سيلان ؛ وكانت للفرس اليد الطولى على العرب إبان الدولة الساسانية ، حتى ظهر الإسلام فهد أولئك العرب لفتوحاته الآسيوية ، وأصبح لجالياتهم المقام الأول نتيجة تلك الفتوحات .

ولم يمض ستة عشر عاما على الهجرة حتى نزل أسطول عماني بمصبات نهر السند وشواطئ الهند ؛ وانتهى القرن السابع الميلادى وفى سيلان جالية

إسلامية هامة . وجرد الحجاج الثقفي بعثة تأديبية إلى وادى نهر السند حينما ترمى إليه أن نساء مسلمات غادرن سيلان لزيارة أهلن في جزيرة العرب فاعتدى عليهن بعض القرصان .

وامتد نفوذ العرب والفرس حتى الصين ؛ وقد بلغت جالياتهم بمدينة « خانفو » من الكثرة والقوة حدا مكنهم في سنة ٧٥٨ م من القيام بمشاغبات استطاعوا بها أن ينهبوا ميناء الصين الأكبر نهبا .

وفي العصر العباسي ، وقد ترمى سلطان الدولة الإسلامية إلى فارس والعراق وسوريا ومصر ، واحتلت البصرة المركز الذي كان لميناء الأبلّة ، ازدهرت التجارة الشرقية ازدهارا جعل من بغداد عاصمة الإمبراطورية العظمى ، مدينة باذخة تفيض ثروة وترفا ؛ ثم تحولت التجارة عن البصرة إلى سيراف ، وانتقلت فيما بعد إلى جزيرة كيش أوقيس ، ثم إلى هرمز ؛ ولم يكن معنى هذا تحول التجارة عن حوض الدجلة والفرات ، إنما كان الانتقال لضرورات فنية اقتضتها صعوبة الملاحة في الطرف الشمالي من الخليج الفارسي ، وجعلت من هذه الموانئ « رؤوس خطوط » ملاحية ، تحمل فيها البضائع من السفن الكبيرة إلى سفن أصغر لتسير منها مباشرة إلى مجرى نهر الدجلة .

أما الصلات التجارية بين الغرب والشرق ، فقد ترك ابن خردادبة وصفا مختصرا لها في كلامه عن "مسلك التجار اليهود الرّاذانيّة الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والأفريقية والأندلسية والصقلبيّة ، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برا وبحرا ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان ، والديباج وجلود الخنز والقراء والسمور

والسيوف ، ويركبون من فرنجية في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم ، وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ؛ ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجاروجدة ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين ؛ فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ، ثم يحملونه إلى المرما ، ثم يركبون في البحر الغربي ؛ فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها للاروم ، وربما ساروا بها إلى ملك فرنجية فيبيعونها هناك ؛ وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجية في البحر الغربي ، فيخرجون بانطاكية ويسرون على الأرض ثلث مراحل إلى الجابية ، ثم يركبون في القرات إلى بغداد ، ثم يركبون في دجلة إلى الأبلّة ، ومن الأبلّة إلى عمان والسند والهند والصين ، كل ذلك متصل بعضه ببعض .

وصف هيوز صاحب « قاموس الاسلام » عصر المأمون بأنه « العهد الأغسطيني للأدب العربي » . وكان عهداً أغسطينيا من جميع الوجوه ، فلسنا ممن يعتقد بإمكان ازدهار الأدب في عصر من العصور دون أن يكون هذا الازدهار أثراً من آثار نهضة تتناول كافة نواحي النشاط الإنساني فردياً واجتماعياً ؛ وما كان يمتاز به عصر المأمون — كسائر العصور الحية — ويجعل له مقاماً خاصاً في تاريخ الحضارة الإسلامية ، هو حرية الفكر ، والتعطش إلى المعرفة ، والتنشط للفحص العلمي والفلسفي ، بعد نقل مؤلفات القدماء إلى العربية .

كان عصر المأمون نتيجة منطقية للفتوحات العظيمة التي بدأت في

حياة النبي وبعد وفاته مباشرة ؛ فتغلب المسلمون على الفرس منذ أواسط القرن السابع الميلادي ، وواصلوا زحفهم في ناحية حتى وادي مهران السند ، وفي ناحية أخرى حتى ضفاف سيحون وجيحون [نهر الأكوس والياكسارات حالا] ، واختلطوا بالبراهمة والبوذيين القاطنين على ضفاف مهران في القرن الثامن ؛ ثم جاء محمود بن سُبُكْتِكِين الْغَزْنَويّ في القرن الحادي عشر فأكمل فتوحات الهند ، إذ انحدر كسيل العرم حتى نهر الكنك وفي ركابه عالم من أكبر علماء القرون الوسطى ، وأعظم من فهم الفلسفة الهندية وحياة البراهمة وعلومهم ، المؤرخ والفلكي والجغرافي أبو الريحان البيروني .

ويعيننا من أمر هذه الفتوحات أثرها في تقدم العلوم الجغرافية ؛ فقبل أن توجه الإمبراطورية الإسلامية عنايتها إلى العلوم اليونانية والفارسية والهندية ، كانت معرفة البلدان لازمة من لوازم الفتح والتوسع ، وقد وجد الفزاة المسلمون سبيل التوسع ممهداً بفضل طلائع التجار والملاحين من العرب والفرس ، الذين تجشموا الصعاب في البحر والبر ، وأنشأوا مراكز للتجارة على شواطئ البحر الشرقي الكبير قبل ظهور الإسلام . بدأت المعارف الجغرافية تتجمع حول مغامرات أولئك الرجال ؛ فلما بدأ تكوين الإمبراطورية الإسلامية ، اقتضى ذلك تنظيم المسالك والبُرد ، وتعرف طرق الملاحة ؛ وكان هذا وذاك أساساً من الأسس الهامة للجغرافيا العربية اعتمد عليه أمثال ابن خرداذبة وابن قدامة . وعندما كان الجيهازي يعني بجمع المعلومات عن البلاد الأجنبية ، لم تكن عنايته خالصة لوجه العلم ، بل كان يتم عمل أولئك الرحالين في إعداد سبل الفتوحات وتمهيد مسارحها . فالجغرافيا العربية ، كما

قال فيقيان دى سان مارتان ، شبيهة بالجغرافيا الرومانية في أن أصحابها عرفوا الأرض عن طريق الفتح ، بل عن طريق الرحلات التجارية ؛ فهي جغرافيا وصفية عملية ، قبل أن يعنى المأمون بترجمة كتب بطليموس القلوذى ومارينوس الصورى ، أو بقياس الدرجة الفلكية في وادى سينجار .

وإذا كانت الرحلات وطأت للفتح والغزو ، فإن الفتوحات الإسلامية أتاحت للمسلمين وسائل السفر في إمبراطوريتهم المترامية الأطراف ، مما ساعد بدوره على توسيع المعارف الجغرافية ؛ وكان للحج أثر واضح في تشجيع الرحلات ، إذ أن تأدية هذه الفريضة الهامة ألزمت المسلمين بتحمل كل عناء للوصول من أقاصى الإمبراطورية إلى الأراضى المقدسة ؛ وساعد أهل الخير على السفر بإقامة الحبوس والرباطات عبر طرقات الإمبراطورية ؛ وكان شعور الأخوة بين أبناء الملة الواحدة يفتح أبواب منازل بعضهم لبعض ينزلون ضيوفاً عليها .

ويظهر أن الفرس لم يتركوا آثاراً مكتوبة دونوا فيها رحلاتهم في البحر الشرقى الكبير ؛ كما يبدو أن الملاحين العرب ، وقد عرفوا الكثير من سواحل هذا البحر منذ عهود بعيدة ، لم يعنوا أكثر من الفرس بهذا التدوين فإما أن تكون آثارهم المكتوبة قد ضاعت ، أو أنهم كانوا رجالاً عمليين لا يهمهم أمر المذكرات ؛ وربما كانوا راغبين عن نشر معارفهم الملاحية ضناً بها على غيرهم ، وإيثاراً لأنفسهم بالنفع التجارى .

وتنتهى هذه الحَقبة الطويلة من الصمت فجأة بعجالة كتبها صاحبها أو أملاها في سنة ٨٥١ م ، تعد من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية

في المحيط الهندي وبحر الصين في القرن التاسع ، ربما كانت الأثر العربي الوحيد الذي يتحدث عن سواحل البحر الشرقي الكبير ، والطريق الملاحي إليها على أساس الخبرة الشخصية ، مع التزام الموضوع ، وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وغيرها مما عودنا الجغرافيون والمؤرخون العرب ؛ وإذا رأينا فيما بعد ابن خرداذبة وابن الفقيه والإصطخري وابن حوقل والمسعودي يتكلمون على أساس من المعرفة الشخصية لبعض المواضع التي يذكرونها ، فإنهم أيضاً ينقلون الكثير عن ذلك الأثر العربي الأول ، بلفظه ومعناه في بعض الأحيان ، وبما يكاد يكون لفظه ومعناه في البعض الآخر .

ذلك الأثر العربي هو مخطوط فريد لا عنوان له ، عثر عليه الأب رينودو Renaudot سنة ١٧١٨ في إحدى مكتبات باريس الخاصة ، التي انتقلت فيما بعد إلى دار الكتب الأهلية ، ونشر ترجمته بعنوان « أخبار فريضة من الهند والصين . أوردتها أثناء من الرحالة المسلمين سافرا إلى هناك في القرن التاسع الهجري » . ثم جاء المستشرق رينودو Reinaudot فنشر الأصل العربي والترجمة في سنة ١٨٤٥ ؛ وقد ظهر أن الأب رينودو أخطأ في وصفه المخطوط بأنه أخبار اثنين من الرحالة المسلمين ، إذ لم يكن هناك سوى رحلة واحد ، هو تاجر اسمه سليمان ، ألف شطراً من المخطوط ؛ أما صاحب الشطر الثاني واسمه أبو زيد حسن السيرافي ، فكان هاوياً جغرافياً يتسقط المعلومات عن الهند والصين من السنة التجارية والبحريين بسيراف ، وهو لا يدعي لنفسه السفر إلى تلك البلاد ، بل هو معترف صراحة بأنه جمع بعض المعارف وبوبها وضم فصولها إلى مذكرات التاجر سليمان ،

وكان قد مضى على كتابتها ستون عاماً .

ولما كانت مذكرات التاجر سليمان مستنداً هاماً جداً لفهم المعارف البحرية عند كتاب العربية في القرون الوسطى ، وكان الحصول على نسخ من طبعة رينو صعباً حتى في المكتبات العامة ، رأينا أن نورد هنا ما جاء بها خاصاً بالبحار مبتدئين بالصفحة الثالثة من المخطوط ، إذ يبدو أن الصفحات الأولى ، ومنها صفحة العنوان ، دخيلة عليه . وقد راعى Ferrand ، حين نشر ترجمة جديدة للكتاب في سنة ١٩٢١ ، أن يستعير من «سروج الذهب» فقرات يسد بها النقص . ولكننا نفضل هنا أن نبدأ بوصف البحر الثالث ، وهو أول ما جاء في المخطوط مما بقي من كلام سليمان ، تاركين وصف بحر فارس وبحر لازوى لقراء المسعودى :

”والبحر الثالث بحر هِرْكَند ، وبينه وبين بحر لازوى جزائر كثيرة يقال إنها ألف وتسعمائة جزيرة ، وهي فرق ما بين هذين البحرين . . . وهذه الجزائر تملكها امرأة ، ويقع فيها عنبر عظيم القدر . . . وهو ينبت في قعر البحر نباتاً ؛ فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره . . . والجزائر عامرة بنخل النارجيل ، وبعُدُّ ما بين الجزيرة والجزيرة فرسخان وثلاثة وأربعة ، وكلها عامرة بالناس والنارجيل ، وما لهم الودع ، والملكة تدخر الودع في خزائنها . . . والودع يأتيهم على وجه الماء وفيه روح فتؤخذ سعة من سعف النارجيل فتطرح على وجه الماء فيتعلق فيها الودع ، وهم يدعونه «الكَبْتَج» وآخر هذه الجزائر سرنديب في بحر هِرْكَند ، وهي رأس هذه الجزائر كلها وهم يدعونها الدِّيَبَجَات ، وبسرنديب منها مغاص اللؤلؤ ، وفي أرضها جبل

يدعى الرَّهُون وعليه هبط آدم عليه السلام ، وقدمه في صفا رأس هذا الجبل قدم واحدة وحول هذا الجبل معدن الجواهر الياقوت الأحمر والأصفر والاسمانجوني ؛ وفي هذه الجزيرة ملكان ، وهى جزيرة عظيمة ، فيها العود والذهب والجوهر ، وفي بحرها اللؤلؤ و « الشَّنْكَ » وهو البوق الذى ينفخ فيه مما يدخرونه .

” وفي هذا البحر إذا رُكِبَ إلى سرنديب جزائر ليست بالكثيرة غير أنها واسعة لا تُضَبَط ، منها جزيرة يقال لها « الرَّامْنِي » فيها عدة ملوك ، وسعتها يقال ثمانمائة أو تسعمائة فرسخ ، وفيها معادن الذهب ، ومعادن تدعى « فَنَصُور » يكون الكافور الجيد منها ، وفيها فيلة كثيرة ، وبها البقم والخيزران ، وقوم يأكلون الناس ، وهى تشرع على بحرين : هِرْكَنْد وشِلَاهِط .

” وتلى هذه الجزائر جزيرة يقال لها « النِّيَّان » لهم ذهب كثير ، وأكلهم النارجيل وبه يتأدمون ويدهنون ؛ وإذا أراد واحد منهم أن يتزوج ، لم يزوّج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم ، فإذا قتل اثنين زوّج اثنين ، وكذلك إن قتل خمسين زوّج خمسين امرأة بخمسين قففاً ؛ وسبب ذلك أن أعداءهم كثير ، فمن أقدم على القتل أكثر كانت رغبتهم فيه أوفر .

” وبعد هذا جزائر تدعى لَنَجَبَالُوس ، وفيها خلق كثير عراة ، الرجال منهم والنساء ، غير أن على عورة المرأة ورقاً من ورق الشجر ؛ فإذا صرت بهم المراكب جاءوا إليها بالقوارب الصغار والكبار ، وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد ؛ ولا يحتاجون إلى كسوة لأنه لا حر عندهم ولا برد . ومن وراء

هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال له أنذمان ، وأهلها يأكلون الناس أحياء ،
وهم سود مفلفلو الشعور مناكير الوجوه والأعين طوال الأرجل ، قدم أحدهم
مثل الذراع ، عراة ليس لهم قوارب ، ولو كانت لهم لأكلوا كل من مرّ
بهم ؛ وربما أبطأت المراكب في البحر وتأخر بهم السير بسبب الريح فينفذ
ما في المراكب من الماء فيقربون إلى هؤلاء فيستقون الماء ، وربما أصابوا
منهم ولكن أكثرهم يفلتون .

”وبعد هذه الجزيرة جبال ليست على الطريق يقال إن منها معادن
فضة وليست بمسكونة ، وليس كل مركب يريد لها يصيبها ، وإنما عليها جبل
منها يقال له الحشنامي مر به مركب فرأوا الجبل فقصدوا له ، فلما أصبحوا
وأوقدوا ناراً فانسكبت الفضة علوا أنه معدن فاحتملوا ما أرادوا ، فلما
ركبوا اشتد عليهم البحر فرموا بجميع ما أخذوا منه ؛ ثم تجهز الناس بعد
ذلك إلى هذا الجبل فلم يعرفوه . ومثل هذا في البحر كثير لا يحصى من
جزائر ممنوعة لا يعرفها البحريون ومنها ما لا يقدرّون عليه .

”وربما رؤي في هذا البحر سحاب أبيض يظل المراكب ينشرع منه
لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر فيغلي له ماء البحر مثل
الزوبعة ؛ فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتاعته ، ثم يرتفع ذلك السحاب
فيمطر مطراً فيه قذى البحر ، فلا أدرى أيستقي السحاب من البحر أم
كيف هذا .

”وكل بحر من هذه البحار تهيج فيه ريح تثيره وتهيجه حتى يغلي
كغليان القدور فيقذف ما فيه إلى الجزائر التي فيه ، ويكبير المراكب ، ويقذف

السماك الميت الكبار ، وربما قذف الصخور والجبال كما يقذف القوس السهم .
”وأما بحر هِرْ كَنْدَ فله ريح غير هذه ما بين المغرب إلى بنات نعش ،
فيفعل لها البحر كغليان القدور ويقذف العنبر الكثير ؛ وكما كان البحر
أغزر وأبعد قعراً كان العنبر أجود ؛ وهذا البحر ، أعنى هر كند ، إذا عظمت
أمواجه تراه مثل النار يتقد ؛ وفي هذا البحر سمك يدعى اللخَمُ ، وهو سبع
يبتلع الناس .

• [وقد يحدث أن يقل المتاع الذي يصل من الصين إلى البصرة وبغداد] . ”ومن
أسباب قلة المتاع حريق ربما وقع بِخَانْفُو وهو مرقى السفن ومجتمع تجارات
العرب وأهل الصين ، فيأتى الحريق على المتاع ؛ وذلك أن بيوتهم هناك من
خشب ومن قنأ مشقق ؛ ومن أسباب ذلك أن تنكسر المراكب الصادرة
والواردة ؛ أو ينهبوا أو يضطروا إلى المقام الطويل فيبيعوا المتاع في غير بلاد
العرب ؛ وربما رمت بهم الرياح إلى اليمن أو غيرها ، فيبيعون المتاع هناك ،
وربما أطلوا الإقامة لإصلاح مراكبهم وغير ذلك من العلل .

وذكر سليمان التاجر أن بخانفو ”رجلا مسلماً يوليه صاحب الصين
الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية ، يتوخى ملك الصين
ذلك ؛ وإذا كان في العيد صلى بالمسلمين ، وخطب ودعا لسلطان المسلمين ،
وأن التجار العراقيين لا ينكرون من ولايته شيئاً في أحكامه وعمله بالحق
وبما في كتاب الله عز وجل وأحكام الإسلام .

”فأما المواضع التي يردونها ويرقون إليها فذكروا أن أكثر السفن
الصينية تَحْمِلُ من سِيرَاف ، وأن المتاع يُحْمَلُ من البصرة وعمان وغيرها إلى

سيراف ، فيُعَبِّي في السفن الصينية بسيراف ، وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر وقلة الماء في مواضع منه ، والمسافة بين البصرة وسيراف مائة وعشرون فرسخاً ؛ فإذا عُيِيَ المتاع بسيراف استعذبوا منها الماء وخطفوا — وهذه لفظة يستعملها أهل البحر أعني أقلعوا — إلى موضع يقال له مسقط ، وهو آخر عمل عمان ، والمسافة من سيراف إليه نحو مائتي فرسخ ؛ وفي شرق هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف بنى الصَّفَاق ، وجزيرة ابن كاوان ؛ وفي هذا البحر جبال عمان ؛ وفيها الموضع الذي يسمى الدُّرْدُور ، وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية ؛ وفيها الجبلان اللذان يقال لهما « كَسِيرٌ وَعُوَيْرٌ » ، وليس يظهر منهما فوق الماء إلا اليسير .

”فإذا جاوزنا الجبال صرنا إلى موضع يقال له صُحَّار عمان ، فنستعذب الماء من مسقط من بئر بها ، وهناك فيه غنم من بلاد عمان ، فتخطف المراكب منها إلى بلاد الهند ، وتقصد إلى كُوَلَمَ مَلَى ، والمسافة من مسقط إلى كُوَلَمَ مَلَى شهر على اعتدال الرياح ، وفي كُوَلَمَ مَلَى مسلحة لحماية الميناء والبلاد التي تحت حكمها ، ومنها تؤدي السفن ما يفرض عليها ، فيؤخذ من السفن الصينية ألف درهم ، ومن غيرها من السفن الأصغر ما بين عشرة دنانير إلى دينار... وبها يستعذبون الماء من آبار .

”ثم تخطف المراكب — أي تطلع — إلى بحر هِرْ كَنْد ، وبين كُوَلَمَ مَلَى وبين هِرْ كَنْد نحو من شهر ، فإذا جاوزوا بحر هِرْ كَنْد صاروا إلى موضع يقال له لَنْج بَالُوس ، لا يفهمون لغة العرب ولا ما يعرفه التجار من اللغات ،

وهم قوم بيض كواسج ، لا يلبسون الثياب ؛ وذكروا أنهم لم يروا منهم النساء ، وذلك أن رجالهم يخرجون إليهم من الجزيرة في زواريق متقورة من خشبة واحدة ، ومعهم النارجيل وقصب السكر والموز وشراب النارجيل ، وهو شراب أبيض ، فإذا شرب ساعة يؤخذ من النارجيل فهو حلو مثل العسل ، فإذا ترك ساعة صار شراباً ، وإذا بقي أياماً صار خلا ؛ فيبيعون ذلك بالحديد ، وربما وقع إليهم العنبر اليسير فيبيعونه بقطع الحديد ؛ وإنما يتبايعون بالإشارة يداً بيد ، إذ كانوا لا يفهمون اللغة ؛ وهم حذاق في السباحة ، وربما استلبوا من التجار الحديد ولا يعطونهم شيئاً .

”ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كَلَّاهَ بَار ، المملكة والساحل يقال له بار ، وهي من مملكة الزَّابَج ، متيامنة عن بلاد الهند ، يحكمها والزابج ملك ، ولباسهم القوط ، يلبس السَّرِيّ والدُّنِّيّ منهم القوطة الواحدة ، ويستعذبون هناك الماء من آبار عذبة ، وهم يؤثرون ماء الآبار على مياه العيون والمطر ؛ والمسافة ما بين هِرْكَند وكَلَّاهَ بَار شهر .

”ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له تِيُومَة ، وبها ماء عذب لمن أرادته والمسافة إليها عشرة أيام .

”ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كُنْدَرَنْج ، المسافة إليه عشرة أيام ، وفيه ماء عذب لمن أرادته ، وكذلك جزائر الهند إذا احتفرت فيها الآبار وجد بها الماء العذب .

”ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له صَنْف مسيرة عشرة أيام ، وبها ماء عذب ، ومنه يؤتى بالعود الصنفي ، وبها ملك ؛ وهم قوم سمر يلبس كل

واحد منهم فوطتين . فإذا استعذبوا منها خطفوا إلى موضع يقال له صُنْدُرُفُولَات وهي جزيرة في البحر ، والمسافة إليها عشرة أيام ، وفيها ماء عذب ؛ ثم تخطف المراكب إلى بحر يقال له صَنْخَى ، ثم إلى أبواب الصين ، وهي جبال في البحر بين كل جبلين فرجة تمر فيها المراكب ؛ فإذا سَلَّمَ الله من صُنْدُرُفُولَات خطفت المراكب إلى الصين في شهر ، إلا أن الجبال التي تمر بها مسيرة سبعة أيام ؛ فإذا جازت السفينة الأبواب ودخلت الخَوَر ، صارت في ماء عذب إلى الموضع الذي ترسى إليه من بلاد الصين وهو يسمى مدينة خَانْفُو ؛ وسائر الصين فيها الماء العذب من أنهار عذبة وأودية على شواطئها مسالح وأسواق ؛ وفيها مد وجزر مرتين في اليوم والليلة ؛ إلا أن المد يكون فيما يلي البصرة إلى جزيرة بنى كاوان إذا توسط القمر السماء ، ويكون الجزر عند طلوع القمر وعند مغيبه ؛ أما فيما بين الصين وجزيرة بنى كاوان فالمد يكون إذا طلع القمر ، فإذا توسط السماء جزر الماء ، فإذا غاب كان المد ، فإذا كان في مقابلة وسط السماء جزر .

”وذكروا أن جزيرة يقال لها مَلْحَان فيما بين سرنديب وكلّه ، وذلك من بلاد الهند في شرق البحر ، بها قوم من السودان عراة إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علقوه منكساً ، وقطعوه وأكلوه نيأ ؛ وعدد هؤلاء كثير ، وهم في جزيرة واحدة وليس لهم ملك ، وغذاؤهم السمك والبوز والنارجيل ، وقصب السكر عندهم شبيه بالفياض والآجام .

”وذكروا أن في ناحية البحر سمكا صغيراً طياراً يطير على وجه الماء يسمى جراد الماء ؛ وذكروا أن بناحية البحر سمكا يخرج حتى يصعد على

النارجيل فيشرب ما في النارجيل من الماء ثم يعود إلى البحر ؛ وذكروا أن في البحر حيواناً يشبه السرطان فإذا خرج من البحر صار حجراً ، قال ويتخذ منه كل لبعض علل العين .

” وذكروا أن بقرب الزَّابَج جبلا يسمى جبل النار ، لا يُقَدَّر على الدنو منه ، يظهر منه بالنهار دخان وبالليل لمب نار . ويخرج من أسفله عين باردة عذبة ، وعين حارة عذبة “ .

هذه بعض مذكرات التاجر سليمان عن البحر الشرقي الكبير والسفر فيه ؛ وكانت الرحلة تستغرق ذهاباً من الخليج الفارسي حتى بلاد العين نحو خمسة أشهر . وقد دون سليمان عدا هذا أخبار بلاد الهند والصين ، يتحدث فيها عن عادات أهلها وملوكهم ، وطبائعهم ومعاملاتهم حديث العارف الخبير ، كما ثبت للمستشرقين الصينولوجيين ، مما جعل لمذكرات سليمان مقاماً كبيراً عند جميع المشتغين بتاريخ الحضارة الصينية .

وأضاف عليها أبو زيد حسن السيرافي معارفه التي جمعها بالسماع ، بعد أن أيد أغلب ما ذكره سلفه ؛ وحكى حكايات ورد بعضها في « مروج الذهب » لأبي الحسن المسعودي ، مما رجح عند رينو الظن بأن أبا زيد التقى بأبي الحسن وتبادلا معارفهما ؛ ومن أهم ما اشتركا في سرده حكاية رجل من قريش يعرف بابن وهب من ولد هُبَار بن الأسود خرج من البصرة عند ما خربها الزنج فوقع إلى سيراف ، وسافر منها يريد بلاد الصين ؛ ثم نزلت به همته إلى قصد ملك الصين الأكبر ، وهو الملقب بالبغبور [بَغ = ساء ، بور = ابن] فسار إلى حاضرتِه خُمدَان ، وهي على مقدار شهرين من خانقو ،

وسعى إلى مقابلته ، حتى عرف البغبور بأنه من أهل بيت نبوة العرب ، فاستقبله وسأله كيف أزال العرب ملك العجم ، فقال له بالله جل ذكره ، وبما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس والقمر من دون الله ؛ وجرى بينهما حديث طويل عن ملوك العالم ، انتهى بأن أمر الملك بسفط وضع بين يديه ، فتناول منه درجاً وقال للترجمان أره صاحبه ؛ فرأى ابن وهب صور الأنبياء فحرك شفثيه بالصلاة عليهم ؛ فسأله البغبور كيف عرفهم ، قال بما صور من أمرهم ، هذا نوح في السفينة ينجو بمن معه لما أمر الله جل ذكره الماء فغمر الأرض كلها بمن فيها وسلمه ومن معه ؛ فضحك ابن السماء وقال : أما نوح فقد صدقت في تسميته ، وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه ، وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل إلى أرضنا ولا أرض الهند قال ابن وهب القرشي : فتهيب الرد عليه وإقامة الحجة . ثم أشار إلى صورة في الدرج قائلا : هذا موسى وعصاه وبنو إسرائيل ، فأجاب الملك : نعم ، على قلة البلد الذي كان به ، وفساد قومه عليه . قال ابن وهب : وهذا عيسى على حمار والحواريون معه . وجعل يعدد من أمر الأنبياء ما اكتفى السيرافي بذكر بعضه . ” وزعم ابن وهب أنه رأى فوق كل صورة لنبي كتابة طويلة قدر أن فيها ذكر أسماء ومواقع بلدانهم وأسباب نبواتهم ؛ ثم قال رأيت صورة النبي صلى الله عليه وسلم على جمل وأصحابه محدقون به على إبلهم في أرجلهم نعال عربية ، وفي أوساطهم مساويك مشدودة ، فبكيت فقال للترجمان : سل عن مكانه ، فقلت هذا نبينا وسيدنا وابن عمي عليه السلام ، فقال : صدقت . لقد ملك هو وقومه أجمل الممالك إلا أنه لم يعاين

ما ملك ، وإنما عاينه من بعده . . . ثم سألتني عن الخلفاء وزبيهم وكثير من الشرائع ووجوهها على قدر ما أعلم منها ؛ ثم قال : كم عمر الدنيا عندكم ؟ فقلت : قد اختلف فيه ، فبعض يقول ستة آلاف سنة ، وبعض يقول حونها وبعض يقول أكثر منها إلا أنه يسير . فضحك ضحكا كثيرا دل على إنكاره ذلك وقال : ما أحسب نبيكم قال هذا . فزالت وقلت : بلى هو قال ذلك . فرأيت الإنكار في وجهه ، ثم قال للترجمان : قل له ميز كلامك ، فإن الملوك لا تُكَلِّم إلا عن تحصيل ، أما ما زعمت أنكم تختلفون في ذلك ، فإنكم إنما اختلفتم في قول نبيكم ، وما قالته الأنبياء لا يجب أن يختلف فيه ، بل هو مُسَلَّم به ، فاحذر هذا وشبهه أن تحكيه .

ولقد حكى أبو زيد حسن كيف تغير أمر الصين عقب رحلات سليمان ، وكيف حدثت فيها ثورة انقطع بسببها الجهاز إلى الصين من سيرا ف : كما حكى حكاية حرب بين المَهْرَاج ملك الزَّابِج وبين ملك قِمَار ، انتصر فيها المَهْرَاج فترامت شهرته وخافته الملوك .

ولم يكتف أبو زيد بهذه الحكايات ، بل أورد كثيرا من أخبار الهند والزَّابِج وقِمَار والصين ؛ ثم تكلم عن بلاد الشَّحْر واليمن وبحر القلزم وجزيرة سُقَطْرَى وبر الزنج ؛ وحدث بأمر المسك ونواجفه ، والعنبر ودابته ، واللؤلؤ وأصدافه .

ولنا عودة إلى رحلة التاجر سليمان ومذكرات أبي زيد حسن السيرا في مواضع عديدة من هذا الكتاب .

كتب العجائب

لا يمتاز مخطوط التاجر سليمان الموجود بالمكتبة الأهلية في باريس بأنه النسخة الوحيدة المعروفة في العالم من مذكرات ذلك الرحالة فحسب ، بل بأنه تقرير شخصي لرجل عبر البحر الشرقي أكثر من مرة إلى الصين إبان القرن التاسع . فإذا استثنينا رحلة أبي دُلفٍ مستعر بن مُهلُول من بُخَارَى إلى الصين في القرن العاشر ، وزيارته لبعض موانئ الهند والملايا والهند الصينية ، كان علينا أن ننتظر حتى القرن الرابع عشر مستنداً قائماً على الخبرة الشخصية بالبلاد المصاوبة للبحر الشرقي الكبير ، وهو كتاب « عجائب الأرض » لعبد الله اللواتي الطنجي ، المعروف بابن بطوطة ، هذا إذا صدقنا أن رحلة طنجة سافر إلى ما وراء الكُنك وذهب إلى الصين ، وهو جزء من رحلته ما زال يثير شكوك بعض الباحثين .

فلم يتعد البيروني في رحلته بلاد الهند ، ولا يبدو أن المسعودي وصل إلى بلاد الشرق الأقصى ، وكان ابن خُرداذبة صاحب البريد في عصر الخليفة المعتمد ، فكنت له وظيفته من جمع معارف الرحالين والتجار ؛ وبقية من ترجع إليهم ممن كتبوا في المسالك والممالك ، والبرد ، وتقويم البلدان ، كانوا في أحسن أحوالهم شبيهين بابن خرداذبة وأبي زيد حسن السيرافي ، أي أنهم جمعوا معارفهم من أخبار الرحالين ، وفي أسوأ أحوالهم ناقلين عن كتب غيرهم دون ذكر من نقلوا عنهم .

ولكننا لن نتعرض لحاسبة الجغرافيين العرب على أنواع السطو الذي

ارتكبه توسلا لملء صفحات مخطوطاتهم ، فليس هذا من اختصاصنا ، ولا هو مما يتداخل في موضوعنا . إنما نغنى بإبراز الصور التي تخرج من كل تلك الكتب عن البحر الشرقى لأنها تساعد على دراسة الجغرافيا البحرية العربية في القرون الوسطى ، من ناحية ، وعلى فهم القصة البحرية العربية من ناحية أخرى .

فإذا كان لا يعنيننا أن نميز بين الناقل والمنقول عنه ، ما دام غرضنا المادة المنقولة في ذاتها ، فإننا أيضاً لا نملك أن نقتصر على أنواع معينة من كتب الرحلات أو وصف البلدان ؛ بل نحن ملزمون بالرجوع إلى كل الأنواع ، ومنها تلك الكتب التي لاقت رواجاً كبيراً بين قراء العربية منذ أزهى عصور الدولة الإسلامية ، وهي التي عرفت بكتب العجائب ؛ وقد أحصى حاجي خليفة ما عرفه منها في « كشف الظنور » المؤلف في القرن السابع عشر ، فكان عددها أربعة وعشرين كتاباً ذكرت عنواناتها في مادة « العجائب » .

كتب العجائب في أحسن أنواعها لا تعدو أن تكون كتباً وصفية للبلدان وأهلها ومسالكها ، وحيوانها ونباتها وتربتها ؛ هي كتب تعالج موضوعات الجغرافيا والتاريخ الطبيعي ، مما لا يخرجها عن مجموعة كتب الجغرافيا الوصفية العربية التي ألفها ابن خرداذبة وقدامة وابن حوقل والإصطخرى وابن رسته وابن الفقيه ، ولكنها تحمل طابع الكتب التي ألفت لجمهرة القراء ، يغلب عليها في أسوأ أنواعها التهريف والخرافة ، على الرغم من أن مؤلفيها لم يقصدوا بها إلى مجرد جمع الخرافات ، بل إلى التحدث بغرائب الموجودات ، تبعاً لطريقة كل منهم في النظر إلى هذه الغرائب ، وفهمها ، ومقدار ما له من العلم بها ،

أو من العلم على الإطلاق . وكما كان المؤلف قليل الحظ من العلم ، كانت طريقته في إيراد ما يروى طريقة ذاتية ، إذ هو لا يجد من معارفه القليلة ما يعينه على النظر إلى ما يروى نظرة موضوعية ، ولا يملك ما يؤهله لفهم ظاهرة حية أو غير حية فهماً يسمح له بوصفها وصفاً مجرداً . وقد يضاف إلى هذا أنه وهو يكتب للعامة متأثر بما يتوقع من أن يثيرة فيهم من عجب ، مما يبعد بينه وبين توخي الواقع أو توقي المغالاة . فإذا كان المحدث بالعجائب يروى عن غيره ممن شاهد بعض تلك العجائب ، أو سمع بها ، أو قرأ عنها في مؤلفات ليست في ذاتها إلا صورة من روايات منقولة ، كان ذلك المحدث أكثر استعداداً للمغالاة ، وأقرب للتخريف ، وقد غابت الوقائع الأصلية عنه وعن نقل منهم ، فلم تصل إليه إلا مشوهة تشويهاً بالغاً عبر الألسن والأسماع والمخطوطات المغلوبة ، والأوصاف التي عبث بها العابثون جهلاً ، أو رغبة في التشويق والإمتاع .

أى أن هنالك تدرجاً وتفاوتاً كبيراً بين كتب العجائب يجعل من بعضها ما يصح أن يوضع في مصاف الكتب ذات الصبغة العلمية ، والنظرة الأقرب إلى الموضوعية ؛ ومن البعض الآخر ما يقربها من أراجيف العوام . ولكن ليس معنى هذا أن هذه الأخيرة صفر من الحقائق العلمية ، أو أن الأولى خلو من التخريف ؛ فالكتب ذات الصبغة العلمية لم تتجرد عن العيوب الملازمة لكتب العجائب ، لأن الحقائق الموضوعية ، والمقاييس العلمية لم تكن في القرون الوسطى من الدقة والسلامة والوضوح كما نعرفها منذ عهد النهضة والإحياء . وفي مؤلفات الجغرافيا العربية للخاصة ، أمثال كتب ابن خرداداذبة

وابن الفقيه وابن رُستنة وابن حوقل والمسعودي والإصطخري والإدريسي « عجائب » لا تقل غرابة عما أورده ابن الوردي في « فريدة العجائب » أو إبراهيم بن وصيف شاه في « مختصر العجائب » ؛ بينما نجد في بعض كتب العجائب ، كموسوعة القزويني المسماة « عجائب المخلوقات » وكتاب الدمشقي « نخب الذهب في عجائب البر والبحر » من المعارف الإيجابية ، والأوصاف الموضوعية ما يرفعها إلى أعلى مراتب المؤلفات العلمية في المكتبة العربية .

ويلاحظ أن المزج بين الحقائق الثابتة ، والنظريات المغلوطة ، وأراجيف الناس لم يكن قاصراً على الكتب العربية وحدها ، وإنما كان صفة غالبية على جميع مؤلفات العهود السابقة لعصور النهضة العلمية الحديثة ، سواء فيها ما كتب بالسنسكريتية أو البهلوية أو الفارسية من لغات الشرق ، أو باليونانية واللاتينية من لغات الغرب . وقد ذكرنا هذه اللغات على التخصيص لأن الكتب التي كتبت بها كانت مرجع العرب في نهضتهم العلمية ، فهي مسؤولة عن كثير من المعارف الثمينة الواردة بالكتب العربية في القرون الوسطى ، كما تتحمل تبعه الكثير من التخريف ؛ ولا يمكن أن يعرف قارى حديث لكتاب القزويني قيمته العلمية في زمنه إلا إذا اطلع على كتاب بلينيوس الكبير في التاريخ الطبيعي *Historia naturæ* ورأى كيف كان الخلط بين الوقائع والأوهام لا محيد عنه في المؤلفات العلمية التي بقيت لنا من العصور القديمة والقرون الوسطى ؛ ولا عبرة بمضى قرون على كتب أرسطاطاليس و بلينيوس حين كتب أمثال القزويني والدمشقي كتبهم ، ما دامت وسائل الفحص العلمي المباشر ، وتحري حقائق الكائنات والتثبت منها لم تتجه في مسالكها الصحيحة

إلا بعد أن وضع أساساتها أمثال روجر يكون في القرن الثالث عشر، وفرنسيس
بيكون وديكارت في القرن السابع عشر .

فإذا حاولنا أن نميز بين من وصف البلدان من العرب ، وجدنا في ناحية
فريقاً جمع معارف غيره من معاصرين وقدماء ، وطالع وفحص الخرائط والدوائر
كالإدريسي وأبي الفداء والبيروني ؛ أو تنقل في البلاد ووصف ما رأى
وعرف من أمثال التاجر سليمان ، وأبي دلف مستقر بن مهمل والبيروني
أيضاً ، وابن بطوطة وابن جبير ؛ أو عني بحكم مقره أو وظيفته بتدوين ما سمعه
من الرحالين والتجار وما تحويه أضياع ديوانه من معارف ، أمثال ابن
خرّ داذبة صاحب بريد المعتمد على الله ، والجيهاني وزير نصر بن أحمد صاحب
خراسان ، وأبي زيد حسن السيرافي ؛ أو رجلاً سافر في بعض الأصقاع
ولكنه لم يكتف بمشاهداته الشخصية ، بل راح يضيف إليها ما طالعه في
كتب غيره ، أو سمعه في حله وترحاله من أفواه السفار وهواة المعارف الجغرافية
ومن هؤلاء البيروني مرة أخرى وأبو الحسن السعدي مؤلف « مروج الذهب »
وياقوت الحموي صاحب « معجم البلدان » .

ووجدنا في الناحية الأخرى فريقاً عني بجمع « العجائب » ونظر إلى
الكون كمجموعة من الغرائب والخوارق ؛ أو عالماً طبيعياً مولماً بالجغرافيا
أغراه نجاح كتب العجائب بتأليف الكتب في عجائب المخلوقات أو عجائب
البر والبحر .

ومع أن « عجائب المخلوقات » للقزويني ، و « نخبه الدهر في عجائب
البر والبحر » لدمشقي من مؤلفات هذا الفريق الأخير ، فإنها في مرتبة قريبة

من مرتبة بعض مؤلفات الفريق الأول من حيث القيمة العلمية ، برغم زيادة « كم » العجائب فيها نسبيا عما بتلك المؤلفات . فكتاب الدمشقي في أسلوبه وترتيبه من أحسن مؤلفات الجغرافيا الإنسانية ، والتاريخ الطبيعى فى المكتبة العربية . وكتاب القزوينى موسوعة عربية هامة فى التاريخ الطبيعى تذكرنا من بعيد بموسوعة بلينيوس اللاتينية ؛ هذا إلى أن كتاب القزوينى الثانى « آثار البحار » معجم جغرافى يتبع مؤلفات الفريق الأول مباشرة . أما « فخرية العجائب » لابن الوردى و « مختصر العجائب » لابن وصيف شاه وأمثالهما فهى مؤلفات شعبية يغلب أن تكون كتابتها إرضاء لشغف العوام بهذا النوع من الكتب .

وبين يدى تعريفان للعجائب . أولهما للقزوينى فى صدر « عجائب المخلوقات » وثانيهما للبارون كارادى فى Carra de Vaux فى مقدمة ترجمته الفرنسية لكتاب « مختصر العجائب » .

قال القزوينى فى شرح العجب : ” قالوا العجب حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء ، أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه ؛ مثله أن الإنسان إذا رأى خلية النحل ولم يكن شاهد النحل من قبل تحير لعدم معرفته فاعلمها ؛ فلو علم أنها من عمل النحل لتحير أيضاً من حيث إن ذلك الحيوان الضعيف كيف أحدث هذه المسدسات المتساوية الأضلاع التى يعجز عن مثلها المهندسون الحاذقون مع الفرجار والمسطرة ، ومن أين لها هذا الشمع الذى اتخذت منه بيوتها المتساوية التى لا تخالف بعضها بعضاً كأنها أفرغت فى قالب واحد . ومن أين لها هذا العسل الذى أودعته فيها ذخيرة للشتاء ، وكيف عرفت أن الشتاء

يأتيها ، وأنها تفقد فيه الغذاء ، وكيف اهتدت إلى تغطية خزانة العسل بنشاء رقيق ليكون الشمع محيطاً بالعسل من جميع جوانبه فلا ينشفه الهواء ولا يصيبه الفأر كالبئرنية المنضمة الرأس ؛ فهذا معنى العجب . وكل ما في العالم بهذه المثابة إلا أن الإنسان يدركه العجب في زمن صباه حين يكون فاقداً للتجربة ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً وهو مستغرق الهم في قضاء حوائجه وتحصيل شهواته ، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته فسقط العجب عن نظره بطول الأنس بها ؛ فإذا رأى بغلة حيواناً غريباً ، أو فعلاً خارقاً للعادات ، انطلق لسانه بالتسبيح ، وهو مع هذا يرى طول عمره أشياء تتحير منها عقول العقلاء ، وتدهش فيها نفوس الأذكياء ، فمن أراد صحة أو صدق هذا القول فلينظر بعين البصيرة ... إلى البحار العميقة ... ثم إلى ما فيها من الحيوان والجوهر ... ثم لينظر إلى خلق اللؤلؤ في صدفة تحت الماء ، ثم إلى إنبات المرجان في صميم الصخر تحت الماء ... ثم إلى السفن كيف سیرت في البحار .. وإلى إيجاد الأنهار ومعرفة النواتي موارد الرياح ومهابها ...

فهذا التعريف للعجب منطبق على ذلك الفريق من كتب العجائب التي وضعناه في مرتبة الكتب العلمية ؛ ومن السهل أن نخرج منه بنتيجة تفسر لنا كثيراً من عيوب كتاب القزويني ، تلك هي سهولة تصديق الرجل لأغلب الخرافات والأساطير التي ترامت إليه ، فقد يكفيه أن يذكر " إدراكه العجب في زمن صباه حين كان فاقداً للتجربة " ليتقبل الخرافة على أنها حقيقة لم يدركها بعد بالتجربة . على أن القزويني لم يكتف في مقدماته بتعريف العجب ، بل هو قد تعدى هذا إلى « معنى الغريب » وهو كما قال : " كل

أمر عجيب قليل الوقوع يخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة ، وذلك إما من تأثير نفوس قوية ، أو أمور فلكية ، أو أجرام عنصرية “ . وبذلك فتح الرجل أبواب ذهنه للعجائب والغرائب ، وقد طارت عنها مزاليجها وروابطها العلمية التي كانت تبدو وثيقة في أول الأمر .

وتعريف كارأدي فو يمتاز عن تعاريف القزويني بأنه يشملها ، وينطبق على كتب العجائب عامة سواء منها ما يعتبر من كتب الخاصة أو من المؤلفات التي هبطت إلى مستوى العامة . قال : ” العجائب آثار ووقائع ومخلوقات ترد في كتب الجغرافيا والتاريخ وما إليها مما انحدر إلينا من تلك العصور ، ليس ثمت ما ثبت حقيقتها ، ولا ما يقطع ببطلانها . أبرز صفاتها صعوبة إثباتها “ !! وليس مؤلف كتب العجائب شاعراً خيالياً ، إنما هو عالم قبل كل شيء ، جمع معارفه بالاطلاع والسمع ، فهو يسجل ولا يخترع ، ينبغى في الحكم على كتاباته أن نكون صورة للعالم كما كان يبدو له ، باعتبار معارفه وحسن تقديره ، ونفاذ بصيرته وسداد رأيه ؛ ومن اليسور أن نلاحظ حينئذ كيف يخونه التقدير ويشط به الرأي وتغطي الغشاوة بصيرته ، وتتضاءل معارفه الإيجابية كلما تباعد بمحدثه عن دائرة محسوساته وتجاريبه الشخصية ، أو محسوسات معاصريه وأسلافه وتجاريبهم ، إلى أطراف الرُّبُع المعمور من الأرض ، أى ذلك الجزء من العالم الذى عرفه العرب أو عرفوا به عن اليونان ، وهو يضم بعض آسيا إلى شرق الصين ، وأوروبا الوسطى إلى المحيط الأطلسي . وإفريقيا الشمالية ، وأرض السودان والصحراء الإفريقية الكبرى غرباً إلى بحر الظلمات ، وجنوباً حتى سفالة الزنج [إفريقيا الشرقية البرتغالية حالا] . فإلى الشمال من الرُّبُع المعمور

أرضون مجهولة يسكنها قوم لم يرم إنسان ، قد يكونون من قبائل ياجوج وماجوج الذين سافر سلام الترجمان بأمر الخليفة الواصل لكشف أخبارهم وما فعلوا بسد ذى القرنين ، وقد لا يكونون ، إذ أن رسول الواصل شاهد السد عبر جبال القوقاز ؛ وإلى الشمال الغربى جزيرة تُولِيَسَة [أيسلندة ؟] آخر العمار من تلك الناحية ، ولا عمارة بعدها .

وفى شرقى المعمور البحر الزفتى لا يعرف أحد نهايته من تلك الناحية ؛ وإلى الغرب بحر الظلمات لا ينتهى إلى غاية تدرك ؛ وفى جنوبى بلاد السودان دهانس وعرة ” لا يعلم ما فيها من نبات أو حيوان ، إلا أنه قد نعلم اضطراباً أنه غير ممكن أن يكون فى المطالع التى يفرط حرها أو بردها حيوان أو نبات “ ويذهب البحر الشرقى جنوباً إلى غير نهاية معروفة ، فإذا تاهت المراكب فيه جنوباً إلى ما تحت سهيل ذهبت إلى عالم الغيب .

وفى عصور انحلال الحضارة العربية اختفت الصورة العلمية للأرض وكرويتها وبحارها كما نقلها علماء الجغرافيا المسلمون عن جغرافى اليونان وصححوا منها وزادوا عليها ، واحتلت مكانها أخلاط من الأساطير الهندية والفارسية والإسرائيلية والخرافات الكلدانية والصابئية حتى دارت العلوم دورتها ، وعادت إلينا من الغرب تمحو تلك الأراجيف وتصل بيننا وبين العلماء المسلمين فى العصر الذهبى للحضارة الإسلامية .

وسواء كان الكاتب العربى عالماً جغرافياً ، أو هاوياً للعجائب ، فإنه كلما عالج وصف أطراف الربع المعمور ، شط به الخيال نخلق من الشعوب آدميين وأنصافاً وأرباعاً من الآدميين أو من هم بالوحوش أشبه ، كلامهم صغير ،

وشعورهم زغب أحمر ، يتسلقون الأشجار بأذرعهم الطويلة دون سيقانهم ،
أو هم ينبتون كالثمار فوق الشجر معلقين بشعورهم ، يتصايحون « واق واق » .
وجزائر البحار ، والواحات النائية ، والدهاس الوعرة هي مباءات
العجائب الكبرى من ناس لها رؤوس السباع أو الكلاب ، أو نسناس خلق
ذا شق واحد ، كأنه نصف آدمى بالطول أو بالعرض . ومن القطرب والغيلان
والسرادع والسعالى ؛ بها قبر سليمان ، وعرش إبليس ، ومنفى الجن ، ومرتقب
الدجال ، وبئر برهوت .

خير ما يمكن أن نعرف به وصف العالم خارج الربع المعمور في كتب
العجائب الشعبية أنه « جغرافيا الرعب والفرع من المجهول » .

عجائب الهند

قدم فون دير ليت van der Lith في سنة ١٨٨٦ إلى مؤتمر الب قير السادس بمدينة ليدن كتاباً عربياً مطبوعاً طبعاً جميلاً في مطبعة مدينة الاستشراق العتيدة، عنوانه «عجائب الهند، بره وبحره وجزائره» لمؤلف اسمه بزرك بن شهر يار الناخذاه، أي الربان . [ناو = سفينة . خُدااه = رب ، سيد] . وقد نشره فون دير ليت عن مخطوط بمكتبة أيا صوفيا باستانبول يعد أقدم مخطوط معروف للكتاب ، ونشر إلى جانب النص العربي ترجمة فرنسية له قام بها مارسيل ديشيك Devic . وصدر له بمقدمة وذيله بشروح وبحوث جغرافية ؛ وقد رأن بزرك هذا ألف كتابه فيما بين سنة ٩٠٠ وسنة ٩٥٠ م ، معتمداً في هذا التقدير على التواريخ التي أوردها صاحب الكتاب تحديداً للزمن الذي حدثت فيه بعض وقائعه ، ثم على قرائن استدلالية من نصوص الكتاب ، وبعض ألفاظه وحوادثه .

وعارض بعض المستشرقين في تاريخ تأليف الكتاب ، كما اختلفوا في قراءة تاريخ المخطوط ذاته ، فقرأه بعضهم سنة ٤٠٤ هجرية ، والبعض الآخر ٧٠٤ هـ . والعلامة دي خوى de Goeje ٦٤٤ هـ وأيده في هذا كازا باتشيك وأخيراً قرأه هوتسما ٩٠٤ هـ . وطعن شومان في هذا التاريخ بالتزوير ، قائلاً بأن الكتاب لم يوضع قبل القرن الرابع عشر الميلادي ، فالمؤلف كذب حين تحدث عن أمور وقعت في القرن الرابع الهجري كأنها معاصرة له . ويميل فرّان Ferrand إلى الاعتقاد بأن بزرك الناخذاه هو المؤلف الأصلي لكتاب

أضاف عليه شخص أو أشخاص آخرون حكايات بحرية أخرى ، وبذلك
يمتد وضع الكتاب على مدى القرن العاشر الميلادي كله .

وسواء أصاب فون دير ليت في تحديد تاريخ تأليف الكتاب ، وتاريخ
نسخ المخطوط ، أو أصاب معارضوه ، وأقلمهم وأضعفهم في رأيي هو شومان الذي
أعتبر حجاجه وجدله في التدليل على زيف الكتاب صورة مثلى لما يسميه
الإنجليز « شطر الشعرة » فإنه فيما يختص بموضوعنا واحد من كتب العجائب
المؤلفة فيما بين القرن العاشر والرابع عشر ، جمع فيه مؤلفه أو مؤلفوه
حكايات البحريين والسفار إلى بلاد الهند والزيابج والصنف والصين ؛ فهو
صورة من الحياة على ظهر البحر الشرقي وفوق شواطئه وجزائره تساعدنا على
فهم كثير مما ورد في كتب الجغرافيا العربية ، كما نجد فيها أكبر المعونة على
شرح القصص البحرية وتحليلها في الأدب العربي ؛ وإذا صدقنا بعض روايات
صاحب الكتاب فإننا نجد فيها سجلاً قيماً جداً لما كانت تتناقله الألسنة
والأسماع في موانئ سيراف ورامهرمز عن ربانة بحر الهند والصين .

والكتاب خليط من التهريف والصدق ، والوصف البليغ والمبالغة
و « الفشار » ، تترادف حكاياته في شيء من التنظيم أحياناً وفي غير تنسيق
أحياناً أخرى ، وهو على أي حال مثال قائم بنفسه لكتب العجائب .

وأسلوب الكتاب سهل دارج ، تغلب عليه الركاكة ؛ وقد يكون هذا
لأن مؤلفه أجنبي عن اللغة العربية ، أو أنه وضعه باللغة الفارسية ، وعربه
رجل من العوام . وربما صعب على قارئ يهتم من الأشياء بجدها ، ومن
اللغة برصاتها أن يواصل قراءته لما قد يرى فيه من تواتر المبالغات ما يضيق

به صدره ، ومن أسلوب عطل من البلاغة العربية التقليدية .
ولكن المطالع النصف ، المتحرر من قيود هذه البلاغة ، لا يتألك أن
يحس بالنفحة البحرية تهب على صفحاته ، والقوة والحركة تسرى في أعطافه ؛
لقد طالعت أكثر ما جاء بالأدب العربي الرسمي عن البحار فلم أجد فيه
ما يداني ولو من بعد بعيد ما جاء بكتاب « عجائب الهند » صدقاً في الوصف
وقوة على الإيحاء بالجو البحري ؛ وليس هذا أثراً من آثار التفرع البدعي
والبياني ، إنما هو نتيجة إيضاح المتكلم إيضاحاً مباشراً عن تجارب شخصية ؛
فهي بلاغة كثيرة الشبه ببلاغة المشاهدة في يوميات الرحالين والرواد في كل
اللغات ، بلاغة ترتفع باللغة إلى نوع من السهولة والصفاء يجعل من عريها
جمالاً ، ومن عطلها حلياً نادراً لا تراه العيون وإنما تشعر به النفوس .

اسمع لبزرك بن شهر يار الرامهرمزي وهو يصف البحر العجاج
المتلاطم الأمواج :

”وحدثني أبو الزهر البرختي الناخدا ، وكان من عطاء سيراف ، وكان
مجنوسياً على دين الهند ، وكان عندهم أمينا يقبلون قوله ويستودعونهم أموالهم
وأولادهم فأسلم وحسن إسلامه وحج بمخاطبته امرأة من جزيرة النساء .
وذلك أنه سافر رجل في مركب له عظيم ومعه فيه خلق من أخلاط التجار
من كل بلد وهم يسرون في بحر « ملانو » وقد قربوا من أطراف أرض صين
وأبصروا بعض جبالها ، فلم يشعروا إلا وريح قد خرجت عليهم من الجهة التي
يقصدونها فلم يسمهم إلا الانصراف معها حيث توجهت ، وركبهم من هول
اتبهر ، إلا طاقة لهم به ، ومرت بهم الريح إلى سمت سهيل ، ومن اضطر

فى ذاك البحر الى أن يصير سهيل على قمة رأسه فقد دخل بحراً لا رجعة له فيه ، وتنكس فى لجة هابطة إلى الجنوب مصوبة إلى تلك الجهة ، فكلما سرت المركب خلا ما وراءها من جهتنا ، وهبط ما بين يديها من تلك الجهة فلا يستطيع الرجوع بريح عاصف ولا غيره ، وهوت فى لجج البحار المحيطة ؛ فلما رأوا أمرهم يؤدى إلى الدخول تحت سهيل ، ودخل عليهم الليل وأظلم وادلهم ، وحال بخار البحر ودُجِنَتْهُ ونداه وزخره بينهم وبين النجوة فلم يروا ما يهتدون به ، وهول البحر وأمواج ترفعهم إلى السحاب وتخفضهم إلى التراب وهم يجرون فى قار وضباب طول ليالهم ، وأصبح عليهم الصباح فلم يشعروا به لشدة ظلمة ما هم فيه ، واتصال قار البحر مع ضباب الجو ، وغلظ الريح وكدورته ، فلما طال عليهم الليل وهم يجرون فى قبضة الهلكة ، وقد حكمت عليهم الريح العاصفة والبحار الزاخرة والأمواج الهائلة ومركبهم يثبط ويثن ويتقعقع ويتتقع ، توادعوا وصلى كل منهم إلى جهة على قدر معبوده ، لأنهم كانوا شيعاً من أهل الصين والهند والعجم والجزائر ، واستسلموا للهوت ؛ وجروا كذلك يومين وليلتين لا يفرقون فيها بين الليل والنهار ؛ فلما كانت الليلة الثالثة وانتصف الليل رأوا بين أيديهم ناراً عظيمة أضاءت الأفق فخافوا خوفاً شديداً وفرزوا إلى ربانهم وقالوا له : ياربنا ما ترى هذه النار الهائلة التى ملأت الآفاق ونحن نجرى إلى سمتها وقد أحاطت بالأفق ، والفرق أحب إلينا من الحريق ! فبحق معبودك إلا قلبت بنا المركب فى هذه اللجة والظلمة لا يرى أحد منا الآخر ولا يدرى ما كانت منيته ولا يتجرع لوعة صاحبه وأنت فى حل وبل مما يجرى علينا ، فقد متنا فى هذه الأيام والليالى ألف

ألف ميتة ، فميتة واحدة أروح . فقال لهم : إعلموا أنه قد يجري على المسافرين والتجار أهوال هذا أسهلها وأرحمها ، ونحن معشر الربانية علينا العهود والمواثيق أن لا نعرض سفينة إلى العطب وهي باقية لم يجر عليها قدر ، ونحن معشر ربانية السفن لا نطلعها إلا وآجالنا وأعمارنا معنا فيها ، فنعيش بسلامتها ونموت بعطبها ؛ فاصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر الذي يصرفها كيف يشاء . قال فلما أيسوا من الربان ضجوا بالبكاء والعويل وندب كل منهم شجوه ، وصار الربان إذا أمر مناديه أن ينادى رجاله بمجذب حبل أو إرخائه يصلح شأن المركب فلا تسمع الرجال ذلك من دوى البحر وحس تلاطم الأمواج وهدير الرياح في القلوع والشرائع والحبال وضجيج الخلائق ، فأشرف المركب على التلف بعطلة الرجال وعدة المركب من غير حادث عليهم من بحر أو ريح .

”قال وكان في المركب شيخ مسلم من أهل قادم من الأندلس قد طلع إلى المركب في ازدحام الناس عند طلوعهم ليلة السفر ولم يشعر به ربان المركب ، وكان في زاوية من المركب مهجورة وهو مختف فيها خوفاً أن يعلم به فيؤنب ويوبخ ؛ فلما رأى القوم وما نزل بالناس وما هم عليه من الأخطار بأنفسهم ومركبهم وأنهم قد صاروا عوناً مع أهوال البحر على أنفسهم مسرعين لهلاكهم ، رأى أن يخرج إليهم فيكون من حاله معهم ما كان ؛ فخرج إليهم وقال لهم : ما شأنكم ، انفتح المركب ؟ قالوا لا . قال : فانكسر الشكّات ؟ . قالوا لا . قال : فركبكم البحر ؟ . قالوا لا . قال : فما شأنكم ؟ . قالوا : كأنك لست معنا في المركب ! أما تنظر هول هذا البحر

وأواجه وظلمة الهواء الذى لم نرمعه نهاراً ولا شمساً ولا قرراً ولا نجوماً .
نهتدى بها ، وقد دخلنا تحت سهيل وحكت البحار والرياح علينا ، وأشد
ما علينا هذه النار التى نحن نجرى إليها وقد ملأت الأفق ، والفرق أهون
علينا من الحريق ؛ وقد سألنا الربان أن يقلب المركب بنا فى البحر والظلمة
لا يرى واحد منا إلى صاحبه ونموت غرقاً ولا نموت حرقاً يرى بعضنا بعضاً ،
ونسمع ما تفعل النار فيه . فقال : أوصلونى إلى الربان . فأطلعوه إليه فسلم
عليه بالهندية فرد عليه وتعجب منه ، وقال له : من أنت أمن التجار أم
من أتباعهم ؟ فلا نعرفك فى رجال المركب . قال له : ما أنا من التجار ولا
من أتباعهم . قال : فمن أطلعك وما بضاعتك ؟ . قال : أما من أطلعنى فإنى
طلعت فى جمهور الناس ليلة الإسراء وأويت إلى مكان فى المركب قال : من
أين تأكل ؟ ومن أين تشرب ؟ . قال : كان بَنِيَانُ المركب يضع كل
يوم قريباً منى صفيحة أرز بسمن للملائكة المركب ومنشل المركب ماد ،
فكنت أتقوت بذلك ، وأما بضاعتى فقربة عجمية . قال فتعجب الربان
واشتغل الناس بسماع حديثه عما كانوا فيه من الضجيج ، وأصلح الرجال
أدوات المركب ، ومشى فيهم مناد بتدبير القلاع ؛ واهتدى المركب ، فقال
الشيخ : يا ربان ، ما لهؤلاء القوم كانوا يبكون ويعولون ؟ قال له : أما
ترى ما نزل بهم من هول البحار والرياح والظلمة ؟ وأشد من ذلك ما نحن
مدفوعون إليه من هذه النار التى ملأت الأفق ؛ والله لقد ركبت هذا البحر
وأنا دون البلوغ ومع أبى ، وكان قد أذهب عمره فى ركوبه ، وها أنا اليوم
قد رميت ثمانين سنة ورأى فما سمعت بمن سلك هذا المسكان ولا خبر عنه .

فقال : يا ربان ، لا بأس عليك ولا خوف ، نجوتم بقدره الله . هذه جزيرة يحيط بها ويكتنفها جبال يكسر عليها الأمواج بالبحار المحيطة بالأرض ، فتُنظر في الليل نار هائلة مرجفة يخافها الجاهل ؛ فإذا طلعت الشمس ذهب ذلك المراءى وعاد ماء . وهذه النار ترى من بلد الأندلس وقد عبرت عليها مرة وهذه الثانية .

”قال فتباشر الناس وسكنوا إلى قول الشيخ ، وتناولوا طعامهم وشرابهم وذهب عنهم ما كانوا فيه من الغم والخوف ، وتناقص الريح وضار البحر رهواً والريح رخواً ؛ وقدموا على الجزيرة مع شروق الشمس ، وأصحت السماء ، وأشرفوا على الجزيرة ، وتخيروا مرسى كنيئاً ووردوا الجزيرة بجملتهم وجعلوا يطرحون أرواحهم على الرمال ويتمرغون على الأرض شوقاً إليها ، ولم يبق منهم في المركب أحد“ .

لقد طالعت هذه الصفحة أكثر من مرة ، وقارنت توأ بينها وبين صفحات من الأدب العربي الرسمي في وصف البحار ، فلم أجد في هذه غير ألفاظ مترادفات وجمل ذات رونق بارد ؛ أما الصفحة التي نقلتها عن « عجائب الهند » فهي وصف حي ، في ألفاظ وجمل سهلة لا افتعال فيها ولا تعمل ، تتميز بشيء نادر في الأدب العربي الرسمي يمكن أن أسميه « اللهجة الشخصية » . هذا الرجل لا يكتب إظهاراً لمعارفه اللغوية ، وإعلاناً عن بلاغته ، إنما هو يدون تجارب ذاتية بقدر ما يحتاج إليه هذا التدوين من ألفاظ وجمل وتعبيرات . ولقد كنت أنساءل أيلم قراءتي لكتاب « عجائب الهند » قراءة عابرة ، إذ رأيت بزرك بن شهر يار ينقل إلينا طول كتابه أحاديث غيره ؛ لهذا لا يحدثنا

ابن شهر يار الناخذاء عن أسفاره هو ؟ إلى أن لاحظت بعد دراستي تلك الصفحة المختارة بأنها إما من قلم أبي الزهر البرختي نفسه ، أو أن أبا الزهر قص على بزرك قصته ، فلما أخذ هذا في كتابتها تصور جال مركبه وهو وسط المواصف ، فوصف إعصاراً من الأعاصير التي خبرها بنفسه في حياته الطويلة . ولا يمكن أن يقدر الإنسان إلى أي مدى صدق الناخذاء في وصفه للزوبعة إلا أن يكون قد لجج في البحر بنفسه ، على ظهر سفينة في جرم السفن العربية أو الفارسية أو الصينية التي كانت تذرع البحر الشرقي الكبير في تلك العصور .

والكتاب كله على هذه الوتيرة ، أحاديث وأخبار وعجائب وحكايات ينقلها بزرك بن شهر يار عن غيره من النواخذة على علاقتها ، دون أن يحاول لها تفسيراً أو نقياً أو تأييداً . وسوف أعود إلى «عجائب الهند» في مواضع من كتابي ، ولكنني أستعرض هنا بعض ما جاء به لحاجتي إليه في إتمام الصورة التي أرسمها عن البحر الشرقي الكبير فيما بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر .

”حدث أبو محمد الحسن بن عمرو أن بعض البحريين خرج في مركب من عدن إلى جدة ؛ فجاءت سمكة ونطحت السفينة بحذاء زيلع نطحة منكورة لم يشك أهل المركب أنها كسرتة ؛ وانحدر الربانية إلى قاع السفينة فلم يجدوا للماء أثراً . فلما وصلوا إلى جدة نجلوا المركب وأنزلوه وتركوه إلى البر ، فوجدوا رأس السمكة في قاعه وقد سجن وسد الموضع حتى ليس فيه خلل ؛ وإذا هي نطحت المركب ولم يمكنها الخلاص ، فانقطعت من حلقها ، وبقي رأسها في موضعه .

”وحدث أن مركباً خرج من بلاد الهند إلى بعض النواحي فذهب من يد صاحبه بقوة الريح ، وعاب المركب فاضطر الربان إلى الرسو بجوار جزيرة صغيرة لا ماء فيها ولا شجر ؛ وخرجوا إلى البر واشتغلوا بإصلاح المركب ، واتفق لهم يوم نوروز فحملوا من خشبيات المركب ، وبعض خوص وقماش وأوقدوه ، فتحركت الجزيرة بهم ، فأسرعوا وألقوا بأنفسهم إلى الماء ، وتعلقوا بالقارب ، ورأوا الجزيرة تفوص تحت سمعهم وبصرهم ، ولحقهم من اضطراب البحر بحركتها ما أشرفوا بسببه على الفرق ؛ وكانت سلحفاة نائمة على وجه الماء ، وحين أحست بحر النار هربت .

”وحدث أحمد بن علي بن منير السيرافي الناخداة عن بعض شيوخ الهند أنه كان لهذا الشيخ مركب كسر فوق أهله إلى جزيرة بقرب الهند ، وبقوا بها مدة حتى مات أكثرهم ولم يبق غير سبعة ؛ وكانوا قد لاحظوا أن طيراً عظيماً يقع في الجزيرة ويرعى ، فإذا كان وقت العصر طار ؛ فأجمع رأيهم على أن يقوم واحد منهم بمجازفة خارقة ، وهي أن يتعلق بذلك الطير وقت طيرانه ؛ واستعد أحدهم لذلك بين الشجر ، وتقدم إلى الطائر متلطفاً وأخذ برجليه ، وشد نفسه إليهما بقشور الشجر ، فطار به في الهواء ، وعبر به بحراً وطرحه وقت غروب الشمس فوق جبل ، فخل نفسه وسقط كالليت مما تعب وكل ؛ وفي غده قام فإذا راعى غنم كله بالهندية وسقاه لبناً ودله على قرية قريبة فتحامل إليها حتى دخلها ؛ ولم يزل ينقل القوم من تلك الجزيرة حتى اجتمعوا بالقرية واستطاعوا منها أن يصلوا إلى البحر ويعودوا إلى بلادهم . وقد تقصوا أمر الجزيرة ، وحسبوا المسافة التي حملهم الطائر فيها فكانت تزيد على مائتي فرسخ .“

ورأى بزرك بن شهر يار عند أبي العباس السيرافي ريشة طائر طولها نحو ذراعين قدر أنها تسع قربة ماء ؛ وسمع أن بسفالة الزنج من الطيور ما يأخذ الوحش بمنقاره أو بمخاليبه ويحمله إلى الهواء ثم يرمى به ليموت وينكسر ، ثم ينزل عليه فيأكله .

ويحكى أبو الحسن بن عمر عن بعض النواخذة أنهم لجأوا إلى خور رأوا في شاطئه حية هائلة المنظر تعبر الخور إلى الشاطئ الآخر بسرعة البرق ثم تعود بعد العصر ؛ وتقصوا خبر مسيرها فوجدوا في الناحية الأخرى من الخور أجمة ومستنقع ماء وأكواماً من أنياب الفيلة ؛ وإذا بتلك الحية كانت تأكل تلك الفيلة وتبقى أنيابها . وقد أحب ابن شهر يار أن يتحقق من هذا الخبر فسأل اسمعيلويه الناكده في سنة تسع وثلاثين وثلثمائة فأجابه بأن قد بلغه هذا وهو صحيح .

ومن البحار الحبيثة الصعبة الشديدة التي تقل السلامة فيها بحر أغباب مرنديب وهو ثلثمائة فرسخ ، وفيه من التماسيح أمر عظيم ؛ وفي ساحل هذا البحر النمر والبوارج الذين يقطعون في هذا البحر ، إذا ظفروا بمركب أكلوا أهله وهم شرقوم ، وليس في سائر الأماكن من يقطع البحار مثلهم ؛ فالمركب الذي يقطع هذا البحر متى أخذه البوارج أكلوا أهله ، وإن غرق لم تمض عليه ساعة حتى يأكل أهله التماسيح ، وإن انكسر بقرب البر وصعد أهله إلى الساحل قطعهم النمر في ساعة واحدة .

وحدث محمد بن بابشاد أن بجزيرة البنان ، وهي جزيرة في البحر الخارج ، بينها وبين فنصور مائة فرسخ ، قوماً يأكلون الناس أيضاً ، ويجمعون

رءوس الناس عندهم . ، ويُقتخر الواحد منهم بكثرة ما يجمع من الرءوس ؛
يشترون سبائك صُفر بالثمن الوافر ويدخرونه مكان الذهب ، ويبقى في بلادهم
الدهر الطويل كما يبقى الذهب عندنا ؛ والذهب عندهم لا مقام له ، بل يكون
فيه ما يكون من الصفر عندنا .

وَأُنْدَمَان لم يقع إليها أحد عاد إلى أهله ؛ وقد سمع بزرك ممن دخل بلاد
الذهب أنه رأى بصْنَفَيْن رجلا ذكر أنه وصل إلى أُنْدَمَان في جملة أهل
مركب كانوا فيه ولم يتخلص غيره .

ومن أحاديث البحريين والنواخذة ما يحكى عن عُبْهَرَةِ الرَبَان ، وأصله
من كَرْمَان وكان ببعض قراها يرعى الغنم ، ثم صار صياداً ثم صار أحد
ربانية مركب يختلف إلى الهند ، ثم تحول إلى مركب صيني ، ثم صار بعد
ذلك ربانا . وله في البحر طرائق ، وسافر إلى الصين سبع مرات ، ولم يكن
سلك قبله إلى الصين إلا من غرر ، ولم يُسْمَعْ أن أحداً سلكه وسلم وعاد قط ،
فإن سلم في المضي فهو عجب ، ولا يكاد يسلم في العودة ، وما سمع بزرك أن
أحداً سلم في الذهاب والجىء سواء ، فإنه جلس في مَطْيَالِه وأخذ قربة ماء ،
فكث في البحر أياماً . ومما يحكى عن شهر يارى الرَبَان ، وكان أحد ربانية
الصين قوله : ” كنت أمضى من سيرا ف إلى الصين ، فلما صرت بين الصَّنَف
والصين بالقرب من صُنْدُرْقُولَات ، وهو رأس بحر صَنْخَى ، أى بحر الصين ،
وقفت الريح فلم تتحرك ، وسكن البحر ، وطرحنا الأناجر ، وأقنا بمكاننا
يومين . فلما كان في اليوم الثالث رأينا بالبعد شيئاً في البحر ، فطرحنا
الدونيج إلى البحر ، وأنفذت فيه أربعة من البانانية ، وقلت اقصدوا ذلك

السواد فانظروا ماهو . فمضوا وعادوا يقولون : هذا عبهرة الربان على مطياله ،
ومعه قرية ماء . قلت لهم : فلم لم تحملوه ؟ فقالوا : قد اجتهدنا به ، فقال
لا أصد إلى المركب إلا بشرط أن أكون الربان فأدير المركب وأخذ
أجرتي عن قيمة ألف دينار متاعا بشرى سيراف . فلما سمعنا هذا
الكلام تعلقت نفوسنا بقوله ، ونزلت وجماعة من المركب إليه ، وهو في البحر
ترفعه الأمواج وتضعه ، فسلمنا عليه وتضرعنا إليه في الصعود فقال : حالكم
أقبح من حالى ، وأنا إلى السلامة أقرب منكم ، فإن دفعتم لى بقيمة ألف
دينار بشرى سيراف ، ورددتى إلى أمر المركب سعدت . فقلنا : هذا
مركب فيه أمتعة وأموال عظيمة ، وخلق من الناس ، ولا يضرنا أن نعرف
ما عند عبهرة من رأى بألف دينار . وصعد والدونيغ والقرية معه إلى
المركب ؛ فلما حصل فيه قال : سلمونى متاعا بألف دينار ، فسلمناه إليه .
فلما أحرزه قال لى : إجلس إلى ناحية ، فتباعدت عن موضعى وقال :
ينبغى أن تجدوا فى أمركم مادام عليكم مهلة . فقلنا : فيماذا ؟ قال :
ارموا الثقل كله إلى البحر . فرمينا نحو من نصف حمولة المركب أو أكثر
ثم قال : اقطعوا الدقل الأكبر . فقطعناه ورمينا به إلى البحر . فلما
أصبح قال : ارفعوا الأناجر واركبوا المركب يسير لنفسه . ففعلنا . قال :
اقطعوا الأنجر الكبير . فقطعناه وبقي فى البحر . ثم قال : ارموا
بالأنجر القلانى . فلم يزل كذلك حتى رمينا فى البحر ستة أناجر . فلما كان
فى اليوم الثالث ، ارتفعت سحابة مثل المنارة ، ثم تفرقت فى البحر وأخذنا
الخب ؛ فلولا أنا كنا رمينا بالحمولة ، وقطعنا الدقل ، لكننا قد غرقنا من أول

موجة أخذتنا . ولم يزل الخب ثلاثة أيام بلياليها والمركب يصعد وينزل بغير أنجر ولا شراع ، ولا ندرى كيف يمضى . فلما كان فى اليوم الرابع أخذت الريح فى السكون ، وتم سكونها وصلاح أمر البحر فى آخر النهار ؛ وأصبحنا فى اليوم الخامس والبحر طيب ، والريح مستقيمة ؛ فأصلحنا دقلا ورفعنا الشراع ، وسرنا وسلم الله ؛ ووردنا الصين وأقمنا إلى أن بعنا واشترينا ، وأصلحنا المركب ، ودقلا بدل الدقل الذى رمينا به فى البحر . وخرجنا من الصين نريد سيراف ، وقاربنا الموضع الذى قدرنا أن رأينا عبهرة فيه ، واجتازنا بجزيرة وجبال . فقال عبهرة : اطرحوا الأناجر . ففعلنا . ثم طرحنا القارب إلى البحر ، ونزل فيه خمسة عشر رجلا وقال لهم : امضوا إلى ذلك الموضع — وأومئ إلى بعض الجبال — فهاتوا الأنجر القلانى . فعجبنا من ذلك ولم نخالفه فمضوا وعادوا والأنجر معهم . ثم قال : امضوا إلى ذلك الجبل الآخر — وأومئ إليه — فهاتوا الأنجر القلانى . فمضوا وعادوا والأنجر معهم . ثم قال : ارفعوا الشراع . فرفعنا وسرنا وقلنا له : كيف عرفت أمر هذه الأناجر ؟ فقال : نعم ، لقيتكم فى هذا الموضع فى رأس الثلاثين ، وهو وقت مد الماء ، وقد نقص الماء صدراً صالحاً ، وكنتم فى وسط الجبال والجزيرة فأمرتكم بطرح الثقيل من الأمتعة ففعلتم ؛ ثم فكرت فى أمر الأناجر فإذا حاجتنا إليها فى الصين غير ماسة ، ولم يبق فى المركب من الأمتعة إلا ما قيمة وزن الأناجر منه أضعاف قيمة الأناجر فرميت بها كذلك ، لأنه لم يكن بد من تخفيف المركب ؛ فحصلت هذه الأناجر الثلاثة فوق الجبل والجزيرة ظاهرة ، وحصلت الثلاثة تحت الماء . قلنا له : كيف استدلت على هذا

النقصان والخب ؟ ، قال : نعم قد جُرِّبَ هذا البحر قبلى وجَرَّبْتُهُ .
فوجدناه فى رأس كل ثلاثين ينقص نقصاً عظيماً حتى تنكشف هذه الجبال
ويكون فى وقت هذا النقصان خب عظيم ، أصله فى قاع البحر ، فانكسر
المركب الذى كنت فيه على رأس جبل من هذه الجبال ، لأن النقصان لحقنى
وأنا أسير عليه ليلاً ، وسلمت فى ذلك المطيال . ولو بقيتم فى موضعكم لما بقيتم
فى البحر أكثر من ساعة ثم ينجح مركبكم قبل الخب ، لأنكم كنتم على
الجزيرة إن جنعتم عليها انكسرتم . وعبرة هذا له طرائق وأخبار فى
البحر وهذا الخبر من أطرف أخباره .“

تلك نبذة من كتاب « عجائب الهند » تأليف بزرك بن شهر يار
الناخداة الرام هُرمزى ، راعيت فى اختيارها أن تمثل الكتاب أحسن
تمثيل فى الناحية البحرية ، وأن أستكمل بها تصوير ما أنا بسبيله .

بين الواقع والأساطير

"There is a kind of intellectual frontier within which he must be who will sympathise with myth, while he must be without who will investigate it, and it is our fortune that we live near this frontier-line; and can go in and out."

Edward B. TYLOR: *Primitive Culture*.

ذكر في مجلس كسرى أنوشروان أن بأرض الهند جبلا فيه شجرة ثمرتها تحيي الموتى ؛ فبعث رجلا إلى بلاد الهند ليأتيه بصحة هذا الكلام ، فذهب الرجل إلى هناك يسأل عن الجبل حتى اجتمع ببعض البراهمة فقالوا له : هذا الكلام مرموز من كلام الحكماء ، أرادوا بالجبل الرجل العالم ، وبالشجرة علمه ، وبثمرتها فائدة علمه ، وبالحياة صورة الآخرة ؛ فقال كسرى : صدق علماء الهند ، الأمر كما ذكروا .

هذا خبر من الأخبار-، أورده القزويني في كتاب «آثار الهمود» ، جدير بأن نتمعن فيه ، لأن بعض ما يرد في كتب الجغرافيا العربية والرحلات وكثيراً مما تطالعنا به كتب العجائب يذكرنا به ؛ وقد رأينا أمثلة من هذه الأخبار فيما مضى من كتابنا ، وسنعرف بغيرها فيما بعد . فلو أن كسرى لم يبعث برسوله إلى الهند ليحقق صحة الخبر ؛ أو لو أن نساخاً أو مؤلفاً استحسن أن يترك الخبر دون تحقيق ، لتداولته الكتب على هذا الرسم : "وسمعتنا ممن سافر إلى هناك أن بأرض الهند جبلا فيه شجرة ثمرتها تحيي الموتى" . وربما عقب عليه المولعون بالفرائب هكذا : "وقيل بأن في رأس هذا الجبل أمة من

الناس تعيش منذ ستة آلاف عام“ :

وسمع التاجر سليمان أن بناحية البحر ممكا يخرج حتى يصعد على النارجيل
فيشرب ما في النارجيل من الماء ثم يعود إلى البحر . كما سمع أن في البحر
حيواناً يشبه السرطان فإذا خرج من البحر صار حجراً ، قال ويتخذ منه
كل لبعض علل العين .

وجاء الخبر بعينه في « عجائب الهند » على هذه الصورة : ” وفي بحر
الصنف جزيرة إذا وقعت السرطانات إلى أرضها صارت حجارة ؛ وهو حجر
معروف يجلب إلى العراق وسائر الدنيا ، وهو من الأدوية في جلاء البياض
من العين “ . ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الجغرافيا العربية ، أو العجائب
أو الرحلات من إيراد هذه الحكاية .

وروى القزويني في كتابه الجغرافى « آثار البعوض » عن محمد بن أبى عبد الله
أنه رأى ” فى غياض الصين إنساناً يصيح صياح القردة وله وبركوبر القرد
ويداه ينالان ساقيه إذا بسطهما قائماً ، ويكون على الأشجار يثب من شجرة
إلى شجرة وبينهما عشرة أذرع “ .

ومع أن النار التى ظهرت فى البحر وملأت الأفق كانت موضع عجب
ورعب ركاب سفينة أبى الزهر البرختى كما جاء فى الفصل السابق ، فإن بزرك
ابن شهریار ، بعد صفحات قلائل من إirاده تلك الحكاية يقول : ” ومن
عجيب أمر بحر فارس ما يراه الناس فيه بالليل ، فإن الأمواج إذا اضطربت
وتكسرت بعضها على بعض انقذح منه النار فيخيل إلى راكب البحر أنه
يسير فى بحر من نار “ .

والمفروض أن كتاب « عجائب الهند » وكتب القزويني والتاجر سليمان وغيرها تقرر وقائع ، لا أن تجمع خرافات ؛ ولكن بعض الحوادث أو الوقائع ، التي تذكرها تلك الكتب ، صعبة التصديق إلى حد يبعثنا على الحذر في الحكم عليها . وهذا الحذر يجب أن يكون ذا حدين ؛ فمن أسهل الأمور علينا أن نهمل ما لا نصدقه ، ونطرحه جانباً على أنه خرافة أو مغالاة ؛ كما أن من أسهل الأمور على العوام حينما يسمعون بتلك الوقائع أن يصدقوها ، وأن يعملوا على إذاعتها . إلا أننا إذا اتجهنا هذا الاتجاه أخطأنا فهم الكثير مما توارد على ألسنة الرحالة والجغرافيين ومؤلفي كتب العجائب من العرب وغيرهم . وقد صدرنا لهذا الفصل بحكاية الشجرة الهندية التي تحيي الموتى ، لأن ما فعله كسرى أنوشروان هو مثال نحتذيه ، إن لم يكن بالوسيلة التي اتبعها العاهل الساساني من إرسال رجل يحقق الخبر ، وهذا ما لا يتاح دائماً بسهولة ، فلا أقل من محاولة فهم الواقعة ، أو الخبر المعروض أمامنا عنها . وإلا فلنلق بكل تلك المؤلفات العربية في النار ، وهو ما يكاد يفعله المعاصرون من أهل الغيرة على الشرق حين يقتصرون من الآداب العربية على الاهتمام ببعض الشعر والرسائل والنثر المسجع وغير المسجع ، تاركين للمستشرقين مهمة نشر طائفة هامة من مخطوطات المكتبة العربية وشرحها وتصحيحها ، وهي تحوي ما لا يقل عن ثلاثة أرباع تراث العالم من الحضارة الإسلامية . وأصدق الحذر وأجداه في رأينا أن نفرض أولاً الصدق فيمن وضعوا وجمعوا وألفوا كتب المسالك والممالك ، والعجائب ، والرحلات ، منذ القرن التاسع حتى القرن الرابع عشر الميلادي ؛ وأن نضع أنفسنا موضع هؤلاء الكتاب ، الذين

لم يصل إلى علمهم ما كناهي إلينا من معرفة بالظواهر الكونية ، والمخلوقات التي تعيش في الهواء ، أو فوق سطح الأرض ، أو في طبقات الماء .

حينما أرسل كسرى من يتقصى خبر الشجرة التي تحيي الموتى ، كوفي على حسن ظنه وسعيه بأن عرف أن الحكاية رمزية . فالجبل إشارة إلى الرجل العالم ، والشجرة علمه ، وثمرتها ما يفيد من ذلك العلم ، أى الخلود فى عالم آخر نتيجة تسنمه ذروة الحكمة . وقد لا يبعد أن تكون شجرة الخلود هذه ، هى شجرة « البودى » المقدسة التى استنار البوذا — أو البُدْ كما يقول العرب — بضوء العرفان تحت ظلالها ، وبدأ خطواته إلى « النيرفانا » منها .

وأورد التاجر سليمان خبر السمكة التى تخرج من البحر وتتسلق شجرة النارجيل فتشرب ماء ثمره ثم تعود إلى البحر . والخبر على هذا الوضع يحتمل تفسيرين ، فهو إما يشير إلى السمكة الهندية المعروفة باسم « أناباس » *Anabas scandens* ، وهذه تخرج إلى البر وتتسلق الأشجار فى رطوبة الليل ؛ وقد أجرى مدير أكوار يوم مدراس بالهند أمام عيني تجربة على واحدة من هذا السمك ، فتسلقت قماشاً ممدوداً على عود وقد تندى بالماء . أو أن الخبر يشير إلى السرطان المسمى « فيرجوس لاتوس » *Virgus latus* الذى يعيش على سواحل الجزر المرجانية ، وهو من نوع « برنار الراهب » ذلك السرطان الذى لا درق له ، ويستعيز عنه بأن يسكن أصداف القواقع الميتة ؛ والسرطان « فيرجوس » يسكن جوز الهند بعد أن يفرع ما فيه من شراب ويأكل منه ما يؤكل .

أما الخبر الآخر الذى ذكره سليمان وبزرک بن شهریار ، وأغلب من

ألقوا في الجغرافيا وفي علم العقاقير ، عن السرطان الذي يخرج إلى الأرض
فيتحول حجراً يستعمل في أكحال العين ، فلا يحتمل إلا تفسيراً واحداً ؛
وهو أن السرطان وغيره من القشريات تعيش في كساء من مادة ظلفية
متحجرة ، فلا يسعها أن تنمو إلا أن تطرح عنها ذلك الكساء ، ثم تبدأ
بعد نموها في تكوين كساء آخر . وإن نظرة على كساء السرطان حين يخرج
منه حيوانه ، يلقبها من لا يعرف خبره ، تجعله يظن لأول وهلة أنه حيال
سرطان ميت ، والحقيقة أنه أمام كساء فارغ نقبه الحيوان وخارج يختفي في
جحر حتى يتكون له كساء متحجر جديد . وأرجح أن البحرين والرحالين
اعتادوا أن يروا عن بعد الشواطئ المقفرة وعليها مجموعة من تلك الأكسية
الفارغة ثم لاحظوا السرطانات تجري إليها من البحر ، ولكنهم لم يستطيعوا
أن يلاحظوا اختفاء تلك السرطانات الحية . فلما وصلوا إلى الشاطئ وجدوا
الأكسية الفارغة المتحجرة فتصوروا أن السرطانات التي رأوها عن بعد
تخرج من البحر إلى البر هي التي تحولت حجارة .

وقد وصف القزويني على لسان من يدعى محمد بن أبي عبد الله في غياض
الصين إنساناً يصيح صياح القردة وله وبر كوبر القرد ، ويداه ينالان ساقيه
إذا بسطهما قائماً إلى آخر ما نشرناه آنفاً ؛ وهذا خبر عادي جداً إذا حذفنا
منه كلمة واحدة ، هي كلمة « إنسان » . لأنه إذا كان ذلك المخلوق بهذا الوصف
القردى ، فهل هنالك ما يدعو إلى نعته بأنه إنسان ؟ لا ريب أن تقارب
الشبه بين بعض القرود الكبيرة من نوع « الأوتانج » و « الغوريلا » وبين
الإنسان ، جعلت ابن أبي عبد الله يصر على أن ما رأى كان إنساناً يشبه

القرد ، لا قردا قريب الشبه بالإنسان .

وحكاية النار التي يراها الناس ليلا في بحر فارس حتى ليخيل للراكب أنه يسير في بحر من نار ، والتي كانت موضع فزع ركاب سفينة أبي الزهر البرختي حينما انحدرت بهم السفينة إلى ما تحت سهيل ، إن هي إلا ظاهرة فوسفورية يعرفها سكان السواحل ، وعلى الأخص سواحل البحار الحارة كالبحر الأحمر . ولو أنه لا يتاح لهم أن يروها في أروعها كما رآها البحريون الذين يتحدث عنهم كتاب « عجائب الهند » وكما رأيتها بنفسى من الساعة العاشرة ليلا إلى ما بعد منتصف ليلة ١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٣ ، وسفينتى تمخر عباب المحيط الهندي على بعد ساعات من بمباى . لقد كان البحر حولنا مضيئا إلى امتداد البصر ، وكان الضوء يشتد حيث تنكسر الأمواج ، سواء حول جهة السفينة المحدودة ، أو حول جبل مقياس المسافة [الباركنة] تسجبه السفينة وراها ؛ ولو أن فى أفقنا تلك اللحظة جزيرة مرجانية من النوع الخلقى لاستطعنا أن نرى ذات المنظر الذى أفزع ركاب سفينة أبي الزهر الناختاه عند ما تنكست بهم سفينتهم فى لجة هابطة إلى ما تحت سهيل . ولقد واصلت سفينتى اختراق ذلك البحر الفوسفورى أكثر من ساعتين بسرعة تسع عقد ، أى أنها قطعت فيه قرابة عشرين ميلا ؛ وكان الضوء قويا لدرجة أنى حاولت تصويره بآلة السينما ولو لم أنجح . ومرجع الظاهرة آلاف الملايين من المخلوقات الدقيقة العالقة بماء البحر كأنها طمى الأنهار ، وهى مضيئة كالخباحب فى الليل الحالك . وقد صدق الشيخ الأندلسى فى حكاية « عجائب الهند » إذ قال للربان والسفار حين أقدمهم الهلع رشدهم : " هذه

جزيرة يحيط بها وتكتنفها جبال تكسر عليها الأمواج ، فتُنظَر في الليل نار هائلة مرجفة يخافها الجاهل ؛ فإذا طلعت الشمس ذهب المرأى وعاد ماء .“

لنتأمل حكاية أبي الحسن بن عمر عن الحية التي رآها بعض النواخذة تعبر الخور إلى الشاطئ بسرعة البرق ، وتقصوا خبر مسيرها فوجدوا في الناحية الأخرى من هذا الخور أجمة ومستنقع ماء وأكواماً من أنياب القيلة ؛ وإذا بتلك الحية « كانت » تأكل القيلة وتبقى أنيابها . الخبر في صحيحه صادق ؛ فليس من عجب أن ترى حية هائلة أو غير هائلة تعبر الخور ؛ وليس من عجب أن يرى في الناحية الأخرى مستنقع ماء أو أجمة وبها أكوام من أنياب القيلة . أما أن يستنتج صاحب الخبر أن الحية « كانت » تأكل القيلة فهذا شأنه ، ولست ملزماً بتصديقه إلا إذا رأيت الفيل في فم الحية . وأما أن يكون الخبر كثير التوارد في كتب الجغرافيا العربية من ابن خرداذبة إلى الإدريسي والقزويني عن حيات تبتلع الأفيال ، فلن يقدم ذلك أو يؤخر مادنا لم نفاجي حية آخذة في ابتلاع فيل ، ولم نعرف حيات يسمح لها جرمها بابتلاع القيلة ؛ يكفيننا أن نضع إصبعنا على مصدر الخبر .

وحكاية عبهرة الربان ومطياه ، أيا كانت ظواهر الترتيب والتنسيق فيها ، دليل على دقة معارف أولئك النواخذة الشجعان الذين فتحوا طريق التجارة بين بحر فارس وبحر الصين منذ القرن السادس الميلادي ، بل قبل ذلك . بمثل معارف عبهرة وأشباهه ، وقوة إدراكهم للمد والجزر والتيارات ، وعلاقة أولئك بالقمر وغيره من الأجرام ، وبالفصول وتقلباتها ، استطاع القرس

والعرب والهنود والصينيون أن يذرعوا بحراً من أشق البحار على ظهر
مراكبهم الصغيرة ..

وقد سمع الحسن بن عمرو بحكاية السمكة التي نطحت السفينة حذاء
زيلع . ثم تركت رأسها في الثقب الذي أحدثته ، فسد الموضع حتى ليس فيه
خلل . لو أن ابن عمرو تنازل عن الرأس ، أو عرف بأن السمكة كانت من
نوع ذات السيف ، المسماة « إسبادون » ، وهي سمكة يمتد عظم أنفها إلى الأمام
ذراعاً أو ذراعين في شكل سيف قاطع ، وأنها طعنت المركب بأنفها فانكسر
السيف وسد موضع الخلل ، لوجدنا في متحف برلين الأقيانوغرافي ما يؤيد
حكايته . فقد رأيت بذلك المتحف سنة ١٩٣٠ قطعة من جانب مركب خشبي
وبها أثر طعنة سمكة الإسبادون ، سيف نافذ في سمك الخشب ، مستقر فيه .
إن خبرتي الشخصية بالأثر الذي تتركه في النفوس بعض ظواهر الحياة
البحرية ، حتى في عصورنا المتقدمة ، عصور العلم والعرفان ، وصلت بالصيادين
في أكثر من ساحل ، وسماعي بأخبار البحار وسكانها من أفواههم ، بل
من أفواه بعض المتعلمين ، واطلاعي على أحاديث البحار في كتب القدماء
والمحدثين ، كل هذا عودني أن أكون أكثر تسامحاً ، وأقرب فهماً
لحكايات البحريين في القرون الوسطى . وسبيلي أن لا أحكم على الأسطورة
البحرية بالكذب ثم أنام هادئاً ؛ إنما أحاول أن أضع نفسي موضع من رأى
الحيوان أو الظاهرة الكونية ، وأن أكتيف عقلي تبعاً لعقليته فأستعرف
ما يعرف وأتجاهل ما يجهل ، ثم أحاول أن أتصور أثر للنظر الغريب في نفس
العربي أو الفارسي من أهل القرن التاسع . ذلك مجهود ذهني غير يسير ،

ولكنه قليل بالنسبة لما أحصل عليه من نتائج ، حين أكشف الواقع خلف الأساطير .

وهي وسيلة تنفعني كثيراً في حياتي اليومية بين الصيادين كلما أردت أن أخلص الحقيقة من شباك أوصافهم المعقدة «وعجائبهم» المستحيلة . فهذه سمكة رأسها كرأس البعير ، وعلى ظهرها ما يشبه السنام ، تنتهى زعانفها بما يشبه الخفاف . وأخرى كالخفاش أو الببغاء ، أو هي وحجر الرحي سواء .

وهذا الجندي وقد رأى شعباً أسود كبيراً طافياً على وجه الماء أمام الساحل المصرى إلى الشرق من رشيد ، فخرى إلى ضابطه يخبره بأنه رأى ما يظنه غواصة فى عرض البحر . لم تكن الغواصة إلا دابة البحر الكبرى التى نعرفها باسم «الحوت» وعرفها العرب باسمها اليونانى «بليئة» أو البال ؛ وقد جنحت على الشاطئ وكان طولها نيفاً وسبعة عشر متراً ، وما زال هيكلها العظمى قائماً فى متحف الأحياء المائية بالاسكندرية .

ولست أرى فرقاً كبيراً بين أن يفكر حارس الساحل المصرى بالغواصات فيحسب البال غواصة ، وبين العربى المنعزل عن العالم فى جزائر خور ياموريا ، أو على شاطئ حضرموت ، وقد اعتاد رؤية البال ، أن يحسب الغواصة دابة من دواب البحر . وقد يعذر الجندي المكاف بحراسة الساحل أن يظنها غواصة ، إذ امتلأ رأسه بأوامر رؤسائه أثناء أزمة دولية أن يفتح عينيه لما قد يظهر فى البحر من مظاهر الاعتداء . ولكن ما عذر الصحفي الذى يبرق إلى صحيفته بالقاهرة ، بعد أن استطلع رأى الخبراء بالإسكندرية ، بأنها دابة من دواب البحر الكبرى تستطيع أن تبتلع سفينة برجالها ؟

وتلك السيدة المتعلمة التي استعادت ذكرى زيارتها للأكواريوم ،
وحملتني أمام جمع من صاحباتها تبعة تعريفها بمخلوق بحرى لا وجود له قالت
عنه بأن نصفه حيوان ونصفه نبات ؟

ومن لا يذكر حديث « التنين » الذى رآه بعض الإسكتلنديين فى
« لوخ نيس » منذ بضع سنوات ، وراحوا يؤيدون به حكاية الحيوان
البحرى الهائل الذى تتنازعه الخرافة والعلم منذ أكثر من عشرين قرناً ؟
ولقد شاهدت فى بهو فندق بعدن ذكر « الدوجونج » وأنشاه محطتين فى
صندوق والموكل بهما يؤكد لى أنهما من إناس الماء ، أو كما قال لى بالإنجليزية
Sirens ، وهى خرافة لا تزال حية بين ظهرانينا .

هذه بعض تجاربنا فى القرن العشرين ؛ فماذا يكون حال البحريين فى
القرن العاشر وقبله ، يسافرون فى أغرب البحار على ظهر مراكب صغيرة ،
ويرون فى كل جزيرة جديداً ، وفى كل بر عجيباً ؟

لم يكن أولئك الناس متجنين على حقائق زمنهم ، وإن كان الإنسان
بطبعه فى كل زمان ومكان مولعاً بالإغراق فى التهويل ؛ ففى أغاب ما ورد على
ألسنتهم ، وبقى فى كتبهم ، أساس من الواقع تحول بكثرة النقل مع قصور
فى الفهم ، أو بسبب عدم القدرة على التفسير ، أو الرغبة فى حسن السرد ،
إلى مجموعة من الأساطير . وقد تحدثت عن هذا التحول بصفة عامة ، لأن
« هريت السندباد القريم » فى ذلك التحول ، ومجال كتابى هو فى النطاق
أو « الإقليم » القائم بين الواقع والأساطير . وأستطيع الآن أن أتابع البحث
فى طائفة من الأساطير تستند إلى وقائع ، وبعض وقائع لم تسلم من الأساطير .

الرخ

في الفصل الثالث والثلاثين من الكتاب الثالث لرحلة ماركو بولو ،
حيث الكلام عن جزيرة مدغشقر نطالع الفقرة الآتية :

”ويقال بأن الطائر المعروف باسم « جريفون » موجود بتلك الجزائر
الواغلة في الجنوب ، حيث لا تستطيع أن تذهب السفن بسبب التيار القوي
المتجه دائماً إلى الجنوب ، والذي يمنع عودتها إذا تنكبت هذا الطريق . . .
وقد تحدث الأشخاص الذين رأوه إلى السيد ماركو بولو فقالوا بأنه يشبه
النسر من كل الوجوه ، إلا أنه ذو جرم هائل ، فأجنحته ممتدة تغطي ثلاثين
خطوة ، ويبلغ طول ريشته اثنتي عشرة خطوة . . . وهو من القوة بحيث
يقبض على الفيل بين أظلافه ويحمله في الهواء ثم يرمي به فيتكسر إرباً ،
ثم ينقض الطائر « جريفون » عليه ويأكله على مهل ؛ ويطلق أهل تلك
الجزائر على الطائر اسم « رخ » . . . وقد أرسل الخاقان إلى تلك الديار يسأل
عن هذه الغرائب ، فأخبره من ذهبوا إلى هناك بتلك الحكاية . . . كما
أخبره مبعوثوه بعجائب كثيرة عن تلك الجزائر ، وعن الطيور التي ذكرت .
وقد أحضروا للخاقان — كما سمعت — ريشة من ريش ذلك الرخ ؛ وقيل
بأن طولها تسعون ذراعاً ، ومحيط دائرة قصبتها شبران “ .

كان هذا في أواخر القرن الرابع عشر ، والخاقان الذي يشير إليه
ماركو بولو هو قبلاي خان إمبراطور الصين .

وحكى ابن بطوطة في منتصف القرن الرابع عشر حكاية عودته من

الصين إلى الجاوة ، وقد ركب الجُنُك من مدينة الزيتون [تسو - تونج] وسار به عشرة أيام بريح طيبة . ثم تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر ، وأقاموا عشرة أيام لا يرون الشمس ؛ ثم دخلوا بحراً لا يعرفونه ، وجعلوا يضربون فيه أربعين يوماً لا يعرفون في أى البحار هم . ” ولما كان في اليوم الثالث والأربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلاً ، والريح تحملنا إلى صوبه . فمجب البحرية وقالوا لسنا بقرب من البر ولا يعهد في البحر جبل ، وإن اضطرتنا الريح إليه هلكنا . فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص وجددوا التوبة ، وابتهلنا إلى الله بالدعاء ، وتوسلنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ، ونذر التجار التصدقات الكثيرة وكتبتها لهم في زمام بخطى ؛ وسكنت الريح بعض سكون ؛ ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك ؛ ورأيت البحرية يـمـكـون ويودع بعضهم بعضاً فقلت : ما شأنكم ؟ فقالوا : إن الذي تخيلناه جبلاً هو الرخ ، وإن رأينا أهلـكنا ؛ وبيننا إذ ذاك وبينه أقل من عشرة أميال . ثم إن الله تعالى من عايننا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه فلم يره ولا عرفنا حقيقة صورته . وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا إلى الجاوة ونزلنا إلى سُمُطْرَة ” .

سمع ماركو بولو في بلاط قبلاى خان إمبراطور الصين بحكاية الرخ ، وفهم ابن بطوطة من بحارة الجُنُك أن الغمامة السوداء التى ارتفعت عن الأفق بعد أن حسبوها جبلاً ، كانت طائر الرخ . فإذا كان من غير الممكن الاعتماد على أقوال هذين الرحالين فى مثل هذه الظروف ، فلا أحسب أننا واجدون

بغيتنا عند المسعودى أو الدمشقى ؛ وأقل منها لدى القزوينى وابن الوردى .
و « الجريفون » الذى سُمى به ماركو بولو الرخ هو الصورة اليونانية
للأسطورة التى نعالجها . فالخرافات اليونانية تصوره طائراً هائلاً ، ولكن
رأسه رأس أسد ؛ وهذا الوصف يباعد بين الجريفون اليونانى ، وبين الطيور
الكبيرة الأخرى التى نسمع بها فى الأساطير الشرقية . فهذه طيور تشبه النسر
أو العقاب . وقد حاول النمرود الجبار الوصول إلى السماء فابتنى برجاً ارتفع به إلى
خمس آلاف ذراع ، هدمه الرب . ثم عاد إلى محاولته بأن ركب صندوقاً حملته
أربعة طيور هائلة وحلقت به فى الجو بعض الوقت . ثم سقط النمرود من حالته
على رأس جبل ماد به ميذاً . وأرسل له الرب بعوضة استقرت فى يافوخه
وأخذت تنمو وتسبب له صداً شديداً لا يسكن قليلاً إلا إذا ضربت رأس
النمرود بالمطارق . وقد طال عذاب الجبار إلى أربع مائة سنة .

ولم يكن النمرود إلا مقلداً لأحد ملوك بابل القدماء المسمى « إطانا » .
وقد تسنم هذا ظهر طائر كبير ، حمله فى الجوست ساعات ، ثم تعب الطائر
فهبط وألقى بالملك على الأرض فتهشم وتناثر جثمانه .

وفى إحدى الأساطير المسيحية عن ذى القرنين يطلب الإسكندر السفر
إلى أرض الخلود . ويصل إلى بلاد الظلمات ، على سواحل بحر راسكد
لا أمل أن تتحرك فيه سفينة بسبب قلة الريح . وهناك يرى طيوراً عظيمة ،
ويقدم لها اللحوم فتخطقها وتطير عبر الظلمات إلى أرض الخلود ، ثم تعود
لتتلقى جراتها مرة بعد مرة حتى استألفها ذو القرنين ، وأمر بعض جنوده
الأشداء أن يمتطوا ظهورها . فعلقوا قطعاً من اللحم فى أطراف عيدان أمام

أعينها ، وفي غير متناول منايرها . فجعلت الطيور تطارد اللحم وهي طائرة خلال الظلمات حتى وصلت إلى أرض النور والخلود . وعاد الجنود بالبشرى إلى الإسكندر فجهز الفلك ، وذبح الذبائح ونشر لحومها في مقدمة الفلك ، وربط الطيور في المؤخرة تاركاً لها طويلاً من الحبال يسمح لها بالطيران في اتجاه اللحم دون أن تصل إليه . وبذلك استطاع تسير فلكه بقوة طيران الجوارح الكبرى ، عبر بحر الظلمات إلى أرض النور والخلود .

أسطورة الطير الهائل إذن واغلة في القدم ، ويعرف باسم « بازيشرى » في الأساطير الإسرائيلية ، و « وفنج » عند الصينيين ، والعنقاء عند العرب و « سيمورغ » عند قدماء الفرس ، رمز الإله المختفي فوق قمة قوقاز وراء سجن الظلام والنور .

والقزويني في « عجائب المخلوقات » واضح الخلط بين الرخ والعنقاء ؛ وهو يمد لحكاية العنقاء بوصفه النسر "سيد الطيور . . . وجشته عظيمة حتى قيل إنه يحمل الفيلة" . أما العنقاء فهي أعظم الطيور جثة ، وأكبرها خلقة ، تختطف الفيل كما تختطف الحداة الفار . وكان في قديم الزمان يختطف من بيوت الناس ، فتأذوا من جناياته . إلى أن سلب عروساً مجلوة فدعا عليه حنظلة النبي ، فذهب الله به إلى بعض جزائر المحيط تحت خط الاستواء ؛ وهي جزيرة لا يصل إليها الناس ، وفيها حيوانات كثيرة كالفيل والكركند والجاموس والنمر والسباع وجوارح الطير والعنقاء لا تصيد إلا فيلا أو سمكا عظيماً أو تنيناً وعند طيرانه يسمع من ريشه صوت كهزيم السيل أو صوت الأشجار عند هبوب الريح . وحكى عن التجار قال :

دخلنا الطريق في البحر المحيط وتحيرنا ، فإذا نحن بسواد عظيم كغيم مظلم ، فذكر الملاحون أنه العنقاء ؛ فتبعناه حتى دخلنا تحت ذلك السواد ، ثم فتحنا اللسان بالدعاء له فلا يزال يمشى بنا حتى وجدنا الطريق وغاب عنا .

”وذكروا أن عمر العنقاء ألف وسبعمائة سنة ، وتتزوج إذا أتى عليها خمسمائة سنة ؛ فإذا حان وقت بيضها يظهر بها ألم شديد ، فيأتي الذكر بماء البحر في منقاره ، ويحقنها به فتخرج البيضة عنها ؛ فيحضن الذكر ، والأنثى تمشى وتصيد . ويفرخ البيض بمائة وخمسة وعشرين سنة . فإذا كبر الفرخ فإن كان أنثى فالعنقاء الأنثى تجمع حطباً كثيراً ، والذكر يوقد بمنقاره ناراً ويضرم ذلك الحطب ، والأنثى تدخل تلك النار وتحترق ، والفرخ يبقى زوج الذكر ؛ وإن كان الفرخ ذكراً فالعنقاء الذكر يفعل مثل ذلك ويبقى الفرخ زوج الأنثى“ .

ويظهر أن القزويني سمع أقوالاً أعجب مما ذكر عن العنقاء ، ولكنه إذ لم يجد له سنداً « من قائل يعتمد » اكتفى بهذا القدر . ونحن نرى فيه أكثر من الكفاية ، خصوصاً وأن القزويني يرجع دون انتباه على أسطورة أخرى من أصل يوناني ذكرها ابن الفقيه في « مختصر كتاب البلدان » على لسان طيميات الحكيم الذي زعم في كتاب له عن « الحيوان » أن في المشرق طيراً يقال له « بنجس » Phénix في مدينة يقال لها مدينة الشمس ، قال فيطير هذا الطائر ويجمع بمنقاره عيدان الدار صيني ثم يضطرب عليها بجناحيه حتى يشعل ناراً من تلك العيدان فتأكله حتى يصير رماداً ، ثم ينشؤ من ذلك الرماد دودة فلا تزال تنمو وتزيد حتى تكون طيراً كما كان ، وذلك في خمسمائة عام .

ويغرق عمر بن وردى فى التهويل كمادته فيقول : ” وهذا الرخ طير عظيم مهول الهيئته ، حتى قيل إن طول جناحه الواحد نحو عشرة آلاف باع “ أى حوالى ثمانية عشر كيلو مترا ؛ ومعنى هذا أنه فى طيرانه يغطى بين جناحيه من الأرض أكثر من ستة وثلاثين كيلو مترا .

أما الدمشقى فى « نخبه الدهر » فهو أقرب فى وصفه إلى ما جاء فى رحلة ماركو بولو ، إذ يذكر فى عرض وصف جزيرة القمر [مدغشقر] ” ويقال إن الطائر المسمى الرخ بها ، يرى طائراً فى الجو الأعلى ؛ ويجدون فى شرق الجزيرة من ريشه ، تسقط فيتخذونها أوعية للماء . وسعة القصبة أكثر من شبر ونصف ، وطولها نحو القامة ، سوداء ؛ وسمك جوفها غليظ بغلظ إصبع ويصل هذا الريش عند التجار يسمونه ريش الرخ “ .

وقد عرفنا بعض ما جاء بكتاب « عجائب الهند » عن الرخ وريشه ، وهو لا يخرج كثيراً عن طرائف القزوينى ، ولا عن الصورة المتواضعة التى صورها ابن وردى .

ورد أبو الحسن المسعودى على كل هذا بكلمة جديرة بالبقاء ، إذ قال تعليقا على أحاديث العنقاء والنسنان ” وليس فى خلقها ما يصعب على قدرة الخالق جل وعز ، ولكننا نأبى أن نصدقها ما دامت لم تتكشف لأعيننا ، ولم نسمع بها ممن نعتد بكلامه “ .

لم يمنع هذا علماء القرن التاسع عشر من البحث عن مصدر الأسطورة . فقد سمع جوفروا سانتليير أن أهل مدغشقر يقطعون بوجود الطائر الكبير الذى عثر الجيولوجيون على بقاياها الحفرية ، وبيضه المتحجر ، وأطلقوا عليه اسم

Aepyornis باعتباره طائراً منقرضاً . وبين أن تكون هذه الطيور قد انقرضت في العصور الجيولوجية ، أو هي ما تزال باقية لم يرها إلا سكان مدغشقر الأصليون ، مجال واسع للأسطورة ، بل للخرافة .

وتحدث الدكتور جون كيرك في أواخر القرن الماضي إلى سلطان زنجبار السيد برغش في شأن الرخ ، وكتب بمحدثه إلى الكولونيل يول Yule مترجم رحلة ماركو بولو إلى الإنجليزية : قال بأنه ضحك عندما جاء ذكر الطائر العظيم ، ولكن السلطان بدت عليه علامة الجذو وأكده اعتقاده بأن حديث هذا الطير ليس حديث خرافة ، وأنه يغشى أرض القارة في مقابل زنجبار فيلقى بظله الهائل فوق الأودية ، وقد يرمى بصخور كبيرة . ولم يدع السلطان بأنه رآه رأى العين ” ولكن عنده من الأسباب ما يجعله واثقاً من صحة تلك الأخبار “

وصف العلماء اثني عشر نوعاً من البقايا التي عثروا عليها للطائر المنقرض *Aepyornis* بجزيرة مدغشقر . ويبدو أن أكثر قامات هذه الطيور ارتفاعاً لم تتعد مترين إلا بقليل ، وكانت طيوراً ذات سيقان غليظة يظن جوفروا سانتيلير G. Saint-Hilaire أنها من قبيل النعام . بينما عدها الأستاذ بيانكوني ، وكان من أكثر علماء التاريخ الطبيعي عناية بأسطورة الرخ ، من نوع العقبان . وأحدث الآراء أن الـ *Aepyornis* كان بدائى الأجنحة ، صغير عظم الصدر . وقد وجد بعض بيضه المتحجر وهو أكبر ما عرف من بيض الطيور حتى الآن . وربما كان هذا البيض مصدر الأسطورة ، ولو أن لازمة الأساطير من المغالاة تعدت كل الحدود في التهويل . لأن البيض الذي عثر عليه في الحفريات لا يتعدى ثلاثة وثلاثين سنتيمتراً في الطول وأربعة وعشرين سنتيمتراً في العرض ؛ وقدرت

سعة الواحدة منه تسعة لترات . ويقطع العلماء بانقراض « الإيرونس » رغم إصرار السكان الأصليين على أنهم رأوه . وربما كان انقراضه خلال القرن السابع عشر ؛ وفي هذا ما يعزز أساس أسطورة القرون الوسطى من الواقع .

وأكبر الطيور الحية في عصرنا الحاضر نوع من الجوارح اسمه « الكوندور » *Vultur gryphus* وهو يسكن أعالي جبال الأنديس قرب الشاطئ الغربي من أمريكا الجنوبية . وأكبر ما عرف منه طير عرض المسافة بين طرفي جناحيه الممتدين أربعة أمتار ونصف . وقد وصف فون هومبولت von Humboldt قدرته على إنهاك فريسته من ذوات الأربع ، وإفزازها حتى تتردى في الهوات السحيقة فينقض عليها ليفترسها .

وقيس عقاب أصماه أحد أعضاء البعثة الفرنسية في مصر أيام حملة بوناپرت ، وكان القياس بحضور العلماء مونج وبرتوليه والجراح لاريه ، فكان عرض المسافة بين الجناحين المدودين يقرب من خمسة أمتار .

ولو قد صدقنا الأب بوليفار وما نقله عن الرحالة تيفنو لوجدنا في وصفه ما يقارب بين الأسطورة والواقع . قال : ” والطائر كوندور في أكبر جرمه رآه البرتغاليون أثناء حروبهم ضد مملكة سفالة وكوامة وبلاد الكفرة . . . ورأيت في بعض النواحي ريشة جناح هذا الطائر الضخم ، ولو أنني لم أر الطائر بنفسى . وكان طول الريشة ثمانية وعشرين شبراً . وعرضها ثلاثة أشبار ، وسمكها كاستدارة زند رجل وسط . . . وحدث من رأى الطير أنه في جرمه أكبر من فيلين . . . وأنه يرتفع إلى ما فوق السحاب بسرعة عجيبة حتى لا يكاد الرائي يدرك أنه يحرك أجنحته ، وهو في شكله كالنسر “ .

وعيب تيفنوا أنه هو الآخر عرف أمر الرخ بالسماع ، وإن كان قد رأى شيئاً قيل له بأنه ريشة ذلك الطير . كما أكد غيره من الرحالين أن قصبة كبيرة كانت تباع في أسواق عدن باسم « ريشة الرخ » ويغلب أن تكون قصبة من هذا النوع أرسلت إلى بلاط قبلاى خان بالصين ، وهى التى أشار إليها ماركو بولو .

فإذا كانت أسطورة الرخ قائمة على مغالاة الرحالين ، فإن الريشة التى تنسب إليه لم تكن خرافة ما دامت قد رؤيت رأى العين . ويظن ألفريد جرانديدييه مؤلف « التاريخ الجغرافى لدرغشمير » فى أواخر القرن الماضى أن مايباع فى اليمن على أنه ريش الرخ ، ويستعمل دنأ للماء ، هو فى الحقيقة قصبة نوع من الخيزران . وأيد الكولونيل يول هذا التفسير وعرف الخيزران بأنه من نوع *Sagus ruphia* أو *Urania speciosa* .

هذا مجمل ما عرفناه عن أسطورة الرخ . وهى تستند إلى بعض الوقائع وإن تغلب عليها العنصر الخرافى نتيجة المبالغة ، فهى مثلاً لما ورد فى كتب الجغرافيا العربية ، وحددنا له إقليما وهميا قائماً بين الواقع والأساطير .

التنين

جاء بكتاب « عجائب الهند » أن في البحر حيات عظيمة هائلة يقال لها التنين . إذا مر السحاب في كبد الشتاء على وجه الماء خرج التنين من الماء ودخل فيه مطمئناً إلى برودته لما يجد في البحر من حرارة الماء ، إذ أن ماء البحر في الشتاء يسخن كالرجل . وتهب الرياح على وجه الماء فترفع السحاب عن سطح البحر . ويستكن التنين في السحب التي تتراكم وتسير من أفق إلى أفق ، فإذا استفرغت ما فيها من الماء خفت وصارت كالهباء ، وتفرقت وقطعتها الرياح ؛ فلا يجد التنين ما يتحامل عليه فيسقط إما في البحر وإما في البر . فإذا أراد الله بقوم شراً أسقطه في أرضهم فيبتلع جمالهم وخيلهم وأبقارهم ومواشيهم ويهلكهم ؛ ويبقى حتى لا يجد شيئاً يأكله فيموت أو يهلكه الله .

ويزعم ابن شهر يار أن بعض التجار والربابة أبصروه غير مرة يعبر على رؤوسهم أسود ممدوداً في السحب ، كلما تراخت هبط إلى أسفلها ورسب . وربما تدلى طرف ذنبه في الهواء ، فإذا أحس يبرد الهواء زج بنفسه وتحامل في السحاب وغاب عن الأنظار .

ويصف عمر بن الوردى التنين بأنه طويل كالنخلة السحوق ، أحمر العينين ، كرية المنظر ، له أنياب كأسننة الرماح ؛ وأكثر ما يظهر في بحر الروم وبحر الخزر [قزوين] . ” ذكروا أنه يرتفع من هذا البحر تنين عظيم يشبه السحاب الأسود ، وينظر إليه الناس . وزعموا أنه دابة عظيمة في البحر تؤذى دوابه فيبعث الله عليها سحاباً من سحب قدرته فيحملها ويخرجها من البحر ؛ وهي

صفة حية سوداء لا يمر ذنبها على شيء من الأبنية العظام إلا سحقته وهدمته ،
ولا من الأشجار إلا هدمتها . وربما تنفست فأحرقت الأشجار والنباتات .
قال فيلقيا السحاب في الجزائر التي بها ياجوج وماجوج فتكون لهم غذاء .
ويشير القزويني في « آثار البهراء » إلى ما جرى من أمر عجيب بقرية
اسمها كلز من أعمال حلب ، في أواخر ربيع الأول سنة تسع عشرة وستمئة
هجرية . وكتب عامل كلز إلى حلب كتابا بعصبة ذلك وهو أنهم رأوا هناك
تنيناً عظيماً ، غليظاً كالمنارة ، ينساب على الأرض والنار تخرج من فيه ودبره ؛
فما سر على شيء إلا أحرقه . حتى أتلفت مزارع كثيرة وأشجار عديدة .
وصادف في طريقه بيوت التركمان وحرقاتهم فأحرقها بما فيها من الناس
والمواشي . ومضى على هذا المنوال عشرة فراسخ ، والناس يشاهدونه من البعد
حتى أغاث الله أهل تلك النواحي بسجابة أقبات من البحر وتدلّت حتى
اشتملت عليه ، ورفعته نحو السماء والناس يشاهدون ذلك حتى غاب عن أعينهم .
ثم يضيف القزويني على هذا الوصف ، دون أن تختلج عيناه أو يبتسم
” وقد لف التنين ذنبه على كلب ، والكلب ينبع في الهواء “ !

ويصف التنين في « عجائب المخلوقات » بعظم الخلقة وهول المنظر وطول
الجثة وعرضها ، كبير الرأس ، براق العينين ، واسع الفم والجوف ، كثير
الأسنان ؛ يخافه حيوان البر والبحر ، إذا تحرك هاج البحر وماج . ” والتنين
يكون أول أمره حية متمردة تأكل من دواب البحر ما ترى . فإذا عظم
فسادها بعث الله تعالى ملكاً يحتملها ويلقيها في البحر ، فتفعل بدواب البحر
ما كانت تفعله بدواب البر ، ويعظم جسمها . فيبعث الله تعالى ملكاً يحتملها

ويلقيها إلى يأجوج ومأجوج . وروى عن بعضهم أنه رأى تنيناً سقط فوجد طولهُ فرسخين ، ولونه مثل لون النمر ، مفلساً كفلوس السمك ؛ وله جناحان عظيمان على هيئة جناح السمك ، ورأس مثل التل العظيم كرأس الإنسان ، وأذنان طويلتان ، وعينان مدورتان كبيرتان جداً ، ويتشعب من عنقه ستة أعناق طوال ، كل عنق نحو عشرين ذراعاً ، على كل عنق رأس كرأس الحية .

وعلق ياقوت الحموي على هذا ، وقد نقله في « معجم البحار » :
” قلت هذه صفة فاسدة لأنه قال أولاً رأسه كرأس إنسان ، ثم قال ستة رؤوس كرؤوس الحية . وقد نقلته كما وجدته ، ولكن تركه أولى . “

حقاً كان تركه أولى بياقوت الحموي ، الكاتب الحق . وقد حسب أنه قضى على الخرافة بهذا التذليل . أكان صعباً على مروجي الأساطير أن يردوا على اعتراضه بأن للتنين سبعة رؤوس واحدة كرأس الإنسان ، وستة كرؤوس الحيات ؟ أى حرج عليهم بعد أن أخرجوا النار من فم التنين ودبره ، وصوروه آناً حية من حيات البر ، وآناً آخر ثعباناً من ثعابين البحر تحمله الملائكة إلى يأجوج ومأجوج ؟

وكما انتهى الحموي في تعليقه بالتشكك ، فقد بدأ حديثه عن التنين متحرجاً . قال : ” وأما ذكر التنين فرأينا منه بنواحي حاب ما ذكرته في ترجمة كلز ، وجعلته حجة على ما أورده هاهنا من خبره ، وشجعتني على كتابته . فإن الإنسان شديد التكذيب بخبر ما لم ير مثله “ . وبعد أن يقص من أمر التنين ما عرفنا يقول : ” وحدث المعلى بن هلال الكوفي قال : كنت بالمصيصة فسمعتهم يتحدثون أن البحر ربما مكث أياماً وليالي تصطلق

أمواجه ، ويسمع له دوى شديد . فيقولون ما هذا إلا لشيء آذى دواب البحر
فهى تضح إلى الله تعالى . قال فتقبل سحابة حتى تغيب في البحر ، ثم تقبل
أخرى حتى عد سبع سحابات . ثم ترتفع جميعاً في السماء وقد حملن شيئاً يرون
أنه التنين حتى يغيب عنا ونحن ننظر إليه يضطرب فيها . فرجما وقع في البحر
فتعود السحابة إلى البحر بالرعد الهائل الشديد والبرق العظيم حتى تغوص في
البحر وتستخرجه ثانية ، فتحمله . وربما اجتاز وهو في السحاب ، وذنبه
خارج عنها ، بالشجر العادى ، والبناء الشامخ ، فيضربه بذنبه فيهدم البناء
من أصله ، ويقلع الشجر بعروقه . ولقد احتمله من بحر أنطاكية فضرب بذنبه
بضعة عشر رجلاً من أبراج سورها فرمى بها .

وفى أخبار الفرس — كما ورد « بمختصر البلدان » لابن الفقيه — أن
أنوشروان لما فرغ من سد ثغر بلنجير ، وقيد الفند في البحر وأحكمه ، سر
بذلك سروراً . فأمر أن ينصب له على الفند سرير من ذهب . ثم رقى إليه ،
فحمد الله وأثنى عليه وقال : يارب الأرباب ، ألهمنى سد هذا الثغر ، وقع
العدو ، فلك الحمد . فأحسن مشوبتى ، ورد غربتى . ثم ركع وسجد ثم استوى
واستلقى على فراشه وأغنى إغفاءة . فطلع طالع من البحر سد الأفق لطوله ،
وارتفعت معه غيامة سترت الضوء ، وأهوى نحو الفند . فبادر الأساورة إلى
قسيهم ، وانتبه الملك فزعا فقال ما شأنكم ، فقيل له . فقال : أمسكوا عن
سلاحكم ، فلم يكن الله عز وجل ليلهمنى الشخوص من وطنى اثنى عشر حولاً ،
حتى أسد ثغراً يكون مرفقاً لعباده ، وراحة لأهل أقليمه ، ثم يسلط على بهيمة
من بهائم البحر . فتنحى الأساورة وأقبل الطالع نحو الفند حتى علاه ثم قال

له : أيها الملك ! أنا ساكن من سكان هذا البحر . وقد رأيت هذا الثغر مسدوداً سبع مرات ، وخراباً سبع مرات ؛ وأمر الله جل وعز إلينا معاشر سكان البحر أن ملكا عصره عصرك ، وصورته صورتك ، يبعثه الله يسد هذا الثغر ، فيسده إلى الأبد . وأنت ذلك الملك . فأحسن الله مثوبتك ، وعلى البر معونتك ، وأطال مدتك . وسكن يوم القزع الأكبر وعتك . ثم غاص في البحر .

هذا بعض ما جاء في كتب الجغرافيا العربية عن التنين . وبحث الأسطورة فيه كثير من الإغراء ولاشك . وأول ما يتجه إليه الباحث العصري هو المقارنة بين التنين العربى ، وبين ما حكى الملاحون المستحدثون عن أفعوان البحر الكبير Great Sea-Serpent . وهذا موضوع شائك لم يصل فيه العلم إلا إلى نتائج سلبية ، وما زال الناس بين مصدق ومكذب لأمر الحيوان البحرى الغريب ، الذى يدعى بعض البحرىين حتى العصور الحديثة أنهم رأوه ؛ ومنهم من سجل وصفه فى أزمنة السفينة ، وعزز الوصف برسم كروكى . وكذبتهم فيه أغلبية . ورفض العلم أن يعترف بحكايات محبوكة ، لا سند لها من الواقع . لأنه ما لم تتح للعلماء فرصة رؤية كل أو بعض هذا الحيوان ، لا يمكن أن يطلب إليهم تصديق حكاية أفعوان هائل ، رآه البعض يتلوى على سطح الماء ، ورأى البعض الآخر رأسه وزعانفه ؛ وغيرهم لم ير له زعانف ، ولو أنه لاحظ فلو سه كفلس السمك . وليس مما يسهل قبوله أن لا يعثر على أثر « الأفعوان البحرى الكبير » بعد هذه القرون الطويلة ، وبعد كل ما حققته مباحث البحار على يد البعثات العلمية . ولم يكن رفض العلماء

للأسطورة كافياً للقضاء عليها . فهي ترفع رأسها بين الفينة والفينة ، وتلتوى على الناس من جديد . حتى يهدئ العلماء الخواطر ، ويمزقوا الأسطورة بالبراهين تمزيقاً . ولكنها تعود إلى الظهور كرأس « الهيدرا » ذلك الحيوان الخرافى الذى قضى عليه هرقليس ، وكان كلما قطع رأساً من رؤوسه نبتت له رأسان بدله . وآخر ما ظهر من أسطورة التنين كان فى بحيرة من بحيرات اسكتلندا منذ بضع سنوات حين ادعى أحد الناس أو نفر من الناس أنهم رأوا الأفعوان البحرى الكبير فى « لوخ نيس » .

لست أَرْضَى أن أتعرض لهذا الموضوع الشائك ، وأنا أقرب ميلاً إلى اعتبار خرافة الأفعوان البحرى الكبير مظهراً من مظاهر هستيريا الجماهير . ولا يتعدى الأمر أن يكون الرحالون قد رأوا ذراعاً من أذرع أخطبوط كبير يتلوى على سطح الماء فحسبوه أنفى . وقد جربت بنفسى كيف يختلط الأمر على أشد الناس علماً ، حينما لا يملكون أكثر من النظرة العابرة عن بعد على بعض الأحياء البحرية ، لا يبدو منها فى الماء إلا جزء ضئيل . كنت مسافراً على ظهر سفينة علمية جهزت للكشف العلمى بالبحار ، وحولى فريق من شباب العلماء ، يرأسنا عالم كهل واسع الشهرة فى بحوث المحيط الهندى . عبرت سفينتنا بحيوان ظهر لنا بعضه على وجه الماء قرب الغروب . وأثبتت بعد ذلك بقليل ما وعته الذاكرة منه فى رسم كروكى . وأطلق عليه أحدنا بضع رصاصات . وحاولنا أن نقرب منه وهو يتعد . وتجادلنا فلم يتفق أحدنا مع الآخر على ما يكون ذلك الحيوان . فمننا من قال بأنه نوع من البال . ومننا من حسبه قرشاً ما . وظلت صورة الحيوان منطبعة فى رأسى أكثر مما هى فى

الرسم الكروكي حتى أتيت لي فرصة فخص سمكة كبيرة جنحت على شاطئ
قناة السويس عند موضع اسمه كبريت . وما إن وقع نظري على رأسها حتى
عرفت غريمنا في المحيط الهندي . فهو ذلك السمك الغضروفي النادر ، أكبر
الأسماك طرّاً ، المعروف عند الإخصائين باسم « القرش القيطسى » . وهذا
الاسم في ذاته يعد خلاصة لجدالنا على ظهر السفينة العلمية . فالقيطس *Cetus*
هو ما نسميه في العصور الحديثة « الحوت » ، وما عرفه العرب باسم الفال
والبال والوال أو الأوال أو البلينة *Balaena* ، والحيوان الذي عبرنا به في المحيط
الهندي ، واشتغلت بتشريح شبيه له قرب السويس ، سمك غضروفي بعينه
من نوع القرش اصطلح على تسميته بالقرش القيطسى *Whale-Shark*
لتشابه سطحه بين فتحة فيه وفتحة فم بعض أنواع البال .

ومن العبث أيضاً أن أقارن بين أسطورة التنين العربية ، وبين الأساطير
الأجنبية المشابهة عن « الدراجون » وما إليه من الحيوانات الخرافية التي
تملأ الأساطير اليونانية والإسكندنافية والجرمانية ؛ مع أن الوصف الذي
وصف به القزويني تنين كلز هو أقرب الأوصاف إلى التنين الذي يظهر على
المسرح في رواية « سيجفريد » إحدى حلقات الرباعية القاجرية أو إلى
« الدراجون » الذي يصوره المصورون مصروعاً تحت أقدام مارجرجس ،
أو آمرا للجميلة أندرميدا ، أو حارساً للجزء الذهبية بأرض كولخيدا في
أسطورة الأرجونوتية . من العبث المقارنة بين الأسطورة العربية وبين تلك
الأساطير ، لأن ذلك لا يقدم ولا يؤخر خطوة .

إنما أنا أتابع بحثي في أسطورة التنين العربية ، ناهجاً النهج المستقيم الذي

حددته ، وهو أن أبداً بعدم تكذيب من أشاعوا الأسطورة ؛ ثم أبحث فيما خبرت من أمر البحر بنفسى ، وفيما قرأت من أخبار البحار ، عما يمكن أن يكشف لى عن أصل الأسطورة العجيبة . أى أننى أقطع الطريق عائداً من الأسطورة إلى أساسها فى الواقع .

أما أن أبحث عن أصل الأسطورة فى الأحياء البحرية التى رأيتها أو قرأت عنها ، فهذا أيضاً عبث لا طائل تحته . لأنه ليس فى أحياء البسيطة اليوم ، ولا فيما عرفناه وشهدنا آثاره من الحيوانات التى انقرضت فى العصور الجيولوجية الخالية ، ما يمكن أن يقربنا من هذا المخلوق العجيب الذى جمع بين الزواحف والطيور والأسماك ، وله مع ذلك رأس إنسان . ثم هو يقذف بالنار من خلف ومن قدام .

ولقد اتجه انتباهى أول ما اتجه إلى مسألة السحاب فى الأسطورة ، وإلى أن ظهور التنين مصحوب باصطفاق الأمواج وهياج البحر ، وهدم المباني واقتلاع الأشجار . فمن البين أن الأمر خاص بظاهرة من الظواهر البحرية الجوية تعرف باسم « نافورة الماء » وهى ظاهرة رياح إعصارية حلزونية يعرف الكثير صورة مصغرة لها فى الصحراء باسم « ريح العفريت » حينما يرون عموداً من الغبار أو الرمال يصعد إلى الجو فى حركة دائرية سريعة . وقد رأى خيالنا فى هذه الظاهرة الصحراوية عفريتاً من الجن يطلق ريحه على تلك الوتيرة . كما خلق الخيال العربى من ظاهرة « نافورة الماء » تنيناً .

« نافورة الماء » إعصار فوق البحر ينشأ عن تفاعل ريحين متضادتين تدوران حول نطاق جوى منخفض الضغط ، منخفض الحرارة . ويتكاثف

بخار الماء في هذا النطاق فيبدو في صورة عمود يصل بين البحر والسحاب . وقد ينقطع العمود في موضع وسط بين السحاب وسطح البحر ، بسبب جفاف الماء في ذلك الموضع ، بالنسبة لرطوبة المواضع القريبة من السحاب ، أو القائمة فوق سطح البحر مباشرة . « نافورة الماء » إذن دوامة ، أو دُردُور هوائى . تبلغ سرعة الرياح الدائرة فيها درجة شديدة جداً . ويحدث أن تمتص الرياح في دورانها بعض الماء من سطح البحر .

شاهدت هذه الظاهرة مرة في البحر الأبيض المتوسط وأكثر من مرة في المحيط الهندى . وكانت تبدو على بعد سحيق منى . كنت ألاحظ أول الأمر عند خط الأفق خطاً موازياً له هو قاع سحاب كثيف منخفض . ثم يتدلى من نطاق السحاب بروز كالذنب ويتجه نحو سطح البحر . وقد يظهر حينئذ بروز مقابل يرتفع من سطح البحر . وكأننا حيال ظاهرة « استلكتيتية » من السحاب و « استلجميتية » من البحر . ويلتقى العمودان . ثم ينفصلان بعد فترة من الزمن تطول أو تقصر تبعاً لقوة العوامل المؤثرة . ثم يعود خط الأفق البحرى مستقيماً ، بينما يبقى الذنب السحابى مدة وهو ينعكش مرتفعاً ليتلاشى في مجموعة السحاب المطبق .

وقد وصف برجيه Berget في « دروس الأحياء الجغرافية الطبيعية »

نافورة الماء بقوله :

”وتمت نوع من الأعاصير الدائرة تسبب النكبات . وهى على عكس السيكلون ، تحدث في كل المناطق وجميع الأوقات . تلك هى « النافورات » تظهر فوق البحر وفوق الأرض ، فهى برية وبحرية . وكان حظ النافورة

البحرية من الفحص والدراسة أكثر من حظ النافورة البرية ، فهي موضوع دراسة البحريين منذ أكثر من قرنين ، وقد دونوا ملاحظات عنها عديدة بقدر ما هي دقيقة .

”نذر النافورة البحرية أن تظهر في أطباق الجوالسفل سحابة من تلك السحابات السوداء الداكنة التي تعرف باسم *Cumulo-Nimbus* ويبدو كأن بروزاً أو جيباً يتدلى رويداً من أسفلها نحو سطح البحر . فإذا بلغ مدى كافياً رأى ماء البحر وقد بدأ يغلي في الموضع المقابل للجيب أو البروز . ثم يرتفع ماء البحر في كتلة مزبدة ، على شكل بروز أو ورم مائي في اتجاه الجيب الغيمى ... ثم يحدث أن يلتقى بروز الماء ببروز السحاب . فإذا اجتمعا اكتمل تكوّن العمود الذى يتخذ بقليل من الوضوح شكلاً حلزونياً . وتجرى فى داخل هذا النطاق حركة مص شديدة جداً ؛ وهنا تعتبر النافورة البحرية متكوّنة .

”فتبدأ فى عملها بهزيم رهيب ، وتسحب نحو الغمام كتلة الماء والهواء فى حركة مص لها صرير معلوم . ثم هى تتحرك بحركة السحاب الذى تكونت منه ، وفى اتجاه تحركه . أما استدارة الرياح فى صعودها حلزونياً بالعمود المائى فحركتها سريعة متناهية فى الشدة . ويلاحظ أنه لما كانت السحابة المكونة للنافورة عاصفية فى أغلب الأحيان ، فإن النافورة تكون مصحوبة على وجه عام بظواهر إعصارية معتادة كالبرق والرعد والبرد .

”فالنافورات ظواهر خطيرة تتميز باضطراب عنيف جداً لكتل الهواء فى نطاق لا يزيد قطره عن مائة وخمسين إلى مائتى وخمسين متراً على الأقصى متخذاً الشكل الحلزونى . ومع أنها مخيفة جداً بالولايات المتحدة فإن قطرها

هناك لا يتعدى كيلو متراً واحداً على الإطلاق . .

”ومع أن النافورات قد تحدث في أى الأوقات وأى المواضع ، فإن الغالب حدوثها في الموسم الحار . ومع ذلك فقد حدثت بالولايات المتحدة في آخر الشتاء أو في الربيع . . . وطابع النافورة الأساسى هو فجائيتها . وعلامتها انخفاض فجائى في الضغط الجوى من السرعة والشدة بحيث تولد حركة التخلخل الفجائى انفجاراً داخلياً في الأجسام ؛ يفسر هذا ما تحدثه النافورة في سرورها ، فتتطاير ألواح النوافذ ، وتنزع أسقف المنازل . بل شوهدت القطع الخشبية التى ترصف بها الشوارع تتطاير في الهواء كأن الشوارع ألغمت ، وذلك أثناء النافورة البرية التى حدثت في إحدى ضواحي باريس سنة ١٨٩٧ . وتقتلع النافورة الأشجار ، بل وترفعها في حركتها الدورانية لتلقى بها بعيداً . وقد اقتلعت في جبال الجورا بفرنسا سنة ١٨٩٠ منازل صغيرة“ .

أما وقد عرفنا ما هي « النافورة البحرية » فلم يبق إلا أن نعود إلى القرون الوسطى لنرى كيف وصف ملاحو العرب تلك الظاهرة وصف من رآها رأى العين ، وإنما هم هواة المعارف البحرية والمولعون بالغريب المعجب ، المصدقون لكل حديث مهما كان مصدره ، نسوا أو تناسوا ، وربما جهلوا أو تجاهلوا المعارف الأصلية حتى لم يبق من نافورة الماء سوى قول ابن الوردي : ”والتنين كالنخلة السحوق ، أحمر العينين ، له أنياب كأسنة الرماح“ .

فهذا سليمان التاجر في سنة ٨٥١ م يقول في عرض كلامه عن بحر هز كند و بحر شلاهط :

”وربما رؤى في هذا البحر سحاب أبيض يظل المركب فينشرع منه

لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر فينفل له ماء البحر مثل الزوبعة . فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته . ثم يرتفع ذلك السحاب مطراً فيه قذى البحر ، فلا أدري أيستقى السحاب من البحر أم كيف هذا .

ولا يبعد أن يكون المسعودى فى القرن العاشر ناقلاً عن هذه الفقرة إذ يقول :

”وذكر لى جماعة من النواخذة أنهم ربما رأوا فى هذا البحر سحاباً أبيض قطعاً صفاراً يخرج منه لسان أبيض طويل حتى يتصل بماء البحر . فإذا اتصل به غلا البحر لذلك وارتفعت منه زوابع عظيمة لا تمر زوبعة بشيء إلا أتلفتة ، ويمطرون عقب ذلك مطراً سهكاً فيه أنواع من قذى البحر .

ويصف بحر الشام قائلاً :

”وكذلك بحر الشام فالتنانين فيه كثيرة ، وأكبر ما تكون فيه مما يلى بلاد طرابلس واللاذقية والجبل الأقرع من أعمال أنطاكية . وليس تعرف التنانين فى البحر الحبشى ولا فى شيء من خلجانه . وأكثر ما يظهر فيما يلى بحر أقيانس . فقد اختلف الناس فى التنين ، فمنهم من رأى أنه ربح سوداء تكون فى قعر البحر ، وتظهر إلى النسيم وهو الجو ، فتحلق بالسحاب كالزوبعة إذا ثارت من الأرض واستدارت وأثارت معها الغبار وهشم الأرض والنبات ، ثم استطالت فى الهواء ذاهبة الصعداء ، فيترهق الناس أنها مبات سود قد ظهرت من البحر ، لسواد السحاب ، وذهاب الضوء ، وترادف الرياح . ومنهم من رأى أنها دواب تكون فى قعر البحر فتعظم وتؤذى دواب البحر ، فيبعث الله تعالى بالسحاب والملائكة فتخرجها ؛ وإن ذلك على صورة الحية السوداء

لها بريق وبصيص لا يمر ذنبها بشيء إلا أتى عليه من بناء عظيم أو شجر أو جبل . وربما تنفّس فتحرق للشجر الكبير ، فيلقها السحاب في بلاد يأجوج ومأجوج ، ويمطر عليها البرد فيقتلها ، ومنها يتغذى يأجوج ومأجوج وقد ذكر في التين غير ما وصفنا . وكذلك حكى قوم من أهل السير وأصحاب القصص أموراً فيما ذكرنا أعرضنا عن ذكرها من أنها حيات سود تكون في الصحارى والجبال ، فتجذبها السيول ومياه الأمطار فتقذفها في البحر فتتغذى من دواب البحار فتعظم أجسامها وتطول أعمارها . فإذا انتهى الواحد منها في البحر خمسمائة سنة غلب على دواب البحر . . . وأن منها سوداً وبيضاً على قدر الحية في نفسها . والفرس لا تنكر كون التين في البحر ، وتزعم أن له رؤساً سبعة وتسميه الأجدّهان ، وتضرب به في أخبارها الأمثال . والله أعلم بكيفية ما ذكرنا ، والأخبار في هذه المعاني تأباها كثير من النفوس ، ولا تقبلها كثير من العقول ، لم نعرض لإيرادها .

فبينما اكتفى التاجر سليمان بوصف ما رأى ، وكان من أقدم وأصدق من وصف النافورة البحرية ، جاء المسعودي ونقل عن النواخدة — وربما عن سليمان نفسه — هذا الوصف البديع . ثم اضطر إلى نقل أسطورة التين باعتبارها شيئاً آخر غير الظاهرة المتقدمة . وكانت الأسطورة ولا شك متداولة في عصره ، نقلًا عن الأساطير الفارسية ؛ فذكرها وحاول تفسيرها التفسير المحقول كظاهرة في ذاتها ، لا علاقة لها بما سمعه من النواخدة . ثم حمل نفسه على نقل تفسير أصحاب « السير والقصص » لها ؛ وخامره القلق بعد ذلك ، فلم يرض أن يترك الموضوع دون أن يثبت صورة من تشككه في صحته ،

ولو صورة غير حاسمة . والمسعودى مؤرخ وجغرافى واسع الاطلاع ، بحث وسافر وقرأ وكتب كثيراً ، ولكنه كالتغالبية من أهل عصره ضعيف ملكة النقد والمقارنة ، قوى ملكة جمع المعارف وحشدها دون تمييز بين غثها وسمينها ، يعنى بالتسجيل أكثر مما يعنى بتحقيق ما يسجل . وهو معترف كامل الاعتراف بذلك . فهذا الرجل الذى راح يفسر المد والجزر تفسيراً علمياً فيبحث فى أثر القمر ثم الشمس ثم الرياح ، ويناقش الآراء الواردة فى أثر كل ، لا يتردد بعد كل هذا الجهد العلمى فى أن ينقل أخبار « أهل السير وأصحاب القصص » عن الملك الموكل بالبحار يضع عقبه — وقيل إبهامه — فى أقصى بحر الصين فيفور منه البحر فيكون منه المد . ثم يرفع عقبه من البحر فيرجع الماء إلى مركزه ويطلب قعره فيكون الجزر . وإن احترامنا لمعارف هذا الرجل الإنسيكلوبيدية يجعلنا نلتمس له كثيراً من العذر فى موقفه ، وعلى الأخص حين يسمع للشك بأن يتطرق إلى نفسه ويظهر فى كتبه عند نقل أمثال هذه الأخبار . فهو القائل بصدد أسطورة « الملك الموكل بالبحار » : ” وما ذكرنا فغير ممتنع كونه ، ولا واجب . وهو داخل فى حيز الممكن والجائز . لأن طريقه فى النقل طريق الأفراد والآحاد ، ولم يرد مورد التوارد والاستفاضة كالأخبار الموجبة للعلم ، والعلل القاطعة للعذر فى النقل . فإن قارنها دلائل توجب صحتها وجب التسليم لها . . . وإن لم يصح ما ذكرنا فقد وضعنا آفنا ما قال الناس فى ذلك ليعلم من قرأ هذا الكتاب أننا قد اجتهدنا فيما أوردناه فيه وغيره من كتبنا ، ولم يغرب عنا فهم ما قاله الناس فى سائر ما ذكرنا “ .

وجاء الشريف الإدريسي فى القرن الثانى عشر ، فوصف فى موسوعته

الجغرافية « **تذهة المشتاق** » الظاهرة البحرية وصفاً واضح النقل عن سليمان .
أما سلوك الدمشقي حيال التنين فكان محيراً حقاً ، إلا أن يكون التساخ
قد حذفوا شيئاً من كلامه . فهو قائل في « وصف بحر طرابزندة ، أو بحر الروس
ويسمى بُنطُس والأسود » :

” وكثيراً ما يظهر بهذا البحر التنين الذي يزعم منه **ولا علم عنده** أنه
حيوان حي ، وأنه تنقله الملائكة من البحر إلى جهنم عند عتوه وطغيانه على
دواب البحر . وأنه يكون في جهنم من جملة حياتها وأنواع العذاب فيها . وزعم
آخرون أن التنانين دواب تكون في قعر البحر فتعظم وتؤدي ما فيه من
دابة [إلى آخر ما نقلناه عن كتب أخرى] والتنين يوجد في البحر
الرومي وبحر الخزر وبحر ورنك بكثرة ، وكذلك في سواحل المحيط بالأندلس “ .
فصاحب « **نخبة الدهر** » غير مصدق لمن يزعم بأن التنين حيوان حي .
ولكنه لم يصرح بما يعتقدده هو فيه ، ونراك لنا أن نستنتج إذا كان التنين
نباتاً أو جحاداً أو ظاهرة بحرية أو جووية . المهم عند الدمشقي أن هناك معلومات
إيجابية عن شيء يقال له التنين ، وأن هذا الشيء موجود بالبحار التي عددها ،
وأن كل ما قيل عن الملائكة ونقلها للتنين إلى جهنم وغير ذلك زعم من
لا علم عنده .

إنما الرجل الذي لا يمكن أن نجد له عذراً هو أبو زكريا محمد القزويني ،
فهذا العلامة قد لمس حقيقة الظاهرة البحرية لمساً . ولم يحل ذلك بينه وبين
إيراد الخرافات عن التنين . ففي مقدمات « **عجائب المخلوقات** » ، ذلك
الكتاب الذي يضعه في تاريخ العلوم الشرقية موضع پلينيوس الكبير في

العلوم الغربية ، نراه ينص في وصفه للرياح على مايلي : ” الزوبعة ، وهي الريح التي تدور على نفسها شبه منارة . وأكثر تولدها من رياح ترجع من الطبقة الباردة ، فتصادف سحاباً تذروه الرياح المختلفة . فيحدث من دوران الغيم تدوير في الرياح فينزل على تلك الهيئة . وربما يكون مسلك صعودها مدوراً فيبقى هبوبها كذلك مدوراً كما يشاهد في الشعر المجعد ، فإن جمودته قد تكون لاعوجاج المسام . وربما يكون سبب الزوبعة التقاء ريحين مختلفي الهبوب . فإنهما إذا تلاقيا تمنع إحداها الأخرى عن الهبوب فتحدث بسبب ذلك ريح مستديرة تشبه منارة . وربما صادفت الزوبعة السفينة فترفعها وتدورها وتغرقها . وربما وقعت قطعة من الغيم في وسط الزوبعة فتدورها في الهواء فترى شبه تنين يروى في الجو “ .

ماذا جرى لهذا العالم بعد أن وصف نافورة البحر هذا الوصف الدقيق ، وأدرك أن قطع الغمام ربما وقعت وسط الزوبعة فرؤيت شبه تنين في الجو ؟ لماذا أصر الرجل على عزل الظاهرة الإعصارية عن الأسطورة . وإن كان قد فهم الأولى إلى ذلك الحد ، فلماذا لم يفهم أن الثانية هي الصورة الشعبية للأولى ؟ بل أصر على وصف التنين كحيوان هائل ، مفلس كفلوس السمك ، له جناحان عظيمان ، ورأس إنسان كأنها التل الكبير ، وستة رؤوس على شكل رؤوس الحيات ؟ . ماذا جرى لهذا الرجل حتى يصف في كتابه « آثار البعور » تنين حلز ينساب على الأرض ، والنار تخرج من فيه ودبره والناس يشاهدونه من البعد . وقد أقبلت سحابة من البحر وتدلّت حتى اشتملت عليه ورفعته نحو السماء ” وقد لف التنين ذنبه على كلب ، والكلاب

ينبع في الهواء ؟

إما أن يكون القزويني ، وهو الذي قدم لكتابه « عجائب المخلوقات » بمقدمات منطقية تعد نموذجاً للأسلوب العلمي في اللغة العربية كتابة وتفكيراً قد فقد ملكة النقد في طريقه إلى إتمام الكتاب . أو أن رغبته في تصيد المعجب والغريب تسلطت عليه فرضي أن يبقى على أسطورة التنين منفصلة عن أصلها من الواقع ، مستنداً إلى روايات العوام ، مصداقاً تهريف أهل كاز ولسان حاله يقول : ! se non è vero, è ben trovato . ويكون مثله في ذلك مثل أولئك الكتاب الذين يبدؤون حياتهم بدءاً طيباً ثم يفرم الكسب ، وتجرفهم الشهرة فينحدرون سراعاً إلى مستوى الجماهير المستيرية ، يداهنون نزعاتهم السوقية ، ويشبعون شهوتهم للخبر الطريف الجذاب . وإلا فكيف نفسر نزول علامة كالقزويني إلى هذا الإسفاف الذي نقله من رجل كابن الوردى في « غريرة العجائب » أو كابن وصيف شاه في « مختصر العجائب » .

ما أبعد ما بين وصف الإعصار الحلزوني في مذكرات التاجر سايمان ، بل وفي مقدمة « عجائب المخلوقات » لقزويني ، وبين ما قاله هذا القزويني نفسه عن التنين دون كلمة شك وتجريح ينقذ بها سمعته ، كما فعل المسعودي والدمشقي وياقوت الحموي !

شجرة الوقواق .

جزائر واق الوقاق ! علم على غير معلوم ، ركن من دنيا الطفولة ، حين كان
يجمعنا الشتاء حول المدفأة النحاسية بين الجدّة والخالة ، والحررة البيضاء
والسوداء تستدقن ، والكستناء تفرقع وتنفجر عن بشرة مجمدة يختلط
اصفرارها الباهت بحمرة الشواء الداكنة .

جزائر واق الوقاق ! تبدو لمراهقتنا خلال الصحائف الصفراء وقد أخذنا
في مطالعة الكتب القديمة ، تبدو وتغيب فيما وراء العامر والغامر ، في لحف
جبل قاف ، وعبر البحر المحيط بالدنيا ، أرضاً من سندس ، وأرضاً من كافور
وأشجاراً تصدح من فوقها الأطيّار ، وأخرى تطرح ثمرأ من رؤوس آدمية ،
تتأمل عند طلوع الشمس وهبوب الرياح وهي تصيح : واق واق ، تبارك
الله الخلاق . وتتناعى لدى هدوء الريح وغروب الشمس وهي تسبح : واق
واق ، تبارك الله الخلاق .

سافرنا إليها في طفولتنا والسكري يهوى على الأجفان . يحملنا إليها صوت
حنون يقص علينا قصة البصري . قصدنا إليها في مراهقتنا ونحن نتنقل بين
صفحات كتاب قديم . وعدنا إليها شباباً وقد فقدت سحرها البدائي ، وبانت
لنا مسرحاً من مسارح الغرام ، ورمزاً من رموز الثبات على الهوى .
واليوم نعود إلى جزائر الواق واق رجالاً هادئين نبحت في مؤلفات
القرون الوسطى عن أصلها ومكانها على أنها حقيقة جغرافية ، وعن تطوراتها
في كتب العجائب وتخيلات العامة على أنها أسطورة من الأساطير .

ما يكاد ينتصف القرن التاسع الميلادي حتى نسمع عن تلك الجزائر في كتاب « المسالك والممالك » لعبيد الله بن خرداذبة . إذ يقول بأن طول البحر الشرقي الكبير أربعة آلاف وخمسمائة فرسخ من القلزم إلى الوقواق ، ويحدد موضعها في مشارق الصين ، ويصفها بكثرة الذهب حتى إن أهلها يتخذون سلاسل كلابهم وأطواق قروهم من ذهب ، ويأتون بالقمص المنسوجة بالذهب للبيع ، وبها الأبنوس الجيد .

وفي أوائل القرن العاشر يشير أبو زيد حسن السيرافي إلى بلاد في شرق الصين لم يصل إليها أحد من العرب ليحدث عنها ، تعرف بجزائر السيلا . وهي البلاد التي ذكرها المسعودي في « مروج الذهب » وأكد في منتصف القرن العاشر بأن كل من وصل إليها من الغرباء استقر بها وأبى الخروج عنها لصحة هوائها وكثرة خيرها . أما الوقواق فرجما اتخذت في جغرافية المسعودي وضعاً آخر ، فهي فوق زنجبار إلى ناحية الجنوب من سفالة الزنج .

ومع أن هذا هو كل ما ورد ذكره عن الوقواق فيما بقي لنا من كتب المسعودي ، فإن الإدريسي حوالى منتصف القرن الثاني عشر ، نوه في جغرافيته بأن المسعودي نسب إلى شجرة بجزائر الوقواق أموراً غير معقولة لدرجة أن الإدريسي رآها غير جديرة بالذكر .

فما هي تلك الأمور غير المعقولة التي نسبها المسعودي إلى شجرة الوقواق ؟ لأنه إذا صدق ما عراه الإدريسي إليه ، يكون المسعودي أول من ردد في كتاب علمي أسطورة بدأت تتناولها الألسن في القرن العاشر . وإذا كان حقيقياً أن كتاب « مختصر العجائب » من تأليف المسعودي يكون ما جاء به

عن الوقواق هو بعض ما عناه الإدريسي بإشارته إلى أبي الحسن . ولكن البارون كارا دي ثو ، مترجم المختصر إلى الفرنسية ، يرجع نسبة الكتاب إلى المدعو إبراهيم بن وصيف شاه . وأيا كان مؤلف « مختصر العجائب » فإن ما جاء بين صفحاته يسمح لنا بمطالعة أول صورة مكتوبة لخرافة الوقواق . قال المؤلف بأن من الأجناس الغريبة التي تسكن في أقاصى شرق العالم جنساً أقرب إلى الإنسان ، يعيش في جزائر الوقواق ” وكلهم على شكل النساء يصحن واق واق . وإذا قبض على واحدة منهن سقطت مائتة . وإن المسافر إذا عبر إلى جزيرة أخرى من هذه الجزائر رأى جنساً آخر من النساء أجمل وجهاً ، وأحسن قواماً ، وأطيب رائحة . يعيش يوماً واحداً في الأسر . وجو تلك الجزيرة عبق برائحة الكافور ، وليس بها رجال قط “ .

ثم يتحدث عن جزائر الوقواق وذهبها الكثير ، بمثل ما جاء بكتاب ابن خرداذبة . و « المختصر » ، إذا لم ينص تماماً على الشجرة التي اشتهرت بها الوقواق ، فإن ذكره لجنس من النساء يموت بمجرد اقتناصه ، يقربه كثيراً من وصف الشجرة التي تحمل ثمرأ من نساء ، يمتن إذا فصلن عن فروعها . ويلاحظ هنا أن خرافة الوقواق مقرونة بخرافة أخرى أقدم عهداً هي أسطورة « جزائر النساء » .

وجاء مظهر بن طاهر المقدسي في عصر « مختصر العجائب » فذكر في كتاب « البرء والتاريخ » أن بيلاد الهند شجراً يعرف بالوقواق يحمل ثمرة يقال بأنها تشبه الرؤوس الآدمية .

وفي بعض مخطوطات القصة الفلسفية التي ألفها ابن طفيل في أواخر

القرن الثاني عشر إشارة إلى جزيرة في الهند فوق خط الاستواء ، يولد فيها الناس بلا أبوين . كما تنبت هناك شجرة تثمر جنساً من النساء ذكره المسعودي باسم « بنات الوقواق » .

يمكن أن نستنتج إذن أن أسطورة الوقواق كانت كثيرة التداول في غضون القرن العاشر وما بعده إلى حد أن يشير إليها ابن طفيل وهو يعرض لفلسفة وليد الطبيعة « حي بن يقظان » في أواخر القرن الثاني عشر . مع أن أبا الريحان البيروني كان قد كذبها في أول القرن الحادي عشر حين قال في كتابه عن الهند : " جزائر الوقواق من جملة قير [أي بلاد كامبوجيا في الهند الصينية] . وهو اسم لا كما تظنه العوام من أنه شجرة حملها كرهوس الناس تصيح " .

وحينما وضع ياقوت الحموي « معجم البلدان » بعد مضي نحو قرن على كتب البيروني كانت الخرافة قد توطدت على الرغم من تكذيب البيروني لها ، إلى درجة أن صاحب المعجم اكتفى بالإشارة الآتية إلى جزائر الوقواق : " الوقوة نباح الكلب . والوقواق كثير الكلام . وهي بلاد فوق الصين يحىء ذكرها في الخرافات " .

ولم يمنع ذلك عالماً من علماء التاريخ الطبيعي والكوزموغرافيا العربية وهو القزويني ، الذي رأيناه وسنراه دائماً فارس المهبجاء في ميدان الخرافات ، من أن يؤيد في عصر ياقوت الحموي أسطورة الوقواق في كتابيه « آثار البهراء » و « عجائب المخلوقات » . بل يمكن أن نحمله تبعاً لإشاعتها لما أصاب كتابه الأخير من الذبوع والانتشار .

قال القزويني بأن الوقواق جزائر في بحر الصين ، متصل بجزائر الزابج [أى مجموعة جزائر الهند الشرقية] ، والمسير إليها بالنجوم . وإنما سميت بهذا الاسم لأن بها شجرة لها ثمرة على صور النساء معلقات بشعورها ، يسمع منها صوت واق واق . ونقل عن الرازي أنها بلاد كثيرة الذهب حتى إن أهلها يتخذون سلاسل كلابهم وأطواق قرودهم من الذهب ، ويأتون بالقمصان المنسوجة من الذهب . وحكى عن عيسى بن المبارك أنه سافر إلى تلك البلاد ، ودخل على ملكتها فرآها على سريرها عريانة ، وفوق رأسها تاج ، وعندها أربعة آلاف وصيفة عريانة أبكار .

وجاء الدمشقي في أوائل القرن الرابع عشر فقال في كتابه « نخبه الذهب » :
”وأما جزائر الوقواق الداخلة في المحيط فإنها خلف جبل أضطيقون بالقرب من ساحل البحر ويوصل إليها من بحر الصين . والواق شجر صيني شبيه بشجر الجوز وخيار الشنبر ، ويحمل حملاً كصورة الإنسان . فإذا انتهت الثمرة سمع السامع منها واقواق مرات ثم سقطت“ .

أى أن الدمشقي حاول تفسير الخرافة تفسيراً علمياً ، وكان في هذا سابقاً للمستشرق الهولندي الكبير دى خوى بخمسة قرون . فالوقواق عند الدمشقي شجر بعينه ، يشبه ثمرة صورة الإنسان . بل إن كتاب « عجائب الهند » ، إذا اعتبرنا تاريخ كتابته في القرن العاشر ، يكون أسبق بكثير من الدمشقي في ذكر الأصل الذى نبتت منه الخرافة ، إذ يقول مؤلفه :

”وحدثني محمد بن بابشاد عن حدثه ممن دخل الوقواق أن هناك شجراً كباراً له ورق مدور ومنه ما هو إلى الطول ، يحمل حملاً على مثال القرع ،

إلا أنه أكبر منه . وصورته صورة الناس . تحركه الرياح فيخرج منه صوت .
وأن داخله منفوخ مثل حمل المُشر . فإذا قطع عن الشجرة خرج الريح من
ساعته وصار مثل الجلد : وأن بعض البانانية رأى الحمل فتعشق صورة من
الصور فقطعها ليحملها معه فلما قطعها خرج الريح منها فبقيت كالغراب الميت .
عَبَثًا كانت هذه الإشارة من صاحب كتاب « عجائب الهند » ومحاولات
البيروني والدمشقي وبينهما ثلاثة قرون ، نحو تحرى الدقة العلمية . فلم تكن
إلا لتزيد الخرافة ثبوتاً . واتخذت الخرافة شكلها النهائي ، مقترنة بأسطورة
« جزائر النساء » في « فريدة العجائب » التي ألفها عمر بن الوردي إبان القرن
الرابع عشر .

يقول ابن الوردي بأن جزائر الوقواق متصلة بالزابع . وهي ألف وسبعائة
جزيرة عامرة . والذهب بها كثير . ملكتهم اسمها دهمرة رآها عيسى بن
المبارك السيرافي عريانة على سرير من ذهب ، وبين يديها أربعة آلاف وصيفة
أبكار حسان ، وفي رءوسهن أمشاط إلى عشرين مشطاً . وبهذه الجزائر
شجر يحمل ثمرًا كالنساء أجساماً وسيقاناً ، صباح الوجوه ، معلقات بشعورهن
ينخرجن من غُلف كالأجربة الكبار . فإذا أحسن بالهواء صحن واق واق حتى
تنقطع شعورهن . فإذا انقطعت سقطن أمواتاً . وقد رأى المسافرون بعض
نساء تلك الأشجار أكبر من النساء ، وأطول شعوراً ، وأرشق قواماً ،
وأطيب ريحاً . إذا قطعن من شعورهن عشن يوماً أو أياماً . عزف الرجالون
بقربهن نعيماً لا مثيل له . وأرض الجزائر كثيرة الطيب ، غنية بالذهب
والأبنوس والطيور ، لا يعرف ما بعدها سوى علام الغيوب .

هذه هي جزائر الوقواق ، وتاريخ تطورها من جزائر بعيدة كثيرة الذهب إلى بلاد تسكنها النساء بلا رجال وتحكمها امرأة ، إلى جزائر ينبت فيها شجر كشجر الجوز ، أو خيار الشنبر ، ثمرة على مثال القرع شبيه برأس إنسان ، إلى منابت أشجار تحمل حملا كالنساء اعتدالا وجمالا ، بل هن أطيب ريحا وأرشق قذا . فلماذا لا ينتهي المنطق بالخرافة إلى أن يتزوج الرجالون بينات الوقواق يوماً أو بعض يوم ؟

ولكن كل هذا البناء الخرافي باعد بين الباحثين وبين تعرف الحقائق الأصلية التي سمع بها الرحالة العرب ودونوها . وأول هذه الحقائق وأهمها : ما هي تلك الجزائر في الواقع ، وأين يكون موضعها من خريطة العالم اليوم ؟ يكاد يجمع المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب على تحديد هذا الموضع إلى الشرق من الصين . ولكن هذا التحديد وحده لا يكفي ؛ فقبل أن ننظر في أمره ، ينبغي أن نستبعد مواضع أخرى لجزائر الوقواق ذكرها المسعودي وابن الفقيه .

قال أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه صاحب «مختصر البلاء» ، في وصف البحر الشرقي الكبير : ”وهو آخذ من المغرب إلى القلزم ، حتى يبلغ واق واق الصين . وواق واق الصين هو بخلاف واق واق اليمن ، لأن واق واق اليمن يخرج منه ذهب سيء“ .

وذكر أبو الحسن المسعودي أن ”ليس بعد بلاد الصين مما يلي البحر ممالك تعرف ولا بلاد توصف ، إلا بلاد السيلي وجزائرها . ولم يدل إليها من الغرباء أحد من العراق ولا غيرها فخرج عنها إلا النادر من الناس . لصحة

هوائها ، ورقة مائها ، وجودة تربتها ، وكثرة خيرها“ . بينما جاء في عرض كلام عن « السودان وأنسابهم واختلاف أجناسهم » : ” فسكنت الزنج في ذلك الصقع ، واتصلت مساكنهم إلى بلاد سُفالة ، وهي أقاصى بلاد الزنج . وإليه يقصد مراكب العمانيين والسيرافيين وهي غاية مقصدهم في بحر الزنج . كما أن أقاصى بحر الصين متصل ببلاد السيلي ... وكذلك أقاصى بحر الزنج هو بلاد سفالة . وأقاصيه بلاد الواق واق ، وهي أرض كثيرة الذهب كثيرة العجائب“ .

ولا نعرف شيئاً عن واق واق اليمن التى ذكرها ابن الفقيه . أما واق واق الزنج التى يتحدث عنها المسعودى فقد فسرهما دى خوى مستنداً إلى شرح رينوفى مقدمته لجغرافيا الشرقيين ، حيث بين أن الإصطخرى وابن حوقل والإدريسى وابن سعيد من جغرافى العرب أخذوا بجغرافيا بطليموس . وهذا متأثر بنظرية الجغرافى اليونانى هيبارخوس القائل بأن الشاطئ الشرقى للقارة الإفريقية ، بعد أن ينحدر إلى الجنوب حتى سفالة الزنج ، يتجه شرقاً فى محاذاة خط الاستواء حتى يصل إلى الجنوب الشرقى من قارة آسيا . والمحيط الهندى فى رأى هيبارخوس بحر متوسط كبحر الروم . إلا أن مخرجه من الجنوب الشرقى إلى البحر الزفتى المحيط غير واضح الوصف لا عند الجغرافيين العرب الذين أخذوا عن بطليموس ، ولا عند هيبارخوس صاحب النظرية التى تأثر بها بطليموس .

على أساس هذه النظرية الجغرافية يفسر دى خوى وصف المسعودى لموضع الوقواق فى أقاصى بحر الزنج . وهى تصبح فى هذه الحالة إلى الجنوب

أو الجنوب الشرقى من الصين .

أما تفسيري لهذه الفقرة من « مروج الذهب » فتقوم على شك في سقوط كلمتين . ولا أشك اعتباراً ، بل إننى أحس نقصاً فى جملة : ” وكذلك أقاصى بحر الزنج هو بلاد سفالة . وأقاصيه بلاد الواق واق . وهى أرض كثيرة الذهب الخ ... “ . إلا أن يقول : ” وكذلك أقاصى بحر الزنج هو بلاد سفالة ، وبلاد الواق واق . وهى أرض الخ ... “ . لست إحصائياً فى مراجعة النصوص ، فلا أدعى لما أقترحه أكثر من محاولة توضيح موقف المسعودى من النظريتين اللتين اقتصمتا آراء الجغرافيين فى الزمن القديم والقرون الوسطى . وهما نظرية هيبارخوس وبطليموس التى أشرت إليها ، ونظرية إيراتوسطين واسطرابون التى تصورت الشاطئ الإفريقى كما نعرفه فى الوقت الحاضر على وجه التقريب .

فأنا أقترح إضافة كلمتين إلى الفقرة التى اعتبرها سبباً فى الغموض الذى رآه بعض المستشرقين فى موقف المسعودى من النظريتين . والكلمتان هما « بحر الصين » يضافان إلى الفقرة ، بدل ضمير الغائب فى كلمة « أقاصيه » فتصبح هكذا : ” وكذلك أقاصى بحر الزنج هو بلاد سفالة ، وأقاصى بحر الصين بلاد الواق واق . وهى أرض كثيرة الذهب كثيرة المعائب “ .

وجدير بالذكر أن رينو فى مقدمته لجغرافيا الشرقيين لم يضع المسعودى ضمن من اعتنقوا نظرية هيبارخوس وبطليموس . بل قال بأن البيرونى وأبا الفدا ، وربما البتانى والمسعودى ، كانوا من رأى إيراتوسطين واسطرابون فى اتجاه شاطئ شرق إفريقيا إلى الجنوب ثم استدارته فى اتجاه الغرب .

ولو أنه لا العالمين اليونانيين ، ولا الجغرافيين العرب تصوروا توغل شاطئ إفريقيا في الجنوب إلى المدى الذي نعرفه اليوم . وكان هذا الاقتضاب أكبر مشجع للملاحين فيما بعد على أن يحاولوا فينجدوا في الدوران حول رأس الأعاصير [الرجاء الصالح فيما بعد] .

فإذا لاقى تفسيري بعض الحظ عند أهل الاختصاص ، تركت أقوال الجغرافيين العرب عن الوقواق في أنها إلى الشرق من الصين ، أو فوقها ، أي إلى الجنوب منها . ولكن بين الشرق والجنوب بونا شامعاً كان سبب الخلاف بين المستشرقين في تحديد موضع الجزائر . فالوقواق هي جزائر الهند الشرقية في عرف الانجليس ، ومدغشقر عند رينو ، وسيشل في رأي دي سلان ، ويعتقد إدوارد لين أنها جزيرة بورنيو ، ويظهر أن فيران أراد أن يعتمد على قول البيروني بأنها « في جملة قير » ليضعها إلى الجنوب أو الجنوبي الشرقي من الهند الصينية .

ولكن نظرية دي خوى تبدو أقرب هذه النظريات جميعاً إلى الإقناع . فالمستشرق الهولندي الكبير يرى أن جزائر الوقواق هي اليابان ، ويستند في هذا إلى أن ابن خرداذبة وابن حوقل والمقدسي وابن الفقيه وياقوت الحموي والبيروني والقزويني والدمشقي وصاحب « مختصر العجائب » أجمعوا على أن الوقواق في شرق الصين . كما اتفقوا على أن الأبنوس الجيد ينبت في أرضها ، وقد تأكد من حكاية الأبنوس في دائرة المعارف اليابانية الكبرى . أما وصف جغرافي العرب لهذه الجزيرة بكثرة الذهب ، فهو متفق مع ما جاء برحلة ماركوبولو عن جزيرة « تسيلانجو » إلى الشرق من الصين .

وتتخذ نظرية دى خوى شكلاً جذاباً حين ينصرف إلى البحث عن مصدر اسم « الوقواق » ذاته . وقد توقع المستشرق العلامة أن يكون الرحالون العرب سمعوا بهذا الاسم على أفواه الصينيين فى خانقو ميناء الصين الأكبر . وهذا بحثه إلى أن بلاد اليابان عرفت من قديم عند الصينيين من سكان تلك المدينة ، وفى لهجة أهلها باسم « ووقوق » . أما الاسم الحديث الذى تعرف به تلك البلاد ، وهو مشتق من « يبين » أى مشرق الشمس ، فلم يطلق على بلاد « ووقوق » إلا منذ القرن السابع الميلادى . واستغرق اختفاء الاسم القديم بعض الوقت .

ويظهر أن لا خلاف بين الباحثين على أن جزائر السيلان — أو السيلي — هى ما تعرف اليوم باسم شبه جزيرة كوريا . وكتاب العرب فى القرون الوسطى كانوا يطلقون كلمة جزيرة على الأرض المحاطة بالماء من جميع جهاتها ، أو من أغلب جهاتها . أما كلمة شبه الجزيرة فستحدثه .

بقيت بعد هذا خرافة شجرة الوقواق ، وكيف وصلت إلى العرب . وقد بحث دى خوى عن أشجار يابانية يمكن أن يكون مرآها قد أثار عند بعض الرحالين فكرة الشجرة التى تحمل ثمرأ من رءوس آدمية . كما كنا نعتقد فى صبابنا بأن جوز الهند إنسان وسخط ثمرأ . فأقمنا علاقة مباشرة بين شجرة الوقواق وشجرة جوز الهند ذاتها . وخيل إلينا أن الثمرة التى تصل إلى بلادنا مقطوعة ، كانت فوق شجرتها تصيح « واق واق » ثم ماتت وجفت . وقد قال ابن بطوطة يصف النارجيل : ” وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأناً وأعجبها أمراً . وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما إلا أن هذه ثمر

جوزاً وتلك ثمر تمرأ . وجوزها يشبه رأس ابن آدم لأن فيه شبه العينين والقم وداخلها شبه الدماغ إذا كانت خضراء ، وعليها ليف شبه الشعر ... ويزعمون أن حكماً من حكماء الهند في غابر الزمان كان متصلاً بملك من الملوك ومعظماً لديه ، وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معادة . فقال الحكيم للملك : إن رأس هذا الوزير إذا قطع ودفن تخرج منه نخلة ثمر بثمر عظيم يعود نفعه على أهل الهند وسوام من أهل الدنيا فأمر الملك برأس الوزير فقطع وأخذ الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه وعالجها حتى صارت شجرة وأثمرت بهذا الجوز . وهذه الحكاية من الأكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم .“

فلما بحث دى خوى عن نوع من الشجر ينبت في بلاد اليابان يمكن أن يكون مصدر الخرافة ، لم يجد له أثراً هناك . ولكنه عرف أن أسطورة الوقواق ذائعة بين اليابانيين ، وقد انتقلت إليهم من بلاد العرب ! ففي دائرة معارف يابانية ألفت في القرن الثامن عشر حكاية شجرة تنبت ببلاد الخلفاء المسلمين وتحمل ثمرأ شبيهاً بالرءوس الآدمية ، وهي رءوس تضحك ، فإذا ضحك طويلاً ذبلت وانفصلت عن الشجرة .

كما أن الإنسكلوبيديا الصينية التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر تصف شجرة عجيبة تنبت بجزيرة العرب ، ثمرها أطفال طول الواحد سبع بوصات ، يضحكون لمن يقترب منهم ، ويحركون أيديهم وأرجلهم ، ويموتون إذا قطعوا من الشجرة ، وتَسْوَدُ وجوههم .

يلوح لنا إذن أن بعض الرحالة العرب سمع عن بلاد الوقواق وهو يزور

الصين . ثم سئل هناك عن الشجر الذى ينبت فى بلاده ويثمر رءوساً آدمية . فلما أنكر ذلك قيل له بأنهم سمعوا بهذه الحكاية فى بلاد « ووفوق » . وانتفع دى خوى بما جاء فى كتاب « عجائب الهند » مما نقلناه آنفاً إذ يشبه المؤلف شجرة الوقواق بالقرع ، ويذكر بأن داخله منفوخ مثل حمل العُشَر . فعرف أن شجرة العُشَر لها ثمرة كروية يسمع لها صوت انفجار عند نضجها ، وأنها تنبت فى اليمن وفلسطين ، وبلاد السودان والنوبة . وكان من شكل جذوعها وأغصانها وخشبها الأملس الناعم ، ما دعا التيجانى إلى تشبيهها بسيقان وزنود النساء . واسم شجرة العُشَر العلمى هو *A. gigantea* أو *Asclepias procera* . وهذا ما وصل بكتاب العرب إلى حد جعل ثمار الشجرة جنساً من النساء . ولو أننا نرى فى الخبر الذى نقله صاحب « عجائب الهند » عن أن " بعض البانانية رأى الحمل فتعشق صورة من الصور فقطعها ليحملها معه " ما قد يكون مثيراً لخيال أهل « السير والقصص » . ومصدر الأسطورة على أى حال لا يمكن أن يكون بهذه البساطة . وفى رأى دى خوى أن القصة الشعرية الفرنسية المؤلفة فى أوائل القرون الوسطى ، التى تدور حوادثها حول شخصية الإسكندر الخرافى ، قد تكون مسؤولة عن خرافة الوقواق العربية . إذ أشارت القصة الفرنسية إلى أن الإسكندر رأى فى أسفاره بنات يعشن فى ظل شجرة لا يغادرنها أو يدركهن الموت . ولكن فون هومبولت يرجع القصة الفرنسية إلى أسطورة الوقواق العربية على اعتبار أن هذه الأخيرة هى الأقدم : وقد طالعت فى قصص ذى القرنين المؤسسة على تاريخ خرافى للإسكندر كتبه من انتحل اسم كالستينس ،

ويعرف في الآداب الأوربية باسم كالمستينس المزعوم Pseudo-Callisthenes ،
حكاية وصول ذى القرنين إلى شجرتى الشمس والقمر ، وهما شجرتان ذكر
وأثى ، تتكلم شجرة الشمس منهما عند طلوع النهار وانتصافه وقرب
المساء ، وشجرة القمر فى أول الليل ومنتصفه وقرب مطلع الفجر . وقد
خاطبت الشجرتان الإسكندر وتنبأتا له بالموت فى بابل . وحديث الشجرتين
والإسكندر وارد فى الشاهنامه .

ليس ببعيد أن تكون أسطورة الوقواق قد نشأت من بعض خرافات
كالمستينس المزعوم ، مضافة إلى الخيال العربى الخصب وقد توسع فى وصف
شجرة العشر وثمرتها . وليست خرافة النبات الذى يثمر حيوانا وحيدة من
نوعها فى القرون الوسطى . فقد نشأت فى أواسط آسيا أسطورة الماعز الذى
يزرع ، أو ما يعرف باسم الحمل التتارى *Agnus Tartaricus* ذكرها الرحالة
الصينيون منذ القرن التاسع . وسمع بها لرحالة الأوربى أدوريك فى القرن
الرابع عشر . جاء فى الوصف الصينى : ” ويوجد ببلاد فولين [أى الدولة البيزنطية]
أغنام تنبت من الأرض ، وينتظر الناس حتى تتم نموها ، فيحيطونها بسياج
منعاً للضواري عنها . فإذا قطع الحبل السرى الذى يصلها بالأرض ماتت ،
إلا أن يتبع فى فصلها عن الأرض طريقة الإفزاع . وذلك بأن يركب الفارس
ويهجم عليها بينما يحدث أصحابه بعض الأصوات المزعجة . فتأخذ الأغنام
المزروعة فى الشقاء ، ثم تنفصل عن حبلها السرى ، وتجرى لترعى الحشائش “ .
أما كيف تزرع هذه الأغنام العجيبة فقد سمع الصينيون أن التتار يحتفظون
بسمراتها ، ويبذرونها فى الأرض فتنبت قطعانا ! !

وإلى هذه الثمرة العجيبة يشير الرحالة الأفاق السير جون موندفيل

Maundeville في كلامه عن بلاد باختر Bactriane :

And there groweth a maner of fruyt as though it weren
Gowrdes, An thei ben rype men kutten hem a to and men
fynden withinne a lytyll best in flesch, in bon and blode,
as though it were a lytill lomb withouten wolle.

كل هذا يبعدنا عن جزائر الوقواق ، ووضعها الجغرافى . وقد نقل كتاب
« عجائب الهند » حكايات قوم رأوا من دخل الوقواق وأبحر بها . فوصف
سعة البلاد والجزائر ، "ولست أعنى بسعة البلاد أن البلدان كبار ، ولكن
أهل الوقواق كثير . وفيهم تشابه من الترك . وهم أحذق خلق الله بالصنائع ...
وهم أهل مكر وحيل وخديعة وخبت وشدة بأس فى كل شىء . وحدثنى ابن
لا كيس أنهم شاهدوا من أهل الوقواق ما يدهش . وذلك أنهم وافوهم فى
سنة أربع وثلاثين وثلثمائة فى نحو ألف قارب فحاربوهم حرباً شديداً ولم يقدرُوا
عليهم [على ابن لا كيس وقومه] لأن حول قنبلَة حصناً وثيقاً وحول الحصن خورا
فيه من ماء البحر ، وقنبلَة فى ذلك الخور مثل القلعة الحصينة ، وأنه وقع
إليهم قوم منهم [من أهل الوقواق] فسألوهم عن مجيئهم إليهم دون سائر البلاد .
فذكروا [أهل الوقواق] أنهم إنما جاءوهم [بقنبلَة] لأنَّ عندهم ما يصلح لبلادهم
[بلاد الوقواق] والصين ، مثل العاج والذبل والنمور (?) والعنبر ، ولأنهم يريدون
الزنج لصبرهم على الخدمة وجلدهم ، وأنهم جاءوهم من مسيرة سنة . ونهبوا
جزائر بينها وبين قنبلَة مسيرة ستة أيام . وظفروا بعدة قرى ومدن من سفالة
الزنج . . . فإذا كان قول هؤلاء وحكايتهم صحيحة ، أنهم جاءوا من مسيرة

سنة ، فهذا يدل على صحة ما ذكره ابن لا كيس من أمر جزائر الوقواق وأنها قبالة الصين والله أعلم .

وقنبلّة المشار إليها في حكاية ابن لا كيس جزيرة زنجبار في رأى فون ديرليت ناشر «عجائب الهند» ، ومدغشقر في رأى رينو ومينار ودى سلان .
فهى جزيرة ما ، تواجه سفالة الزنج . وفي هذا ما نستبعد معه أن يكون المسعودى قد أراد وضع جزائر الوقواق في أقاصى بر الزنج ، وإذا كان هناك إجماع من جغرافى العرب على أن أهل الوقواق فيهم شبه من الترك — أى المغول — فليست أرى كيف يمكن أن يتشابه الزنوج والترك ، بينما أفهم أن يقال هذا عن بعض الشعوب من الجنس الأصفر .

جزائر النساء

أشار صاحب «مختصر العجائب» إلى أن أمة الوقواق أقرب الأمم إلى الإنسان ، ولكنها أمة من النساء لا رجال بينها . وجاء في الكتاب نفسه وصف للأم التي خلقت قبل آدم ومنها أمة كالنساء ذوات شعور سبط ، أصواتهن رخيمة يسحرن بها رجالا من أم أخرى ويجتذبهم إليهن ؛ وجنس من السعالى يتشكل بشكل النساء الجميلات ويتزوجن الرجال ؛ ويقال بأن سعيد بن جبير تزوج واحدة من تلك السعالى دون أن يدرك من أمرها شيئا . وذات ليلة بينما كانت إلى جانبه فوق سطح المنزل المطل على الخلاء ، سمعت نواح نساء عن بعد . فقلقت وقالت لزوجها : أما ترى نار السعالى الموقدة ؟ لك منزلك وأولادك . ثم طارت ولم تعد .

ووصف الإدريسي في موسوعته الجغرافية «زهره المسان» ، بالجزء الرابع من الإقليم السابع ، جزيرتين مسكونتين في بحر الظلمات اسمهما «أمرانيس المجوس» الغربية منها يسكنها الرجال ، والشرقية يسكنها النساء . ويركب الرجال زوارقهم في كل ربيع ليسكنوا جزيرة النساء شهرا ثم يعودون إلى جزيرتهم حيث يقيمون إلى الربيع التالي ، حين يعود كل منهم إلى زوجته ، وهكذا .
والدمشقي يصف الجزيرتين في البحر الأخضر فيما يلي بلاد الصقالبة ويسميهما أرميانوس الرجال وأرميانوس النساء ، ويتفق الإدريسي والدمشقي على أن الجزيرتين لا يكاد من يروم الدخول إليهما يقع طرفه عليهما لكثرة الغمام وظلمة البحر وعظم الأمواج .

أما القزويني فينقل جزيرة النساء إلى بحر الصين . ويحكى عن بعض التجار أن الريح ألقته إلى هذه الجزيرة فرأى النساء لا رجال معهن . ورأى الذهب في تلك الجزيرة مثل التراب ، ورأى منه قضباناً كالخيزران . وهمت النسوة بقتله فحتمته امرأة منهن وحملته على لوح " وسببتني في البحر فألقتني الريح إلى بلاد الصين . فأخبرت صاحب الصين بحال الجزيرة وما فيها من الذهب فبعث من يأتيه بخبرها فذهبوا ثلاث سنين ما وقعوا بها فرجعوا " .

وأسطورة جزائر النساء من أقدم الأساطير وأوسعها ذيوها في الشرق والغرب ، ويظهر أن أساسها ديني ؛ فقد كانت عبادة الإلهة « أرتميس » اليونانية ، و « ديانا » الرومانيون ، تقتضي أن يهب كاهناتها وعذاراها حياتهن لها هبة كاملة ، فيعشن في عزلة عن الرجال . وكانت أرتميس تخرج للصيد مع كاهناتها وبناتها فيحظر على الرجال أن ينظروا إليهن . وكان نصيب « أكتيون » أن مسيخته الإلهة خنزيراً أسلمته لكلابها حينما تجرأ على مقام الإلهة رمز القمر ، فاختماً في الغابة لينظرها .

فالرهينة الوثنية سبقت الرهينة المسيحية بقرون . وفي بعض هذه الأخيرة تنقطع النساء عن العالم انقطاعاً تاماً وراء أسوار عالية ، ناذرات أنفسهن للعداء الطاعرة . وعند الهندوس توهب بعض البنات منذ ولادتهن للإله ، وفي ذلك يقول أبوزيد حسن السيرافي : " إذا نذرت المرأة بالهند نذراً وولد لها جارية جميلة أتت بها البُد ، وهو الصنم الذي يعبدونه ، فجعلتها له . ثم اتخذت لها في السوق بيتاً وعلقت عليه ستراً ، وأعدتها على كرسي ليجتاز بها أهل الهند وغيرهم من سائر الملل ممن يتجاوز في دينه وكما اجتمع لها شيء من

ذلك دفعته إلى سدة الصنم ليصرف في عمارة الهيكل . والله جل وعزه يحمد
على ما اختار لنا وطهرنا من ذنوب الكفرة به “ . ونحكي ابن الوردي عن
الهندوس أن صَلَاتَهُمْ غناء وتلحين وتصفيق بالأكف واجتماع الجوارى
الحسان ولعبهن بأنواع من التكسر والتخلع بين يدي الصنم . والمعبد الذي
به الصنم فيه ” جوار حسان راقصات متخلعات معدودة . وذلك أن المرأة إذا
ولدت عندهم بنتاً حسنة أخذتها أمها إذا كبرت وألبستها أنحر الملابس والحلل
وذهبت بها إلى المعبد ، وتصدق بها على الصنم ، وحولها أقاربها وأهلها من
النساء والرجال . ويسلمها السدة إلى أناس عارفين بالرقص والتكسر فيعلمونها “ .
يشير أبو زيد حسن ، ومن نقل عنه حتى ابن الوردي ، إلى الـ « ديفاداسي »
راقصات الإله بالمعابد الهندوسية . ونذرن من الطقوس الدينية المعروفة
إلى اليوم في معابد الهند والهند الصينية وسومطرا وبالي . ولكن هبة
الديفاداسي للهيكل ليس فيها ما يشبه طقوس الإلهة ديانا في شيء ، بل هي
من نوع النذر الأفروديتي الذي اتخذ في عهد الانحلال اليوناني ، ثم في
الإسكندرية ، مظهراً شبيهاً بما وصف به أبو زيد حسن في لغة غير مستترة طقوس
الديفاداسي على قارعة طريق المعبد .

وحدث الأرشمندريت بالآدياس عن فئة من البراهمة يعيش رجالها على
ضفة نهر الكنك ، ونساؤها على الضفة الأخرى ، ويعبر الرجال النهر المقدس
في أشهر الصيف ليعيشوا إلى جانب نسائهم فترة أربعين يوماً ، ثم يعودون
إلى صوامعهم على الضفة الأخرى . فإذا حلت المرأة ، كان هذا آخر عهد
زوجها بعبور النهر ، وإيذاناً بانصراف الناسك إلى عبادته ، حتى يدركه

الموت . وعرفت في دلتا الدانوب عشيرة لها طقوس شديدة الشبه بطقوس هؤلاء
البراهمة . إلا أن الرجال فيها لا يعبرون نهراً وإنما يقومون بتشويه أنفسهم .
وتمت صورة أخرى من عزلة النساء تبدو في حكاية « الأمازونة » ،
وهي أمة من النساء هن قادرة على ركوب الخيل والضرب بالنبال ، ذكرها
هيرودتس في الكتاب الرابع من تاريخه . وحكى كيف احتال الإستقوثيون
Scythes عليهن بأن أرسلوا جيشاً من ملاح الفتيان يعيشون على مقربة منهن ،
مقلدين طرائق حياتهن . فإذا هجمت الأمازونات عليهم تراجعوا حتى تعلمن
البنات إلى أنهم لا يقصدون بهن شراً . وكلما مضى الوقت على جيرة الفتيان
للأمازونات اقترب المسكران . حتى اجتمع ذات يوم فتى بفتاة وتخططا
بالإشارة فاستمال الشاب قلب الأمازونة وطالبتة بأن يعود إليها في اليوم التالي
ومعه واحد من أصحابه . وعادت إليه ومعها صاحبة لها . وانتهى الأمر بالآلفة
بين المسكرين ، فالتوحيد بينهما . وأراد الفتيان أن يرتدوا بزوجاتهم إلى
أهلهم فرفضت الأمازونات محتجات بأن لا قبل لهن بمعاشرة نسوة لا يعرفن
من الحياة سوى تدبير المنزل . أما هن فقد ضربن على الضرب بالقوس والرمي
بالنشاب وامتطاء صهوات الخيل .

وردد الفردوسي في « الشاهنامه » صدى حكاية الإسكندر ووصوله إلى
مدينة النساء في جزيرة لا يدخلها الرجال . وهي من الأساطير التي أذاعها
كالستينس المزعوم في تاريخه الخرافي لدى القرنين ، وقد ورد في هذه أن
ذا القرنين ذهب إلى أرض الأمازونة وهي أمة من نساء ذوات ندى واحد
” وكتب إليهن خطاباً ردت عليه ملكة الأمازونة تصف مملكتها وعادات

أهلها . وتقول بأنهن يعشن في جزيرة وسط نهر ، وإن عددهن مليون ونصف مليون من النساء لا رجل بينهن . وإنما يعيش الرجال في الناحية الأخرى من النهر ويعبرون إلى الأمازونات مرة في العام “ . وفي هذا تلطيف للأسطورة اليونانية ، حيث العداوة مستحكمة بين الأمازونات والرجال .

وأسطورة جزائر النساء تتراوح بين الرهينة المأذنة ، وبين الأمازونية العاتية . بين الأثني تتخلى عن العالم تطهراً وتعبداً ، وبين المرأة تقضى على أنوثتها ترجلاً ، أو تحدياً للرجال . فتبتز ثديها لتكون أكفاً للطعام والرمي بالقوس .

وهي تلتزم الاعتدال في حكاية الأرشمندريت بالادياس عن براهمة الكنك ، وفي حكاية شبيهة قصها اللورد مكارتنى عن قوزاق زابورايا الذين يتركون نساءهم ببعض جزائر الدنيبر ، ولا يزورونهن سوى فترة واحدة في العام . فإذا أنجب للنساء ذكوراً سلوهن لآبائهم يدرسونهم على الفروسية والقنص والقتال ، ويحتفظن بالبنات إلى جانبهن .

وتحدث ماركو بولو عن « جزائر الذكور والأناث » : “ ففي جزائر الذكور لا يسكن غير الرجال ... يذهبون في شهر مارس إلى جزائر النساء حيث يقيمون ثلاثة أشهر مع زوجاتهم ثم يعودون لتجارتهم وزراعتهم . وتسبق الأمهات بناتهن . أما الذكور فيرسلوهن إلى الآباء عند بلوغهم سن الرابعة عشر “ . وهذه هي الحكاية التي ردها الدمشقي والإدريسي والقزويني وغيرهم من جغرافيي العرب . ولو أنهم اختلفوا في تحديد موضع الجزائر . فهي آناً ببحر فارس ، وآناً إلى الجنوب من زنجبار . ومن قائل إنها بأقصى شرق

الصين ، أوهى فى عرض البحر الأخضر فيما وراء بلاد الصقالبة . وربما كانت خوريا موريا فيما حكاها ماركو بولو .

وللأسطورة بهذا الوضع تفسير حديث يستند على العقائد الدينية مرة أخرى . فسكان جزائر خوريا موريا ينتقلون فى الموسم إلى بلاد الشجر على ساحل جزيرة العرب لجمع اللبان ، وهو صمغ شجرة *Boswellia Carterii et spp.* ولما كانت لهذا اللبان منذ أقدم العصور قداسة خاصة ، إذ يحرق بخوراً فى معابد الشرق والغرب ، عنى أهل الشجر بطقوس جمعه حرصاً على خصائصه الروحانية . وهى خصائص قامت على حراستها حيات خرافية تمنع أن يقترب من الشجرة من لا يكتمل طهارة الروح والجسد . لهذا فرض سادة الشجر على جامعى اللبان من سكان خوريا موريا حياة منزهة ، فى عزلة عن النساء ؛ فيترك الرجال زوجاتهم بالجزائر طوال الموسم . مما يفسر أن يطلق عليها البحرىون جزائر الإناث ، ويكون ساحل الشجر فى هذه الحالة هو المقصود بجزائر الذكور .

هذه الصور المعتدلة للأسطورة تجعل للنساء صلة بالرجال ، ولو رهينة بأوقات معينة . إنما تتخذ الأسطورة شكلاً أمازونياً قاسياً على السنة القزوينى وحمد الله المستوفى فى كتاب «نزهة القلوب» ، وابن الوردى فى خريده العجيبة . ولعل أول مظهر للصورة القاسية ما جاء فى الملحمة الهندية الكبرى «ماهابهاراتا» حيث تقتل الأمازونات أطفالهن الذكور توا .

وقد نقل القزوينى عن الطرطوشى أن مدينة النساء مدينة كبيرة واسعة الرقعة ، فى جزيرة من جزائر بحر المغرب . أهلها نساء لا حكم للرجال عليهن ،

يركبن الخيل ، ويباشرن الحرب بأنفسهن ، ذوات بأس شديد عند اللقاء ؛
ولهن ممالك يختلف كل مملوك إلى سيدته ، ويقوم بالسحر ليخرج مستتراً
قبل انبلاج الصبح . فإذا وضعت إحداهن ذكراً وأدته في الحال . ويقول
الطرطوشي معقياً : ”ومدينة النساء يقين لا شك فيها“ .

ونحن أضعف يقيناً من الشيخ الطرطوشي هذا . ولكننا نفهم على الأقل
إمكان حصول ما حدث به . إنما تتخذ الأسطورة وضعاً خرافياً كاملاً حينما
تمتنع فيها الصلة بتاتاً بين الرجال وهذا النوع من النساء . ولا تجد الخرافة
مع ذلك مشقة في حل مشكل بقاء النوع . كما تلقى من أمثال التزويني وابن
الوردي وصاحب « **مختصر العجائب** » استعداداً لترديدتها .

فقد أجمع هؤلاء السادة على أن الأمازونات يلقحن من الريح ، ويلدن
إنثاً نخسب . وقيل بل يأكلن من ثمار شجرة تنبت بجزيرتهن . أو ينزلن
للاستحمام في ينبوع معين . وتذهب الأسطورة الصينية إلى أن مجرد إلقاء
نظرة على خيالهن في ينبوع كاف لتحقيق فيهن معجزة الأمومة العذرية
Parthenogenesis .

ويردد الأسطورة جمال الدين عوفي في الكتاب الذي ألفه بالفارسية
للوزير نظام الملك واسمه « **مجموع المحليات** » . فهو يصف الطريق إلى مغارة
العالج في بلاد سَفالة الزنج بأنه دهاس وعرة ، لا تسلك إلا في يوم السبت من
كل أسبوع . وفي وسط الدهاس مدينة النساء ؛ إذا سكنها الرجال فقدوا
صفات الرجولة رويداً ثم قضوا نحبتهم . وإذا ولد لأولئك النسوة غلام قبض
صغيراً . ويؤكد جمال الدين أنهن نساء مسلمات يؤدين الفرائض في أوقاتها ،

ويقمن بأعمال الفلاحة وشتى الصناعات . حياتهن نوع من الاشتراكية
السكاملة ، لا تزاحم فيها على العيش والكسب ، ولا تفاوت أو تمييز بين
الطبقات . الادخار ممنوع فيها ، واللذات محرمة ، حتى ما اقتصر منها على
التزين والتجمل . حياة مثالية يعلق عليها جمال الدين بقوله : ” فوالله إنهن
ليفضلن كثيراً من الرجال “ .

وحكاية نساء العالج تذكرنا بما أورده المقرئى عن نساء « البجّا »
القاطنات على شواطئ البحر الأحمر عند عَيْذاب ، بين مصر والنوبة .
أولئك نسوة يعشن من صناعة رماح مشهورة ، فى عزلة عن الرجال . . .
إلا من جاء منهم لشراء الرماح . وإذا ولدن غلاماً ذكراً قتلنه . حجتهن فى
ذلك « أن الرجال مبعث الشرور والحروب » .

ولنعد مرة أخرى إلى كتاب « عجائب الزهر » لنكمل حديث أبى الزهر
البرخى الذى نقلنا بعضه فى فصل سابق كأحسن ما جاء فى الآداب العربية
وصفاً للبحار [انظر صفحات ٤٥ إلى ٤٩] . فقد انتهينا من ذلك الحديث إلى
أن وصل ركاب سفينة أبى الزهر إلى جزيرة بعد أهوال ، وجعلوا يطرحون
على الرمال ويتمرغون على الأرض شوقاً إليها .

ورد عليهم تسوان من داخل الجزيرة لا يحصى عددهن إلا الله . فوقع
على كل رجل ألف امرأة أو أكثر ، وحماتهم إلى الجبال . وهناك مات
الرجال واحداً إثر واحد ، إلا أبو الزهر البرخى فقد أنقذته واحدة منهن ،
وخبأته . وكانت تزوره وحدها فى الليل ، وتحمل له قوته وشرابه ؛ والناخذاء
يدبر وسيلة للسفر ” بقارب المركب الذى يسمى القلوك “ . فلما فطنت المرأة

إلى ذلك أخذت بيده وجاءت به إلى موضع فنبشت في التراب بيديها عن معدن تبر ، ونقلت هي وهو ما صُبِّر به القارب . ثم أخذها معه وأمرى حتى عاد إلى بلاده . وأقامت المرأة معه حتى تنصحت وأسلمت ورزق منها الأولاد وسألها عن نسوان تلك الجزيرة وانفرادهن دون الرجال ، فقالت له :

”نحن أهل بلاد واسعة ومدن عظيمة محيطة بهذه الجزيرة . ومسافة ما بين كل بلد من جميع بلادنا وبين هذه الجزيرة ثلاثة أيام بلياليها . وكل مَنْ في أقاليمنا ومدننا من الملوك يعبدون هذه النار التي تظهر لهم بالليل في هذه الجزيرة . ويسمونها بيت الشمس لأن الشمس تشرق من طرفها الشرقي ، وتغرب في جانبها الغربي فيظنون أنها تبث في هذه الجزيرة . فإذا أصبح وأشرقت الشمس من جانبها الشرقي ، خفيت نارها وماتت ، وارتفعت الشمس فيقولون : هي هي . وإذا غربت في جانبها الغربي وأمسي ظهرت النار فيقولون : هي هي . فيعبدونها ويقعدونها بصلواتهم وسجودهم من سائر الجهات . ثم إن الله جعل المرأة في بلادنا تلد أول بطن ذكراً ، وثاني بطن أنثيين ، وكذلك باقي عمرها . فما أقل الرجال في بلادنا وأكثر النسوان . فلما كثرن وأردن التغلب على الرجال صنع لهم المراكب وحملوا منهم آلافاً وطرحوهم في هذه الجزيرة . وقالوا للشمس : يا ربهم أنت أحق بما خلقت ، وليس لنا بهم طاقة . ومنذ ذلك الوقت ما سمعنا ولا مر بنا أحد من الناس غيركم ، ولا يطرق بلادنا أحد على مر الأزمنة . وبلادنا في البحر الأعظم تحت سهيل لا يقدر أحد أن يجيء إلينا فيرجع ؛ ولا يجسر أحد أن يفارق الساحل والبر خوفاً أن تشربه البحار“ .

وفي رحلة ابن بطوطة حكاية من الحكايات التي دعت كثيراً من النقاد إلى التشكك من سفر عبد الله الطنجي إلى بلاد الصين . وهي حكاية نزوله ببلاد طوالسي ، عقب خروجه من ملّ نجاوه ، وركوبه الجنك عبر البحر الكاهل أو الراكد [الباسفيك؟] . ولعبد الله اللواتي الطنجي عيون متطلعة نحو النساء في كل رحلته ، فلندعه يتكلم :

”ثم وصلنا إلى بلاد طوالسي وأهل هذه البلاد عبدة أوثان حسان الصورة أشبه الناس بالترك في صورهم ، والغالب على ألوانهم الحمرة . ولم شجاعة ونجدة . ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ، ويقنطن كالرجال سواء . وأرسلنا من مراسيمهم بمدينة كنيوكري ولما كان في اليوم الثاني استدعت الملكة أزدجنا الناخودة صاحب المركب ، والكبراني وهو الكاتب ، والتجار والرؤساء ، والتنديار وهو مقدم الرجال ، وسباه سالار وهو مقدم الرماة ، لضيافة صنعتها لهم على عاداتها ، ورغب الناخودة مني أن أحضر معهم فأبيت لأنهم كفار ولا يجوز أكل طعامهم . فلما حضروا عندها قالت لهم : هل بقي أحد منكم لم يحضر ؟ فقال لها الناخودة : لم يبق إلا رجل واحد بنحشي — وهو القاضي بلسانهم — وهو لا يأكل طعامكم . فقالت : أدعوه ! فجاء جنادرتها وأصحاب الناخودة فقاموا : أجب الملكة . فأتيها وهي بمجلسها الأعظم ، وبين يديها نسوة بأيديهن الأزمّة يعرضن ذلك عليها ، وحولها النساء القواعد وهن وزيراتها ، وقد جلسن تحت السرير على كراسي الصندل . ومجلسها مفروش بالحرير ، وعليه ستور حرير ، وخشبه من الصندل وعليه صفائح الذهب [فلما سلم على الملكة أزدجنا كلمته بالتركية الخ] . . . وأخبره

الناخودة أن هذه الملكة لها في عسكرها نسوة وخدم وجوار يقاتلن كالرجال .
وأنها تخرج في العساكر من رجال ونساء فتغير على عدوها وتشتد في القتال ،
وتبارز الأبطال . كما أخبره أنه وقع بينها وبين بعض أعدائها قتال شديد
وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش
حتى وصلت إلى الملك الذي كانت تقاتله فطعنته طعنة كان فيها حتفه ، فمات
وانهزمت عساكره ، وجاءت برأسه على رمح فافتكته أهله بمال كثير . فلما
عادت إلى أبيها ملكها تلك المدينة . وخبرني الناخودة أن أبناء الملوك يخطبونها
فتقول : لا أتزوج إلا من يبارزني فيغلبني . فيتحامون مبارزتها خوف المرة
إن غلبتهم . ثم سافرنا عن بلاد طوالسي فوصلنا بعد سبعة عشر يوماً والريح
مساعدة لنا . . . إلى بلاد الصين .“

ومهما كان نصيب هذه الحكاية من الصحة فإن بها نفحة أمازونية يشتم
منها أريج الأسطورة موضوع حديثنا ، بل وأسطورة الوقواق إذا ذكرنا
حكاية عيسى بن منير السيرافي عن الملكة دَمَهْرَة وقد دخل عليها فوجدها
على سريرها عريانة . وما دام ابن بطوطة يذكر البحر الكاهل ، ويسافر
من طوالسي إلى الصين ، فليس ببعيد أن تكون حكاية أُرْدُجَا نوعاً من السطو
الأدبي البريء على قصة علقت بذهن ابن بطوطة من مطالعته عن البلاد التي
في شرق الصين ، ونسبها إلى نفسه وهو يملئ على محمد بن جزي الكلبي
ما وعته الذاكرة من رحلاته .

بنات الماء وشيوخ البحر

« النمفيا » و « السيرينا » و « الدرياد » في الأساطير اليونانية مخلوقات وسط بين الإنس والآلهة ، تسكن الغاب والغدران والعيون ومياه البحار . وكان أخيل بطل الإلياذة ابن الإلهة طيطس من آلهة الماء وفيلبوس ملك المرميدونة . وعرف أوديسيوس بطل الأوديسية أنه سوف يمر بساحل « السيرينا » ، وأن بنات البحر الجميلات ذوات الصوت الخلاب سوف يفررن بنوتيته كعادتهن مع كل من يعبر بجزيرتهن ، فيترك النوتية السفينة ويلقون بأنفسهم في البحر لمطاردة الغواني الساحرات ، ويُقضى عليهم كما قُضى على غيرهم من قبل ؛ لذا أمر فخشيت آذانهم بالموميا ، وطلب أن يربط هو إلى الدقل إحصانا لنفسه من أن يفقد رشده لدى سماع أناشيد السيرينا . وإنه لمنظر رائع من مناظر الأودسية إذ تمر سفينة أوديسيوس بجزائر بنات الماء ، وقد امتلأ الجو إغراء ، وهذا البحر واستكن كأنه أول مفتون بالأناشيد الإلهية . وفي الأساطير الهندية مخلوقات وسط بين الإنس والحيوانات المائية ، تعرف باسم « ناجا » أرفع مرتبة من البشرية ؛ ومن المأثور عن أحد مؤلفي « البيذ » Vedas ، وهي أقدم النصوص الدينية عند البراهمة ، أنه منحدر من أصل سمكة .

وقد تداول كتاب العرب في القرون الوسطى أسطورة بنات الماء وشيوخ البحر عن الأساطير الهندية واليونانية ؛ ولكننا لا نستبعد ، ونحن ندرس تطورها في المؤلفات العربية ، عنصر الواقع نتيجة تجارب البحريين ، ممن

رءوا بعض الأحياء المائية توحى بما ترمى إليهم من الأساطير ، فمزجوا بين الوصف الواقى والخرافى ، وأتم كتاب المعجائب هذا المزج حتى اختلط الواقع بالأساطير .

والأحياء المائية التى نشير إليها إما أسماك بعينها ذات شبه آدمى ؛ أو هى أنواع من الفقم الذى نعرفه اليوم باسم شيخ البحر ، وسبع البحر ، من فصيلة *Phocænae* ؛ والدُّوجُونج المعروف فى البحار الحارّة ، من فصيلة *Sirenae* وأنواع الفقم والدوجونج حيوانات مائية لبونة ، يسبح بعضها فى الماء واقفاً وقد ظهر رأسه وشواربه ورقبته وصدره فوق الماء كأنه نوع من الكلاب ، براق العينين ، سريع الحركة ، قوى السباحة ، له صوت كغشاء الماعز ؛ ويستطيع الفقم البهلوانى المعروف إذا خرج إلى البر أن ينتصب واقفاً بمعونة قائمته الأماميتين ، وأن يتحرك على اليابسة حركات فيها كثير من النشاط ؛ بينما يحبو شيخ البحر على بطنه ، ويسحب وراءه بقية جسمه كأن نصفه الأسفل مصاب بالشلل ، وقد امتد ساقاه إلى خلف فى محاذاة الذيل ، وتفرطحا حتى كأنهما زعانف السمك .

والغالب أن منظر الفقم فى البحر عن بعد شجع البحرىين على نشر قصصهم عن إنسان الماء بوجه عام ، وبنات الماء بوجه خاص ؛ ولقد ساعدت على انتشار هذه الحكايات فكرة بيولوجية ظلت مستولية على عقول القدماء وأهل القرون الوسطى ، وهى فكرة إمكان اجتماع مخلوقات متباينة ينتج عنه أنواع وسط بين الوالدين . وهذه النظرية العجيبة كانت أساسية جداً فى التفكير العلمى والشعبى أثناء القرون الوسطى ؛ ولذا نعرض لبعض صور

من أسطورة إنسان الماء توضح تلك النظرية . قال صاحب كتاب
« عجائب الهند » :

” وحدثني أبو محمد الحسن بن عمرو عن حدثه من شيوخ البحر أنه
دخل الأغباب وجالس بعض ملوك الأغباب فقدم إليهم طعاماً يأكلونه ،
وكان فيما قدم غضارة فيها ألوان مطبوخة برءوس وأيدي وأرجل تشبه برءوس
الصبيان وأيديهم وأرجلهم ؛ قال فعانت نفسى ذلك الطعام ، ورجعت عن
أكل طعامه بعد أن كنت قد انبسطت ، ففطن الملك لذلك فأمسك ؛ فلما
كان من الغد حضرت عنده فكلم أصحابه بشيء فوافوا بسمك يحملونه ،
لولا أنى رأيتهم يضطرب اضطراب السمك وعليه صدف ، ما شككت في
أنه ابن آدم ، فقال لى الملك : الذى كرهت بالأمس أن تأكله هو هذا .
وهو أطيب سمكنا وأعذبه وأخف ضرا . قال : فسكنت آكله بعد ذلك “ .
” وحدثني بعض من دخل زيلع وبلاد الحبشة أن فى بحر الحبشة سمكا
له وجه كوجه ابن آدم ، وأجسامهم لها الأيدي والأرجل ، وأن الصيادين
المتفرجين الفقراء ، المتطرفين فى أطراف السواحل المهجورة والجزائر والشعاب
والجبال التى لا تسلك ، المعالجين فيها طول أعمارهم ، إذا وجدوا ذلك السمك
المشابه لبني آدم اجتمعوا به فتوالدوا بينهم نسلا شبيهاً لبني آدم يعيش فى الماء
والهواء . وربما كان الأصل فى هذا السمك من بني آدم اجتمعوا بجنس من
أجناس السمك فتوالد بينهم هذا السمك الشبيه لبني آدم ، ثم كذلك على
مر الدهور والأزمنة ، كما يجتمع الآدمي ببعض الوحش مثل الضبع والثمرة
وغيره من حيوان البر فيتوالد بينهم القردة والنسانيس ، وغير ذلك مما يشبه

ابن آدم ؛ وكما تجتمع الخنازير والجواميس ، وكان بينهما الفيلة ؛ وكما يجتمع الكلاب والمعز ، وكان بينهما الخنازير ؛ وكما يجتمع الحمير والخيول ، وكان بينهما البغال . ولو ذهبنا نعدد ما ينتج من اجتماع الأجناس لعددنا من ذلك ما يبهت القارىء ، ويخرج عما قصدنا إليه من عجائب الهند خاصة ... ويقال إن كل طائر في الهواء وعلى وجه الأرض ، في البحر من السمك مثله أو ما يشبهه .

وحكى ياقوت الحموى في « معجم البلدان » ، قال :

”جاسك جزيرة كبيرة بين جزيرة قيس وعمان ، قبالة مدينة هرمز ، بينها وبين قيس ثلاثة أيام ... يسكنها جند ملك جزيرة قيس ؛ وهم رجال أجلاء أكفاء . لهم صبر وخبرة بالحرب في البحر ، وعلاج للسفن ليس لغيرهم ؛ وسمعت غير واحد من جزيرة قيس يقول : أُهْدِيَ إلى بعض الملوك جوارى من الهند في سراكب ، فرقات تلك المراكب إلى هذه الجزيرة ، فخرجت الجوارى يتفسحن فاختطفهن الجن فولدن هؤلاء الذين بها“ .

ومع توارد هذا الخبر على ألسنة الجغرافيين العرب ، فإن ياقوت الحموى — وهو ابن زمانه ، مضطر أن يوسع كتابه لكل ما يتداوله الناس عن البلدان — لم تفارقه ملكة النقد ، كما فارقت الكثيرين من أهل عصره ؛ فهو حريص أن ينسب الأسطورة إلى قائلها ، وهم « غير واحد من جزيرة قيس » . ثم يسرع فيحاول لها تفسيراً : ”يقولون هذا لما يروى فيهم من الجلد الذي يعجز عنه غيرهم ، ولقد حدثت أن الرجل منهم يسبح في الماء أياماً ، وأنه يجالد بالسيف وهو يسبح مجالدة من هو على الأرض“ .

ولعل أحسن عرض لفكرة البيولوجية التي أشرنا إليها ، ما كتبه
الدمشقي في « نخبه الزهر » :

”والمرجان حجر نباتي ، ونبات حجري ، متوسط في خلقه بين النبات
والمعدن فهو واسطة بينهما ، واقف في آخر المعادن وأول النبات [المرجان
حيوان بينه ، لا هو بالنبات ولا هو بالمعدن] كوقوف النخل والوقواق متوسطاً
في آخر النبات وأول الحيوان ، وكالقردة والذباب والبيغاء وشيخ البحر
بالتوسط بين الحيوان والإنسان ، وهم في آخر الحيوان وأول البشرية ،
وكتوسط الغول بين الإنسانية والجان والحيوان ، وكتوسط السحاب بين
الهواء والماء ، وكتوسط الزئبق بين الماء والمعدن ، وتوسط الدخان بين النار
والهواء ... وكتوسط الحلزون والصدف بين المعدن والحيوان ، وتوسط الإنسان
بين الملك والحيوان“ .

فكرة التوسط متمكنة من عقول هؤلاء الناس إلى حد أنها تتعدى
توسط البغال بين الخيل والحمير ، إلى التوسط بين أنواع مختلفة من الحيوان
نعرف يقيناً أنها لا يمكن أن تجتمع ، وإن اجتمع بعضها فغير نتيجة .
ولا تقف الفكرة عند هذا ، بل هي تذهب إلى حد التوسط بين الجمادات
والأحياء ، وبين الحيوان والنبات ، وبين الملائكة والحيوان ، بل وبين
الإنس والجن والحيوان !

وفهم هذا النوع من التفكير هام جداً لمتابعة الكثير من أساطير القرون
الوسطى والعصور القديمة . ومن العبث محاولة إبرازه على أنه صورة بدائية من
صور نظرية التطور قبل أن يفكر فيها لامارك وداروين وواليس في القرن

التاسع عشر . إنما يمكن القول بأن اتجاه الفكر إلى الوحدة الأساسية في كائنة الكائنات ، وتفرع بعضها عن البعض تفرعاً فيه بعض التنسيق ، كان في تلك العهود نتيجة لصور ذهنية بسيطة أنشئت على محض تشابه سطحي عارض ؛ ولم يكن هذا التفكير خاصاً بعلماء المسلمين ، بل انتقل إليهم من العلوم القديمة ، شرقية كانت أو غربية .

وفكرة التوسط تساعدنا على فهم تذبذب أسطورة إنسان الماء في مؤلفات القرون الوسطى بين الواقع من وصف الفقم باعتباره حيواناً مائياً بعينه ، وبين الخرافة بوصف أنه نوع من الآدميين يعيش في الماء .

فالقزويني يقول في حديثه عن حيوانات بحر الهند : ” وفيه سمكة وجهها كوجه الإنسان ، وبدنها كبدن السمك ، وعلى وجهها نقط ؛ وتظهر على وجه الماء “ .

وعن حيوانات بحر المغرب : ” ومنها الشيخ اليهودي ، قال أبو حامد : حيوان وجهه كوجه الإنسان ، وله لحية بيضاء ، وبدنه على شبه الضفدع ، وشعره كشعر البقر ، وهو في حجم عجل ، يخرج من البحر إلى البر ليلة السبت حتى تغيب الشمس ليلة الأحد ، فإذا غابت ، وثب كما يثب الضفدع ، ودخل الماء فلا تلحقه السفن “ .

وهذا وصف طيب للفقم المعروف بشيخ البحر ، إذا تجاوزنا عن حكاية يوم السبت وهي خرافة فرعية جاءت تفسيراً لاسمه .

وفي باب « حيوان الماء » : ” إنسان الماء : يشبه الإنسان إلا أن له ذنباً ؛ وقد جاء شخص بواحد منه في زماننا إلى بغداد ، فعرضه على الناس

وشكله كما ذكرنا ؛ وقد ذكر أنه في بحر الشام ببعض الأوقات يطلع من الماء إلى البر إنسان له لحية بيضاء يسمونه شيخ البحر ، ويبقى أياماً وينزل .
وقم البحر الأبيض المتوسط ، ونعرفه اليوم باسم « الفقم الراهب » ، يوجد على جميع شواطئه ، يغشى الكهوف ، في منتأى عن الناس ؛ وقد وقع واحد من هذا النوع في شباك الصيادين على شاطئ البحر إلى الشرق من بور سعيد ونقل حياً إلى معهد الأحياء المائية بالإسكندرية ، وعاش هناك بعض الوقت ، وما زال يعرض مخبطاً بمتحف ذلك المعهد إلى اليوم .

ولكن القزويني يأتي إلا التفككة على حساب العلم ، والإغراق في تصيد العجائب فيقول : ” وحكى أن بعض الملوك حمل إليه إنسان مائى فأراد أن يعرف حاله ، فزوجه امرأة فجاء منها ولد يفهم كلام الأبوين ؛ فقبل للولد : ماذا يقول أبوك ؟ قال : يقول أذنان الحيوانات كلها على أسافلها ، ما بال هؤلاء أذناهم على وجوههم ؟ “ .

ويؤكد الدمشقي ، في كل مرة يرد ذكر الفقم ، أنه حيوان على صورة الإنسان ، فهو قائل في الكلام عن نهر إتل [الثولجا] :
” وذكر صاحب « تحفة الغرائب » أن هذا النهر حيواناً كصورة الإنسان ، أسود اللون طويل القامة ، كبير الجثة ، يخرج من الماء إلى سرتة ، وينظر يميناً وشمالاً . فإذا أحس بإنسان في البر غاص في البحر لا يعلم منه غير هذا ، ولا يصطاد بحيلة قط “ .

وفي حديثه عن البحيرات المالحة ينقل عن الإدريسي ” أن في بحيرة خوارزم حيواناً يظهر على سطح الماء على صورة الإنسان ، يتكلم بكلام

لا يفهم ثلاث كلمات أو أربع ثم يفوص

وعن بحر الروم : ” قال المعتنون بتدوين العجائب إن في بحر الروم من الحيوان العجيب سمكة كصورة الرجل أحمر اللون كبير الجثة ، رأسه مثل رأس القرعة ، أبيض كأنه رأس إنسان مخلوق ، وجهه طويل وفه كتكوين فم القرد ، وله ودجان من لحيته إلى أصول رقبته كالزرين بارزين ، وليس له رجلان ، وله يدان صغيرتان ، وبدنه من نصفه الأسفل بدن سمكة بذب مفروش ، يظهر بوجه الماء نصفه الأعلى ، ويتلفت برأسه يمينا وشمالا ، وعيناه كبيرتان كعين البقر ، مستديرتان في وجهه ، ثم يغطس على رأسه في الماء ، كالمنقلب سفلا من علو ؛ وكثيراً ما يرى هذا الحيوان بالقرب من السواحل بأذيال من الجبال ذوات المغائر والمداخل . ومنها موضع وجه الحجر من طرابلس الشام “ .

فهذا وصف على شيء من الدقة للفقم الراهب ، ولسنا نطالب شاعر ربوى المتصوف بمعرفة أن هذا الذنب المفروش مكون من ساقين مفرطحتين قصيرتين بينهما ذنب أصيل .

فإذا تحولنا من الواقع إلى الأسطورة وجدنا أول سردها هو ابن خرداذبة في كتاب « المسالك والممالك » ، قال عبيد الله :

” وحدثني محدث أنه بدا له إلى ناحية سمرقند حاجة ، فخرج إليها وله ثم صديق ، فسأله عن عجائب عين هشتادان در بتلك الناحية ، فأخبره أن فيها سكان الماء على خلقة بنى آدم أحسن ما خلق الله ، وأن راعي غنم من هذه الناحية كان يورد غنمه إلى هذه العين ، وبعض الرعاة كانوا يحدرون إليها

ولا يقربونها ، وكان هذا الراعى يضرب الوتر واليراع والمزمار ، وكان أهل العين يطفون على وجه الماء ويستمعون إليه ، فيتلذذون بصوت غناؤه ؛ فبينما هو ذات يوم قد ضرب بالوترين ونام على رأس العين ، إذ عمد أهل العين جهاراً على وجه الماء ، وقبضوه كرهاً إلى عندهم ؛ فلما تم عليه يوم وليلة ولم ينصرف إلى أهله ، اغتموا له ، فأتوا تلك العين لاقتفاء الأثر ، فوجدوه وهو طاف على وجه الماء يسير ذاهل العين يكرهونه على الزمر وضرب الوتر ، وأهله يتضرعون إليهم ، ويسألونهم تخليته ، فلم يجيبوهم إلى سؤالهم ، فبقوا على ذلك ثمانية أيام لا يتجرأ أحد منهم أن يدخل العين فيخلصه ؛ فلما أصبحوا بعد اليوم الثامن ، لم يروا الراعى ، ولا أحداً منعه منهم ، وخفى عنهم أمره .

هذه أول صورة لخرافة بنات الماء في الجغرافيا العربية ، وهي تتخذ شكلها اليونانى السيرينى مباشرة ؛ ولعل ما يؤيد الأصل الإغريقى للأسطورة حكاية ابن الفقيه فى « مختصر البلدان » عن عطاء بن خالد الخزومى الذى قال : " كانت الاسكندرية بيضاء تضيء بالليل والنهار ، فكانوا إذا غربت الشمس لم يخرج منهم واحد من بيته ، ومن خرج اختطف ؛ وكان لهم راع يرعى الغنم على شاطئ البحر ، وكان يخرج من البحر شىء ، فيأخذ من غنمه ؛ فمكن له الراعى فى بعض المواضع حتى خرج ، فإذا جارية قد نفشت شعرها ، فتشبت بشعرها ، ومانعته عن نفسها فقوى عليها وذهب بها إلى منزله ؛ فأنست بهم ، ورأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس فسألتهم عن ذلك فأخبروها أن من خرج من ذلك الوقت اختطف ؛ فعملت لهم الطلسمات ، وكانت أول من وضع الطلسمات بمصر . "

وتفصيل هذه القصة وارد في تاريخ الوليد العالقي حين هزأ مصر أيام
الملكة حورية ، حسب ما جاء بكتاب « مختصر العجائب » ؛ وليس بمجد أن
نحاول التوفيق بين التاريخ المصري القديم كما كشفت عنه الآثار الفرعونية ،
وبين ما ورد عنه في كتب العرب ، من أمثال العالقي هذا ، والملكة دلوكة
صاحبة الطلسمات وبانية حائط العجوز حصن وادى النيل الحصين . ونظرية
كارا دى فو ، مترجم كتاب « المختصر » إلى الفرنسية ، هي أن هذا التاريخ
العجيب ربما كان من أصل قبلى شعبى ، تناقلته الأجيال بالسماع . قال
المدعو ابراهيم بن وصيف شاه :

”وتقدم الوليد بجيش عظيم لغزو مصر أيام الملكة حورية ، وتقدم العالقي
يطلب يد الملكة ، فكانت تقيم العقبات في سبيل ذلك الزواج بوضع شروط
له ، منها أن يعيد بناء الإسكندرية ، وكانت قد خربت منذ غادرها أهل عاد ؛
وأضاع الوليد في إعادة بناء الإسكندرية كل ماله ، إذ كانت تخرج دواب
البحر كل ليلة وتقتلع من أحجار الأساس ما وضع بالنهار ، وتهدم الأسوار ،
وتجعل أعلى المباني أسافلها ؛ وحزن الوليد لهذا حزناً شديداً ؛ وكانت حورية
أرسلت له قطعاً من الغنم قوامه ألف رأس ليحصل منها على اللبن اللازم
لغذائه ، فسلمها لراعى غنم من ثقاة ؛ وكان من أمر هذا الراعى أنه يسوق
القطع وسط الخرائب . وبينما هو يسوقها ذات مساء في طريق العودة ،
خرجت من البحر جارية جميلة افتتن الفتى بها وجعل يئسها غرامه ، وهى
تغريه وتعهده على شريطة أن يصارعها فيغلبها ، أما إذا غلبته فلها رأسان من
الغنم ؛ وجعلت تغلبه حتى استولت على نصف القطيع ، بينما النصف الآخر قد

صار هملاً بسبب انصراف الراعى إلى غرامه ؛ ونال منه السقم وشحب وجهه
فذهب إلى سيده يقص قصته ، فلبس الوليد العالقى ملابس الراعى وانتظر إلى
المساء حتى جاءت الجارية وقبل شرطها وصارعها فانتصر عليها ، وكبلها
بالأغلال فقالت له : أعطنى للراعى الأول فهو أحق بى منك ، إذ جعلته
ينتظرنى طويلاً . فوهبها الوليد للراعى وأوصاه إذا ما انفرد بها أن يسألها عن
سر هدم المنشآت بالليل ، وعرف الراعى منها أن بالبحر دواباً تخرج بالليل
وتهدم ما يبنى [مترجمة عن الترجمة الفرنسية] . ولقنته ما يكتبه على أوراق
يربطها بحجارة ، يخرج بها المصورون فى فلك إلى مكان كذا من البحر وقت
الظلمة وهناك يرمون بالحجارة يميناً وشمالاً ، وينتظرون ساعة من الزمان ،
فتجتمع دواب البحر حول الفلك وتخرج من الماء ، ويصورها المصورون
بأقرب ما يستطيعون لها تشبيهاً ؛ ثم تصنع تماثيل من الذهب لتلك الدواب ،
ومن النحاس والحجارة ، وتوضع حجزاً بين أساسات المباني والبحر ؛ فإذا
خرجت الدواب ورأتها ولت هاربة دون أن تعود . فنقل كل ذلك للوليد ،
فصل به واختفت الدواب البحرية .

ويصف صاحب « المختصر » فى موضع آخر الأمم التى تسكن الأرض :
” ومن ذلك أمة بجزيرة على شبه النساء ، يقال لها بنات الماء فى صور
النساء الحسان ذوات الشعور السبط ، هن ندى وكلام لا يفهم ،
وتهمته وضحك . وحكى عن بعض البحريين أن الريح ألقتهم إلى جزيرة فيها
شجر وأنهار عذبة ، وأنهم كانوا يسمعون جلبة وضوضاء وضجكاً فكنوا هن ،
وأخذوا منهن امرأتين فأوثقوهما ، وأقامتا مع الذين أخذاهما أياماً

وأن أحدهما وثق بصاحبه ، فأرسلها من وثاقها فهربت إلى البحر ولم يرها بعد ذلك ، وبقيت الأخرى مع صاحبها مستوثقا منها ، فحملت منه ، وولدت ولداً ذكراً ؛ وأنهم ركبوا البحر فلما حصلت في المركب رحما وحل ميثاقها ، وقد رأى أنها لا تزول عن ابنها ؛ فتغلته ووثبت إلى البحر ؛ فلما كانت بعد ذلك بيوم ظهرت له وألقت إليه صدفة در .

ولا بد أن يكون جد أبي الزهر البرختي الناخوداة أحد هؤلاء البحرين إذا صدقنا ما حدث به صاحب « عجائب الهند » عن أبي الزهر ، وكان للبرختي خال يعرف بابن إنشروتوا قص عليه بشيء من التفصيل قصة كثيرة الشبه بما نقلناه عن « مختصر العجائب » ، نكتفي بإيراد قسمها الأخير :

” أما المرأة التي بقيت مع أبي فقد استولدها ستة أولاد أنا سادسهم ، وأقامت عنده ثمانية عشر سنة مقيدة ؛ وكان الشيخ الذي جاء من جزيرة الحوت موطن أمي قد أوصى والدي بأن لا يطلقها فتطرح نفسها في البحر وتمضي ، فهم قوم لا صبر لهم عن الماء ، لأنهم من نتاج إناث حيوان البحر وذكور بني آدم . ولما كبرنا نحن وتوفي والدنا ، وكنا نلومه في تقييدها بغير علم ، أطلقناها من القيد رحمة لها وبرأ بها ؛ فخرجت كأنها الفرس السابق ، وانطلقنا خلفها فلم ندركها ، فقال لها بعض من قرب منها : أتمضين وتتركين أولادك وبناتك ؟ فقالت « إنشروتوا » معناه « ماذا أفعل بهم ؟ » وطرحت نفسها في البحر ، وغاصت كأقوى حوت يكون .

ولعل أعجب صورة من هذه الحكاية نفسها ، ما ورد في كتابات جابر بن حيان العالم الكيماوي العربي عند ذكر الخواص : ” زعم بعضهم أن

حيوانا في البحر جبهته من حجر أصفر إذا صيد ذلك الحيوان ، وهو على خلقة الإنسان ، وذبحه ذابح وأخذ من الحجر الذي في جبهته قيراطا فالتقاء على عشرة أرطال قرأ قلبه شمسا من غير تدبير . وهذا الحيوان يعرف بطبيب البحر . وذلك أن الحيوان إذا مرض منها شيء وأنته فأومأت إليه بموضع العلة فمسح ذلك الحجر على ذلك الموضع مرتين أو ثلاثا فيعرق ذلك الحيوان ويبرأ ويرجع سليما . وإنما عرف ذلك منه أنه إذا صيد بقى في ما بقى من عمره إلا أنه يطلب التفلة أى وقت وجد الفرصة رمى بنفسه إلى الماء . فإذا أصاب أحد الحيوان شيء من العلل أخذ ذلك الحيوان فمسح بجبهته ذلك الموضع وأبرأه من ساعته . ولقد رأيت قوماً من البحريين الملججين العلماء وسألتهم عن طبيب البحر فإذا أمره أشهر مما قدر ، فضمنوا إلى أنهم يرونيته . فلما أن لججنا في البحر وصلنا إلى جزيرة تدعى سنديات ، إذا نحن بجماعة من الأطباء . فقلت اعملوا الحيلة في صيد واحد منها . وألقينا الشبكة وحصرناهم فوق واحد منهم فيها ، فلما أن حصلت رجلاه وظن أن لا خلاص له فلم يجد مخلصاً جعل يلطم كلطم المرأة على خديه شديداً . وتبينت جبهته فإذا هي حجر يلمع . فأخذته فإذا هي جارية حسناء كأحسن ما يكون من الصور . فبنيت له بيتاً في المركب وجبسته فيه . وعرض لبعض أهل المركب تشنج فأخرجته وصرت به على ذراع التشنج وساقيه فأبرأه لوقته . وراه غلام معي فتعشقه ، ولم يزل يلح فيه إلى أن خفت عليه الملكة منه . فجعلته معه في البيت ، فصر الغلام معها على ذلك وزاوجها وأحبها فولدت غلاما وتربى ، إلا أن خلقته كخلقة الإنسان ، وفي جبهته شيء يلمع ليس كالأم . فلم أرق شيئا أعجب من

أمره . فلما كبر الصبي ورأيت ميل الأم إليه ميلاً عظيماً ، وهي مع ذلك لا تتكلم مع طول المدة بكلمة واحدة أكثر من المهمة شيئاً لا صوت له إلا خفقاً جداً أمناً أن ترمى بنفسها في الماء . فجعلت تدخل وتخرج ، وللمركب جوانب عالية ليس تلحق أن تظفر منها . فلم تزل تؤانسنا وترتقي من موضع إلى موضع حتى إذا وثقت بأننا أمناها صعدت ورمت بنفسها في الماء . فجزع الغلام زوجها عليها فأخذ الغلام ابنه معه وهو مع ذلك لا يتكلم . فلما أن سرنا بعد ذلك وقعنا في شدة عظيمة لا فرجة لها ، فإذا نحن بالطبيب جالس على الماء ليس منه شيء غائصاً . فإذا هي تومئ إلينا بالسلام ، فأومأ الناس إليها كلهم وإذا هي سمكة“

ويعتقد بول كراوس أن جابر لم يقصد بهذه الحكاية إلا إلى رمز من رموز السيمياء ؛ وأهمية الحكاية لنا أنها صورة مما نقلناه عن كتابي «المختصر» و«عجائب الهند» ، ولكنها صورة تدنينا دنواً واضحاً من الأساطير الهندية ، وعلى الأخص بالإشارة إلى الحجارة الكريمة التي يعتقد الهنود في بموها بمجبهات الأفيال والوعول والحيات والأسماك .

وما دام القزويني سيد الحلبة في مضمار الأساطير ، فمن الإنصاف أن نختم هذا الفصل ببعض ما نقله في قاموسه الجغرافي «آثار البهر» وموسوعته الكوزموغرافية «عجائب المخلوقات» : ”قال صاحب «نخبة الفرائب» : بأرض الهند بحيرة مقدار عشرة فراسخ في مثلها ، ماؤها ينبع من أسفلها ، لا يأتها شيء من الأنهار ؛ وفي تلك البحيرة حيوانات على صورة الإنسان ، إذا كان الليل خرج منها عدد كثير يلعبون على ساحل البحر ويرقصون ويصفقون

باليدين ، ومنهم جوار حسناوات ؛ ويخرج منها أيضاً حيوانات على غير صورة الإنسان عجيبه الأشكال ؛ والناس في الليلة القمرء يقعدون من البعد وينظرون إليهم ، وكلما كان النظر أكثر كان الخارجون أكثر ؛ وربما جاءوا بالفواكه الكثيرة أكلوها وتركوا ما فضل منها على الساحل ؛ وإن مات منهم أحد أخرجوه من البحيرة وسترأ سوأته بالطين والناس يدفنونه ؛ وما دام يبقى على الساحل لا يخرج من الماء أحد البتة .

وكان كل هذا لم يكف علامة قزوين ، وأبى إلا أن يتسنى الذروة في إيراد الغريب فقص الحكاية الآتية :

” ذكر أبو حامد الأندلسى فى كتاب « العجائب » الذى ألفه للوزير ابن هبيرة عن سلام الترجمان رسول الخليفة إلى ملك الخزر قال : وأقيمت عند ملك الخزر أياما ، ورأيت أنهم اصطادوا سمكة عظيمة جداً وجذبوها بالحبال ، فانفتح أذن السمكة وخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر حسنة الصورة ، فأخرجوها إلى البر وهى تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح ، وقد خلق الله تعالى فى وسطها غشاء كالثوب الصفيق من سرتها إلى ركبتيها كأنه إزار مشدود على وسطها ، فأمسكوها حتى ماتت .“

وهكذا يتحول الواقع فى وصف الفقم والدوجونج ، إلى أساطير شيوخ البحر تميز بين السبت والأحد ، وبنات الماء تهوى الألحان فتتخاطف الرعاة الموسيقيين ، أو تمارس صناعة الطب بفضل حجر كريم نابت فى جبهتها ، ثم يمجى أبو حامد الأندلسى وسلام الترجمان بحكاية جارية تخرج من أذن سمكة مستورة العورة وهى تولول وتنتف شعرها حتى تموت !

والمصيبة في سلام الترجمان لا تعدلها مصيبة ؛ فلقزويني وابن الوردى
وأبي حامد أن ينقلوا إلينا كل ما ترمى إلى سمعهم من غرائب ؛ أما سلام
هذا فقد أرسله الخليفة الواثق في مهمة ذات خطر ، حينما رأى في منامه كأن
يأجوج ومأجوج أفلحوا في فتح السد ؛ كان على سلام أن يتحقق من أن
تلك الأمة المفسدة ما زالت خلف السور محجوزة منذ أقام ذو القرنين بينها
وبين العالم سداً من زبر الحديد . وسافر سلام الترجمان إلى موضع السد
واستوثق من قوته وثباته وسهر الحراس عليه ، وعاد إلى الخليفة عودة المحقق
الصادق يهدي من روعه . بماذا نفسر ما رأى الترجمان عند ملك الخزر ؟ أ يكون
الملك قد عرض على رسول خليفة المسلمين منظرًا تمثيلياً من نوع «الپانتوميم»
احتفاء به واحتفالاً بقدومه ، وفهمه هذا الساذج على أنه حقيقة ؟ أو أن ملك
الخزر كان ماجناً مهزარاً لا يرى عيباً أن يسخر من ضيفه فيدخل عليه منظر
الغانية التي تخرج من أذن سمكة «عظيمة جداً» ، فيبتلع سلام المنظر
والغانية والسمة الكبيرة ؟

الدر واللؤلؤ

إذا كان الأصل في الأساطير العربية التي تحدثنا عنها حتى الآن هو الأساطير الهندية والفارسية واليونانية من جهة ؛ ومن جهة أخرى ما خبره الرحالون العرب وجدثوا به ، وتغالوا في تفسير ما لم يتبينوه جيداً عن بعد ، أو لم يفهموا حقيقته ، فدخل في باب العجائب ، أو أنه انتقل منهم بالسماع إلى المولعين بالأخبار فراح هؤلاء يرددون ما سمعوه دون فهم ، أو بفهم قاصر على اصطلياد الغريب ، فليس ينتظر أن يقع كتاب العرب فيما وقعوا فيه حين يتكلمون عن اللؤلؤ ومغاصات اللؤلؤ . لأن الغوص على اللؤلؤ وتجارة اللؤلؤ من الحرف التي تابعها العرب والفرس في الخليج الفارسي منذ آلاف السنين ، وعرفوها واشتركوا فيها مع صيادي الهنود بخليج منار بين جزيرة سيلان ورأس كومورين جنوب الهند . ومع هذا لم يسلم حديث الآلى من مادة خرافية تسمح لنا بمعالجة هذا الموضوع في ذيل سلسلة من الأساطير البحرية العربية . ثم إن الكتب التي بأيدينا لم تفرق بين ما أورده عن جزائر النساء وشجرة الوقواق وبنات الماء من ناحية ، وبين ما ذكرته عن الآلى والعنبر من ناحية أخرى . إنما جاء هذا التفريق نتيجة لعملية التحليل التي اعتمدنا عليها لاستخلاص الواقع من بين أساطير أقامتها حوله تخيلات الكتاب وتفسير البحرين ، وتناقل الرواة ، وتداول الخرافات . وهي الأساطير التي أضفت على كتب الجغرافيا العربية والرحلات والعجائب الكثير من ألوانها المغربية ، وحببتها لدى القراء في كل العصور ، وانتفع بها المخرفون من رواة

المجالس والأسواق وسمار الخاصة والعامة . وهي وإن كانت تعد عيباً من عيوب الموسوعات الجغرافية في القرون الوسطى ، لم يخل منها فيما نعرف إلا كتاب « تفهيم البلدان » للأ مير عماد الدين أبي القداء ، فإن ذلك لا ينتقص من قيمتها الذاتية كمادة لدراسة « الفوكلور » البحري عند الشعوب الإسلامية ، وكنصر أساسي تألف منه وحوله ضرب من الأدب العربي الخيالي نسميه « القصص البحرية » .

فحديثنا في هذا الفصل إذ يتناول اللؤلؤ ومحاره ، وفي الفصل الذي يليه عن العنبر ودابته ، ينتقل من معالجة أساطير نمت حول لباب من الواقع ، إلى وصف إيجابى لوقائع لم يجردها كتاب العرب من الأساطير . ولقد كان العرب قاب قوسين أو أدنى من فهم طريقة تكوين الدر داخل الصدفة اللؤلؤية ، والعنبر في جوف « البال الاسبرماسيتى » . وبقيت بينهم وبين التفسير العلمى الصحيح لهذا التكوين مادة خرافية هي التى توسع لهذا الفصل وما يليه مكانا فى المجموعة التى قدمنا لها بمقال « بين الواقع والأساطير » .

كثير من الحيوانات الصدفية ، ما يعيش منها فى الماء العذب أو فى البحار ، تكون فى ثنايا أغشيتها المعروفة بالقباء [وهى الأغشية التى تغطى جسمها الرخو كالعباءة ، فاصلا بينها وبين أصدافها] أو بين هذه الأغشية وسطح الصدفة الداخلى نتوءات كروية لاصقة بالصدفة ، أوحبات مستديرة غيرمتصلة بالصدفة . أما النتوءات فتعرف بالآلى الناقصة أو « القلم » . وأما الحبات فصغيرها هو اللؤلؤ وكبيرها هو الدر بعينه . ولكن الآلى والدرر الغالية لا تتكون غالباً إلا فى نوع من المحارات اسمه *Pinctada margaritifera* وبعض الأنواع

القريبة . تعيش في البحار الدافئة ، في أعماق لا تتعدى مائة باع . وقد عرفت بعض المواضع في البحر الشرق العظيم منذ قرون سابقة على ميلاد المسيح ، وبعض مواضع أخرى بأمريكا الاستوائية بعد الفتح الأسباني ؛ وأخيراً في أستراليا والفلبين واليابان وأرخبيل الملايا وبعض جزائر أخرى بالمحيط الهادى ، بكثرة ما يتجمع فوق قيعانها من ذلك المحار . ولكن مغاصات اللؤلؤ في الخليج الفارسى ، وخليج منار شمال سيلان احتفظت بشهرتها على ممر الدهور . وما تزال مغاصات جزائر البحرين في خليج فارس تخرج للعالم أرفع وأجمل وأغلا درره .

وقد اختار ميكيموتو في أواخر القرن الماضى جونات ببعض سواحل الجزر اليابانية جمع فيها المحار اللؤلؤى ، وأجرى عليه عملياته الدقيقة لإدخال حبات من اللآلىء الصغيرة بين أغشية المحار ، بعد أن يكسو الحبات بقطع حية من غشاء القباء ، متبعاً في العمليات ببيع وسائل التعقيم والعناية الجراحية حتى تستمر المحارات حية بعد إعادتها إلى قاع البحر . وتعمل المحارة على التخلص من الجسم الغريب ، فإذا لم تنجح أحاطته بنفس الإفراز الذى يفرزه قباؤها لتكوين صدقتها ؛ ولكنه يتخذ حول الجسم الغريب شكلاً كروياً . فحادة اللؤلؤ من مادة الصدفة المسطحة ؛ أى من كربونات الكالسيوم بمقدار تسعة أعشار ، ومواد عضوية وماء إلى العشر . والأشعة الضوئية تنعكس من سطح الصدفة ، وتتكسر في طبقاتها الصفيقة ، كما تنعكس وتتكسر على سطح اللآلىء أو سطح فقاعات الصابون . ولو تأملنا عند أول شروق الشمس أو قرب غروبها شاطئاً رملياً مبللاً بماء البحر في جزيره أو في تكسر أمواجه ، لرأينا

الأشعة الضوئية تنعكس على حبات الرمل المبلل ، وتنكسر بينها ، مما يكسب بعض مواضع من الشاطئ بريقاً كأنه الأصداف . إنما تبلغ الانعكاسات والانكسارات الضوئية ذروة قوتها وإشعاعها ، وتجمعها وتشتتها [وهو ما نعر عنه بكلمة التلألؤ orient] حول الحبات الصدفية العجيبة النادرة التي تعرف باسم اللآلئ والدرر .

وقبل أن يجري مكيموتو عملياته بقرون ، قال العالم الفرنسي رُونْدِلِيَه في سنة ١٥٥٤ بأن اللآلئ أمراض حصوية شبيهة بما يحدث في جسم الإنسان والحيوانات . واكتشف فيلبي سنة ١٨٥٢ يرقة دودة مفرطة صغيرة تدخل في قباء الحارة — كما تدخل يرقة البلهارسيا في قواقع الماء العذب . ولاحظ العلاقة بينها وبين مرض الحارة الحصوى . ثم أيده في ذلك علماء آخرون ورأوا أن اليرقة تسكن أول ما تسكن بين القباء والصدفة ، وتستقر بين ثنايا القباء وتستدير ثم تموت . وتبدأ الحارة عملها في مقاومة الجسم الغريب بإحاطته بالمادة الصدفية . ودرس عالم آخر تكون اللؤلؤ في محارات الماء العذب فلم يجد أثراً للدودة ، وإنما لاحظ جسماً غريباً ، ربما كان شظية دقيقة من سطح الصدفة الخارجي أحيطت بطبقة من الغشاء القبائي ، وبدأ تكون المادة الصدفية حولها .

المهم في كل هذه البحوث أن جسماً أجنبياً ، سواء كان دودة تموت وتحلل أو شظية من سطح الصدفة ، يتفد إلى داخل القباء فيحيطه هذا بمادة صدفية يفرزها في طبقات هالية . ويكون هذا بدء تكوين اللؤلؤة . وإذا كان الحار ينجح دائماً في التغلب على الجسم الغريب بهذه الوسيلة فليس معنى هذا أنه يكون

في كل مرة درة يتيمة ، وإلا كانت اللآلئ أكثر وجوداً وأرخص ثمناً .
كأنى بالدرة الثمينة مخ الرجل العبقري ، نفحصه بكل ما لدينا من أدوات
للفحص ، ونحاول أن نفسر أعمال صاحبه بالبيئة والوراثة وغير ذلك ؛ ولكننا
مضطرون آخر المطاف أن نترك للصدفة مجالاً واسعاً في تكوين المخ العبقري .
والصدفة كلمة غير علمية ؛ إنما هي كلمة سهلة مناسبة ، نستريح تحتها أو نعلن بها
جهلنا . واللؤلؤة النادرة تكونت نتيجة عوامل نجهل بعضها فنقول دون أن
نقصد اللعب بالألفاظ : اللؤلؤة بنت الصدف كما هي وليدة الصدف . هي الخال
الجميل في وجه الغادة الفتانة ؛ مجرد وجوده إلى جانب من الوجبة ، على اتجاه
معين من ركن ثغر حلو ، يكسب الوجه سحراً غريباً غير مفهوم .

هذا بعض ما نعرفه اليوم من أمر الدر واللؤلؤ . فلنفحص على ضوءه
ما كتبه العرب . قال أبو زيد حسن السيرافي :

” بدء خلق اللؤلؤ بلطيف تدبير الله تبارك اسمه وهو عز وجل يقول :
« سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا
لَا يَعْلَمُونَ » . فاللؤلؤ يبتدىء في مثل قدر الأنجدانة وعلى لونها وفي هيئتها
وصفرها وخفتها ورقتها وضعفها ، فيطير على وجه الماء طيرانا ضعيفاً ويسقط
على جوانب مراكب الغاصة . ثم يشتد على الأيام ويعظم ويستحجر . فإذا
ثقل لزم قعر البحر ، ويتغذى بما الله أعلم به . وليس فيه إلا لحمه حمراء كمثل
اللسان في أصله ، ليس لها عظم ولا عصب ولا فيها عرق . وقد اختلفوا في
بدء اللؤلؤ فقال قوم إن الصدف إذا وقع المطر ظهر على وجه البحر وفتح فاه
حتى يقطر فيه من المطر فيصير حباً . وقال آخرون إنه متولد من الصدفة نفسها .

وهو أصح الخبرين لأنه ربما وجد في الصدفة وهو ثابت لم ينقلع فيقطع وهو الذى يسميه تجار البحر اللؤلؤ القلغ [Blister Pearls] والله أعلم .

تفقس بويضات الحيوانات الصدفية يرقات تسبح فى الماء ، وهى أحياء دقيقة لا أصداف لها . ثم تثبت فى القاع وتشرع فى تكوين صدفتيها حتى تتحول إلى محارة صغيرة . وينمو جسمها وتضيف إلى صدفها طبقة على طبقة . ونحن بحاجة إلى كثير من التسامح لتصور أبازيد فأما هذا التطور حينما يتكلم عما فى قدر الأنجدانة ولونها وخفتها ، مما يطير على وجه الماء ويسقط على جوانب مراكب الفاصلة . لأن اليرقات المتحركة التى كشف عنها العلم لا ترى بالعين المجردة . وأشار أبو زيد إلى جسم المحارة « وليس إلا لحمه حمراء كمثل اللسان » ، ولا نطالبه بتحقيق ما فى هذه اللحمية من أنسجة وأجهزة مركبة ، كما فى كل الحيوانات التى ارتفعت عن مرتبة ذوات الحماية الواحدة . أما نظرية تكوين اللؤلؤ من المطر فترجع إلى أقدم العصور وقد ردها بلينيوس فى تاريخه الطبيعى ؛ وهى خرافة جميلة ما تزال قائمة فى أذهان الناس . حدثنى شيخ عمانى ونحن فى شرفة قصره المطل على بحر الهند كيف تخرج المحارات إلى الساحل ، أو تطفو على سطح البحر وتفتح صدفتيها لتلتقى قطرات الندى ثم تعود إلى أعماقها . فإذا صفا الندى وصحت السماء انعقدت القطرات فى المحارة درراً غالية . ورب جو مكفهر ، أو قطر انضم على قذى فكان ذلك سبباً فى أن تتحول قطرات الندى لآلى بخسة مغبرة . تفسير شعرى جميل يوافق ما فى الآلى من سحر خلاب ؛ فما أقرب إلى النفس الشاعرة أن ترى فى الدرر الغالية أشعة الفجر الصبوح ، وقطرات الندى الطاهر .

ولقد كان إيزيدورس الرحالة والجغرافي الذي عاش في مطلع القرن الأول من الميلاد أقرب إلى الحقيقة حينما قال : ” إن اللؤلؤ ينشأ عن شيء ينمو في جوف المحارة “ . وأبعد عنها إذ يقول : ” وله أظلاف ، ويأتي بالغذاء . هو سرطان صغير يسمى حارس المحارة “ . ويبدو من كلام أبي زيد أنه غير مصدق لحكاية قطر الندى ، بدليل قوله : ” ويزعم الآخرون أنها تولد بداخل الصدف ، وهذا هو الرأي الأصح “ .

وبينما يكتبني ابن خرداذبة وابن الفقيه الهمداني وابن رسته والإصطخري والحموي بذكر مفاصات اللؤلؤ المشهورة في زمنهم ، نرى المسعودي والقزويني والدمشقي والإدريسي يسهبون في وصف تكون اللآلئ ، ويعنون بأمر الغوص والغواصين . وما زالت مفاصات اللؤلؤ مركز نشاط كبير شمال سيلان ، وفي الخليج الفارسي على شواطئ البحرين ، وحول جزيرتي قيس والار . وهي المواضع التي أشار إليها هؤلاء المؤلفون .

يقول أبو الحسن المسعودي وهو يتحدث عن بحر فارس : ” وفيه جزائر كثيرة مثل جزيرة خارك . . . وبينها وبين البحر فراسخ . وفيها مفاص لؤلؤ وهو اللؤلؤ المعروف بالخاركي . . . والغوص على اللؤلؤ في بحر فارس إنما يكون في أول نيسان إلى آخر أيلول . وما عدا ذلك من شهور السنة فلا غوص فيها . . . وهو خاص للبحر الحبشي من بلاد خارك وقطر وعمان وسرنديب وغيرها من هذا البحر . وذكرنا كيف تكون اللؤلؤ وتنازع الناس في ذلك ، ومن ذهب منهم إلى أن ذلك من المطر ، ومن ذهب إلى أن ذلك من غيره . وصفة اللؤلؤ العتيق منه والحديث المسمى بالحمار

المعروف بالبِلْبِل ، واللحم الذى فى الصدف والشحم . وهو حيوان يفرع من الغاصة على ما فيه من اللؤلؤ والدر كخوف المرأة على ولدها . وأتينا على ذكر كيفية الغوص ، وأن الغاصة لا يكادون يتناولون شيئاً من اللّحمان إلا السمك والتمر وغيره من الأقوات . وما يلحقهم من شق أصول آذانهم لخروج النفس من هناك بدلاً من المنخرين ، لأن المنخرين يجعلون عليهما شيئاً من الذّبَل ، وهو ظهور السلاحف البحرية التى يتخذ منها الأمشاط ، أو من القرن ، يضممها كالمشقاص ، لا من الخشب . ويُجْعَل فى آذانهم القطن وفيه شىء من الدهن ، فينعصر من ذلك الدهن اليسير فى قعر الماء فيضى لهم بذلك ضياء نيراً . وما يطلون به على أقدامهم وأسواقهم من السواد خوفاً من بلع دواب البحر إياهم ونفورها من السواد . وصياح الغاصة فى قعر البحر كالكلاب ، وخرق الصوت حتى يسمع صياح بعضهم بعضاً . وللغاصة والغوص أخبار عجيبة . وللؤلؤ وحيوانه ما قد أتينا على أوصاف ذلك ، وصفات اللؤلؤ وأثمانه ومقادير أوزانه ، فيما سلف من كتبنا .

ومع أن الواقع يؤيد المسعودى فى أغلب ما ذكر فإننا نرى أثراً للأساطير فى حكاية شق الغاصة آذانهم لخروج النفس من هناك بدلاً من المنخرين . إذ يبدو أن هذه نتيجة فهم خاطئ لما يلتجئ إليه الغواصون من سد فتحة المنخرين بمشقاص من الذبل [الباغة] . فالغواص لا يشق داخل الماء ، ولا يملك إلا كتم أنفاسه ، ثم هو يبدأ فى الزفير عند ما لا يستطيع لنفسه احتباساً ؛ وفى تلك اللحظة يعطى الإشارة لمن يمسون الحبل الذى دلى به من سطح الزورق ليجذبوه بسرعة إلى سطح الماء . ومسألة الدهن المضىء

جديرة بالبحث عما إذا كان الغواصون استعملوا مواد فوسفورية مضيئة .
أما حكاية نفور دواب البحر من اللون الأسود فهي ذائعة مشهورة في البحار
الجنوبية ؛ والأمواج الصوتية تنتقل في الماء بأسهل مما تنتقل في الهواء .
ويعرف ذلك البحريون عند ما يقربون فهم من سطح الماء وينادون على
زملائهم من بعد . ولكني لا أعتقد أن يتاح للغواصين الصياح ، فالصياح
ملزم بالزفير .

ويقول أبو زكريا محمد القزويني في « عجائب المخلوقات » عن بحر
فارس : ” اعلم أن أكثر جزائر هذا البحر مسكونة معمورة يأتيها الرجال ؛
منها جزيرة خارك بها معادن اللؤلؤ . ذكر البحريون أن صدف الدر لا يوجد
إلا في بحر تصب فيه الأنهار العذبة . فإذا أتى وقت الربيع يكثر هبوب الرياح
وارتفاع الأمواج ، فتحمل الرياح رشاشات من بحر أقيانوس وفيه ماء شبيه
بالزئبق لزج مثل الغراء ؛ فيتولد منه الدر بأن تقع تلك الرشاشات في محل
الصدف فيلقمه وربما وقعت فيه قطرة كبيرة فتنعقد دراً كبيراً ، وربما
تقع رشاشات فتنعقد منها أجزاء صفار كما ترى في أكثر الأصداف . ثم إن
الصدفة إذا التقت المطر خرجت من قعر الماء إلى ظاهره عند هبوب الشمال
وطلوع الشمس وغروبها . ولا يخرج في وسط النهار فإن شدة حرارة الشمس
ووجهها تفسد الدر . فإذا خرجت فتحت فاما ليقع الشمال على الدر ، فينعقد
من أثر الشمال وحرارة الشمس ويتكوّن في الصدف كما يتكوّن الجنين في
الرحم . ثم إن جوف الصدف إن كان خالياً من الماء المُرّ يكون الدر كدراً
أو أصفر غير مهندم . وإذا تم الدر في الصدف ينتقل الصدف إلى موضع صلب

وتثبت عروقه فيه ، ويكون عند الناس خيراً . فإذا انتقل إلى أرض البحرين
يهيئ الناس بعضهم بعضاً بوصول قفل الصدف . والنواص إذا نزل لإخراجه
يقلعه من الأرض بالقوة ، فما أخرج في وقته يبقى طرياً ثقيلاً ؛ وما أخرج
قبل وقته أو بعده لا يبقى كذلك بل يتغير لونه “ .

ويجمع الدمشقي في « نخبه الدرر » بين كلام المسمودي والقزويني
بأسلوبه الرزين ، في فصل عنوانه « وصف الدر واللؤلؤ وكيفية توليده في
أصدانه وذات حيوانه » :

“ قال أرسطو في كتاب الأحجار : الدر واللؤلؤ حجر شريف وجوهر
ثمين معدني حيواني ، وهو الجوهر المختص بتسمية الجوهريّة ؛ وما عداه فن
حيث عموم الجنس يسمى جوهرأ . وهو من أجل الأحجار قيمة وقدرأ ونفعأ ،
وحلية تلبس . وتكوينه مبين لسائر ما عداه من الجواهر الشفافية لأنها
ترابية وهو حيواني . وذلك أن المطر يقع على ساحل البحر الفارسي في فصل
الربيع ، فيخرج حيوان صغير الجثة من قعر البحر إلى سطحه فيفتح له أذنيه
كالسفطين فيلتقف بهما من المطر الواقع في ذلك المسكان والأوان قطرات .
فإذا أحس بوقوعها وهو كالعطشان التقف منها . فإذا روى ضم عليها ضما
شديداً خوفاً عليها أن يختلط بشيء من ماء البحر . ثم ينزل إلى قعر البحر
كما كان ويقيم فيه إلى أن ينضج ذلك الماء وينعقد لؤلؤأ كبيرأ أو صغيرأ
ذلك بحسب صفاء القطرات وكبرها .

“ وقال أرسطو في كتاب الأحجار إن البحر المحيط يهيج في زمن
الشتاء ، وتضطرب أمواجه فيكون عند اضطرابها رشاش فيخرج من البحر

المتصل به صدف الدر ؛ وداخل الصدف حيوان بحسب الصدف فيلتقمه كما يلتقم الرحم النطفة ؛ ثم يذهب به إلى المواضع الساكنة في البحر فينغرس في أرضه ، ويشرب بعروق له ، ويتشعب منه شجر ويصير نباتاً بعد أن كان حيواناً . فإذا كان أوان القوص تطف مثل الثمرة النضيجة . يقول الخاذق إن هذا القول من أرسطو رمز وتورية . وهو نوعان كبير ويسمى الدر ، وصغير ويسمى اللؤلؤ . وأجود الدر المدحرج الصافي الشفاف الكبير الحجم الرزين النقي ، ويتفاوت في الوزن من نصف مثقال إلى مثقال ونصف . وأجود اللؤلؤ النقي المستدير . واللؤلؤ ألوان فمنه أصفر مستدير ، ومنه أحمر ومنه أخضر ومنه أزرق ؛ وهذه الألوان للملاصقتها لأعضاء الحيوان الذي جاوره ؛ فالذي جاور الطحال صار أحمر ، والذي جاور المرارة صار أخضر بحريا . ومن خواصه تفريخ القلب وبسط النفس ، وتحسين الوجه وإظهار جماله . ولا يظهر لون الزمرد مثل اللؤلؤ ، ولا لون اللؤلؤ مثل الزمرد . ويتخذ من طبقات الصدف اللؤلؤى صفائح شبيهة باللؤلؤ تسمى عروق اللؤلؤ .

أما الإدريسي فقد أحاط بموضوع اللؤلؤ إحاطة تكاد تكون تامة :

”وأهم جزر البحرين جزيرة أوال وهي على مسيرة خمسين مرحلة من بر القرس ، وأربع مراحل من بر العرب ؛ طولها ستة أميال في عرض ستة أميال وحاضرة جزيرة أوال اسمها البحرين ؛ وهي مدينة عامرة . . . وفي هذه الجزيرة يسكن غاصة اللؤلؤ ، في المدينة التي يصل إليها التجار من جميع أنحاء الأرض ومعهم المال الوفير . ويتربحون شهوراً طوالاً موسم القوص . ويستأجر التجار الغاصة مقابل جعل معلوم يتفاوت مع جودة الصيد واعتقاد

التجار بمهارة الغاصة . ويكون الغوص في أغشت وشتنبر وقبل هذا إذا كانت المياه صافية . ويصطحب كل تاجر الغواص الذي اكتراه ؛ وتخرج المراكب جماعة من الميناء فيما ينيف على مائتي دونج ؛ وهي فلك أكبر من الفلك العادي يقسم التجار سطحها إلى خمس أو ست بلنجات منفصلة . ومع كل غواص رفيق مساعد اسمه المصفي له نصيب في الكراء . ويخرج مع الغاصه أدلاء حذاق يعرفون المواضع لأن الأصداف مواضع تغشاها ، تذهب إليها وتخرج منها حسب الوقت وتعرفها . فإذا خرج الغاصة من جزيرة أوال قادم الدليل حتى إذا وصلوا إلى المواضع المعلومة خلع الدليل ملابسه وغاص ونظر . فإذا وجد المكان مناسباً خرج وأمر بطى الشراع ورعى الأناجر . وكذلك تفعل بقية الدوانج ، ويبدأ الغواصون في العمل .

”ويبلغ عمق قيعان الصيد من اثنين إلى ثلاثة باعات . ويستر الغواص سواته ويسد خياشيمه بالخلنجيل وهو دهان من الموميا المذاب مع زيت السمسم ، ومعه سكين وكيس ، ويحمل حجراً وزنه أربعة قناطير أو ما أشبه ، معلق بخيط رفيع متين ؛ وهو يلقي في الماء من ناحية المركب ويمسك المصفي بهذا الخيط بينما يقف الغواص على الحجر ويمسك الحبل بيديه متأهباً للقفز في البحر . ثم يترك المصفي الحبل فينزل الغواص والحجر سريعاً إلى قاع الماء ، وهو واقف على الحجر ممسك الحبل بيديه . فإذا وصل إلى القاع جلس وفتح عينيه وجمع عاجلاً كل الأصداف حونه . فإذا ملأ الكيس انتهى عمله ، وإلا فإنه يسعى قليلاً دون أن يترك الحبل أو الحجر . فإذا تعب صعد إلى سطح البحر ليتنفس ثم يغوص ثانياً . فإذا امتلأ الكيس جذب المصفي الحبل

والكيس ، وأفرغه في البِلَنْج وأرسله ثانيا إلى الغواص في البحر . وما دام الغواص يجد الإصداف فهو يستمر في صيدها .

”وبعد ساعتين يصعد الغواصون ويلبسون ملابسهم وينامون . ويأخذ المصن في فتح المحار بحضور التاجر الذي يجمع ما يخرج ويسجله في زمام . ويأكل الجميع قبيل الغروب . وينامون طول الليل حتى يبدأ العمل في اليوم التالي بعد الإفطار وهكذا طوال الموسم . فإذا فرغوا من قاع انتقلوا إلى غيره حتى ينتهي الموسم بنهاية شهرى أغشت وشتنبر ، ويعودوا إلى أوال ومعهم اللآلى محزومة في أوطاب . وعلى كل وطاب اسم صاحبه وعلامته ، وهو مغلق مختوم . وتسلم الأكياس إلى الوالى بمجرد مغادرة السفن . ويأتى يوم البيع فيجتمع التجار ، ويؤتى بكل وطاب وينادى على اسم صاحبه . ثم يكسر الختم وتفرغ اللآلى في ثلاثة أنواع من « الغرابيل » ذات ثقوب تختلف اتساعاً . ثم تباع الكمية بالمناداة ؛ فإذا أراد التاجر أن يحتفظ بها قيدت باسمه ، وإلا فإنه يبيعها ويقبض ثمنها نقداً ؛ وتدفع أجور الفاصة ومساعدتهم نقداً . وينصرف الجميع مغتبطين ويأخذ صاحب قيس أتاوة معلومة يدفعها التجار ، وهى تجمع باسمه أثناء البيع وترسل إليه . ويحتفظ صاحب أوال باللآلى النادرة ليرسلها للخليفة .

”واللؤلؤ ينمو داخل الصدفة . ويقول سكان بحر فارس إنها تنمو حسب أمطار شهر فبراير . فإذا لم تمطر في ذلك الوقت ، لم يجدها التجار طوال العام . وهذه مسائل ثابتة لا يشك في شأنها أحد من سكان البلاد .

”وتعلم حرفة الغوص في فارس ، ويدفع للتمرن عليها بعض المال . فإن

الغواص يتعلم كيف يتنفس من آذانه ؛ ويحدث في بدء تعليمه أن تصاب الآذان بالتهاب حاد ، ويخرج منها صديد [humeur] (*) وتعالج بالعقاقير . وتدفع أحسن الأجور للغواص الذي يبقى في الماء أكثر من غيره . وهم يعرفون بعضهم تحت الماء ، ولا يعتدون على حدود بعضهم البعض ، ولا يدعون التميز على غيرهم ، ولكنهم يتبارون في نشاطهم . وأغلب مفاصات اللؤلؤ في بحر فارس ، وبها نحو ثلاثمائة مشهورة مطروقة . ولقد ذكرنا أغلبها في مواضعها ، أى في الكلام عن سواحل البحار والجزائر . ومفاصات هذا البحر أغنى وأكثر غلة من مثيلاتها بالهند واليمن ، ولذا أسهبنا في وصفها .

ومن المفيد أن نقارن هنا بين ما جاء في جغرافية الإدريسي ، وما ذكره ماركو بولو في رحلته عن صيد اللؤلؤ بين شواطئ سرنديب الشمالية المعروفة بالأغباب والشواطئ الشرقية للطرف الجنوبي من الهند :

”واعلم أن البحر يكون هناك أغباباً بين جزيرة سرنديب وشبه جزيرة الهند . وعمق الماء في هذه الأغباب لا يتعدى عشرة أو اثني عشر باعاً ، وقد لا يزيد عن باعين في بعض المواضع . ويخرج صيادو اللؤلؤ في مراكبهم الصغيرة والكبيرة إلى ذلك الموضع ، ويشغلون فيه من أول أبريل إلى أواسط مايو ، بادئين بموضع يقال له « بتلار » ثم يتوغلون ستين ميلاً في الأغباب ، ويرمون الأناجر ويتركون مراكبهم الكبيرة وينزلون في دوانيج . واعلم أن التجار العديدين الذين يذهبون إلى هناك ينقسمون جماعة تكثرى

(*) لم أستطع الحصول على نسخة عربية كاملة من موسوعة الإدريسي . لذا اضطررت في بعض المواضع إلى التعريب عن الترجمة الفرنسية التي نقرأها أميديه جوبير . وهي ترجمة حسنة الأسلوب ولكنها غير آمنة على الأصل .

كل جماعة عددا من الناس طول شهر أبريل ونصف مايو . ويدفعون إتاوة للملك تعادل عُشر ما يصيدون . ويدفعون نصف العشر إلى السحرة القائمين على حماية الغاصة من السمك الكبار ، حين يشتغل هؤلاء تحت سطح الماء . وأولئك السحرة من البراهمة ، ولا يفعل طلسمهم إلا في يومه لأنهم يبطلونه في الليل فيعود السمك إلى سـ بق ضره . وهؤلاء البراهمة يسخرون الدواب والطيور وكل شيء حي . وإذا خرج الرجال بالدوانيج قفزوا إلى الماء وغطسوا إلى قاعه . وقد يكون القاع على عمق أربعة إلى اثني عشر باعاً . ويلبثون فيه ما استطاعوا . وهناك يجدون الأصداف التي تضم اللآلئ فيضعونها في كيس شبكي مشدود إلى وسطهم . ويعودون إلى سطح الماء بها ، ثم يغطسون ثانية . وكلما عجزوا عن إيقاف تنفسهم صعدوا إلى سطح الماء لحظة ثم عادوا إلى قاعه ، وهكذا حتى آخر النهار .

”والأصداف شبيهة بالحار الذي نأكل ؛ وبالأصداف لآلئ كبيرة وصغيرة ملتصقة بلحم الحارة .

”وبهذه الطريقة تصاد كميات كبيرة من اللآلئ . ومن هناك تجيء اللآلئ المعروفة في العالم . وصدقني أن ملك البلاد دخلاً طيباً وكثراً مما يضربه من إتاوة على تلك اللآلئ .

”وحيثما ينتصف شهر مايو يختفي الحار اللؤلؤي من هناك . نعم إنه يوجد على بعد ثلاثمائة ميل من ذلك الموضع ، ولكن لا يكون هذا إلا في سبتمبر والنصف الأول من أكتوبر“ .

والملومات التي يدلي بها السائح البندقى تنطبق إلى حد ما على ما نعرفه

اليوم عن موسم صيد اللؤلؤ شمال سيلان في مارس وأبريل . وهي المدة الواقعة بين انتهاء الرياح الموسمية الشمالية الشرقية وبدء رياح الجنوب الغربي العاصفة . والأعماق التي يوجد فيها اللؤلؤ تتراوح كما يقول ماركو بولو بين أربعة وعشرة باعات . ولا تزيد عن ثلاثة عشر باعا .

وفي كتاب « عجائب الهند » إشارة قد تحمل معنى تربية الأصداف اللؤلؤية ، إن لم يكن بالطريقة التي توصل إليها ميكيموتو في العصور الحديثة فهي تدل في أقلها على عناية الصينيين بجمع الأصداف اللؤلؤية في مكان واحد . ولا نفهم لهذا الجمع معنى إلا إذا كان الغرض منه تربيتها أملا في أن يعمل الزمن على نمو ما بها من لآلي . قال بزرك بن شهر يار :

”ومما يحكى عن بعض ملوك الصين ، وهو من الحكايات ، أن له بركة عظيمة يجيئها الماء من فرسخ ، ثم يصرف الماء عنها فينضب كله وهي فارغة . فإذا أحب أن تملأ ماء أمر بفتح الماء عليها من الموضع الذي يجيئ منه ثم تطرح اللؤلؤ مع الماء . فيجري الماء إلى البركة في نهاية الصفاء واللؤلؤ فيه إلى أن تمتلئ البركة من اللؤلؤ ويفيض الماء على جوانبها ثم يقطع الماء عنها ويبقى اللؤلؤ مثل الحصى“ .

وربما كانت الإشارة هنا إلى عادات أهل الصين ، إذ يفتحون المحار ويضعون بين القباء والصدقة تماثيل صغيرة للبوذا ، ويعيدون المحار إلى الماء . فإذا انقضى بعض الوقت أخرجوه فإذا البوذا وقد غطى بطبقة صدفية .

ويتردد ذكر اللآلي كثيراً في النصوص الهندية المقدسة . فالإله كريشنا هو مكتشف اللؤلؤ حين غاص عليه في البحر ليتخير منه درة يزين

بها جبهة ابنته ليلة عرسها . أو أن اللؤلؤ كان قربان العناصر إلى مهديو
[ديو أو ديفا = الرب ، ماها = العظيم] :

”كان قوس قزح قربان الهواء ، فجعل الإله منه هالته . وقدمت النار
سديماً فاتخذ منه نبراساً . والأرض ياقوتة فازدانت بها جبهته . أما البحر
فأهدى إليه درة وضعها موضع القلب فوق صدره“ .

فلاغرو أن تعزو الأساطير الهندية إلى اللاآلى خواص سحرية وأقر باذينية ،
وأن يرد ذكر اللؤلؤ في كتب المادة الطبية الصينية . ويظهر أن العرب نقلوا
عن الهنود بعض خواص اللاآلى ؛ فهي درياق للسموم على ما يقول
الدمشقي ، مقوية للقلب مجلبة للبصر إذا صدقنا القزويني .

قال أبو زيد حسن السيرافي : ”ومن عجائب ما سمعنا من أبواب الرزق
أن أعرابياً ورد البصرة في قديم الأيام ومعه حبة لؤلؤ تساوى جملة مال ؛
فصار بها إلى عطار كان ألفه فأظهرها له وسأله عنها وهو لا يعرف مقدارها ،
فأخبره أنها لؤلؤة ؛ فقال : وما قيمتها ؟ قال : مائة درهم ؛ فاستكثر الأعرابي
ذلك وقال : هل أحد يبتاعها مني كما قلت ؟ . فدفع له العطار مائة درهم فابتاع
بها ميرة لأهله . وأخذ العطار الحبة فقصد بها مدينة السلام فباعها بجملة من
المال ، واتسع العطار في تجارته . فذكر العطار أنه سأل الأعرابي عن سبب
اللؤلؤة ، فقال : مررت بالعمان وهي من أرض البحرين بينها وبين الساحل
مدينة قريبة ، فرأيت في الرمل ثعلباً ميتاً على فيه شيء قد أطبق عليه ؛
فنزلت فوجدت شيئاً كمثل الطبق يلمع جوفه بياضاً ، ووجدت هذه المدحرجة
فيه فأخذتها . فلم أن السبب في ذلك خروج الصدفة إلى الساحل تستنشق

الريح ، وذلك من عادة الصدف ؛ فربها الثعلب فلما عاين اللحم في جوفها وهي فاتحة فاهها وثب بسرعة فأدخل فاه في الصدفة وقبض على اللحم فأطبقت الصدفة على فيه . ومن شأنها إذا أطبقت على شيء وأحست بيد تلمسها لم تفتح فاهها بحيلة حتى تشق من آخرها بالحديد ، ضنا منها بالؤلؤ وصيانة له ، كصيانة المرأة لولدها . فلما أخذت بنفس الثعلب أمعن في العدو يضرب بها الأرض ، يمينا وشمالا إلى أن أخذت بنفسه فمات وماتت . وظفر بها الأعرابي فأخذ ما فيها وساقه الله إلى العطار فصارت له رزقا“ .

وليس ببعيد أن يحدث ما حدث للثعلب ، إن لم يكن من المحارة اللؤلؤية فمن أنواع المحار الكبرى ، كالبُصْر أو السرُنْباق *Tridacne gigas* . ولهذا النوع صدفتان سميكتان عظيمتا الجرم ، متعرجتا الحواف ، إذا انطبقتا تداخل احديدا صدف في تفر الصدفة الأخرى ، وانضمت حواف الصدفتين انضماماً وثيقاً ، بفعل عضلات قوية لدرجة يمكن معها فهم ما حدث للثعلب . وقد توجد لآلى في البُصْر ببعض المواضع ؛ ويعيش هذا المحار في مياه ضحل تنحسر عنها المياه في الجزر . لهذا يحتمل أن تكون المحارة التي عثر عليها الأعرابي من نوع البُصْر . إنما الخطأ الواضح في حكاية أبي زيد حسن وفي أمثالها هو تفسير قفل الصدفتين بمحو المحارة على ما بها من لؤلؤ . وقد رأينا أن اللؤلؤ ظاهرة مَرَضِيَّة ، أو بالأولى عملية دفاعية ضد جسم غريب نفذ إلى داخل المحارة . إنما تقفل المحارة صدفتيها دفاعاً عن كيانها ، لا عن لؤلؤها . وعضلات الحيوانات ذات الأصداف قوية ، تلزم الإنسان بشيء من الجهد ، بل وباستعمال سلاح لفتحها ، وقد تتكسر الصدفة كسراً قبل أن تفتح .

وعنصر الحظ والصدفة لا يقتصر على تكوين الآلى داخل أصدافها ، بل يمتد إلى عمليات الصيد ذاتها . فتاجر اللؤلؤ ، ونعنى هنا الممول لعمليات الغوص ، رجل يضارب بثروته أكثر مما يتجر . فقد يمضى الغواصون طيلة الموسم فى صيد المحار فلا يجمعون من اللؤلؤ ما يساوى التعب والمشاق والتكاليف لقلة ما يجمعون ، أو لغثاثة اللؤلؤ وكدر لونه وسوء تدويره . وقلة الآلى أو كثرتها لا علاقة مباشرة بينها وبين عدد ما يصيده الغواصون من المحار . فالقاعدة أن تفتح مئات الأصداف المصيدة على حصى لؤلؤ بخس أو على لا شئ . وقد نخرج درة أو درتان تموضان التاجر عن كل خسارته ، وتفيضان عليه بعد هذا بالربح الوفير . وحكاية « عجائب الهند » عن الدرة اليتيمة التى اشتهرت فى بلاط بنى العباس تصور هذه الحقيقة :

قال بزرگ بن شهریار الناخوداه الرام هرمزى : ” وحدثنى غیر واحد من البحرین بأمر الدرة المعروفة بالیتيمة ؛ وإنما سمیت الیتيمة لأنه لم یوجد لها أخت فى الدنیا . فأجودهم شرحاً للقصة حدث أنه کان بعمان رجل یقال له مسلم بن بشر . وکان رجلاً مستوراً جمیل الطریقة ؛ وکان ممن یجهز الغواصة فى طلب اللؤلؤ ؛ وکانت بیده بضاعة فلم یزل یجهز الرجال بالغوص ، ولا یرجع إلیه فائدة حتى ذهب جمیع ما کان یملکه ولم یبق له حيلة ولا ذخيرة ولا ثوب ولا شئ . یجوز بیعه إلا خلخال بمائة دینار لزوجته . فقال لها أقرضینى هذا الخلخال لأجهز به ، فلعل الله تعالى یسهل لى شیئاً ؛ فقالت له : یا هذا الرجل لم یبق لنا ذخيرة ولا شئ . نعول علیه وقد هلكنا وافتقرنا ؛ أفلان نأكل بهذا الخلخال أصلح من أن تتلفه فى البحر . فتلطف بها وأخذ الخلخال

وصرفه وجهر بجميعه الرجال إلى الفوص وخرج معهم . ومن شرط الفواص أن يقيم الفواصة فيه شهرين لا غير ، وعلى هذا يتشارطون ، فأقاموا يفوصون تسعة وخمسين يوماً ويخرجون الصدف ويفتحونه فلا يصل لهم شيء . فلما كان في يوم الستين غاصوا على اسم إبليس لعنه الله ، فوجدوا فيما أخرجوه صدفة استخرجوا منها حبة لها مقدار كبير ، لعل ثمنها يوفى بجميع ما كان يملكه مسلم منذ كان وإلى وقته . فقالوا هذا وجدناه على اسم إبليس لعنه الله . فأخذها وسحقها ورمى بها في البحر . فقالوا له : يا هذا الرجل ، لم فعلت هذا ؟ فقد افتقرت وهلكت ولم يبق لك شيء . يقع بيدك مثل هذه الحبة التي لعلها تساوي آلاف دنانير فتسحقها . وقال : سبحان الله ! كيف أستحل أن أنتفع بمال استخرج على اسم إبليس ، وإني أعلم أن الله تبارك وتعالى لا يبارك . وإنما وقعت هذه الحبة بأيدينا ليختبرنا الله تعالى بها ويعلم من يعرف خبرها اعتقادي . ولئن انتفعت بها ليقتردين كل أحد بي فلا يفوصون إلا على اسم إبليس لعنه الله ؛ فإثم ذلك يعظم على كل فائدة وإن عظمت ؛ والله لو كان مكانها كل لؤلؤ في البحر ماتلبست به . امضوا وفوصوا باسم الله وبركة الله . قال فغاصوا على ما رسم لهم فما صلى صلاة المغرب من ذلك اليوم وهو آخر يوم من الستين ، حتى حصل بيده درتان إحداهما اليتيمة ، والأخرى دونها بكثير . فحملهما إلى الرشيد وباع اليتيمة بسبعين ألف درهم والصغرى بثلاثين ألف درهم ؛ وانصرف إلى عمان بمائة ألف ، فبنى بها داراً عظيمة واشترى ضياعاً واعتقر عقاراً . وداره معروفة بعمان . فهذا ما كان من خبر الدرة اليتيمة . ونحن نشك في أن يوجد بين تجار اللؤلؤ كثير مثل مسلم بن بشر . فهم

قوم غلاظ القلوب ، قساة على الغواصين ، شديداً الحرص والأثرة .
أما الغواصون فشرذمة من التمساء لا تعرف من العيش إلا خصائصه ،
ومن الحياة إلا المشقة والخطر ؛ يتعرض أفرادها للموت اختناقاً وقلجاً ، أو عضا
وافتراساً ؛ وجلهم مصاب بالصمم نتيجة التهابات الأذن الوسطى ، معرض لفقد
طرف من أطرافه تقرحاً أو شللاً .

وتنتقل اللآلىء من الغاصة إلى التاجر . ثم تمتد الأيدي لتتخاطفها
ما بين البحرين وبومباي وباريس وأمستردام ولوندره ونيويورك ، حيث
تنظمها أصابع الفنانين عقوداً من جمان . ويقدمها كهول العشاق لتزين بها
الفوانى لمحورهن . هناك تتبدد غياهب الجهاد والشقاء والجشع والمخاطرات
الرهيبية في ضوء الثغور الجميلة تتفتح ابتساماً وتشرق غبطة وخيلاً .

العنبر والبال

العنبر إفراز مَرَضِيّ [باتولوجي] متحجر ، من قبيل حصي المرارة في الإنسان والحيوان ، يتكون في أمعاء نوع من القياطس الكبيرة يعيش في البحار الحارة على الأغلب . وقد عرفت هذه الدواب البحرية عند العرب بالأسماء الآتية : البال ، والبلينة ، والأبلينة ، والوال ، والقال ، والأوال ، والقاطوس والقنعدة . وكلمة قاطوس وقيطس اسم نوعي لفصيلة الثدييات البحرية الكبرى التي نسميها « الحيتان » في العصور الحديثة . وهو تعريب الاسم اليوناني Kētos ومنه Cetus باللاتينية . ولذا يطلق العلم على الفصيلة اسم Cetaceae . والقنعدة كلمة لا أعرف اشتقاقها ولم ترد في مراجعي أكثر من مرة أو مرتين ، والأسماء الأخرى مشتقة من الكلمة اليونانية Φάλανα وهي التي انتقلت إلى اللغات اللاتينية والانجلوسكسونية في الكلمات : baleine بالفرنسية ، ballena في الإسبانية ، wahl بالألمانية ، whale في الإنجليزية . واستعملت كلمة « نون » لتعريف هذه الدواب . واشتقاق هذه الكلمة عن العبرانية 𐤒𐤍 (نون) ، أو الآرامية (نونا) .

وتنقسم فصيلة القياطس إلى ذوات الأسنان ، وذوات الألواح القرنية . وتنبت للأولى أسنان كما في بقية الثدييات ، أما الثانية فلا تظهر الأسنان في فكها إلا أثناء دور التكوين الجنيني ثم تتلاشى بعد ذلك وتنبت بدلها في الفك الأعلى ألواح من مادة قرنية كانت تستعمل حتى أوائل هذا القرن لتقويم أثواب النساء ومشداتهن ، وأضلاعاً للمظلات .

والقياطس بأنواعها كانت وما تزال تصاد في جميع البحار لاستخراج شحمها الغزير المخزن في طبقة سميكة من الأغشية بين الجلد والعضلات تعرف في الإنجليزية باسم blubber ونقترح لها كلمة « لحاف » وكان شحم اللحاف يستعمل وقوداً لذبالات المصاييح قبل اكتشاف وسائل الإضاءة الحديثة . ومن أفضل شحم البال ما يسمى الاسبرماسيتى وهو خاص بنوع من البال اسمه العلمى *Physeter catodon* أى « النفاخ ذو الأسنان » ، والاسبرماسيتى لا يوجد في « اللحاف » وإنما هو مخزن في حوض عظمى كبير بأعلى جمجمته وهذا الحوض يكسب رأس البال الاسبرماسيتى شكلاً صندوقياً في استدارة .

ويستعمل شحم القياتس في شتى الصناعات الزيتية بعد أن بطل استعماله للإضاءة . ويأكل صيادو القياتس لحومها .

وصيد البال حرفة قديمة يخفى تاريخ البدء بها في ظلام القرون الخالية . ولكنها لم تنتظم وتتابع إلا منذ القرن السادس عشر حين خرج الباسكيون من خليج غسقونيا إلى المحيط الأطلسي خصيصاً لصيد دواب البحر الكبرى ، والحصول على شحومها . وتدل إشارات كتاب المسلمين ومن قبلهم إلى هذه الدواب على أن سكان سواحل البحر الشرقى الكبير عرفوا كيف يستفيدون منذ أقدم العصور بشحمها في بعض أغراضهم ، وبمادة أخرى لعبت في الحياة الشرقية دوراً هاماً سواء كعقار مفرد ، أو مركب فيما يعرف بالنند والغالية ، أو كعنصر من عناصر الأعطار والبخور ؛ تلك هى العنبر . وقد احتفظ العنبر بشهرته العظيمة ، وما برح ينتفع به في الشرق كمادة طبية ؛ ولكن استعماله

في الغرب أكثر ما يكون في تحضير الروائح العطرية ، لا كمطر في ذاته بل كسبب لأريجها .

عرف القدماء بعض العلاقة بين العنبر ونوع من البال سماه العرب « دابة العنبر » . وورد في هذه الدابة حديث صحيح ، هو أن النبي بعث ثلاثمائة رجل سرية وأمر عليهم عبيدة بن الجراح ، فأجهدم الجوع حتى أن الرجل كان يقتات في اليوم والليلة بتمرة واحدة . فبينما هم يسرون على ساحل البحر إذ أصابوا دابة العنبر مثل الكثيب الأضخم ميتة ، فأكلوا منها شهراً حتى سمنوا . وكانوا يغترفون الدهن من وقب عينيها بالقلال ؛ وأخذ أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقدمهم في الوقب ؛ وأخذ ضلعاً من أضلاعها فنصبه ، ثم اختار أعظم بعير وأركبه أطول رجل ، وأمره أن يدخل تحت الضلع فلم يبلغ رأسه مقعره . ولما رجعوا تزودوا من لحم السمكة حتى أوصلتهم إلى المدينة ؛ فلما قدموا حكوا ذلك للنبي فقال : هذا رزق ساقه الله إليكم فهل معكم شيء تطعموننا ، فأرسلوا إليه منه فأكل .

واهتدى العلماء في القرن التاسع عشر إلى أن العنبر يتكوّن في جوف البال . وذلك حين حللوا تلك المادة فقاربوا بينها وبين الكولسترين ، وقدروا أنها ترسب مرضى شبيه بحصى المرارة . والبال يتغذى بالأخطبوطات الكبيرة ، ولهذه مناقير قرنية كمناقير الببغاوات ، قائمة بازدياج في فتحة الفم ، وهي الفتحة المحوطة في نظام دائري بالأذرع الثمانية ، ذات المصاصات الحجامية . وإذا وجد العلماء بداخل بعض قطع العنبر مناقير هذه الأخطبوطات اتجهوا في تفسير تكوين العنبر إلى أنه نتيجة تهيج أغشية

أمعاء البال بواسطة هذه المناقير ، فتترسب حول مركز التهييج مواد كوليسترينية هي العنبر .

أما شعوب القرون الوسطى فلم تستطع أن تفهم سر تكوينه تماماً ، وكانت تجده في الأغلب طافياً على وجه الماء ، أو مطروحاً على الشواطئ ولذلك راحت تبتدع نظريات لهذا التكوين باعدت بين تفكيرهم وبين الواقع . ولات دابة العنبر ذاتها من المغالاة في الوصف ما كان منفذاً مباشراً إلى الأساطير . قال التاجر سليمان إنه رأى « سمكا مثل الشراع ربما رفع رأسه فقراه كالشئ العظيم ، وربما نفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة . فإذا سكن البحر اجتمع السمك فحواه بذنبه ، ثم فتح فاه فبرى السمك في جوفه يفيض كأنه يفيض في بئر . والمراكب التي تكون في البحر تخافه ؛ فهم يضربون بالليل بنواقيس مثل نواقيس النصارى مخافة أن يتكى على المركب فيفترقه » . ولو كان للبال الاسبرماسيتى زعنفة ظهرية كما في بعض أنواع القياطس الأخرى لفهمنا إشارة سليمان إلى رؤيته سمكا مثل الشراع ؛ ويحسن أن نذكر دائماً كلما قرأنا وصفاً للقياطس في مؤلفات القدماء أنهم رأوا أكثر من نوع واحد دون أن يميزوا بين الأنواع . أما حينما يقول سليمان بأن البال "ينفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة" فهو وصف ظاهر الصدق لما يراه البحريون عن بعد من تنفس القياطس .

فهذه الدواب البحرية من الثدييات كما قلنا ، ودما حار ، تتنفس برئتها الهواء الطليق في الجو ، وتقع نتحة الأنف فيها فوق رأسها . وقد ظل الناس طويلاً يحسبون البال يقذف بالماء من تلك الفتحة إلى أعلا مع زفيره .

ولكن الثابت هو أن ظاهرة « النفخ » مرجعها إندفاع غازات الزفير الدافئة المشبعة ببخار الماء وهي خارجة من رثى البال ، ويتكاثف هذا البخار كما يتكاثف زفير الحيوانات ذات الدم الحار في الجو البارد . وليس ما يمنع أن يختلط رذاذ ماء البحر بهذا الزفير ، ولكن هذا الرذاذ ليس مسؤولاً عن ظاهرة النفخ الخاصة بالقياطس والتي جعلت معنى تسميته الدارجة عند الفرنسيين « النفاخ » . وصيادو البال يميزون بين القيطس البلىنى ذى النتوءات الفكّية القرنية ، وبين البال الاسبرماسيتى بمجرد رؤية عامود البخار المتكاثف عن بعد . فدابة المنبر ترسل زفيرها في عمود منفرد من فتحة واحدة . أما القيطس البلىنى فلازدواج فتحة أنفه ، يخرج زفيره المتكاثف في عمودين . وقد وصف بيل Beale انتظام دورة التنفس في دابة المنبر فقال بأن البال البالغ يبقى على سطح الماء من عشر دقائق إلى إحدى عشرة دقيقة يزفر في أثنائها من ستين إلى سبعين مرة ثم يغطس سبعين دقيقة . وغطسه سريع يبدأ فيه برأسه وقد تقوس جسمه الهائل ، وتخرج زعنفة الذنب من الماء وترتفع رأسياً ثم تختفي ، إذ ينفذ البال إلى الأعماق في حركة تكاد تكون عمودية . وقد يبلغ عرض زعنفة الذنب في أكبر الدواب المعروفة في الوقت الحاضر ثلاثة أمتار ؛ ووضعها في القياطس أفقى بخلافها في الأسماك فهي رأسية . وأول من تحدث عن وسيلة إفراز البال بإحداث أصوات مزعجة هو نيتارخوس أميرال الإسكندر . فقد حكى في رحلته عبر بحر فارس كيف أمر رجاله بالضجيج والصراخ لإبعاد البال . ولا نحسب أنه فعل هذا من تلقاء نفسه ، بل الغالب أنه عرف به من أدلائه القرس أو العرب .

أما قول سليمان بخوف المراكب أن يتكبد عليها البال فيغرقها ، فيمكن بصفة عامة تأييده فيما يختص بدابة العنبر وحدها ؛ لأن أكثر الأنواع الأخرى تتجنب السفن وتفرع منها . أما البال الاسبرماسيتى فقد عرف بالشراسة والفراسة على الشر ، وهناك حالات مقررة نطح فيها البال الاسبرماسيتى زوارق صيد برأسه الهائل فهشمها وأغرقتها .

وفي قصة هيرمان ملثيل H. Melville «سوربي ديك أوالبال الأشر» وصف رائع لبعض هذه الحوادث . وقد وضع الكاتب الأميركي قصته وسط القرن التاسع عشر على أساس من وقائع شهدتها بنفسه ، وأخرى قرأ عنها في تقارير ومذكرات ليس من سبب اللطم فيها ؛ فذكر حوادث استطاع فيها هذا النوع من البال أن يهجم في سورة غضبه على السفينة الرئيسية ، لا على زوارق الصيد ، فيصيبها بالتلف ويغرقها . فليس من المغالاة أن يشار إلى خطره على مراكب القرون الوسطى ولم تكن لتتعدى في جرمها أكبر السفن التي خرجت حتى منتصف القرن الماضي من موانئ غسقونيا وبلاد الباسك وجزيرة نانتوكت بأمریکا لصيد البال الاسبرماسيتى .

ويقول التاجر سليمان في العنبر: ”ويقع في هذه الجزائر [الكلام عن الألف وتسعمائة جزيرة المسماة بالدَّيَّجَات ، والتي زار ابن بطوطة بعضها وسماها ذِيَّة المَهَل ، وتعرف اليوم باسم أرخيل المحلديب] عنبر عظيم القدر فتقع القطعة مثل النبت [البيت؟] ونحوه . وهذا عنبر ينبت في قعر البحر نباتاً ، فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره مثل الفطر الكماة“ .

ويضيف إليه أبو زيد حسن السيرافي: ”فأما العنبر وما يقع منه إلى

سواحل هذا البحر فهو شيء تقذفه الأمواج إليها؛ ومبدأه من بحر الهند، على أنه لا يعرف مخرجه؛ غير أن أجوده ما وقع إلى بربر أو حدود بلاد الزنج والشجر وما والاها وهو البَيْضُ المدَوَّر الأزرق. ولأهل هذه النواحي نُجُبٌ يركبونها في ليالى القمر ويسرون بها على سواحلهم قد ريفت وعرفت طلب العنبر على الساحل، فإذا رآه النجيب برك بصاحبه فأخذه. ومنه ما يوجد فوق البحر ويزن وزناً كثيراً، وربما كان كهيئة الثور ودونه، فإذا رآه الحوت المعروف بالبال ابتلعه. فإذا حَصَلَ في جوفه قتله، وطفأ الحوت فوق الماء وله قوم يراعونه في قوارب قد عرفوا الأوقات التى توجد فيها هذه الحيتان المبتلعة العنبر؛ وإذا عاينوا منها شيئاً اجتذبه إلى الأرض بكلاليب حديد فيها حبال متينة تنشب في ظهر الحوت، فيشقوا عنه ويخرجوا العنبر منه؛ فما كان يلي بطن الحوت فهو المَند الذى فيه سهوكة، وسمكته موجودة عند العطارين بمدينة السلام والبصرة. وما لم تصل إليه سهوكة الحوت كان نقياً جداً. وهذا الحوت المعروف بالبال ربما عَمِلَ من فقار ظهره كراسى يقعد عليها الرجل ويتمكن. وذكروا أن بقرية من سيراف، على عشرة فراسخ، بيوتاً عادية لطافاً سقوفها من أضلاع هذا الحوت. وسمعت من يقول إنه وقع في قديم الأيام إلى قرب سيراف منه واحدة فقصد للنظر إليها فوجد قوماً يصعدون إلى ظهرها بسلم لطيف. والصيادون إذا ظفروا بها طرحوها في الشمس وقطعوا لحمها وحفروا له حفراً يجتمع فيه الودك ويُغَرَف الودك من عينيها بالحرارة إذا أذابتها الشمس؛ ويجمع فيبائع على أرباب المراكب ويحاط بأخلاط لم يمسح بها مراكب البحر يسد بها خرزها ويسد أيضاً ما ينفثق من خرزها

فبيع وَدَكَ هذا الجوت بجملة من المال“ .

وحدثنا النويرى فى « نهاية الأرب » عن ابن واضح اليعقوبى قال :
” العنبر أنواع كثيرة ، وأصناف مختلفة ، ومعادنه متباينة ، وهو يتفاضل
بمعادنه وجوهره ؛ فأجود أنواعه وأرفعه وأفضله وأحسنه لوناً وأصفاه جوهرأ
وأغلاه قيمة العنبر الشجرى ، وهو ما يقذفه بحر الهند إلى ساحل الشجر من
أرض اليمن . وزعموا أنه يخرج من البحر فى حلقة البعير أو الصخرة الكبيرة ...
قال تقطعه الريح وشدة الموج فترمى به إلى السواحل . وهو يفور ولا يدنومنه
شئ ، لشدة حرارته وفورانه . فإذا أقام أياماً وضربه الهواء جمده فتجمعه الناس
من السواحل المتصلة بمعادنه . قال : وربما أتت السمكة العظيمة التى يقال
لها البال فابتلعت من ذلك العنبر الطافى وهو يفور فلا يستقر فى جوفها حتى
تموت وتطفو ويطرحها البحر إلى الساحل فيُشق جوفها ويستخرج ما فيه من
العنبر وهو العنبر السمكى ويسمى أيضاً المبلوع . قال : وربما طرح البحر
القطعة العنبر فيبصرها طائر أسود شبيه بالخطاف فيأتى إليها ويرفرف بجناحيه ،
فإذا دنا منها وسقط عليها تعلق بمخاليبه ومنقاره ، فيموت ويبلى ويبقى منقاره
ومخاليبه فى العنبر ، وهو العنبر المناقيرى .

” قال : وبعد العنبر الشجرى العنبر الزنجى ، وهو الذى يؤتى به من بلاد
الزنج إلى عدن ، وهو عنبر أبيض . وبعده العنبر السلاهي وهو يتفاضل ،
وأجود السلاهي الأزرق الكثير الدهن وهو الذى يستعمل فى الغوالى .
وبعد السلاهي العنبر القاقلى ، وهو أشهب جيد الريح حسن المنظر خفيف
وفيه ييس يسير ، وهو دون السلاهي لا يصلح للغوالى والتطهير إلا عن

ضرورة ، وهو صالح للذرائع والكلسات . ويؤتى بهذا العنبر من بحر قاقلة إلى عدن . وبعد القافلي العنبر الهندي يؤتى به من سواحل الهند الداخلة فيحتمل إلى البصرة وغيرها . قال وعنبر يؤتى به من الهند يسمى السكر بالوس ينسب إلى قوم من الهند يجلبونه يعرفون بالسكر بالوس يأتون به إلى قرب عمان ، يشتريه منهم أصحاب المراكب . قال : وأما العنبر المغربي فإنه دون هذه الأنواع كلها يؤتى به من بحر الأندلس فتحمله التجار إلى مصر وهو شبيه في لونه بالعنبر الشحري وقد يغالط به . وقال أحمد بن يعقوب : قال لي جماعة من أهل العلم بالعنبر إنه بجبال نابذة في فرار البحر مختلفة الألوان ، تقتلعه الرياح وشدة اضطراب البحر في الأشنية الشديدة ، فلذلك لا يكاد يخرج في الصيف . فهذه طائفة من الأخبار عن العنبر ودابته تظهرنا ، منذ القرن التاسع الميلادي ، على الرأي القديم في علاقة العنبر بالبال ، وفي أن العنبر يخرج من قاع البحر . فاليقوبي يتحدث عن « معدن » العنبر ، أي منجمه ، وقد نص على وجوده بجبال نابذة في فرار البحر .

ويكشف لنا اليعقوبي لأول مرة عن واقعة وجود مناقير بداخل العنبر ، وفي هذا يقول صاحب « مختصر المعاني » :

”وقرات في كتاب الطيب الذي ألفه إبراهيم بن المهدي أن أحمد بن حفص العطار قال : كنت في مجلس أبي إسحق وهو يصفى عنبراً قد أذابه وأخرج ما كان فيه من الحشيش الذي هو يشبه خلقة مناقير الطير . فسألني عن ذلك ، فقلت له : هذا مناقير الطير التي تأكل العنبر إذا رائته الدواب . فضحك أبو إسحق وقال : هذا قول تقوله العامة ، ما خلق الله دابة تروث العنبر ؛ إنما

العنبر شيء يكون في قعر البحر . وقد عني الرشيد بالمسئلة عن ذلك ، وأمر حماد البربري بالبحث عن ذلك فكتب له جماعة من عدن أبين أنه يخرج من عيون في أرض البحر ، ثم تقلعه الريح بالأمواج فيطفو على الماء ، وترميه الريح على البر كما يخرج من أرض هيت القار ، وفي أرض الروم الزيت الرومي .

وقال ابن واضح إن العنبر يخرج في خلقة البعير أو الصخرة الكبيرة ؛ ولكن أغلب ما يوجد من العنبر قطع صغيرة لا يتعدى وزنها بضع أوقيات . وقد يعثر على قطع كبيرة كما حدث في سنة ١٧١٦ حيث وجدت على ساحل جزيرة سانت هيلانة قطعة رتتها أربع مائة رطل . وقال مردوك Murdoch في كتابه عن «صيد البليظة والدببة» بأن بعض الترويجيين عثروا عند سواحل استراليا على قطعة من العنبر في جوف بال بلغ وزنها عشرين وأربع مائة كيلو جراماً ، قدر ثمنها بمبلغ سبعة وعشرين ألف جنيه .

ويقدم المسعودي خلاصة وافية لمعارف عصره عن هذا الموضوع فيقول :
”وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلم واليمن وأصابتني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة فلم أشاهد أهول من بحر الزنج وفيه السمك المعروف بالأوال ، طول السمكة نحو من أربع مائة ذراع إلى الخمسة ذراع بالذراع العُمري ، وهو ذراع أهل ذلك البحر . والأغلب من هذا السمك أن طوله مائة ذراع . وربما بدا بهذا البحر فيظهر طرفاً من جناحيه فيكون كالقلاع العظيم وهو الشراع . وربما يظهر رأسه وينفخ الشعداء في الماء فيذهب الماء في الجوأكثر من ممر السهم . والمراكب تفرع منه بالليل والنهار تضرب له بالخشب والدياباب لينفر من ذلك . ويحشر بذنبه وأجنحته

السّمك إلى فمه وقد فتر فاه ، وذلك يهوى إلى جوفه جرياً . فإذا بغت السمكة بعت الله إليها سمكة نحو الذراع تدعى اللّشك ، فيلصق بأصل أذنّها ، فلا يكون منها خلاص فتطلب قعور البحار وتضرب بنفسها حتى تموت . فتطفو فوق الماء فتكون كالجبل العظيم ، وربما تلتزق هذه السمكة المعروفة باللشك بالراكب فلا تدنو الأوال مع عظمها من الراكب ، وتهرب إذا رأت الصغيرة إذ كانت آفة عليها وقاتلة لها .

”وعنبر هذا البحر قليل [بحر لاروى] . وذلك أن العنبر أكثره يقع إلى بلاد الزنج وساحل الشّحر من أرض العرب . وأهل الشحر أناس من قضاة بن مالك بن حمير وغيرهم من العرب . ويدعى من سكن هذا البلد من العرب أن المهرّة أصحاب شعور وجم واقتهم خلاف لغة العرب . . . وهم ذو فقر وفاقة . ولهم نَجْب يركبونها بالليل تعرف بالنجب المهرية ، وتُسَبّه في السير بالنجب البيجاوية ، بل عند جماعة أنها أسرع منها . فيسيرون عليها على ساحل بحرهم ، فإذا أحست النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه ، قد رiest لذلك واعتادته ، فيتناولوه الراكب . وأجود العنبر ما وقع إلى هذه الناحية ، وجزائر الزنج وساحله . وهو المدور الأزرق النادر كبيض النعام أو دون ذلك . ومنه ما يبتلعه الحوت المعروف بالأوال المقدم ذكره ؛ وذلك أن البحر إذا اشتد قذف من قعره العنبر كقطع الجبال وأصفر على ما وصفنا ، فإذا ابتلع هذا الحوت العنبر قتله ، فيطفو فوق الماء . ولذلك أناس يرصدونه في القوارب من الزنج وغيرهم فيطرحون فيه الكلاليب والحبال ويشقون عن بطنه ويستخرجون العنبر منه ، فما يخرج من بطنه يكون مَهْكا ويعرفه

الطارون بالعراق وفارس بالنند . وما لقي ظهر الحوت منه كان نقيا جدا على حسب لبثه في بطن الحوت ... وأخبرني غير واحد من نواخذة السيرافيين والعمانيين بعمان وسيراف ، وغيرهم من التجار ممن كان يختلف إلى هذه الجزائر [جزائر الديجات] أن العنبر ينبت في قعر هذا البحر ، ويتكون تكون أنواع القطر من الأبيض والأسود والكما ونحوها . فإذا خبث البحر واشتد ، قذف من قعره الصخور والأحجار وقطع العنبر ... ” .

لم يأت أبو الحسن المسعودي بمجديد عن العنبر والبال . وحكاية ترصد الزوج وغيرهم لدابة العنبر — وقد ذكرها أبو زيد حسن السيرافي قبله — وطرحهم الكلاليب فيها لا تعتبر إشارة إلى صيد منظم للبال ، فهذا محض انتفاع بجيفة طافية على الماء .

إلا أن أبا الحسن قدر أطوال البال بين مائة وخمسة ذراع ، وغاب أن يكون طوله مائة ذراع . وليس المسعودي أول من قدر طول البال من بين كتاب العرب ، فقد ذكر ابن خرداذبة من قبله أنه قد يبلغ المائة والمائتي باع ، والباع أربعة أذرع ، وأطول ما سجل من أطوال البال الأسبرماسيتي في العصور الحديثة لا يتعدى خمسة وعشرين متراً . ولكن أنواعاً أخرى من القياطس قد تنيف على الثلاثين متراً . فالمسعودي أقرب إلى سجلاتنا المصرية من ابن خرداذبة ، ولو أن تقدير هذا الأخير يعد نموذجاً في الاعتدال إذا قيس بما قاله بلينيوس الكبير : ” ثبت سمك اسمه البلينة يبلغ من طوله وعرضه ما يفرش على ثلاثة فدادين ” . وقد أبي ابن الوردي أن يترك للعلامة الروماني قصب السبق في التهويل ، فذكر نقلا عن القزويني أن ببحر الخزر

”دوابا عظيمة مختلفة الأشكال هائلة المنظر يقال إن السمكة يمر رأسها كالجبل العظيم الشامخ ، ثم يمر ذنبها بعد مدة ، ويقال إن مسافة ما بين رأسها وذنبها أربعة أشهر“* .

وسرد صاحب « عجائب الهند » حكايات كثيرة عن الدواب البحرية الكبرى منها ما حدثه به أبو الحسن محمد بن عمر السيرافي ”أنه رأى بعين في سنة ثلاثمائة سمكة وقعت ببعض سواحل عمان ، وجزر الماء عنها فصيدت فسحبت إلى البلد . فركب أحمد بن هلال الأمير والعسكر معه وحضر الناس للنظر إليها . وكان الفارس يدخل من فكها ويخرج من الجانب الآخر وهو راكب لعظمها . فإنها ذرعت فكان طولها زيادة على مائتي ذراع وارتفاعها نحو خمسين ذراعاً . وأنه بيع من دهن عينيها على ما قيل ببضعة عشر ألف درهم“ .

”وحدثني اسمعيلويه الناخوداه أن هذا السمك كثير ببحر الهند ويقال له الوال وهو يكسر المراكب مؤلّع . فإذا تعرض للمركب ضربوا الخشب بعضه ببعض وصاحوا وقرعوا الطبول ، وأنه ربما نفخ الماء فيرتفع مثل المنار ،

(*) يبدو هذا وبعض ما يرد في كتب العجائب العربية كأنه صدى لما جاء في قصة الإسكندر الخرافية التي ألفها كالتينس المزعوم ، والتي نقل عنها ابن الراهب صورة عربية ، وعرفت لها صور إتيونية وسريانية وغيرها . ولما كانت قصة كالتينس المزعوم قد ألفت في القرن الأول الميلادي ، فإن لي أن أتساءل عما إذا لم يكن أصحاب كتب العجائب العربية قد نقلوا بعض عجائبهم عن « قصة الإسكندر » . ففي هذه القصة يسافر ذو القرنين إلى بحر الظلمات ثم ينزل إلى أعماقه في صندوق من زجاج ويتأمل بدائع خلق البحار ، فيسره به تين يستغرق سروره من رأسه إلى ذنبه يوماً . ثم يمر تين آخر في ثلاثة أيام وهكذا . إنني أسوق هذه للملاحظة العابرة توجيهاً لنظر ذوي الاختصاص ، لاعتقادي أن دراسة « قصة الإسكندر » تأليف كالتينس المزعوم تساعد على فهم بعض الأساطير العربية .

ويرى من بعد مثل شرع المركب . وأنه ربما لعب بذنبه وأجنحته فيرى من بعد أيضاً مثل شراع القوارب .

”وحدثني بعض العراقيين ممن يضبط أنه رأى باليمن عند بعض إخوانه رأس سمكة قد ذهب لحمه وبقى عظمه صحيحاً فدخل الرجل من إحدى حدقتيها ، وخرج من الجانب الآخر وهو قائم من غير أن ينحني . وكان حمل في سنة عشرة وثلاثمائة من عمان إلى المقتدر من ذلك السمك . وأن فك سمكة رفع من الرّوْشَن ولم يدخل من الأبواب . وحدثني أن هذه السمكة التي حُمل فكها إلى بغداد نَزَف من عينيها خمسمائة جرة ، أو زيادة عليها ، دهناً .

”وحدثني بعض الربانية أن سمكة سارت مع مركبه بنواحي اليمن يوماً وليلتين وبعض يوم لم تفارقه ، ولم تتقدم عنه ولم تتأخر عنه ، قُدِّرَ مسيرهم معاً زيادة على مائة وسبعين فرسخاً . فإنها كانت بطول المركب سواء ، وكان طول مركبه خمسين ذراعاً بذراع العمل من مشعر الإبط إلى طرف الإصبع الوسطى . فسألته عن السبب في ملازمة دواب البحر الكبيرة مع المراكب ومحاذاتها ، فقال ذلك يختلف ؛ فمنها ما يحاذي المراكب ليسقط منها شيء فتلتقمه ، إذ تكون قد وقعت قبل ذلك بمركب قد عطب فنالت منه ، فصارت إذا رأت مركباً حاذته طمعاً أن يحدث منه ما حدث من غيره ، وظننا منها أن المراكب كلها كما وجدت في الأول ، فصارت كأنها ضارية على ذلك . ومنها ما يرى المركب فيتعجب من شكله ويظنه حيواناً بعضه في الماء وبعضه في الهواء ، فيمرح معه ويمجاريه عشقاً له وتأنساً به مدة مدى قوته واستفراغ نشاطه إلى أن يعي فيفارق ، ولا صبر للحيوان على مضاهاة الجماد . ومنها

ما يجارى المركب على سبيل المغامرة والمعاودة والمقاواة ، فإذا أعيا وقصر ورأى المركب يتقدمه رجع إليه فحمل عليه حملة واحدة ، فإن سلم وإلا فسأل الله العفو . ومنها ما إذا رأت المركب لا يحول بينها شيء لشدة ضراوتها وجسارتها ودربتها على المراكب . فتحمل عليه حملات حتى تقلبه فتلتقط ما فيه ، لعادة واستمرار ، نسأل الله العافية . ومنها ما إذا رأى المركب فر منه وهرب وذعر خوفاً على نفسه واستيجاشاً منه . وأخلاقها تختلف باختلاف مواضعها والسلوك المعهودة بعبور السفار والصيادين وقرب السواحل المعمورة ، والبحار المنقطعة المهجورة ، والبعث من السواحل المعمورة ، وعمق البحار ، وعدم البر والجزائر والسواحل . وهو عالم آخر تبارك الله أحسن الخالقين .“

”قال أبو محمد الحسن بن عمرو : وشاهدت من أضلاع السمك ضلعاً حملاً إلينا بعض أرباب المراكب فقطع منه قطعة من جانبه الغليظة نحو خمسة أذرع ، فطرحناه على نهر على باب بستان لنا بالجزيرة ، فقام مقام القنطرة .. وكان طول ما بقي منه نحو عشرين ذراعاً ...“

”وحدثني إسماعيلويه الناخداة ... قال فخرجنا كلنا في يوم واحد وكنت آخر من خرج بسفينته فأغذت السير لألحق من خرج منهم أولاً . فلما كان في اليوم الثالث رأيت من بعد مثل الجزيرة السوداء ، فلرغبتى في سرعة السير لم أنقص الشراع لأعدل عنها ، لأن السير في ذلك البحر شديد جداً . فما كذبت أن وصلت إليها فضربتنى . وإذا هي دابة من دواب البحر ، فلما لمست المركب ضربته بذنبها فانكسر ، فسلمت أنا وابنى والكارين في الدونيغ .“

”وحدثني بعض الربانية أنه رأى في لجة سمرقند [المقصود قاع خليج بنغالة]

وهو البحر الذى يلى هـز كَئُذ . . . خلقاً كثيراً من الفال ، وهو أكبر سمك فى هذا البحر . وأنه رأى سمكة منه قد رَأَى طولها نحو مائتى ذراع ، وأنهم رأوها من بعد قد رفعت أجنحتها فظنوها شُرُوع صراكب إلى أن حاذَوْها ، وأن على ظهر هذا السمك مثل الحجارة الأرحلية مما قد تراكب عليه طول السنين من الحشور والطين ، فاستحجر وصار لا يعمل فيه الحديد ولا غيره . وأنه يسير فى البحر يمينه ويسرة ، ووراءه وبين يديه أفراخ سمك لا يفارقونه .

.. وجاء فى « مختصر العجائب » ذكر اقتراب القياطس من الساحل بحثاً وراء القوت ، ومطاردة للسمك ؛ فتندفع بحركتها إلى الماء الضحل ، ويتعذر عليها العودة فتموت ؛ ويتقاسم الناس لحمها ، ويذیبونه فى الأوانى الكبيرة ، فيذوب عن آخره شحماً يستعمله أهل المراكب . وهذا كلام مفهوم ، إلا أن صاحب الكتاب خلط بين اللحم والشحم . وواقعة جنوح البال إلى الساحل وموته حقيقية . فإذا جنح البال وتعذرت عليه الحركة ، ضغط جرمه الهائل على صدره فلم يقو على التنفس ومات اختناقاً .

ولقد عودنا الشريف الإدريسي أن نجد فى كتابه « نزهة المستأوف » كثيراً من المعارف نجتزئ منها عن البال ما يلى :

”ومن هذا البحر [هـز كَئُذ] يخرج العنبر الكثير الطيب الرائحة ، وقد توجد منها العنبرة من قنطار وأكثر وأقل ؛ وهو شىء تقذفه عيون فى قعر البحر مثل ما تقذف عيون هَيْت [بالعراق] بالنفط . فإذا اشتد هيجان الريح رمى به إلى الساحل . وقد زعم البعض أنه روث دابة ولكنه ليس كذلك .

”ويوجد ببحر الصين والمهند دواب كبيرة طولها مائة ذراع وعرضها

أربعة وعشرون ذراعاً . ينبت بظهرها الصخر والذبل وقد تتكسر عليه المراكب . ويحكي البحريون أنهم يهاجمون هذه الدواب بالسهام ، ويحملونها على تغيير طريقها ، ويمسكون الصغار منها ويحمون على لحما في القدور ، فيذوب شحماً ؛ وهو مادة مشهورة على طول سواحل آسيا ، تستعمل لسد ثقب المراكب .

”وأهم الملاحين في هذا البحر [الأطلنطي] هم المعروفون باسم الأنكاسية أى سكان إنكرطره ، وهى جزيرة عظيمة بها مدن كبيرة ورغم ما يكتنف هذا البحر من أهوال ، ومع كثافة أمواجه ، فإن به السمك الكثير يصيدونه فى أمكنة معلومة . وبه دواب بحرية تبلغ من عظم الجرم ما يجعل أهالى تلك الجزر يستعملون عظامها وفقارها بدل الخشب فى أبنيتهم ، ويصطفون منها مطارق وسهاماً ورماحاً وخناجر ومقاعد وسلام . وبالجملة كل ما يصنع من الخشب“ .

والقزوينى مؤيد أو ناقل عن الإدريسي ، ولكنه كمادته أكثر مزجاً بين الواقع والأساطير دون حذر أو تمييز كبير ، قال فى « آثار البهراء » :
”إيرلاندة : حكى العذرى أن فى سواحلها يصيدون فراخ الأبلينة ، وهونون عظيم جداً ؛ يصيدون أجراءها يتأدمون بها . وذكروا أن هذه الأجراء تتولد فى شهر أيلول فتصاد فى تشرين الأول والثانى ، وكانون الأول والثانى ... وبعد ذلك فصلب لحما لا يصلح للأكل . أما كيفية صيدها ، ذكر العذرى أن الصيادين يجتمعون فى مراكب ومعهم نشيل كبير من حديد ذواضراس حداد ، وفى النشيل حلقة عظيمة قوية ، وفى الحلقة حبل قوى .

فإذا ظفروا بالجرو صنفقوا بأيديهم وصوتوا ، فيتلهى الجرو بالتصفيق ، ويقرب من المراكب مستأنساً بها . فينضم أحد الملاحين إليه ويمحك جبهته حكاً شديداً ، ويستلذ الجرو بذلك ، ثم يضع النشيل وسط رأسه ، ويأخذ مطرقة من حديد قوية ويضرب بها على النشيل بأتم قوة ثلاث ضربات فلا يحس بالضربة الأولى ، وبالثانية والثالثة يضطرب اضطراباً شديداً ، فربما صادف بذنبه شيئاً من المراكب فيعطبها ، ولا يزال يضطرب حتى يأخذه اللغوب ؛ ثم يتعاون ركاب المركب على جذبه حتى يصير إلى الساحل . وربما أحست أم الجرو باضطرابه فتنبههم فيستعدون بالثوم الكثير المدقوق ويخضون به الماء ، فإذا شمّت رائحة الثوم استبشعتها ورجعت القهقري إلى خاف ؛ ثم يقطعون لحم الجرو ويملحونه ، ولحمه أبيض كالثلج ، وجلده أسود كالنقش [؟] .

وإني لفي حيرة مما يذكره القزويني ، فأمامنا فقرة هامة جداً تشير إلى صيد البليئة في المحيط الأطلسي . وتحتوى على وصف صادق للنشيل وهو «الهاربون» المستعمل إلى اليوم في هذا النوع من الصيد . ولقد كانوا يقذفونه قديماً باليد ، وأصبحوا يطلقونه في العصور الحديثة من مدافع خاصة . وواضح أنه لا القزويني ، ولا من نقل إليه هذه الحكاية ، فهموا شيئاً مما يرددون . ويصعب علينا نحن أن نفهم كيف يخدع هذا الجرو ويقدم رأسه للنشيل وقد استهواه حك جبهته . فإذا سلطنا بأنه جرو غريب ، فإننا نتساءل عن سلوك أمه التي وصفها مينار Maynard أبلغ وصف في كتابه « صياري البال » ، وهي تدور حول السفينة متلهفة على اللحاق بوليدها حتى تصادى الأخرى . الغالب أن تناقل الحكاية بين قوم لم يروا عمليات الصيد ، انتهى بذلك

التصوير المسرحي العجيب لعملية قتل قاسية ، يجازف فيها الصيادون بحياتهم ، ويناضل فيها البال أشد نضال وقد نفذ النشيل في رأسه أوفى ناحية من جسده . قد ذكر القزويني أن بالنشيل حلقة يربط بها حبل ، ولم يفهم الغرض من هذا الحبل . فالصائد يضرب البال بالنشيل ، والبال ذابة هائلة لا تصمها الضربة بأي حال ، ولسكنها تستحثها على السباحة إما مبتعدة عن زورق الصيادين ، أو مهاجمة له . فإذا حاولت الهرب والنشيل في جسدها ، أخذ الصيادون يطلقون لها الحبال ، ولديهم منها أطوال كثيرة . وقد يغوص البال في أعماق البحر ، وقد يستنفد حبال الصيادين وما زال في عنفوانه ، فيسحب الزورق مدى طويلا في البحر . ويستمر هذا الصراع وقتاً غير قصير حتى تنهك قوى البال ، فيجذبه الصيادون إليهم رويداً . وقد ينتهي بأن يضطر الصيادون إلى قطع الحبل خوفاً من انقلاب الزورق بهم ، أو بهجوم البال على الزورق ليحطمه تحطيماً . فإذا كانت الغلبة للصيادين ونجحوا في جذب فريستهم إلى جانب السفينة ، سددوا رماية الرماح إلى قلبه فأجهزت عليه . ووصف الجراح توماس بيل Beale في كتابه « البال الاسبرماسيني » صورة من هذا الصراع شهدا بنفسه :

” وجعل البال ينقلب ويدور على نفسه وقد جن جنونه بسبب ما أصابه من هجمات صياديه ؛ ثم هو يرفع رأسه الهائل ، ويفترقاه الواسع لبعض بالنواجذ على كل ما يستطيع أن يصل إليه ، ويهجم على الزوارق برأسه ، فنها ما تدفعه الأمواج أمامه بسرعة ، ومنها ما ينطحها فلا يذرهما إلا هشياً “
أين هذه الصورة ، صورة الصراع الجبار ، من تصوير القزويني لجرو

البليغة يتلهم بالتصفيق « ويستلذ » بحك جبهته حتى يضربه الصياد بالنشيل في هدوء ، كما يدق النجار وتداً في حائط ؟

وتقدم القزويني بنظرية جديدة في تكوين العنبر حين قال في عرض الكلام عن الأجسام الدهنية : ” وأما العنبر فقد اختلف الناس في معدنه ، فمنهم من زعم أنه طَلَّ يقع على بعض الأشجار في البحر ، ثم يترشح من خلالها وينعقد هنالك ، ومنهم من زعم أنه من عين في البحر كالقير ، وأنها في بقاع مخصوصة في زمان معلوم “ .

وكان فيما أعرف أول من أشار من كتاب العرب إلى استعمال شحم البال للإضاءة إذ يقول : ” البال نوع من السمك عظيم يأكل العنبر فيموت . . وفي دماغه دهن كثير ، يستعملونه لإشعال السراج “ . . . وهي إشارة لا شك فيها إلى الاسبرماسيتي .

ويعني الدمشقي بتنظيم معارفه في أسلوب علمي فيقول :
” وأما ما ينبع من الأرض ويعد مكان نبعه من الأرض فأصناف سماها الأطباء الأتقار وهي كالعنبر والموميا وقفر اليهود والقار والنفط والسندروس “ .
” ولهذا المحيط [أفياتوس أو بحر الظلمة كما يسميه الدمشقي] مذ وجزر كما للمحيط الشرقى . ويقذف بساحله العنبر من غالب جهاته ولاسيما من خلجانه . والعنبر ينبع من عيون من جبال بقر البحر المالح القارسي والحيشي والهندي والمغربي والصيني والموسوى [البحر الأحمر] فيركب بعضه بعضاً ، وهو في حين خروجه شديد الفوران والحرارة ، فإذا لاقى برد الماء جمد على أحجاره ، وصار جماجم صفاراً وكباراً ، فيكون جموده كجمود الشمع إذا أصابه بعد ذوبه الماء البارد ،

فيبقى لاصقاً بتلك الصخور إلى أن يهيج البحر في زمن الشتاء فيقتله قطعاً قطعاً ويخرجه إلى سطحه فترمى به الأمواج إلى الساحل . وأجوده الذي يقع إلى ساحل الشجر من بلاد المهرة ، فيلتقطه الجلابون . وربما ابتلعه مهلك يسمى أوال ، فإذا ابتلعه مات من شدة حرارته فترميه الأمواج أيضاً ، فيشق عن جوفه ويستخرج منه . وله رائحة زهية ، ويسمى المبلوع ، والآخر الخام . ” والعنبر إذا ألقاه الموج إلى الساحل لا يأكل منه حيوان إلا مات ، ولا ينقر منه طائر إلا انفصل منقاره ، وإذا وضع عليه رجله فصلت أظفاره ، فإن أكل منه شيئاً مات “ . وهنا يورد « الحديث الصحيح » في دابة العنبر ، وينتهي بتريد الزعم بأن العنبر روث الأوال .

وقد عرف الصينيون بحكايات البال والعنبر . فجاء في الفارما كوبية الصينية « بقساو » التي وضعت في القرن الثاني عشر تحت عنوان « دهان ريق التنين » بأن قطعان هذا التنين تسبح في البحار الجنوبية ، وتتقايأ هذه المادة ، ” ويؤمن بعض الناس بأن العنبر يوجد في جوف حوت كبير . وهو مادة ذات رائحة عطرية ، ملمسها دهني ، ولونها أبيض مائل إلى الصفرة وهي ندية ، فإذا جفت تفتت قطعاً سوداء اللون في اصفرار “ .

وسمع ماركو بولو بهذه الحكايات أثناء رحلته فقال : ” ويخرج العنبر من معدة البال ، ولما كانت هذه الماسة سلعة هامة فإن الناس يعملون إلى صيد البال بنشول معدنية ذات أسنان تدخل في جسم الدابة فلا تخرج ، وتتصل بالنشول حبال في آخرها عوامات حتى يُعرف مكان البال إذا مات . ثم يسحبون جثثه إلى البر ويستخرجون العنبر من معدته والزيت من رأسه “

أجاد القدماء وصف العنبر وعرفوا بعض صلته بالبال الاسبرماسيتى ،
وذلك طبيعى من قوم انتفعوا بالعنبر كمادة طبية هامة . ولم تحدد هذه الصلة حتى
منتصف القرن التاسع عشر حين جاء بنيت Bennett فى كتابه « رهدز هول
العالم لعنبر البليتة » وقال : ” والعنبر إفراز مَرَضِيّ فى أمعاء البال ، أصله
إما من المعدة أو من قنوات المرارة ، وهو شبيه فى طبيعته بمحصى كيس
الصفراء . . . وما يوجد منه طافياً على وجه البحر هو ما قذف به البال حياً
أو ما تخلص منه ميتاً بعد تعفن الجثّة “ .

والعنبر أكثر ما يوجد طافياً على وجه الماء أو ملقى على سواحل البحر .
وتتراوح أوزان قطعه من بضع أوقيات إلى مائتى رطل . فيما عدا اللقيات
النادرة التى أشرنا إلى بعضها فى غضون هذا الفصل . وهو مادة صلبة شمعية
الملس ، رمادية مائلة إلى السواد ذات رائحة ترايبية طيبة ، إلا إذا أخرجت
من جوف البال فتكون سهكة أو زهمة الرائحة كما قال العرب . وهى أخف
من الماء ، تذوب فى درجة حرارة ستين إلى خمسة وستين درجة مئوية ،
عنصرها الفعال يعرف « بالعنبرين » Ambrein . وكثيراً ما تبقى بالعنبر بقايا
مناقير الأخطبوطات التى يبتلعها البال ، ولذا يظن أن هذه المناقير هى النواة
التي تترسب حولها مادة كولسترينية من مجارى الصفراء . ويباع العنبر
بأسعار عالية ، وقد وصل منه فى سنة ١٩٢٢ إلى ميناء نيو يورك بالولايات
المتحدة ، وهو الميناء الذى تخرج منه أغلب سفن صيد البال الاسبرماسيتى ،
أربعة وأربعون رطلاً ، بلغ ثمنها نيفاً وألفى جنيه .

الكتاب الثاني

الفصل الأول

الفصل الأول

القرن الثاني

مسح البصرى

عبد الله البرى والبحرى

السندباد البحرى

الجزيرة المتحركة والخيول البحرية

رحمة جوية الى وادى الماس

الغول الأسود

السندباد يرفق هيا

شيخ البحر

رحمة نهريه فى كهف

مفردة الأفيال

القصص البحرية العربية

مجموعة الكتب العربية التي توارثناها منذ القرون الوسطى ، سواء فيها ما اختص بالمسالك والممالك ، أو بتقويم البلدان ، أو بالكوزموغرافيا والتاريخ الطبيعي ، أو بمذكرات الرحالين ، بل كتب العجائب في أقلها جدارة باحترامنا ، لا تخرج عن كونها كتباً شبه علمية ، أو تقارير بوقائع ؛ لا هي من الأدب الخيالي ، ولا أراد لها أصحابها أن تعد من الادب الخيالي . وإذا كنا قد حاولنا أن نفصل بين الواقع والأساطير فيما جاء بتلك الكتب خاصاً بالبحار ، فذلك محض مجهود شخصي خارج عن إرادة أصحابها ، وهم آخر من يتصور أن كتبهم العلمية مليئة بكل تلك الخرافات والأساطير . ومع ذلك فكثير مما أورده جغرافيو العرب ورحالوهم عن البحار يكاد يعتبر قصصاً بحرية ؛ والقصة البحرية العربية قد اعتمدت كل الاعتماد على كتب الرحلات والعجائب والجغرافيا العربية . بل نمت قصص ، أو وقائع من قصص ، نقلت نقلاً عن بعض حكايات الرحالين . غير أن ما جاء بأحاديث الرحالين والجغرافيين وهواة العجائب ، حتى لو كان خيالياً محضاً ، ليس من « الأدب الخيالي » في شيء ، ولم يدع واضعوه أنهم ألفوه من بنات أفكارهم ، بل يؤكدون أنهم سمعوه من أفواه أناس ، يخبرون به كحوادث وقعت لهم ، أو أناس ينقلونه عن وقعت لهم تلك الحوادث ، أو على الأقل ادعوا وقوعها . ولقد آذن تسلسل البحث ومنطقه أن نتناول « الأدب الخيالي » في المؤلفات العربية ، لا من ناحيته العامة ، بل فيما له علاقة بالبحار والرحلات

البحرية . ويحق لنا ، بعد كل ما عرفناه من عناية كتاب العرب في القرون الوسطى بالبحار وحكايات البحريين ، أن نتوقع ثروة كبيرة من القصص البحرية العربية . فجميع الكتب التي استعرضناها زاخرة بمادة أولية غنية يمكن للقصاص إذا شاء أن يبنى عليها حكاياته . ولكن الحقيقة تخالف ما نتوقع ، وتختلف ما كنا نظن . فقصص البحار عند العرب محدودة العدد ؛ ولكنها من نوع ممتاز إلى درجة ترفعها إلى أوج الآداب العالمية .

ويظهر أن الاتجاه الرسمي في الآداب العربية لم يكن يشجع الأدب القصصي ، إلا إذا كان المقصود الواضح منه درساً فلسفياً أو أخلاقياً [إطباقاً] كما في كتاب «هي بن بظانه» أو «كليلة ودمنة» أو في «رسالة الغفران» . والعرب الذين درسوا كثيراً من العلوم في اللغات القديمة ، وترجموا بعض أعلام المؤلفات عن السنسكريتية والبهلوية واليونانية ، أهملوا فيما يكاد يكون إهمالاً تاماً الأدب الخيالي في تلك اللغات . فلا «لمها بهاراتا» ترجمت ، ولا «الرامايانا» ، ولا تمثيلات كاليداسا ، ولا الأدب التمثيلي عند الإغريق ، ولا «الابازة» ولا «الأوديبية» .

وإذا قارنا على سبيل المثال حظ كتاب «كليلة ودمنة» من الأدب العربي بحظ كتاب «هزار أفسانه» وهو الأصل الذي ترجمت عنه الصورة الأولى من كتاب «ألف ليلة وليلة» ، لعرفنا كيف انصرف الكتاب العرب عن أعلام الأدب الخيالي الأجنبي ، وتركوا التأليف القصصي للعامة . ترجم عبد الله بن المقفع كتاب «كليلة ودمنة» عن البهلوية إلى العربية ، وهو كتاب هندي سنسكريتي في الأصل ، فبقى هذا الكتاب

كنزاً من كنوز الأدب العربي للخاصة . وترجم من لم يحتفظ التاريخ باسمه كتاب « هزار أفسانه » إلى العربية فقال فيه الثقة القهامة أبو الفرج محمد بن اسحق بن أبي يعقوب النديم صاحب كتاب « الفهرست » : " فأول كتاب عمل في هذا المعنى [أى فى الحرفات] كتاب « هزار أفسانه » ومعناه « ألف خرافة » . وكان السبب فى ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان إذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد . فتزوج بجارية من أولاد الملوك ممن لها عقل ودراية يقال لها شهر زاد . فلما حصّلت معه ابتدأت تُخْرِفه ، وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها فى الليلة الثانية عن تمام الحديث ، إلى أن أتى عليها ألف ليلة ، ورزقت منه ولداً أظهرته وأوقفته على حيلتها عليه ، فاستعقلها ومال إليها واستبقاها . وكان للملك قهرمانة يقال لها دنيا زاد فكانت موافقة لها على ذلك . وقد قيل إن هذا الكتاب ألف لِحُمَاى ابنة بهمن ، وجاءوا فيه بخبر غير هذا .

" قال محمد بن إسحق والصحيح إن شاء الله ، أن أول من سمر بالليل الإسكندر ، وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه ، ويربربر بذلك اللذة ، وإنما كان يربر بالحفظ والحرس . واستعمل لذلك بعده الملوك كتاب « هزار أفسانه » ويحتوى على ألف ليلة وعلى دون المائتى سمر . لأن السمر ربما حدث به فى عدة ليال . وقد رأيت بنماز دفعات ، وهو بالحقيقة كتاب غث بارو الحميرت " قال محمد بن إسحق : ابتداء أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجَهْشِيَّارِى صاحب كتاب « الوزراء » بتأليف كتاب فيه ألف سمر من أسرار العرب والمعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره . وأحضر المسامرين

فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في
الأسفار والخرافات ما يحلو بنفسه ؛ وكان قاضيا ، فاجتمع له من ذلك أربعائة
ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة وأقل وأكثر . ثم
عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تجميعه ألف سمر . ورأيت من ذلك
عدة أجزاء بخط أبي الطيب الشافعي . وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسفار
والخرافات على السنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم عبدالله بن المقفع وسهل
بن هارون وعلي بن داود كاتب زبيدة وغيرهم ... فأما كتاب « كلبه وروسته »
فقد اختلف في أمره ، فقليل عملته الهند ، وخبر ذلك في صدر الكتاب ، وقيل
عملته ملوك الأشكانية ونحلتته الهند ، وقيل عملته الفرس ونحلتته الهند ، وقال
قوم إن الذي عمله بزرجمهر الحكيم أجزاء ، والله أعلم بذلك . وكتاب
« سربار الحكيم » وهو نسختان كبيرة وصغيرة ، والخلاف فيه أيضا مثل الخلاف
في « كلبه وروسته » ، والغالب والأقرب إلى الحق أن يكون الهند صنعه .
وقال أبو الحسن المسعودي وهو يستعرض مستنكرا أخبار العامة
وترهاتهم : " وهذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب
للملوك بروايتها وجمال على أهل عصره بحفظها . وسبيلها سبيل الكتب المنقولة
إلينا ، والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية ، وسبيل تأليفها مما ذكرنا
مثل كتاب « أفساره » وتفسير ذلك من الفارسية ، والناس يسمون هذا
الكتاب « ألف ليلة » ، وهو خبر الملك والوزير وابنته شيرزاد ودائتها
دنيا زاد ... ومثل كتاب « السربار » وغيرها من الكتب في هذا المعنى .
فليس ينتظر لكتاب « ألف ليلة » ، وهذا رأى اثنين من كبار العلماء

والنقاد العرب فيه إبان القرن العاشر ، إلا أن ينبذ من حظيرة الأدب الرسمي ، ومجالس أهل الفضل والعلم ، والملوك والوزراء ، الذين إذا تنازلوا للسمر والخرافة فبقصد « الحفظ والحرس » لا اللذة . فالتمتع بالفن القصصى لذاته أمر غير مقبول عند الخاصة ، وليس من شيم الملوك . وهذا الرأى الصارم لم يمنع العامة — ولا الخاصة ، ولكن فى الخفاء *in petto* — من أن يخرفوا للذة ، وكان هذا من حسن حظ الآداب العربية . فتلقفوا ترجمة « هزار أفسانه » ، وربما تلقفوا كتاب ابن عبدوس الجهمشيارى ، وأغلب ظنى أن يكون صاحب كتاب « الوزراء » قد اتخذ هو أيضاً نواة كتابه من « هزار أفسانه » ، وتداولت أيدي العامة نسخ هذا الكتاب ، أو ذاك بين الشام والعراق ومصر وبلاد المغرب . ويبدو أن نسخة أو أكثر من ترجمة « هزار أفسانه » وصلت إلى القاهرة قبل القرن الثانى عشر عن طريق الشام ، وهنا أحدث فيها كثير من التحوير والتبديل ، وأضاف إليها الرواة فى العصور التالية قصصاً مصرية محلية معاصرة . وكان هذا الأصل فيما بين أيدينا اليوم من كتاب « ألف ليلة وليلة » . وبينما اتخذ الأدب الرسمى « الرفيع » وضعه النهائى كما أراد له واضعوه ، ولم يصبه من التغيير أكثر من أخطاء النساخين فإن كتاب « ألف ليلة وليلة » عمل فيه الرواة كل حسب مزاجه ومزاج سماره ، وباللغة التى يحسنها ويفهمها سامعوه أو قراؤه ، وأضافوا ما أمكنهم إضافته من قصص العرب فى الجاهلية والإسلام ، وحكايات يونانية ، ومصرية ، وعراقية ، وسورية ، ومغربية . وكان هذا منشأ الاختلافات الكثيرة بين مخطوطات الكتاب ، لا فى اللغة والأسلوب فحسب ، بل فى ترتيب القصص ،

وتوزيعها بين الليالي ، بل في القصص نفسها . فهناك قصص وجدت في بعض النسخ ، واشتهرت في أوروبا عن جدارة ، كقصة علاء الدين والمرجة المسحورة ، وعلي بابا والأربعين لصاً ، والجنينة بانو « پیری بانو » ، وقصة الساحر المغربي ، ومع هذا لا نجد لها أثراً في المخطوط الذي نشر بالقاهرة .

قلنا : يظهر أن الاتجاه الرسمي في الآداب العربية لم يكن يشجع الأدب القصصي إلا إذا كان درساً فلسفياً أو « إطيقياً » ؛ واتخذنا كتاب « ألف ليلة » ومقارنة حظه بحظ كتاب « كليدة ورومنة » أمثلة تؤيد هذا الاتجاه . وقلنا : كان من حسن حظ الأدب العربي عدم انصراف العامة عن أن يخرفوا للذة ، لأننا في الحق مدينون لهذا النوع من التخريف بكتاب « ألف ليلة وليلة » ، ولن نجد غيره أماناً مشتملاً على القصة البحرية العربية . ولقد قلنا بأن القصص البحري العربي فقير في الكم ، ولكن قيمته النوعية تعوضنا كثيراً عن القيمة العددية . فالصتان البحريتان *par excellence* في كتاب « ألف ليلة وليلة » وهما « عبد الله البري » و « السندباد البحري » لا نعدهما من أبدع القصص البحرية في الأدب العربي فحسب ، بل هما من أبدع القصص البحرية في آداب العالم . ولقد لاقت قصة السندباد حظها من الشهرة والمجد ، وبقيت قصة « عبد الله البري » منزوية تنتظر شرقياً أو مستشرقاً يخرجها إلى النور .

وقد وجدت في بعض حوادث القصص الشعبية العربية ، مما لا يتضمنها كتاب ألف ليلة ما يمكن أن يمت بصلة إلى القصة البحرية ، مثلما جاء في « سيرة سيف بن ذي يزن » ، حينما ألقى البطل بنفسه في البحر ، وحمله الماء

إلى كهف فى بطن الجبل ، ودفعه التيار أياماً وليالى كما حدث للسندباد فى رحلته السادسة . وحينما ابتلعت « الهايشة » زورق ابن ذى يزن ، وهرب من فمها قبل أن تبتلعه . إلا أنى لم أرى أمثال هذه الحوادث غير صدى مباشر لما جاء بكتاب « ألف ليلة » .

ومع أن القصص البحرية التى نوردناها فيما يلى هى خير تعريف بهذا النوع من الأدب الخيالى ، فإن ذلك لا يعفينا من وضع تعريف للقصة البحرية . أهى الأسطورة البحرية من النوع الذى ضربنا له الأمثلة فى الكتاب الأول ؟ لقد أجبت على السؤال بالنفى فى مستهل هذا الفصل . فالأسطورة البحرية marine legend جزء لا ينفصل عن المعارف البحرية marine lore ولقد عنت أن أضع الكلمة الاصطلاحية الإنجليزية تحديداً لمعنى كلمة معارف فى هذا الصدد ، لأن الكلمة العربية تحتمل معنى أوسع من معنى كلمة « لُور » وهذه تختص بمجموعة المعارف التقليدية التى يتناقلها الناس ، تمييزاً لهذه المعارف عن العلوم science .

القصة البحرية هى قصة أولاً ، أى عمل أدبى من أعمال الخيال ؛ لا يهم أن تؤلف على أساس من « المعارف البحرية » أو من المغامرات ، أو من « الفُشار » البحرى ما دام تأليفها نتيجة تخيل واضعها لحوادث تجرى لبطل لا وجود له إلا فى خيال المؤلف ؛ أو أن للبطل وجوداً تاريخياً ، ولكن الحوادث التى تنسب إليه لم تحدث له أصلاً ، أو حدث بعضها فنظمت وأضيف عليها وبلغ فيها إلى حد يخرج بالشخصية التاريخية إلى ما يجعلها فى عداد الأشخاص الخياليين . وهى قصة بحرية إذا اتخذ البحر أهمية كبرى فى

حياة أبطالها ، وفي أحداث القصة ، مثل قصة « أوندين » تأليف لا موت فوكيه ، وقصة « السيرينا الصغيرة » لهانس أندرسن ، وبعض قصص إدجار آلان بو ، وروبرت لويس ستيفنسن ، وبيرلوتي ، وقصة « موبى دك » لهرمان ملقي . وليكن تعريف القصة البحرية فيما يلي :

حكاية يصور المؤلف حدوثها في داخل البحر أو فوق سطحه ، أو على سواحه وجزائره ، يكون البحر حاضراً في ذهن المؤلف والقارىء وأشخاص القصة كلهم أو بعضهم ، وللبحر أثر واضح في حوادثها ، وعلى أشخاصها .

ولا أجد في كتاب ألف ليلة قصصاً بحرية ينطبق عليها هذا التعريف من أولها إلى آخرها غير قصتي « عبد الله البرى » و « السندباد البحري » .

وبالكتاب قصص غير قليلة تقع في جزائر البحر وعلى شواطئه ، بل في داخل البحر نفسه ؛ ويقوم أشخاص كثيرون من أشخاص قصصه برحلات عبر البحر ، ولكن البحر مع هذا يبقى في آخر مراتب الأهمية لحوادث تلك القصص . وليس أقرب إلى القصص البحرية في الكتاب من « قصة بنت الملك

السمندل » ، فأغلب حوادثها تجري في قاع البحر ، ولم ينجح المؤلف برغم ذلك في الإيحاء بهذا العنصر الأساسي الذي تدور فيه وقائعها . مع أنه بدأها بدءاً جميلاً كان يبشر بنجاح في الناحية البحرية ؛ ثم أخفق بعد ذلك حين نسي البحر وشأنه برغم انتقال حوادث القصة إلى قاعه .

اشترى ملك المدينة البيضاء جارية أحبها أشد الحب ، وفضاها على كافة سراريه ، وأنزلها في قصره مقصورة تطل على البحر . ولكنها خرساء لاتنفس بكلمة ، أحاطها بالجوارى المغنيات والسمار لتتكلم أو تضحك ، أو تبدى

حركة تدل على الغبطة ؛ ولكنها ظلت على صمتها ووجومها ، باردة جامدة .
ومضى عام والملك يزداد بها شغفاً ، وقد أوشكت أن تضع مولوداً . فدخل
ملك المدينة البيضاء عليها يتوسل بحبه ، وبما قدمه لها من أسباب السعادة
والنعمه أن ترد عليه ولو بإشارة أو إيماء ، فتبسمت حتى خيل للملك « أن
البرق أضاء المقصورة » ثم نبست ، وتسكمت ، وحدثته بحديثها :
هي جُلنَّار ابنة ملك من ملوك البحر ، علة سكوتها « انكسار خاطرها »
لفراق أهلها ، مات أبوها فاغتصب عرشه عاهل بحرى آخر ، وضربت
العواذى بينها وبين أمها وأخيها وأخواتها ، فخرجت شاردة يائسة إلى البر
« وجلست على طرف جزيرة أشرف عليها القمر بضياؤه » . وجاز بها رجل
من أهل البر حملها وذهب بها إلى منزله وراودها عن نفسها فضربته على أم
رأسه ضربة كادت تزهرق روحه ، ورأى أسلم عاقبة أن يبيعها للنخاس ،
وجاء بها هذا إلى ملك المدينة البيضاء .

وهي تطلب أن يسمح لها الملك بدعوة أهلها « حتى يباشروها ، لأن
نساء البر لا يعرفن طريقة ولادة بنات البحر » . وهنا يتبادل الملك معها حديثاً
عن حياة أهل البحر يرد مقتضياً مشوها في طبعة القاهرة ، ويبدو من ترجمة
جالان أن النص الذى ترجم عنه أكثر إيماءً بالبحر والحياة البحرية الأسطورية .
ثم تخرج جُلنَّار قطعتين من العود القِمَارى وتضعهما في مجرة ، وتصفر
صفيراً عالياً ، وتتكلم بكلام غير مفهوم ؛ فإذا البحر يضطرب ويزبد وينشق
عن شاب مليح الصورة هو أخو جلنار ، ومعه أمه وخمس بنات كالأقمار .
ويلبث أهل الأميرة البحرية إلى جانبها حتى تلد الأمير بدر باسم ، ثم يعودون

إلى البحر ويتواعدون على الزيارة . وكبر بدر باسم وتولى الملك بعد أبيه ؛
وجلس خاله البحرى أثناء زيارة الملكة جلنار يحدثها برغبته أن يزوج
بدر باسم بأميرة من أميرات البحر ، هى جوهرة بنت الملك السمندل .
يسمع بدر باسم وصف الأميرة البحرية فيتعشقه ، ويصر على أن يصطحبه خاله
إلى قاع البحر ليراها ويخطبها من أبيها ، فينحدر به خاله إلى أغوار البحر بعد أن
يضع فى إصبعه خاتماً عليه الأسما ، يقيه من الغرق وشر دواب البحر وحياته .
وتدور حوادث القصة بعد ذلك كلها فى البحر ، ولكنها تفقد نهايتها قوة
الإيحاء به . فليس فى حوادثها ماله علاقة بالبحر ولا بأحيائه ، كما لا نرى
فيها ميزة فنية بارزة تغرينا بسرد حوادثها ، فهى مجموعة حروب ومغامرات
تنتهى « بالتبات والنبات » المعروفين . ولنكتف بهذه المقدمة قانعين بما
تركته فى نفوسنا الصورة الجميلة لملك الغادة من بنات البحر وقد خرجت
إلى البر شاردة حزينة ، وجلست على طرف جزيرة فى ضوء القمر ، وكأنها
« الأوندين » لوريلاى فى قصيدة هاينى جلست على رأس صخرة الرين
تمشط شعرها الأشقر بمشط ذهبي فى ضياء البدر الساطع .

وفى كتاب « ألف ليلة » قصتان لا يسعنى إجمالهما فى هذا العرض العام
للقصص البحرية العربية .

أولاهما : حكاية الصلوك - أو القرندلى - الثالث فى مجلس بنات بغداد ،
وحضرة الخليفة وجعفر ومسرور ، وذلك الحمال الأديب الذليق ، الذى استهواه
جمال الدلالة والبوابة وصاحبة الدار فرفض دينارين أجرأله ، مفضلاً الاستمتاع
بمحضر الغنيمات الثلاث .. وبذل فى سبيل إقناعهن بقبوله ضيفاً الكثير من

الحصافة والفكاهة الشعرية والنثرية .

وإذا لم تكن قصة « القرندي الثالث » بحرية بالمعنى الذى حددت ، فإن حوادثها تبدأ برحلة بحرية استكشافية ، يرد فيها ذكر أسطورة من الأساطير البحرية لم تتح لى فرصة التحدث عنها حتى الآن ، وهى أسطورة « جبل المغناطيس » ، وأسطورة أخرى عاجتها هى أسطورة الرخ . والقصة فوق هذا حسنة السبك ، ناضجة الفن ، أعدها من بدائع كتاب « ألف ليلة » . ولقد أراد سوء الحظ لها وللقرءاء فى مصر والشرق أن ترد فى طبعة القاهرة ناقصة مقتضبة اقتضاباً لا يفسره إلا ضياع كراسة بتمامها من كراريس المخطوط الذى نشر فى تلك الطبعة . ولعل هذا النقص يغفر لى سرد القصة بأكملها ، وكنت أستطيع الاختصار على الجزء البحرى منها .

والقصة الثانية قصة « حسن البصرى » ، وليست هى الأخرى قصة بحرية فى حدود تعريفى . إلا أن مؤلفها قد استوحى فى وضعها أسطورتين بحريتين عاجناهما فى الكتاب الأول هما « شجرة الوقواق » و « جزائر النساء » وسوف تغننى شهرة هذه القصة وكثرة تداولها بين الناس عن الإطالة فى سردها ، محددأ غرضى فى هذا السرد بإظهار الصورة القصصية التى اتخذتها الأسطورتان المذكورتان . وقد لاءم المؤلف بينهما حتى لكانهما أسطورة واحدة . فإذا انتهيت من قصتى « القرندي الثالث » و « حسن البصرى » ، استطعت أن أنفذ إلى صميم القصة البحرية بسرد قصة « عبد الله البرى » ورحلات « السندباد البحرى » ، وأن أعرض هذا النوع النادر من الأدب العربى فى أجمل وأكمل مظاهره الفنية .

القرندلى الثالث

فى الليلة الثالثة بعد الخمسين من لىالى شهر زاد حسب النص الذى ترجم عنه جالان كتاب ألف ليلة ، وفى خلال الليلة الرابعة عشر تبعاً للنص المنشور بطبعة القاهرة ، واصلت الأميرة الساسانية سرد قصة « الحمال مع بنات بغداد » على زوجها الملك شهر يار . وكانت قد وقفت عند انتهاء الصعلوك الثانى من سرد حكايته فى ذلك المجلس الللى العجيب بيت غانيات ثلاث يعشن على انفراد ، أضفن فى تلك الليلة حمالا وخليفة ووزيراً وسيافاً وصعاليك ثلاثة حليق اللعى والحواجب ، عورا باليمنى . وما إن انتهى الصعلوك الثانى من قصته عن سبب فقد عينه اليمنى وحلق لحيته وحاجبيه ، واتشاحه بملابس الصعاليك ، حتى اتجه القرندلى الثالث إلى ربة المنزل وخاطبها قائلاً :

« يا سيدتى الجليلة ! قصتى أعجب من قصة رفيقى . ولقد كنت ملكاً ابن ملك كما أنهما من أبناء الملوك ؛ وكانا فريسة للقضاء والقدر ، أما أنا فصاحب بلىتى والباحت عن شقائى بنفسى . أنا عجيب بن خصيب ، توليت الملك عن أبى فى بلادى الواقعة على ساحل البحر ، وبها المرفأ الأمين والسفن الكثيرة حربية وعمالة ، ومراكب خصعت انزهتى إلى الجزائر الواقعة تحت حكمى .

« وقد خرجت إليها فى أول تملكى وتعرفت إلى رعيتى من سكانها فأحبونى ، وحُبب إلى البحر والأسفار البحرية . فطمعت ذات يوم أن ألجج فيما وراء جزائرى ، كاشفاً عن غوامض البحر ، باحثاً عن عجائبه . فجهزت عشر سفائن خرجنا بها إلى عرض البحر أربعين يوماً وليلة . وفى الليلة الأولى بعد

الأربعين هبت علينا ريح كوس ، وأخذت علينا السبيل عاصفة هوجاء حسبتنا
أنا فيها من الهالكين . ولاح الفجر فهذا الريح وسكن البحر ، وأشرقت
الشمس فبددت الغياهب وأشرفنا على جزيرة أقنأ بها يومين . ثم خطفنا منها
إلى مملكتي نطلب اليهودة ، فسرنا عشرة أيام كنا نتوقع بعدها أن تلوح لنا
الأرض فلم يظهر لها أثر ، واستغرب الربان شكل البحر فأمر الناظور أن
يتسلق الدقل ويتأمل الأفق ، فلما بلغ أعلا الصاري وتفرس في الأفق نادى
قائلا : يا ريس ، رأيت عن يميني سمكا على وجه الماء ، ونظرت إلى وسط البحر
فرايت سواداً من بعيد يلوح تارة أسود وتارة أبيض . فلما سمع الربان كلام
الناظور ضرب سطح السفينة بعمامة وנתف لحيته ، وأنذرنا بالويل والثبور
قائلا : ضلنا الطريق ولا ريح يرجعنا . وفي غد نصل إلى هذا السواد اللامع
فهو جبل من حجر أسود يسمى حجر المغناطيس ، يجتذبنا قسراً إلى ناحيته
بسبب ما في السفن من حديد . فإذا أشرفنا عليه تفككت أوصال السفن
وطار حديد ها ليلصق بجبل المغناطيس ، وتفرقت ألواح المراكب في البحر وغرقنا .
« فتوادعنا ، البحر يدفعنا إلى جبل المغناطيس دفعاً حتى صرنا على
كثب منه ، وحدث ما قال به الربان ، وغرق أكثرنا . أما من نجا فلم
يعرف مستقر غيره من الناجين ، وتعاقت بلوح من ألواح السفينة حماته
الأمواج وألقت به وبى على الجبل » .

وشاهد الملك عجيب على رأس الجبل قبة عظيمة من صفر مقامة على عشرة
أعمدة ، وفوقها فارس نحاس على فرس نحاس ، وفي يده رمح من نحاس ،
وعلى صدره لوح من رصاص به نقوش وطلاسم . فتقدم إلى القبة لا يلوى

إلا على المجموع تحتها ، ونام منهوك القوى ثم صحا على صوت هاتف يقول :
يا ابن خصيب ، قم واحفر تحت رجلك تجد قوساً من نحاس وثلاث نشابات
من رصاص عليها طلامس . خذ القوس والنشاب وارم الفارس بأعلى القبة ،
ترح الناس من هذا البلاء . فالفارس هو الراصد لما بصخور الجبل من قوة
المغناطيس ، وإذا هوى فقد الجبل صفته المشنومة . ثم احذر بعد ذلك أن
تذكر اسم الله حتى ترجع إلى بلادك .

وقام ابن خصيب ورمى الفارس بالسهم فوق من توه في البحر ، وعلا
البحر حتى ساوى قمة الجبل . وإذا زورق يجذف فيه رجل من نحاس على
صدره لوح من رصاص وهو متجه إلى حيث الملك عجيب يومئذ إليه أن
يركب الزورق . فنزل الملك بالقارب وسار به الرجل النحاسي عشرة أيام ظهر
له بعدها بر من البرور . نسي عجيب وصية الهاتف وحمد الله على سلامته ،
وإذا القارب يغوص بصاحبه في طرفة عين ، وابن خصيب يسبح في الماء
يومه وليلته ، حتى رمى به العباب إلى ساحل ، وقام في صباحه فوجد نفسه
فوق جزيرة صغيرة كثيرة الأشجار . وبينما الرجل متحير في أمره رأى
مركباً قادماً على الجزيرة فاختماً بين أغصان شجرة ، ونظر فإذا عبید خرجوا
من المركب ومعهم المساحي والقووس ، ومشوا في الجزيرة ، وحفروا في أرضها
حتى كشفوا عن سرداب فتحوا بابه وجعلوا ينقلون من المركب وسقاً كثيراً .
فلما انتهوا عادوا إلى المركب وجاءوا بشيخ هرم يتوكأ على صبي « أفرغ في
قالب الجمال ، وألبس من الحسن حلة الكمال » ، وأثوا إلى السرداب فنزلوا
كلهم فيه . وبعد ساعة صعدوا جميعاً إلا الصبي ذوالوجه الصبوح فلم يكن بينهم .

ثم يعموا شطر المركب والشيخ معهم بعد أن أقفلوا السرداب على الفتى وأبحروا .
نزل عجيب من فوق الشجرة وانحدر من السرداب إلى بهو كبير غطى
بسجاد وأضاءته شمعتان ، وفي ركن منه سرير عليه بسط ووسائد . وقد جلس
الصبي فوق السرير وبيده مروحة ، وعلى مقربة منه طبق فواكه وطاقات
أزهار . وفزع الصبي إذ رآه هذا عجيب من روعه ، وعرفه أنه من أبناء
الملوك ، وأن حسن الطالع قد أرسله لمعونة الصبي في محنته ، وخلّصه مما
أراد له الشيخ وعبيده .

فأجابه الصبي : اعلم أيها الأمير أن الشيخ أبي ، وهو سر تبحر
الجوهريّة . وقد رزق بي في شيخوخته بعد يأس ، فتنبأ المنجمون لي بحياة طويلة
إذا اجتزت سن الخامسة عشر . ففي ذلك السن تتعرض حياتي لخطر كبير ،
إذ يكون عجيب بن خصيب قد أبطأ طلسم جبل المغناطيس ، وأطاح بالفرس
والفارس في البحر . ورأى المنجمون أن عجيباً هذا قاتلي إن ظفر بي في الحسين
يوماً التالية لسقوط الفرس النحاسي . ولما عرف أبي أخيراً بأن الفرس
النحاسي قد هوى ، ومضى على زوال الطلسم عشرة أيام ، جاء بي إلى هذه
الجزيرة وكان قد احتفر لي فيها هذا الطابق لأقضي فيه أيام النحس التي يخشى
أثناءها على حياتي . ووعدني أن يجيئني بعد أربعين يوماً . ثم أضاف مبتسماً
ابتسامة بريئة : وما أحسبني إلا ممضي هذه الأربعين يوماً في أمان ، فمن
أين لابن خصيب أن يصل إلى مخبأى في هذه الجزيرة ؟ .

وسخر عجيب في نفسه من نبوءة المنجمين ، وأكد للصبي أن لفظ قيص له
أن يكون بجانبه في تلك الأيام ليدفع عنه عادية من تسول له نفسه الاعتداء عليه .

وعاشا صفيين تسعة وثلاثين يوماً ، يتلاعبان ويتسامران ، وعجيب يبذل نفسه بذلاً لإرضاء الصبي الجميل ، مغتبطاً بهذه الفرصة المواتية التي مكنته من أن يعيش ناعماً ، مطمئناً إلى قرب عودته إلى وطنه على المركب التي يجيء بها والد الفتى . وفي صباح اليوم الأربعين نهض الصبي جذلاً طريراً وصاح بعجيب : سيدى الأمير ، هذا نحن وقد عشنا الأربعين يوماً فى سلام ، وسيأتى أبى اليوم ونعود بصحبته إلى بلادك وبلادى . فلا تغتسل لأستقبل والدى فى أحسن بزة .

ويأتيه عجيب بالحوض والماء الساخن فيساعده على الاستحمام وينشف له جسده ، ويدلكه وهو مسجى على سريره ، ثم يغطيه . وبعد أن يغفى الصبي إغفاءة يصحو ويطلب من صاحبه أن يناوله بطيخة . ويبحث ابن خصيب عن السكين ، فيراها على رف قائم فوق سرير الفتى ، فيخطو فوق السرير ويتناول السكين ، وإذا قدمه قد تعثر فى الغطاء فوقع على صدر الفتى بكل حمله ، والسكين فى يده وقد نفذت إلى قاب الصبي الجميل فمات لساعته . صاح الملك صيحة منكرة إذ حم القضاء سويعات قبل نهاية الفترة التي رآها المنجمون فى الطالع ، واستغفر ربه ودعاه أن يقبضه إليه ثم أدرك أن توسلاته لن تعيد الحياة إلى الفتى ، وأن الشيخ لا بد فى طريقه إلى السرب ، فإذا رآه فلن يجديه أن يقص عليه ما حدث ، ولا الشيخ مصدق له .

اختبأ فوق شجرة حتى اقترب مركب الشيخ ، ورآه يمشى إلى السرب متحاملاً تحت وقر السنين وحوله حشمه ، كما رآه بعد هزيمة خارجاً من الطابق محمولا على الأكتاف وقد بلل الدمع عارضيه ولحيته . كان ينشج كسير النفس

يؤوده المصاب ، وحكم القضاء الذى لا يرحم . وحفر العبيد للفتى قبراً دفنوه فيه ، وحملوا الشيخ المسكين إلى السفينة التى أقلمت وماعمت أن اختفت وراء الأفق . وبقى عجيب فى الطابق شهراً يقتات بما بقى من زاد الفتى ، ويتجول فى الجزيرة وهو يرى ساحلاً نائياً جعل يلتبس وسيلة للوصول إليه حتى لاحظ ذات يوم أن البحر يفيض مأؤه ، والجزيرة تنفسح شواطئها . فلم يبق بينه وبين ذلك الساحل سوى مسافة يستطيع سباحة بعضها وخوض أكثرها . وهناك رأى قصرأ نحاسياً تنعكس عليه أشعة الشمس فيأخذ وهيجه بالأبصار . فاتخذ سمته إليه وجلس ببابه بسترىح ، وبعد برهة قدم على القصر عشرة من الفتية كأنهم عائدون من نزهة ، كلهم حسنو الهيئة والبرة . إلا أنهم عوز باليمنى ؛ ومعهم شيخ فارع القامة عليه سيماء الوقار والجلال .

ترفق الشيخ والفتيان بالأمير عجيب ، ودخلوا به إلى ردهة فى القصر واسعة ، انتظمت بها عشرة أسرة فى وضع دائرى حول إيوان جلس عليه الشيخ . وجلس كل منهم على سريريه ، ودعوا عجيباً إلى الجلوس بينهم واستمعوا لحكايته . وتنادموا حتى هزيع متأخر من الليل . ثم أذن أحدهم بأن قد دنت ساعة الحساب . فخرج الشيخ برهة وعاد يحمل عشر صحاف غطى كل منها بغطاء أزرق قاتم ، بلون السجف وأغطية الأسرة ، ووضع أمام كل منهم صحفته . فكشفوا أغطيتها عن رماد وتراب فحم وأخذوا يمزجون به بأيديهم ، ثم يحثون منه على رؤوسهم ويعفرون به وجوههم ، ويبيكون ويضربون صدورهم ورؤوسهم قائلين : هيهات هيهات أن يرجع ما فات ! وقضوا ما تبقى من الليل على هذا الحال .

وكان الشيخ والشبان قد اشترطوا على عجيب أن لا يسأل عما لا يعنيه من أمرهم ، ولا عن سبب إصابتهم جميعاً بعيونهم اليمنى . وقد عرف كيف يكبت فضوله بشأن هذه العادة على ما فيها من غرابة الجمع بين العشرة فتيان واتفاقها على الناحية اليمنى فيهم بلا استثناء . ولم يستطع صبراً على هذا الذنب والنحيب المنظم كأنه طقس من الطقوس . فلما قارب الفجر واغتسلوا ، واستبدلوا ملابسهم المعفرة بانسواد وخرجوا للنزهة ، قال عجيب :

أصدقكم يا سادتي ، بنى غير مستطيع قبول شرطكم ؛ فمظهركم ومخبركم يدل على أنكم من أهل الحجبى والزناة . ولكن تعالكم القريبة فى هزيع من الليل لا هى متفقة مع المظهر ولا مع المخبر . وما دهم قد أثرتم فضولى إلى هذا الحد ، فافنى سائلكم أن تفسروا لى أيضاً سبب ضياع عيونكم اليمنى فأجابوه متبرمين بفضوله ، وطالبوه بأن يهون على نفسه ويهون عليهم . ودام هذا شأنهم ليلة إثر ليلة حتى ضاق ذرع ابن خصيب بإصرارهم على تركه فى حيرة من أمرهم ؛ وسألهم أن يدلوه على طريق يعود منه إلى بلاده . فليس فى منظر مناحتهم الليلية ، ولا فى لون أوانيهـ المجللة بالأزرق ما يغرى بالبقاء إلى جانبهم ، إلا أن يعرف على الأقل لذلك سبباً .

وبعد فترة سكوت رهيبة قال له واحد منهم : أيها الفتى ، ما سكوتنا إلا شفقة بك أن يصيبك ما أصابنا . فإن شئت أن تعرف من أمرنا ما تريد وكنت عاقداً العزم عليه ، فاعلم أن ذلك سوف يكلفك عينك اليمنى غدا الندم والحسرات .

قال عجيب : هون عليك ، فإذا قدر أن يحدث لى ما حدث لكم ،

فلست آخذكم بحريرتي .

فاستطرد الذي قطع السكوت : واعلم ، إن قدت عينك اليمنى ، أن لا مقام لك بيننا بعد ذلك .

وحينما استوثقت الجماعة من أن عجيباً لن يرتد عن عزمه ، أحضروا بهيمة وذبحوها وسلخوا جلدها وأعطوه سكيناً وقالوا له : سوف نسجيك في هذا الجلد ، ونخيطه عليك ونحملك إلى الخلاء ، فيأتي طير عظيم يقال له الرخ فيحملك في أطباق الجو ، وينزل بك على قمة جبل . فإذا أحسست أن قد استقر بك عليه ، فأسرع إلى الجلد ومزقه وانهض ، لأن الرخ إذا رآك فرع منك وطار عنك . ثم رجع البصر حولك ترقصراً منيفاً ، صُنِّحت جدرانه بصفائح الإبريز ، ورُصِّعت بالجوهر . تقدم إلى بابه وادخل فهو مفتوح لكل قادم . لقد ولجناه قبلك وعرفنا بما وراء جدران القصر ، وكلفنا العلم به عيوننا اليمنى ، وذلك الندم الذي ترانا نتردى فيه كل ليلة . هذا كل ما نستطيع أن نبوح لك به ، ولن نزيد عليه كلمة واحدة .

تقدم عجيب إلى جلد البهيمة وتمدد فيه ممسكاً بالسكين ، وخاطوا الجلد عليه وحملوه إلى الخلاء . وجاء الرخ فاحتمله بين مخالبه وطار وعبر به الجو لى قمة جبل وقد حسبه بهيمة ، فلما رآه يتلمس طريقه خارجاً من الجلد طار عنه . وشاهد عجيب الطير الهائل الأبيض الذي قيل بأنه يحمل القبيلة إلى قنات الجبال يزرق بها أفراخه .

« وأسرعت يا سيدتى إلى القصر الموعود ، فوصلت إليه فى نصف يوم . ووجدته أغرب من أن يوصف . دخلت ساحته الواسعة ، فرأيت حولها تسعة

وتسعين باباً من خشب الصندل والعود ، أما الباب المائة فكان من ذهب .
كلها مقفلة ، والدخول إلى أبهاء القصر وردّهاته من أبواب أخرى قائمة بأعلى
درج من المرمر واسع الجنبات . أخذت طريقى إلى أكبرها وسط البناء ،
ودلقت منه إلى بهو واسع جلست فيه أربعون صنية يأخذ جماهن بمجامع
القلوب ، ويقصر عنه وصف الواصفين ، حتى لو كانوا من أعظم الشعراء .

« فمن جميعاً كالفرلان الرضية المستأنسة ، وأقبلن على يرسلن تحياتهن
في جرس رخيم : أهلاً وسهلاً بالسيد الغطريف ! وانفردت إحداهن بالكلام
قائلة : ياما أبطاً مرور الأيام والليالي ونحن في ترقب فارس مثلك . فطلعتك
وسياؤك وقوامك على أحسن ما نرجو ، وأملنا أن تجد في صحبتنا كل
ما يسرك ويرضيك .

« وأحطى منهن مكاناً رفيعاً وأنا مطرق الرأس خجلاً ، وأكدن لى
أنهن منذ اليوم رهن إشارتى ، وأنى سيدهن الأمر الناهى فيهن . وجاءتنى
واحدة بالطست ، وأخرى بالإبريق ، وثالثة بالماء الماطر ، ورابعة بالمناشف .
غسلت واحدة قدمى ، وصبت الأخرى ماء الورد على يدى ، وقدمن لى الخلل
الناعمة الباهرة ، والطعام الشهى ، وخرأً صبوحاً . كل هذا فى نظام وترتيب ،
وبخطوات متوازنة كأنها تتحرك على توقيع آلات غير منظورة .

« والتفت الصبيات حولى ، وامرأبت أعناقهن إلى ينصتن لقصة أسفارى
حتى جن الليل . فجاء بعضهن بالشموع الكثيرة فتسقت فى أنحاء البهو تنسيقاً
بديعاً وأوقدت ، وقدمت لى القواكه والنقل وأصناف المسموم وخر على خمر .
وجاءت البنات بآلات الطرب ، وجلست أتناول الطعام وأحتسى الشراب

وهن حولي يوقعن ألحاناً ساحرة ، ويفنن غناء تذوب فيه القلوب صباة ،
ويرقصن منفردات مزدوجات في دوائر وأقواس وصفوف ، ويفترقن ويجمعن
مثنى وثلاث ورباع ، بأصناف من التخلع والتكسر تذهب بالعقول .
« وكان الليل قد انقضى منه أكثر من نصفه حينما انتهى الرقص والخطاء
فتقدمت إحدى الصبايا وقالت : ما نحسبك الليلة إلا متعباً لغياً من السفر ،
وتود أن تأوى إلى مخدعك الذي أعدناه لك وشيكاً . فتفضل وتخير من
بيننا عروسك .

« فأجبتها وأنا أرجع البصر حائراً بين الأربعين غانية : حاشا أن أفاضل
بين الجميلات ! يا ما أحلى هذا الحسن ، ويا ما أطيب وأظرف هذه الشمائل !
مرن عبدكن الخاضع ، فهو صريع كل تلك اللاحاظ ، وأسير هذى القدود .
« فقالت الصبية وهي تضحك من حيرتى البادية : هون عليك أيها
الفارس الجميل ، فنحن أعرف بشهامة نفسك ، وطيب عنصرك ورفيع أدبك
أنت تخشى أن تدب بيننا الغيرة ، فنستحلفك أن لا تظن بنا الظنون . لكل
واحدة منا نصيبها في صحبتك . تقدم أيها الحبيب إلى العروس السعيدة باختيارك ،
وعجل فما أشد حاجتك إلى الخلوة والهدوء .

« ومددت ذراعى للصبية ذات الفصاحة والجزس الناعم ، وسرنا في حشد
من الحسان إلى جناح في القصر تتلأأ فرشه كأجنحة الطاووس ، وتماوج
سنجفه كرقاب اليمام . »



« ولكن الصباح قد انفرق عن ثنياه يا مولاي ، فهل يأذن لي مليكى

يأن نترك الأمير عجيباً مع صاحبه ؟ فلم يجب شهر يار بكلمة . ولكنه تتم في نفسه : كيف أقوى على فراقك يا شهر زاد ؛ لقد تعلقت روعي بأطراف لسانك المعسول ؛ إذا سلمتك للجلاد هذا الصباح ، فأتني أن أعرف كيف فقد ابن خصيب عينه اليمنى ، وعاد قرندليا صعلوكا . فلننظر ك أيتها الساحرة ليلة أخرى .
فلما كانت الليلة الستين قالت دنيا زاد للسلطانة : حبذا لو أتممت لنا يا أختي حديث القرندلي الثالث . فأجابت شهر زاد : سمعاً وطاعة ، فهذه يا مولاي بقية حديث الأمير عجيب :

« وفي ضحى اليوم التالى دخلت الصبايا إلى مخدعي واقتدنتى إلى الحمام ؛ ثم قدمت لى الحلل البهية ، وخرجنا إلى قاعة الطعام ، وقضينا النهار فى أنس وحبور ، والليل فى طرب وسمر . ومعاقرة ومغازلة . »

قضى الأمير عجيب عامه فى ذلك الفردوس الأرضى ، كأنه فى حلم من أعجب الأحلام . فلما كان صباح اليوم الأول من العام التالى ، دخلت الصبايا على غير عادتهن من الضحك الموسيقى الذى كان يصحو عليه ، باكيات العيون مطرقات الرؤوس ، وأخبرن الأمير بأن قد دنا ميعاد الفراق . فهن من بنات الملوك وعليهن واجبات يؤدينها أربعين يوماً فى هذا الوقت ، ولا يملك أن يبحن بما هى تلك الواجبات . ويكفيه أن يدرك حزنهن على فراق الأمير الجميل ، حتى ولو فترة الأربعين يوماً . ويخشين أن لا يطيعهن فيما يأمرنه به فتضرب الفرقة بينهن وبينه ، ويكون اليوم آخر العهد به . أما إذا عرف من نفسه القدرة على صد فضوله ، فلا يكون فى شك من لقائهن القريب . وتلك مفاتيح المائة باب المحيطة بساحة القصر يتركها بين يديه ليمتع نفسه

بما يشاهده خلف تلك الأبواب . إلا الباب الذهبي فحذار أن يفتحه ، أو يحاول أن يعرف ما وراءه . ولكم يخربهن الخوف من عصيانه أمرهن بأن يحتفظن بمفتاح الباب المحظور . ولكنهن يتجنبن تجريح الأمير بإظهارهن الشك في ما كنه احتفاظه بالأسرار ، أو قدرته على امتلاك أعنة الفضول في نفسه . وودعن الأمير باكيات وهو يكفكف عبراتهن واحدة بعد الأخرى ، وبقى وحيداً في ذلك القصر الكبير الذي لم يترك له فرصة التفرج عليه واكتشاف خباياه ، ولا كان بحاجة إلى القرعة ، أو هوفكر بها . فلقد انقضى العام بينهن كأنه يوم من الأيام ، بينما تبدو الأربعون يوماً بدونهن قرناً من الزمان . وفتح الباب الأول فرأى به حدائق الفاخرة كأنها جنات عدن ، انتظمت أشجارها ، وجرت غدرانها تسقى كل شجرة بقدر معلوم ، حسب نموها وازدهارها ، أو نضوج الثمار فوق أغصانها .

ونفذ من الباب الثاني إلى روضة الأزاهير من الورد والياسمين والبنفسج والترجس ، والزنبق والقرنفل والسوسن وشقائق النعمان ؛ كلها مزهرة عاطرة في أوقاتها وغير أوقاتها ، والجو عبق بما يتضوع من عبيرها ، والأرض مغطاة ببساط العشب السندسي .

والباب الثالث كان باب بستان الطيور ، وأرضه من صرصر ، وأقفاص الطيور من خشب الصندل والعود . وبها الهزار والبليل ، والفاخت والكروان ، وطيور لم يرها ولم يسمع بها طول عمره ، وصحاف الحبوب من الزمرد والعقيق ؛ والبستان نظيف طيب الرائحة على ما به من طيور كثيرة ، وعلى خلوه من الخول والحشم ، خلو بقية البساتين .

ودخل الفتى من الباب الرابع فشهد الكنوز الباهظة ، ورأى الدر والماس والزمرد والعقيق واللazورد واليشب ، وسبائك الذهب والفضة ، والمرجان أفرعاً وأشجاراً كاملة .

قضى أربعين يوماً إلا يوماً واحداً يشاهد عجائب القصر المسحور وراء أبوابه التسعة والتسعين . وقد رأى كنوز العالم وبدائعه الطبيعية ، وروائع الفن وفنائس الأواني والطنافس مما كاد يضيع معه رشده ، ويذهل له عقله . ولم يبق على عودة حبيبته سوى يوم واحد ، وعلى رؤية جميع ما يحتويه القصر إلا ما وراء الباب المائة ، الباب المنوع .

لو عرف عجيب كيف يغفل النفس الأمارة بالسوء ، بل لو عرف ابن آدم أن يحكم ضميره ويرضخ لحكمه دون شهيد !

كأنى بابن خصيب يخاطب نفسه : ما على إذا فتحت هذا الباب الأخير ، ومن ذا الذى يعرف بخبر فتحة إياه ولم أرا أثراً للإنسان فى كل ما زرته حلف الأبواب الأخرى . لقد رأيت كل ما تصبو إليه النفس ، وعرفت فى هذا القصر نعيماً ليس من نعيم هذه الأرض . فما عسى أن يكون وراء الباب الأخير حتى يحظر على اقتحامه ؟ قد لا يخفى شيئاً ، وقد يخفى عجائب لا تخطر بالبال . ثم غياب الصبايا ماذا يكون معناه ؟ هل يكشف لى هذا الباب عن سر رهيب ؟ على أن أمر ما وراء هذا الباب لا يعينى فى ذاته بقدر ما يعينى أنتى حيال المجهول ، فلا توج ضيمى فى هذا القصر بالعرفان .

لقد خفى على بنات القصر المسحور أمر هام لو عرفنه ، وكن حريصات حقاً على صحة الأمير عجيب ، لما تركن له مفتاح الباب الذهبى . أو هن

عُرفات بهذا الأمر ، وأقامهن الشيطان برهاناً حياً على أن ابن آدم لم يتعظ ولم يتعلم . هل عرفت أميرات القصر المسحور أن عجيباً ، قبل أن يكون ابن خصيب كان ابن طريد الفردوس وابن حواء ؟

« وفتحت الباب ياسيدتي ، الباب الذي وعدت أن لا أفتحه . فإذا عطر قوي ينفذ إلى عرائني فيغشي على . وحين عدت إلى نفسي لم أعتبر بالذير فأرتد إلى خارج الباب وأوصده . تقدمت إلى مكان فسيح أرضه من زعفران وسقفه عقود متناسقة ، تضيئه شموع تفوح برائحة العنبر ، قائمة في شمعدانات من الذهب الخالص ، ومسارج تسقى ذبالاتها من زيوت عطرية . وتلفتت فرأيت فرساً أسود لا مثيل له ، فاقتربت منه ، ورأيت عليه سرجاً ولجاماً من ذهب ، يأكل الشعير والسهم ويشرب ماء الورد ؛ فسحبته وخرجت به في العراء لأراه وأجربه ، ومعي سوط وجدته في ركن من مربط الفرس . واعتليت صهوته فلم يتحرك ، فضربت به بالسوط وإذا به يصهل صهيلاً داوياً ، وإذا له أجنحة نشرها وطار بي مخترفاً شغاف الفضاء كالسهم المريش وأنا ممسك بلجامه متمالك نفسي . وظل طائراً ساعة من الزمان ، ثم شعرت أنه ينحدر بي رويداً إلى الأرض حتى نزل بي على سطح قصر ، ولم يدعني أترجل بل رمى بي ظهرياً في عنف ، وضرب عيني اليمنى بذيله ففقاها وطار مختفياً وراء السحاب .

« عرفت ياسيدتي في تلك اللحظة أنني فقدت كل شيء حتى صحبة الفتيان العشرة أتأسى بأساهم ويخف ندمي إذا شاركهم الندم ، ونزلت إلى داخل القصر فرأيت أووينهم المصطفة في حلقة حول إيوان شيخهم . وكان

البهو خالياً فانتظرت حتى عادوا ، ولم تعرم دهشة لرؤيتي على هذا الحال ، بل قال أحدهم بصوت أجش : الآن عرفت ما عرفنا ، وحظيت بما به حظينا . ولو وفينا بالوعد لبقينا في القصر المسحور نتم بنعيم ليس بعده في هذه الدنيا نعيم . ولكنه الباب الذهبي فتحناه كما فتحته أنت في غيبة بنات الملوك ، ففجعنا بما فجع به . ولعلك فهمت الآن ؛ وإذا كنت مهمت فقد عذرت لنا طقوسنا في الحشرات ، ولسان حالك مردد معنا الآن : هيهات هيهات أن يرجع ما فات .

« وأشار إلى باب القصر فخرجت أمشي لا ألوى على شيء ، وحلقت لحيتي وحاجبي ، ولبست لباس الصعاليك » .

تحمّل عجيب بن خصيب تبعه ما حل به . ولكن ليس معنى هذا أنه منكر لحكم القضاء والقدر ، فقد كان هو نفسه سلاحاً بريئاً للقضاء في الحادث الذي انتهى بقتل ابن شيخ الجوهريّة . وحكاية هذا الشيخ الذي حاول أن يحمي ابنه مما تنبأ له المنجمون به ليس معناها أنه غير مؤمن بالقدر . إنما حاول الشيخ أن ينأى بابنه عن موارد العطب في الفترة السيئة الطالع من عمره . أما الملك الإنجليزي هنري الثامن فقد عالج بطريقة حاسمة نبوءة من هذا النوع ، حين سأل المنجم أن يتنبأ لنفسه بالمكان الذي يقضي فيه ليلة عيد الميلاد في تلك السنة ، فأجابه المنجم بعد أن نظر في الزيجات وقرأ الطالع : أقضيه في منزلي يا مولاي ؛ فأمر هنري الثامن بالرجل أن يسجن في برج لندن حتى عيد الميلاد وبعده ، ليثبت بذلك فساد زعمه .

وحكى أن شاباً من أتقياء بني إسرائيل كان يجتمع مع سليمان الملك وإذا هو في مجلسه دخل ملك الموت ، فلما رآه التقى اصفر لونه وارتعدت فرائصه دون أن يفهم لذلك سبباً . وقال : يا نبي الله إني خفت من هذا الرجل فمر الريح أن تذهب بي إلى الهند . فأمر سليمان الريح فذهبت به . فما كان إلا قليلاً حتى دخل ملك الموت على سليمان وهو متعجب فقال له الملك : مِمَّ تعجب ؟ قال : أعجب أني أمرت بقبض روح ذلك الرجل بأرض الهند ، ودخلت عليك فوجدته بحضرتك في بيت المقدس فصرت متعجباً . ثم توجهت إلى الهند فرأيتك هناك وقبضت روحه ، فهذا عجبي .

فالقَرْنَدَلِي ، مع إيمانه بالقضاء والقدر ، قائل بتحمل تبعه ما جناه على نفسه بيده ، وهذا هو موقف المؤمن الصادق الإيماني . والرجل نزاع إلى المعرفة مهما سببت له نزعته من مصائب . فهو صورة أولية prototype للسندباد بطل القصة التي نعدها من أبداع وأكمل القصص البحرية في آداب العالم . سافر الملك الشاب يستطلع أحوال رعاياه في الجزائر القريبة من مملكته : وابتعثت الرحلة في نفسه الرغبة في جوب البحر استكشافاً وحباً في العرفان ، وكان هذا أول عهده بالمصائب . ولكن نزعته الاستكشافية لقيت مكافأتها فيما عرف من أمر جبل اللؤلؤ والطيس والطلاسم ، وجرب من الطيران بين مخالب الرخ ، وفيما خبره بنفسه من قوة القضاء والقدر ، وأخيراً فيما تمتع به من السعادة العدنية بين أميرات القصر المسحور . وولوعه بالعرفان يدفعه مرة أخرى إلى المصائب حين فتح الباب المحظور وجاوز ذلك إلى تجربة الفرس الذي رآه خلف هذا الباب . فكان ثوابه وعقابه في وقت واحد أن

طار على ظهر الفرس العجيب ، ثم انتهى إلى مأساة حياته بفقد عينه اليمنى وطرده من الجنة الأرضية التي عاش فيها عاماً كاملاً مضى كالخلم .

والفرس الطائر مشهور في الخرافات اليونانية باسم « **بيجاسوس** » . وقد عرف في الأساطير الفارسية أيضاً ، ومن الثابت أن قصة الفرس الطيار في ألف ليلة من أصل فارسي . ولكني لم أر في كتب الجغرافيا العربية ولا كتب العجائب أثراً للأسطورة .

والظهور والارصاد من بواقي الديانات البدائية ، وقد ظلت حتى العصور الحديثة من أدوات السحرة وأهل الشعبة . ويعنيها من أمر تمثال الفرس النحاسي أن السائح العربي في القرون الوسطى لم يكن يشاهد تمثالا من التماثيل في أى مكان من الأرض حتى يرى فيه طلسماً أقيم لفرض عمل معين ولمصر الفرعونية تاريخ جغرافي سبقت الإشارة إليه ، يتخلص في أن كل ما نراه من آثار أجدادنا الأقدمين مجموعة من الظلام والارصاد ، أقامها ملوك وملكات سواحر . وليست الفكرة بعيدة عن الصواب إلى الحد الذي تظهر به ، فلم تسكن تماثيل الآلهة عند الشعوب القديمة ، ولا عند الوثنيين اليوم ، محض أحجار منحوتة نحتاً جميلاً أو قبيحاً ؛ بل هي المظهر الملموس لقوى مخبوءة . ومع ظهور الديانات الكبرى لم تتلاش فكرة الأرواح الخبيثة في الأحجار والجبال والأبواب والعيون والأنهار والأشجار عند كثير من أهل هذه الديانات من العامة . وأعرف في القاهرة على الأقل شجرة وبوابة حملتا خرقاً وخصلات من شعور أجيال ونسبة هامة من سكان العاصمة المعزية وزوار الأقاليم . وتعتمد غالبية من العوام والمخرفين في كل الشعوب مما

يسمى « لعنة الفراعنة » ، وفكرة التمثال أو الصورة كشئ حامل لقوى معينة خفية ، لم تمنح تماماً من أذهان العامة . وكان التمثال والصورة ، أو « السخس » كما تقول الدهماء ، أداة هامة من أدوات السحر في القرون الوسطى . وما يزال كذلك بمصر ، يدخل في « العمل » و « الشبشة » . حينما تقص المرأة صورة من الورق في يوم الجمعة ، وتخزها بالإبر وتمحرقها بالنار فإنما هي تسعى لإزالة « عقد » أو سحر معين بواسطة التعزيم وحرق البخور ، وما قطعة الشب تحترق في النار وتشكل بأشكال غريبة إلا تمثال الحسود يتلوى ويتعذب . حينما انتشرت المسيحية في الدولة الرومانية لم يقل كل المسيحيين بأن آلهة روما ويونان كانت أحجاراً كاذبة . بل ظلت الفكرة سائدة بين العامة أن آلهتهم القدماء هربوا أمام الدين الجديد ، وتشردوا في نياقي الصقيع وبحار الجلد الشمالية ، وقد هجروا معابدهم وجردوا تماثيلهم من قواها الروحية . كما إذا تصورنا في مصر أن أوزيريس هجر المعابد وأهيا كل المصرية إلى الصحراء حاملاً على كتفه « كا » وتوابعها من الرموز « الأنيمية » وكان المفروض فيها أن تنفث الحياة في الصور المرسومة على جدران المقابر* .

فلم يكن مؤرخو العرب ورحالوهم وأهمن تمام الوهم في نظرهم إلى ما رأوه

(*) أطلق الأنثروبولوجيون كلمة « أنيمية » Animisme على العقيدة البدائية التي تدركنا ركنين في التفكير الديني للإنسانية منذ نشأتها ، وهي أن الموجودات كلها ، حية أو جامدة ، مزدوجة التكوين . شطر منها مادي زائل وهو ما تدركه الحواس الخمس ، وشطر روحاني سرمدي قد تدركه هذه الحواس ، وقد لا تدركه تبعاً لظروف معينة . إنما اختصت بأدراكه حاسة سادسة زود بها الكاهن والساحر و « رجل الفيت » و « الطبيب الروحاني » إلى آخر السلسلة التي لم تنقرض حتى في عصرنا العلي ، ويعرف سليلها بين أرقى الشعوب اليوم باسم « الوسيط » Medium .

من آثار الوثنية الأولى في البلاد التي عرفوها . إنما كان الخطأ حينما يشاهدون تمثالا لإمبراطور في القسطنطينية ، أو تحفة فنية تمثل حيواناً ، أو زخرفاً معيناً على باب من أبواب المدن ، فيصرون على أنها رصد أو طلسم .

وموضوع الباب المحظور كموضوع الطلاسم ، يتعدى بحثنا الحاضر عن الأساطير البحرية إلى فحص الأساطير بصفة عامة على أساس « الفوكلور » . والباب المحظور يرجع في أصله إلى الديانات البدائية . وفي هذه الديانات طائفة من المحظورات تعرف في علم الأنثروبولوجيا باسم « تبو » Tabou منها حيوانات يحرم أكلها ، وأشجار يحظر على الناس قطعها أو لمسها ، أو الاستفيا بظلها ، ومواضع يمنعون من ارتيادها . وقد توجد طلاسم تمنع لمس الأشجار وارتياذ المواضع ، وقد لا توجد . ولكن مخالفة أمر الحظر تسبب في كل الحالات للمخالف عقوبات بدنية وروحية مباشرة قد تنتهي بالموت أو بالجنون ، وقد تصيب أهله أو تتعداهم إلى العشيرة كلها . ولا ينتظر الكهان والسحرة عادة أن توقع الأرواح والآلهة عقوباتها ، بل يحكمون على المخالف بالموت ، ويتبعون في تنفيذ حكمهم طبقاً أقرب إلى الأضاحي الدينية منها إلى الإعدام القضائي . ففكرة الباب المحظور ظاهرة العلاقة بأنواع « التبو » في الديانات البدائية . وقد لا يتعب الباحث كثيراً ليجد حتى في الديانات الكبرى أنواعاً من الحظر ترسبت فيها من « الأنيمية » الأولى . والباب المحظور يلعب دوراً هاماً في كثير من أساطير الشرق والغرب ؛ فقد أحيطت « القالكوره جريمهدا » في الأسطورة الجرمانية بسياج من نار وقام على حراستها تنين ؛ وكان تنين يحرس « الجزة الذهبية »

بأرض كُوْنْخَيْدَة في الخرافة اليونانية . وسواء كان الحظر قائماً على محض
العرف ، أو يحرسه حيوان خرافي ، أو رصد وطلسم كما في الأساطير الفارسية
والعربية ، فالأساس واحد . هو فكرة التبوي في الديانات البدائية .

أما أسطورة هيل المغناطيس فقد رددتها كتب الجغرافيا والعجائب
والرحلات العربية . قال بزرك بن شهر يار الناخوداء في كتاب « عجائب
الهنود » : ” وقال لي بعض البحريين إنه بين خانقو ، وهي قصبة الصين
الأصفر ، وبين خمدان ، وهي قصبة الصين الأكبر نهر يجري جرياناً
شديداً بماء عذب ، وعرضه أكبر من عرض دجلة البصرة . وفي مواضع منه
جبال المغناطيس . وإنه لا يسير في ذلك النهر بمركب فيه حديد لئلا تجذبه
الجبال المذكورة لقوتها . وإن الفرسان الذين يسلكون تلك الجبال لا ينقلون
دوابهم ، ولا يكون في سروجهم حديد ولا في ركبهم ولجُم خيلهم “ .

وذكر القزويني في « عجائب المخلوقات » على لسان المهلب ” أن جبال
المغناطيس متصلة بجبال القلزم ، وقد علا الماء عليها . ولهذا لا يُستعمل في
مراكب هذا البحر المسامير الحديد خوفاً من جذب المغناطيس إياها “ .

والإدريسي في « نزهة المشتاق » : ” والندب جبل يحيط به البحر
من جميع جهاته ؛ وطرفه الأعلى مما يلي الجنوب ؛ ويمر إلى جهة الشمال مع
تغريب يسير ؛ وطوله نحو من اثني عشر ميلاً ، وظهره مما يلي الحبشة . كاه
أقاصير وجزائر متصلة حتى ينتهي إلى زالغ وأقنت وباتطلى فلا يقدر أحد على
خوض هذا البحر من هذه الجهة . ووسط هذه الأقاصير والجزر يقوم جبل
ممتد عرضاً حتى زالغ من ناحية الجنوب . ويعرف بجبل موروقين ، وليس

عظيم الارتفاع ، ولكنه مطل على البحر ، وقد غاص جزء كبير منه تحت الماء . وهو مجموعة صخور . [وحكى صاحب كتاب العجائب] " أنه لا يمر بهذا الجبل شيء من المراكب المسمرة بالحديد إلا اجتذبه إليه ، وأمسكه معه فلا يكاد يتخلص منه البتة " .

نسب القزوينى حكايته إلى النهلبى ، وبزرك بن شهر يار إلى « بعض البحرىين » ، والإدريسى إلى صاحب « كتاب العجائب » . ولكن ثمة حقيقة لا مرأى فيها وهى أن مراكب العرب فى القرون الوسطى لم تكن تستعمل الحديد فى رباطاتها ؛ بل كانت " مبنية من ألواح مربوطة بحبال الليف [أى ليف النارجيل] ومُقَيَّرَةٌ ومدهونة بشحم وحوش البحر " [الإدريسى] .

ويتضح من بعض ما ذكره جغرافيو العرب عن مراكب بحر القلزم أن هذه الطريقة فى إنشاء السفن لا علاقة لها بوجود جبال مغناطيسية تجتذب حديد المراكب . يقول الإدريسى : " وبالقلزم تنشأ السفن السائرة فى هذا البحر ، وإنشاؤها شيء طريف ؛ وذلك أن الكلكل ينبسط على الأرض عريضا ، ثم لا يزال اللوح يركب منه على ما لصق به حتى يتهدم ، ثم يخرز بحبال الليف والدسور توصل بينها بالجسور الماسكة . فإذا أكل ذلك بأسره جُلْفِطَ بالشحم للمتخذ من دواب البحر ودقاق الألبان . وقيعان مراكبه عراض دون تعميق فى تركيبها لتحمل بذلك كثير الوسق ، ولا تدرس على كبير ترش " .

هذا هو التفسير البحرى الذى أجمع عليه المؤرخون والجغرافيون . فالبحر الأحمر ، وبحر فارس ، وأغباب سرنديب ، بها « تروش وأقاصير » أى قيعان قريبة من سطح الماء ذات خطر كبير على السفن ، إلى حد أن ملاحى العرب

في القرون الوسطى كانوا يجتنبون الملاحة في البحر الأحمر بالليل . ولقد انتقل رأس الخط الملاحي من البصرة إلى سيراف ، ثم إلى هُرمُوز وجزيرة كيش فيما بعد ، تجنباً لأقاصير الجزء الشمالى من الخليج الفارسى . وكانت الجُنُوك الصينية [وهى أكبر المراكب فى تلك العصور] لا تدخل البحر الأحمر بل تنقل حمولتها إلى مراكبه الخاصة فى عدن أو ظفار على الشاطئ الجنوبي لجزيرة العرب . فالمرآكب المُخَرَّزة بالليف ، ذات القيعان المفرطحة ، أكثر مرونة وآمن إذا أصابت قاعاً قريباً فاصطدمت بالصخور ، أو جلست عليها ، مما لو كانت ألواحها مثبتة بجسور ومسامير حديدية .

هذا إلى أن صعوبة الحصول على الحديد فى بعض البلاد ، أو أن تفرُّك الخشب حول المسامير بفعل الحديد الصدى ، جعلت بناء السفن فى كثير من برور بحر الهند يفضلون فى إنشائها الخواير الخشبية ، وحبال الليف والدسور ، على المسامير والزوايا والعوارض الحديدية .

ولكن هذا لا يفسر أسطورة جبل المغناطيس التى نقترح لها تعليلاً ربما كان أقرب حلاً لعقدتها ، وهو أن التيارات البحرية المجهولة كانت تدفع السفن فجأة إلى شاطئ صخرى وتحطمها فيعزو الملاحون — وربما كان المسافرون مسؤولين عن الخطأ فى التفسير — هذه الحوادث إلى صفات فى صخور الشاطئ نفسها ، لا إلى قوة التيار الذى قذف بسفنهم إلى البر . وليس معنى هذا أن الملاحين العرب أو الفرس كانوا يجهلون بأمر التيارات ، فقد عرفوا انكثير منها ، حتى ذلك النوع من التيارات الدائرية الخطيرة الذى أطلقوا عليه اسم « الدردور » ووصفه إدجار آلان بو أمام الشاطئ

الغربي لشمال اسكندنافيا باسم « ميلستروم » Maelstrom في قصته المشهورة بهذا العنوان . والمناطق التي وصف العرب الدردور فيها توجد ببحر الصين وبمقربة من قمار وفي بحر فارس عند جبلين أطلقوا عليهما اسم « كسيروعوير » وأخرج السجع من الأعماق جبلا « ثالثا ليس فيه خير » ، قال التاجر سليمان : ” وفي شرقي هذا البحر فيما بين سيرا ف ومسقط من البلاد سيف بني الصفاق وجزيرة ابن كاوان . وفي هذا البحر جبال عمان وفيها الموضع الذي يسمى الدردور ، وهو مضيق بين جبلي تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية [الجنوك] وفيها الجبلان اللذان يقال لهما كسيروعوير ، وليس يظهر منهما فوق الماء إلا اليسير “ .

ومن أقوال الإدريسي في « نزهة المستأنس » : ” والدردور موضع يدور فيه الماء كالرحى دورانا دائما من غير فترة ولا سكون ، فإذا سقط إليه مركب أو غيره لم يزل يدور حتى يتلف “ .

ووصفه القزويني في الحكاية الآتية : ” وفي هذا البحر [بحر الصين] الدردور ، فإذا وقعت السفينة دارت فيه ولم تكد تخرج ، والملاحون يعرفون مكانه ويجتنبون عنه . وحكى بعض التجار قال ركبت هذا البحر في جمع من التجار فجاءتنا ريح عاصف صرفت المركب عن طريق المقصد . وكان معلم المركب شيخا جاذقا إلا أنه كان أعمى ، وكان يستصحب معه في السفينة شيئا كثيرا من الحبال وأصحابه ينكرون عليه ، ويقولون لو حملنا مكان الحبال أحمال التجارة لأصبنا خيرا كثيرا . فلما أصابتنا الريح العاصفة كان المعلم يقول لأصحابه انظروا ماترون ، وهم يخبرونه بالحال إلى أن قالوا : نرى طيرا

أسود على وجه الماء . فجعل يدعو بالويل والثبور وضرب على رأسه ويقول :
هلكنا والله . فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : سترون ما ينبغيكم عن إخباري .
فما كان إلا يسير حتى وقعنا في الدردور ، والذي حسبناه طيراً أسود كانت
مراكب فيها أناس موتى . فبقينا حيارى وانقطع رجاؤنا عن الحياة ، وانتظرنا
الموت . فلما شاهد المعلم منا ذلك قال : يا قوم هل لكم أن تبحلوا إلى شطر
أموالكم على إخراجي إياكم من هذه الغمرة ، فقلنا : رضينا بذلك . فأمر
بأخذ قنيتين مملوءتين من الدهن فأدليتا في البحر ، فاجتمع عليها من السمك
ما لا يحصى . ثم أمر بتشريح الموتى الذين كانوا في المركب ، وشدها في الحبال
التي كانت معه ، ورمىها في البحر تأكلها السمك . ثم أمر القوم بضرب
الدف والأخشاب والصياح والتصفيق ، فإذا المركب تحرك عن مكانه وجرى
فلم يزل يفعل ذلك حتى خرجنا من الدردور ، ثم أمر بقطع الحبال فنجونا
سالمين بإذن الله تعالى .“

ومهما كان من أمر الموتى والحبال ، فاعتقادي أن إلقاء الدهن في البحر
لم يكن ليجمع السمك حوله . وإنما المعروف والمجرب حتى العصور الحديثة
أن إلقاء الزيت على سطح البحر الهاائج يهْدِيْ بعض سورتِه ، وليس بعيد
أن يكون ملاحو العرب عرفوا بالتجربة أثر الزيت أو الدهن . وأن تكون
محاولة المعلم الأعمى أدت إلى تهْدئة نسبية لهياج الماء في الدردور .

تقدمت بحكاية الدردور لأدلل على شيء لا يحتاج إلى دليل وهو أن
الملاحين العرب عرفوا بأمر التيارات البحرية ، ولكنني لا أستبعد أن يكون
قد استغلق عليهم فهم بعضها . فها هي هذه فقرة وردت في موسوعة

الإدريسي تصور الغوض الذي أشير إليه :

”ومن مُنْبَسَة إلى مدينة البايس في البر ستة أيام ، وفي البحر مجرى ونصف . . . ومدينة البايس هي آخر عمالة الزنج ويتصل بها أرض سُفَّالَة الذهب . فمنها على الساحل إلى مدينة تسمى تَبَهْنَة ثمانية أيام في البر ومجرى ونصف في البحر ، وذلك لأن ما بين هاتين المدينتين جوناً كبيراً . . . وبين هاتين المدينتين في البحر جبل عال عريض يقال له عَجْرَد ، والماء قد حفر جوانبه من كل ناحية ، فيصوت الموج به صوتاً هائلاً . وهذا الجبل المذكور يجتذب إلى نفسه من المراكب ما لا وصفه فالسافرون يتنحون عنه ويفرون منه“

فالإدريسي قائل بمجاذبية الجبل للمراكب ؛ وهو الناقل عن « كتاب العجائب » حكاية جبل المغناطيس ، لم يجد حاجة إلى مقطعة جبل عَجْرَد أمام ساحل سُفَّالَة الزنج . هذا إلى أن وصفه لحالة البحر حول جبل عجرد واضح الدلالة على أن مجاذبية الجبل راجعة إلى حالة البحر حوله ؛ فقد ذكر بلبس ، وبلا التجاء إلى كتب العجائب ، أن « الماء قد حفر جوانب الجبل من كل ناحية ، فيصوت الموج به صوتاً هائلاً » .

ومما يعزز التعليل الذي أتقدم به ، أن جغرافيتي العرب حددوا لجبل المغناطيس موضعين لا شك في أنهما يتعرضان لتيارات خطيرة . مضيق باب المندب ، ونهر الصين الأكبر . والملاحاة في الأول عسيرة إلى هذا الوقت بسبب تياراته الشديدة ، وهو في هذا شبيه بغيره من المضائق كمضيق ماجلان وجبل طارق ومسينا ودوفر وغيرها .

ونهر الصين الأكبر [يانج = تسي] فيما بين خانفو وهو الميناء البحري

للصين ومُخذان في الداخل ، شديد التيارات لا بسبب مجرى النهر وحده ، بل بسبب ما يعترض جريانه عند المصب من أثر المد والجزر في البحر . وقد حرص صاحب « عجائب الهند » على أن يصفه بالجريان الشديد . أما ذكره للدواب غير المنعولة ، فربما كان لعدم نقلها سبب آخر غير مغناطيسية جبل الصين وقد تكون الحكاية هندية ومزايدة مما جرت به عادة البحريين وأصحاب الفرائب لحكاية الموتى والسماك والخيال في واقعة الدردور التي نقلها القزويني .

وفكرة الحجارة المغناطيسية كانت شائعة في القرون الوسطى . فالقزويني يحدثنا عن حجارة تجذب الرصاص ، وحجارة تجلب المطر — أى تجذب السحاب — وهذه من الأساطير التتارية المشهورة . بل هناك حجارة تسهل الولادة ، وربما كان هذا لأنها تجذب الأجنة من البطون . ولعل منها ما يعرف باسم « حجر باهت » أو « بهت » الذي يصفه القزويني بأنه ” يتلأأ حسناً ، إذا وقعت عليه عين الإنسان يغلبه الضحك ، وقيل إنه مغناطيس الإنسان “ . ويظهر أن « مدينة النحاس » كانت بداخلها بعض مبان من هذا الحجو ؛ فكان رسل موسى بن نصير كلما صعدوا إلى سور المدينة التي لا أبواب لها ضحكوا وألقوا بأنفسهم إلى داخل السور ، ولم يسمع عنهم خبر بعد ذلك ؛ مما جعل القائد يعدل عن محاولة دخول مدينة النحاس بعد أن فقد فيها بعض رجاله أرسلهم فوق السور للاستطلاع .

وعلى أية حال فإنني أفضل أسطورة جبل المغناطيس في صيغتها القصصية بحكاية القرن دلي . فالجبل في القصة عادى اكتسب صفته الخطيرة بالسحر والطلسم كما يتمطس الحديد داخل ملفات « رومكورف » . فالأسطورة في القصة مؤسسة

على ما يمكن أن نسميه « منطق الخوارق » ، بينما الأغلب أنها قامت في كتاب
القزويني وغيره على خطأ في تفسير ظاهرة من ظواهر التيارات البحرية * .

(*) لا أنعرض لتفسير الأنتروبولوجي لهذه الأساطير ، أي التحليل الفوكلوري . إنما
أدرس تطورها في أذهان كتاب العرب فيما بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر . فبعض
هذه الأساطير ، وربما كانت كلها ، واغلة في القدم . ولقد بينت في بعض الفصول السابقة
كيف تتخذ الأساطير البحرية في الكتب العربية صوراً مزدوجة . قالقزويني مثلاً ، يصف
« نافورة الماء » وصفاً علمياً ، ثم يتكلم في الكتاب نفسه عن التنين ، وهو الصورة
الأسطورية لهذه الظاهرة الجوية البحرية . ولاحظنا ازدواج أسطورة « بنات الماء » ،
فهذه حيوانات شبيهة سطحياً بالإنسان في الوصف الواقعي ، ومخلوقات مائية في الوصف
الأسطوري . وفي خرافة « جبل المقناطيس » مثل آخر للازدواج . فالإدريسي يتكلم عن
جاذبية جبل عجرد في فقرة واضحة الدلالة على أن هذه الجاذبية ناشئة عن التيارات
البحرية ، بينما يتحدث في موضع آخر عن « جبل المقناطيس » كأنه ظاهرة بعينها مختلفة
عما يحدث حول جبل عجرد . فالكتاب العربي ، كما رأينا ، يردد الأسطورة القديمة —
ودراسة منشأ هذه من خصائص الفوكلوريين — ثم يمزج بها صيغة جديدة جاءت عن
طريق مشاهدات واقعية للبحريين والسفارة ؛ ويتفاوت هذا المزج ، فقد يكون تاماً وتتوحد
الأسطورة ، والغالب أن لا يتم فتبقى الأساطير على درجات مختلفة من الازدواج .

حسن البصرى

اقتحم عجيب بن خصيب الباب المحظور فأضاع هناءه وصحاً من حلمه ،
واقترح حسن البصرى الباب المحظور فكان مبيله إلى الحب وآلام الجوى ،
ثم إلى نعيم اللقاء . وأخيراً إلى شقوة القراق ومتاعب الأسفار والتعرض لأشد
الأخطار . فالباب المحظور يتخذ فى قصة حسن البصرى معنى أوسع . فكأنه
باب الحياة نفسها يفتحه فتى يخرج من دور المراهقة .

وقصة حسن البصرى منقولة عن قصة أجنبية ؛ ربما كانت إحدى قصص
« هزار أفساره » . وقد احتفظت مجموعة ألف ليلة كما نعرفها الآن بصورة من
القصة الأصلية ، وهى حكاية طويلة اسمها « جانشاه » ترد فى قصة « حاسب
كريم الدين » ، وتُحكى فيها بين الليلة التاسعة والتسعين بعد الأربعمائة
والليلة الثلاثين بعد الخمسمائة من طبعة القاهرة . ولن نتابع بالتفصيل حكاية
« جانشاه » ولا قصة البصرى ، كما فعلنا بقصة القرندى الثالث . فما يعنيننا من
قصة « حسن البصرى » هو أن نبين كيف آلف واضعها بين أسطورتى
« شجرة الوقواق » و « جزائر النساء » اللتين تحدثنا بشأنهما فى الكتاب
الأول . وسوف نقتبس فى سردها بعض ما جاء بحكاية « جانشاه » مما يتفق
وما نعتبره الفكرة الأساسية فى القصتين ، تاركين للتعقيب على القصة
الإشارة إلى الاختلافات بين الحكايتين .

كان حسن شاباً صائفاً يعيش فى مدينة البصرة ، ورث عن أبيه دكاناً
للصياغة ، جاءه إليها وغرر به مجوسى اسمه بهرام فحمله على ظهر سفينة عبرت

بهما البحار إلى أرضين مجهولة . بحجة أن يطمه السيمياء ، أى تحويل النحاس إلى ذهب . وقد انتهى إلى جبل تختفى قته وسط السحب ، بلغ حسن إلى قته مسجى في جلد دابة ومحمولا بين مخالب الرخ . .

ونادى بهرام على حسن من أسفل الوادى بأن يلقي إليه بربطة من الحطب يعتمد عليها المجوسى في عملياته السياوية ، فإذا صدع بأمره ضحك بهرام وعاد من حيث أتى تاركاً الفتى يندب سوء حظه ويبكى ضياع شبابه . وبنتهى حسن بطريقة أو بأخرى إلى قصر في جبل السحاب يرى ببابه فتاة من بنات الملوك تصطفيه وتتخذة أخاً لها ، وتأتى بقية أخواتها الست فتقدمه إليهن . ويقضى ينيهن عاماً في عيشة رضية وأخوة تامة . وتسافر البنات لزيارة أبيهن ، ويتركن للبصرى مفاتيح أبواب القصر ، وله أن يفتح كل مقاصيره إلا مقصورة واحدة .

ولكنه يفتح الباب المحظور فيرى خلفه سلماً يرقى عليه إلى سطح القصر فيشرف على البحر في ناحية ، وعلى روض مزدهر عاطر في ناحية أخرى . وتقوم وسط الروض مقصورة من خشب العود والصندل تغطى بحيرة ماء حولها للمقاعد والأسرة . ثم إذا هو يسمع رفرقة طيور قادمة من ناحية البحر متجهة إلى البحيرة ، فيختبئ ليتمكن من مشاهدتها دون أن تنفر منه . وتخط الطيور على شجرة فيلاحظ من بينها طيراً أجمل ريشاً وأرفع رأساً ، والطيور تحف به كأنها من أتباعه .

وتشق الطيور عن ريشها وجلدها فإذا هى « بنات أبكار ، يفضحن بحسنهن الأقمار » . وتنزل البنات إلى الماء يغتسلن ويلعبن ويتمازحن . ولقد

أدرك البصرى إذ وقع نظره على سيدتهن أن نصيحة أخته له لم تكن عبثاً .
لأنها كانت تخشى أن يشغب بالفتاة الطائفة حبا . وقد حدث ما كانت
تخشاه إذ جعل البصرى يتأمل المخلوقة النادرة في ذهول من وقع عليه الحب
وقع الصاعقة . ” فلها فم كخاتم سايان ، وشعر أسود من ليل الصد على الوجهان
وجبين مضىء كهلل العيد أو رمضان ، وعيون تحاكي عيون الغزلان ،
وخدان كأنهما شقائق النعمان ، وشفتان كالمرجان ، وأسنانها لؤلؤ منظوم في
قلائد العقيان ، وجيد كسبكة فضة فوق قامة كغصن البان “ .

خرجت الصبايا من الماء فصحا البطل من ذهوله ليشر بحرارة الحمى التي
تصيب الفتيان في مثل منه فتمنهم الرقاد وتطير جناهم شعاعاً . ولبس
فعدن طيوراً رفرت بأجنحتها وطارت في الاتجاه الذي جاءت منه .

يعاود البصرى فتح الباب في الأيام التالية وهو يتعرق جوى وشوقاً ،
ولكن الطيور لا تعود . فتجتمع الوحدة مع الهوى لينقلب الفتى البصرى صبا
مضى أليف السقام . فإذا عادت أخته من رحلتها عرفت كل شيء بمجرد
وقوع نظرها عليه ، فلامته أشد اللوم على مخالفته أوامرها . ولكن وقعت
الواقعة والفتى في عداد المالكين إن لم يفز بمعشوقته . وهنا تطلعه أخته على
سر الغادة الطائفة ، فهي أخت ملكة جزيرة النساء في آخر الدنيا ، حيث
البنات الضاربات بالسيوف ، الطاعنات بالرماح ، في جيش قوامه خمس
وعشرون ألف فتاة . إذا ركبت واحدة منهن جوادها وليست آلة حربها
قاومت ألف فارس . ولباس الريش الذي تلبسه الأميرة وأتباعها من صنع
الجان القاطنين بجزيرة مجاورة لجزيرة النساء .

فليترقب البصرى مقدم معشوقته فى الشهر التالى ، وليخطف ريشها ويخبئها فلا تستطيع العودة إلى جزيرتها ؛ ويطير عنها أتباعها ليبلغن خبر ما حل بها إلى أختها الملكة ؛ ثم ليتقدم إليها وهى خارجة من المياء فيجذبها من شعرها ويدخل بها مقصورته .

ووفدت البنات طائرات فى موعدهن ، وخبأ البصرى ريش الأميرة ، فطار عنها أتباعها وبقيت وحدها تبكى . فتقدم إليها البطل واقتادها بشعرها إلى مقصورته حيث ألقى عليها قباء وأقلل الباب وذهب إلى أخته يدعوها . فجاءت إليها ووجدتها تبكى وتعض على أناملها ، ثم هى تترك البكاء لتوجه أشد اللوم إلى أخت حسن لأنها سمحت للرجل الغريب بأن يطلع على سرها ، فتدافع الفتاة عن أخيها البصرى ، وتفصح للأميرة الطائرة عن حب الفتى لها وكيف أخذ عليه حواسه ، وهو لا شك مرديه إلا إذا رقت الأميرة الطائرة لحاله . ثم تقدم لها الملابس وأدوات الزينة . وتطيب خاطرها وتهدي من روعها ، وتأمر بالمائدة فتمد ، وتنادى على حسن وتأمره بأن يدخل على الأميرة ويقبل يديها ورجليها . وأخذ الفتى يئثما لواعج حبه ويفصح لها عن نبل غرضه ، ويرسم لها صورة بهجة عن الحياة فى البصرة وهو مزعم إذا تنازلت بالقبول ، أن يتزوجها « بسنة الله ورسوله » . والأميرة الطائرة صامته مطرقة الرأس .

ويأتى أخوات حسن فتقص عليهن الأخت الصغرى قصة العاشق ، وهى تنتظر منهن أن يوفقن بينه وبين الأميرة الطائرة ، ويعقدن زواجه عليها . ومضت أيام الخطبة على حسن ولسانه منطلق بأرق صنوف الغزل ،

وبنات الجن يسرين عن هم الخطيبة بما في وسعهن ، ويزجبن المدح إلى الفتى
البصرى الذى لن تجد الأميرة أطيب منه نفسا ، ولا أعذب حديثاً وأحلى .
فإذا عقدن زواج الفتى على الأميرة ، وتقضى أربعين يوماً مع عروسه
وبين أخواته ، استأذن فى العودة إلى البصرة . فجهزته بالعطايا وأهدى عروسه
الحلل والجواهر ، وتواعدن أن يزورهن حسن مرة فى كل عام .

وتفرح والدته ببلقائه ، وترحب بعروسه وتنصح أن يغادروا البصرة إلى
دار السلام ليعيشوا فى كنف عاصمة الخلافة ، ويكونوا فى مأمن من الظلمة
الطامعين ، بعد ما عاد به حسن من نفائس الجواهر . وفى بغداد يستأجرون
داراً رحبة يقيمون فيها .

ولما وافى العام جهز حسن للسفر إلى قصر السحاب ، واستأذن زوجته
فى السفر ، وأوصى بها أمه ، وحذرها أن لا تمسكها من ثوب الريش الذى
خبأه فى صندوق دفنه فى صحن الدار . وسافر للملاقة أخته الصغرى .

واشتاقت نفس الأميرة الطائفة للخروج فألحت على حماتها أن تصحبها
إلى الحمام . وما إن وقع بصر نساء بغداد على جمال الأميرة الباهر حتى كبرن
وهلن ، وانتشر خبر حسننها بين النسوة من داخل الحمام إلى خارجه ، فتقاطرت
النساء على بابه ينتظرن دورهن فى مشاهدة قوامها البديع ، وسواد شعرها
الأثيل ، وعينها الكحيلتين الساحرتين . واتفق أن مرت بباب الحمام إحدى
جوارى امرأة الخليفة فلما عرفت علة الازدحام ودخلت تشاهد الصبية وتتأمل
محاسنها ، بهتت بها ، وجلست تتفرس فيها وهى تلبس ، وتتبعها وهى خارجة
إلى إيوان الحمام لتستريح برهة ، والنساء حولها متزاحات مهلات عجباً وإعجاباً .

وعادت الجارية إلى قصر الخلافة تحدث السيدة زبيدة بأمر ما رأت في يومها ، وتحذرها أن يرى أمير المؤمنين تلك الصبية فيقصد بزواجها شرا ليتزوج بها ، فتصيح امرأة الخليفة : يا فاجرة ، إن في سراي أمير المؤمنين هرون الرشيد ، الخامس من بني العباس ، ثلثائة وستين جارية . أتخسبين أن ليس بينهن من تفوق فتاتك جمالا واعتدالا ؟ . وتجيّب الجارية : ليس في بغداد بأسرها ، بل ولا في العرب ولا في المعجم من يدانيها حسنا وسعرا .

تأمر امرأة الخليفة بالصبية فتجىء إليها مع أم البصرى ، وتقبل الأرض بين يديها ، ثم ترفع رأسها القائم على جيد كأنه عمود من فضة . وتسرح زبيدة بصرها فيها وهي تؤمّن في نفسها على ما قالت الجارية ، وتأمر لها بسرير إلى جانبها ، وخلعة فاخرة ، وعقد من نفائس الجواهر . هذا ومجلس السيدة زبيدة كأن على رؤوسه الطير .

وفي غضون الحديث سألتها امرأة الخليفة عما تعرف من الفنون ، فأجابتها الصبية بأنها تحب الرقص . فتأمر امرأة الخليفة بالآلات والمغنيات ، وتطلب إلى الغادة أن ترقص . فتستأذن في أن ترقص رقصة الطيور على أن يسمح لها بارتداء الثوب الخاص بتلك الرقصة ، وتدل على مكانه . فإذا أحضر إليها لبسته وبدأت رقصتها بخفة الطير ، تدور على نفسها وتهادى ، وتلوى برأسها ذات اليمين وذات الشمال في عجب وخيلاء ، ثم تنشر أجنحتها وتطير إلى قبة البهو ، وتحط على إفريزها بجانب نافذة من نوافذها ، وتطل على حاتها وتقول ” إذا جاء ولدك وطالت عليه أيام القراق ، وهزته رياح المحبة والأشواق ، فليبحث عني في جزائر الوقواق “ ، وتطير من النافذة .

وعاد حسن البصرى من رحلته وعرف بمصابه فبكى وتندم ثم اعتزم السفر إلى قصر السحاب توطأ ليسأل أخته المعونة ؛ ولكنها عاجزة عن معونته إلا أن يرضى عنها الشيخ بأن يساعده ، فربما كان فى مقدوره أن يعمل شيئاً . ويأتى الشيخ فى زيارة الفتاة وأخواتها . فإذا علم بالخبر أطرق برأسه هنيهة ، وهو ينكت الأرض يعود فى يده ثم هز رأسه وقال : يا بناتى ، لقد أتعب هذا الفتى نفسه ، وهو لاشك يلقى بها إلى التهلكة إذا حاول الوصول إلى جزائر الوقواق . فبينه وبينها سبعة أودية وسبعة بحار وسبعة جبال عظام . ولكنه إذ يرى إصرار حسن على مجابهة الأخطار سعياً وراء زوجته الحبيبة ، يأمره باتباعه ويسافران إلى بلاد بعيدة . ويدخلان كهفاً ينشق عن فلاة واسعة ، ويباب الكهف فرس مسرج ملجم يطلب الشيخ إلى حسن أن يمتطيه ، ثم يعطيه كتاباً ليحمله إلى المكان الذى يصل إليه الفرس فى آخر غلواته ، وهو باب كهف يترجل عنده البصرى ويطلق للفرس العنان فيدخل الكهف من تلقاء نفسه . وينتظر حسن بالباب خمسة أيام ، وفى اليوم السادس يخرج إليه شيخ عليه لباس أسود ، وله لحية بيضاء مرسلة إلى أسفل صدره . يقبل حسن يديه ويسلمه الكتاب دون أن ينبس بكلمة ، فيعود الشيخ إلى الكهف . وينتظره الفتى خمسة أيام أخرى ، فيخرج إليه فى اليوم السادس فى ثياب بيض ، ويمسك بيد البصرى ويقوده إلى داخل المغارة ، حيث قاعة كبيرة ذات أربعة لواوين ، فى كل ليوان مجلس شيخ بين يديه كتب كثيرة ومجامر بخور ، وطلبة يقرأون عليه . يأمر الشيخ فينصرف الطلبة ، ويلتف الشيوخ حول رئيسهم ذى اللحية والثياب البيضاء . فإذا

عرفوا ما جاء الفتى لأجله تداولوا بالنظرات وقال الشيخ الرئيس : يا إخواني ،
لم أر إنساناً كارهاً للحياة كره هذا الشاب لها ، أو هو لم يدرك بعد ما هي
جزائر الوقواق ، ولا ما يتجشمه من مشاق في الوصول إليها ، وما ينتظره إذا
وصل إلى هناك ، فزوجته هي أخت ملكة جزائر النساء ذات الحول
والطول . يحض الشيوخ النصيح للفتى المحزون ، وهو ثابت في عزمه يقبل
يدى الشيخ الرئيس ، ويفرك وجهه في لحيته البيضاء حتى يرق الشيخ له
ويقول : لا تحسبن الأمر بيدى أيها الفتى ، فوصولك إلى جزائر الوقواق
رهين بإرادة صاحب الأمر ، ولا طريق لك إلى هناك إلا أن تمر بجزائر
الكافور ، وسأزودك بكتاب إلى ملكها ، لعله مدبر لك أمراً .

يسافر حسن البصرى إلى جزائر الكافور ، ويكرم ملكها وفادته ، ثم
يأخذه برفق ويطلعه على الصموية الكبرى ، وليست في وصوله إلى جزائر
الوقواق بقدر ما هي في دخول الجزائر نفسها . فالمرآكب تسير بين جزائر
الكافور وبينها ، ويمكن أن يوصى به أحد ربابنته فيحمله إلى أول جزائر
الوقواق . ولكن الربان والتجار لا ينزلون إلى الأرض ، فتلك جزائر
النساء إذا دخلها الرجال كان جزاؤهم الموت . وتحمل التجارة بين المراكب
والبر في دوانيج وتترك على الساحل . فإذا جن الليل جاءت نساء الجزيرة
في حرس نسائي مسلح ، وحملن السلع وتركن بدلهما مما تفتجه الجزائر دون
أن يراهن أحد .

نزل حسن بإحدى مراكب جزيرة الكافور ، فوجد عليها " خلقاً
مثل الحصى لا يعلم عددهم إلا الله خلقهم " . وأوصى الملك به الربان ،

وحذره أن لا يكشف للسفار عما يعتزمه الفتى ، كما أوصى البصرى بأن
ينحفي غرضه عن الركب .

وسافرت المركب في البحر عشرة أيام ، ثم ألفت مراسيها بعيداً عن البر
ونزل حسن في زورق الربان ، وقفز منه إلى البر ، وجرى إلى مقاعد مرصوفة
اختبأ تحت واحد منها . ولما أرخى الليل سدوله جاء خلق كثير من النساء
سائرات على أقدامهن ، تضطرب السيوف المشدودة إلى أوساطهن ، وتقرع
الزرد الذي يغطي سائرهن . وبينهن نساء حملن المتاع ، وذهبن من حيث
أتين . وجلست العساكر يسترحن على المقاعد ، فمسك حسن بأطراف زرد
الجالسة فوق المقعد الذي اختبأ تحته ، وشكا لها حاله ، واستحفلها بآهتها أن
تغفوعنه ، وتتستر عليه ، وتشد أزره ، فقد جاء من بلاد وراء البحار والجبال
والوهاد ، بحثاً عن زوجته الحبيبة من بنات الجزيرة .

ورأت الفارسة من ملامحه ولهجته ما حرك فيها الشفقة عليه والثناء لحاله
فأمرته أن يظل مختبئاً حتى الليلة التالية حين تحضر له زرداً وسيفاً وخوذة .
وبذلك تمكن البصرى من الاختلاط بمجنود بنات الوقواق دون أن
يكشف أمره ، وتبعهن إلى خيامهن على ضوء المشاعل والشموع يفوح منها
عبير العود والعنبر ، ودخل إلى خيمة صاحبتة التي استجار بها . فلما رفعت
خوذتها وكشفت عن وجهها ، رآها عجوزاً مشرقة الوجه مهيبة الطلعة . جلست
تنصت إلى حكايته معجبة بشجاعته وشبابه ، ثم قالت :

اعلم يا ولدى أننا في أول جزائرتنا ، لا نجيء إلى هنا إلا لاجارة ، ثم
نعود إلى جزيرة الوقواق نفسها ، وهي السابعة في هذه الجزائر ، بيننا وبينها

سفر طويل في البر والبحر ، نمر فيه بجزائر الطيور ، ثم بجزائر الوحوش ،
فجزائر الجن تندلع النار من أفواههم والشرر من عيونهم ، وأخيراً إلى جزيرة
الوقواق حيث الجبل المقدس ، والأشجار التي ثمره وساً كرهوس ابن آدم
إذا طلعت عليها الشمس استقبلتها صائحة واق ! واق ! سبحان الملك الخلاق
وإذا غربت الشمس ودعتها بصيحة واق ! واق ! سبحان الملك الخلاق .
لا يدخل الرجال أرضنا ، ومن تجرأ منهم علينا فميره الموت لا محالة . فكر
في أمرك ملياً وما زال بيدك ، وتستطيع أن تعود إلى بلادك .

وهيات أن يرجع الوهان عن عزمه ، أو تفل المصاعب والأخطار في
عزمته . قالت له السيدة وقد زاد عطفها عليه : لن يقضى لك حاجتك سوى
حسن نيتك ، وصدق محبتك ، وفرط شوقك إلى زوجتك . وسأمد إليك
يد المساعدة بما تملك يعني ، وأنا نقيبة العساكر في هذه المملكة ، وكلهن
نساء ، وملكتنا امرأة .

وتأمر نقيبة الجيش بالرحيل ، وتتحايل طول الطريق حتى تمكن لحسن
من رؤية وجه عساكرها ؛ فمرة تفتش عليهن والحدود مرفوعة ، ومرة تأمرهن
بالاستحمام . وكان حسن قد أخفى عليها أن زوجته أخت الملكة الوقواق .
وعندما اقتربا من الجزيرة الكبرى ، وسأله أن يصف لها زوجته ، أصر على
إنكاره معرفة من تكون ، وراح يصفها وصف العاشق الوهان المحاسن الخبيبة
التي طال شوقه إلى رؤياها . فاصفر وجه العجوز وقالت له : لقد بليت بك أيها
البصري ! ليتني ما عرفتك ! فمن تصف هي ملكة الوقواق بأسرها . ثب إلى
رشدك ، وارجع عن غيك أيها المجنون ، فبينك وبينها ما بين الأرض والسماء !

ولكنهم وصلوا إلى الجزيرة الكبرى ، ولا مناص لنقيبة الجيش من أن تخبر الملكة بأمره . تقدمه لها ، فيفشى على الفتى في حضرتها ، إذ لم يكن يتوقع أن يرى زوجته بعينها ، أو أشبه الناس بها .

وتفهم ملكة الوقواق أنه زوج أختها التوأم ، ولم تنس الملكة بعد فضيحة أختها وغيبتها في البلاد البعيدة حين خطفها الشاب الغريب . ولكنها تريد اليوم أن تكشف عن سريرة تلك الأخت ، وتعرف إذا كانت تحب خاطفها ، أو أنها ظلت مقيمة على عهد بنات الوقواق ، كارهة للرجال ، مكرهة على معاشرة الرجل الذي تجرأ عليها .

أما أمر هذا الرجل الخاطف لأختها ، المتجاسر على دخول جزائر النساء المطلع على أسرار بلادها ، وأما أمر نقيبة العساكر ذاتها فقد أبرمته في نفسها : التعذيب حتى الموت .

فإذا اجتمعت أميرة الوقواق بزوجها حسن البصرى ، جرت تعانق العاشق الصنديد ، ثابت الحب والجنان ، جاء يسمى إليها عبر الجبال والوهاد والبحار ، وينتزعها من بين أهلها وجزيرتها انتزاع الفارس الشجاع ، فيكفر بذلك عن سيئة اختطافها خطف الإماء تحايلاً وغدراً ؛ إنه الآن جدير بها كما هي جديرة به .

وتصرخ ملكة الوقواق صراخاً تهتز له أرجاء المكان ، فسلك أختها عار لصق بعرشها ، وبشرف مملكها . بل هو نذير بالشر ، باذر بذور العصيان والثورة على التقاليد الموروثة ، قاض على الأوضاع والطقوس . غداً سوف ينتشر الخبر بين نساء الوقواق ، وتنقله الأفواه إلى الأسماع ، وتتردد بينهن

أسطورة جديدة تنشئ تقليداً جديداً . ألم ير نساء البلاط كيف أشرقت عيون الأميرة العاشقة ، وتوردت وجنتاها ، وكيف ارتمت على صدر الرجل تعاقه في طراوة وأنوثة ، وتطبع على فمه قبلات تكاد تضطرم بنار الشوق ؟ أهذا أم ما نشأن عليه من صراع ومبارزة وطعان ، ومن ضرب الأرض بالأقدام سيراً في صفوف عسكرية ، ومن صلابة في الحركات وجفاف في التعبير ؟ حاولت ملكة الوقواق أن تظني " نذر الشر والثورة بأن تجعل من أختها وزوجها ونقيبة العساكر عبرة لمن اعتبر . وبعد حوادث كثيرة ، ومواقع بين ملكة الوقواق وبين البصري تؤازره النقيبة ، يتخللها كثير من الحوارق وأدواتها من عصي سحرية وقلانس إخفاء وجن طائر وعون خادم ، يعود البصري إلى بغداد بزوجه الأميرة ، وقد اجتاز الأهوال ، وتغلب على الصعاب وهدم تقاليد جزائر النساء بقوة غرامه ، وصلابة عزمته وثبات جنانه . وعاش الجميع في هناءة وسعادة ، حتى أتاهم هادم اللذات ، ومفرق الجماعات . فسبحان الحي الذي لا يموت .

ليست قصة حسن البصري بحاجة إلى تعقيب طويل ، فقد بذيت حوادثها على أساطير عرفتها . وكان موضوع [thème] الباب المخطور محركا لحوادثها ، كما كان في ختام قصة القرندي الثالث . وإذا كان للمعارف الجغرافية والمعجائب أثر في تأليفها فليس معنى هذا أن واضعها عالم جغرافي ، أو أنه مُتَّفَقٌ في كتب المعجائب . إنما هو قصاص أولاً ، لصقت بذهنه أشنات مما قرأ أو سمع عن جزائر النساء وخرافة الوقواق . والباب المخطور موضوع كثير

الاستعمال في القصص العربية والفارسية . وأكثر منه حكاية المجوسى الذى يغرر بالفتيان ليؤدوا له خدمة معينة سواء في فتح كنز أو جمع الجواهر من أودية سحيقة أو مرتفعات شاهقة . ولم يذكر المؤلف جزيرة الكافور اعتباراً . فقد ذكرت كآخر مرحلة وصل إليها البصرى قبل سفره بالبحر مباشرة إلى جزائر الوقواق . وأشارت كتب الجغرافيا العربية والعجائب إلى شجرة الكافور وحددوا منابتها بأرض الزابج ، أى بجزائر الهند الشرقية . والكافور شجرة من أشجار الجزيرة التى تعرف اليوم باسم سومطره . فإذا ذكرنا ما جاء عن جزائر الوقواق في الكتاب الأول ، أمكن فهم ما دار بمخلد صاحب القصة حين جعل بطله يركب الجنك من جزيرة الكافور إلى بلاد الوقواق .

وجزيرة الجن لم ي اخترعها المؤلف ، فالأسطورة الفارسية التى انتقلت إلى العرب تقول بأن إلى الشرق من العالم ، في البحر الزنقى جزيرة « كنك — ديز » تسكنها الأرواح Pêris . وذكر صاحب « مختصر العجائب » أخباراً بهذا المعنى عن شرق العالم .

وقصة « چانشاه » ، وهى الأساس الذى أنشأ عليه المؤلف العربى قصة « البصرى » ، يظهر أنها من أصل فارسى أو هندى تقصيت بعض آثاره في مجموعة فارسية وضعها « عنایت الله » بدلى سنة ١٦٥٠ م ، وعنوانها « بَارْدَانَشْ » أى « روضة المعارف » وأقر بأنه نقلها عن حكايات قديمة فارسية ، وعن المجموعة الهندية المسماة « هيتوباديشا » . وفى « روضة المعارف » حوادث بعينها نجدتها في قصتي « چانشاه » و « حسن البصرى » . كحادثة النساء — الطيور ، وإخفاء البطل لريشهن . وجزائر النساء ، واسمها في حكايات

عنايت الله « شَنْجَلْدِيْب » . وطائر الشيمورغ [الرخ] . وأخيراً حادثة احتيال البصرى على غلامين واستيلائه على ميراثهما ، وهو قلنسوة إخفاء ووطاب صحرى ، من أدوات الخوارق التى استعملها البطل للتغلب على ملكة الوقواق وإنقاذ زوجته من بين أمة الأمازونة .

وفى رأى أن قصة « حسن البصرى » تفضل مجموعة عنايت الله وقصة « چانشاه » . فلنقارن بين الأولى والأخيرة باعتبار أنهما الصورة والأصل الواردان فى كتاب ألف ليلة .

قصة البصرى بوجوازىة ، وحكاية چانشاه أرستقراطية . فالبصرى صانع ، وچانشاه هو ابن الملك « طيفموس الحاكم على بلاد كابل ، وعشرة آلاف بهلوان » . وحسن البصرى يفر به مجوسى ، وچانشاه يخرج للصيد والقنص فيتوه وهو يطارد غزالة ، ثم يتوه مرة أخرى فى سفرة بحرية إلى جزائر النسانيس والقروود ، وينتهى إلى مدينة اليهود . وهناك يفر به يهودى ويرسله إلى أعلى الجبل فى جلد دابة ، كما فعل المجوسى . ويصل چانشاه إلى قصر من قصور سليمان ، يلقى فيه شيخاً يسلمه مفاتيح المقاصير ، كما سلمت الفتاة لحسن مفاتيح قصر السحاب . ويقع چانشاه فى غرام الأميرة الطائرة ، وينحطها إلى بلاده حيث يخفى ثوبها الريش ، ولكنها تنبش عليه وتطير به أثناء نوم زوجها ، ثم توقظه وتطلب منه أن يبحث عنها فى قلعة « جوهرتكنين » ، وهى التى حولها صاحب القصة العربية إلى الوقواق .

وبينما يجد حسن من يده على طريق جزائر الوقواق ، يبحث چانشاه طويلاً ، وخلال مغامرات وخوارق ، عن سمع بقلعة « جوهرتكنين » . فإذا

استدل عليها سافر إليها بمعونة المردة والقفاريت . ولكنه بمجرد وصوله إلى القلعة يستقبله والدها الأميرة الطائفة أحسن استقبال ، ويعرف منهما أنهما عنفا ابنتهما كثيراً على الحرب من زوجها . ثم يعود إلى بلاده مع زوجته طاثرين فوق سرير من الذهب المرصع بالجوهر ، وحولهما حاشية قوامها ألف مارد .

وتتخلل قصة جانشاه مواقع حربية كثيرة . أما القصص العربي فقد كان أحسن سرداً ، وأكثر توفيقاً في اختيار أبطاله ، إذ أغناه اختيار بطله من فئة الصناع والتجار عن كل المواقع الحربية التي تثقل حكاية « جانشاه » وتشتت انتباه السامع ؛ كما أن تغيير قلعة « جوهرتكنين » بجزائر الوقواق ، ووصف زوجة حسن بأنها من أميرات جزائر النساء ، ركزت حوادث القصة العربية ، والصعوبات التي تعترض أبطالها ، في دخول الجزائر نفسها ، وانتزاع زوجته من بين أمة من الأمازونات تكره الرجال .

وبينا نرى جانشاه يتحرك طول القصة بين شيوخ وسحرة ، إذا حسن يتلقى جل المعونة على يد أخته ، ثم على يد نقيبة العساكر . ومع أن صاحب القصة العربية أبقى على بعض الشيوخ في قصته ، إلا أنه جعل بطله يتلقى مساعدات الشيوخ بفضل أخته ، وفي هذا ما يقرب الكاتب العربي من بسيكولوجية القصة الغرامية . فلا شك أن النساء أقرب إلى فهم غرام حسن ، والشعور بصباوته ، من كل الشيوخ الذين يلوذ بهم الأمير جانشاه . فروح قصة البصري مؤثثة رقيقة تلائم موضوعها كل الملاممة ، وغرام أبطالها جدير بغرام العشاق المعروفين في الأدب العربي أمثال مجنون ليلى ، وجميل بن معمر العذري ، وإن لم ينهج الكاتب في وصف غرام البصري سبيل الوصف

المباشر للواقع الهوى . إنما الحب في هذه القصة قوة ديناميكية مركزة ، محرّكة لحوادثها ، تدفع بالبصري نحو اقتحام الصعاب بحثاً وراء معشوقته .
وللقصة عيوب كثيرة مع هذا ، تجاوزنا عنها ولم نشر إليها ، أهمها الوقائع الخرافية المطولة ، خصوصاً ما يحدث منها في آخرها بين ملكة الوقواق وحسن البصري . ويظهر أن المؤلف العربي اضطر إليها حين لم يجد وسيلة يخلص بها البصري وزوجته من برائن الملكة الأمازونية .
وتكسب القصة كثيراً — كما تكسب أغلب قصص ألف ليلة — إذا بترت زوائدها ، وحُبِكَ سردها ، وأهملت أشعارها ، وأمكن تجنب التكرار فيها ، حتى تناسك عناصرها ، ويقوى أسلوبها . فهي شبيهة بمعادن طيب اختلطت به معادن غثة ، وتداخلت فيه أجسام غريبة ؛ فإذا أذيب وفصل عن حسكه وقذاه ومعادنه الغريبة ، أمكن سبكه سبكاً جديداً .

عبد الله البرى والبحرى

أوشكت السنة الثالثة على النهاية منذ قدمت ابنة الوزير نفسها زوجة
للسلطان شهر يار ، وقد دأب على قتل كل عروس صباح اليوم التالى للزواج ،
ومع ذلك فالسلطانة شهرزاد تواصل تسلية السلطان بأعجب القصص فى الشرق
والغرب . قصت عليه أغلب الحكايات المشهورة فى الكتاب الذى خلده
اسمها : السندباد البحرى ، وعلاء الدين ، والصاليك الثلاثة ، وقر الزمان ،
وحسن البصرى . لم يمتورها كلال فى الجسد ولا ضعف فى الروح ولا وهن
فى قوة الإبداع . ربما أعادت سرد بعض الحكايات ، ولو فى وضع آخر .
وكانها توقع تقاسيم موسيقية على أساس لحن الخوارق والأعاجيب . فروح
شهرزاد وقصصها من روح الموسيقى ، والإعادة تتخذ على لسانها طور
« اللاتيموتيف » . والسلطان مأخوذ بحلاوة تلك الموسيقى ، أو هذا القصص ؛
سافر محمولا على أحنحة صوتها الساحر فى بحار هادئة وبحار ثائرة ، وطرق
باب القصور العجيبة ، وشاهد الأرصاد النحاسية ، ورجالا مسخوفا صخوراً
أو طيوراً ؛ تلظى بنار العشاق ضرب بينهم الفراق ، وفرح بفرحهم عند
اللقاء ؛ أطربت أذنيه كل ضروب الموسيقى الوترية والغنائية ، وروحت عنه
رقصات الحور ، وبنات الجن ، وليالى السمر ؛ شهد الوقائع الدامية ، وعرف
« المناصف » البارعة ، ورحل إلى الجزائر البعيدة . ولقد عشنا كما عاش شهر يار
معلقين بأطراف لسان السلطانة الحلوة فى عالم مسحور خلقتة عبقرية امرأة .
أحقا لم يكن هذا القصص فناً للفن ولا أدبا للأدب ؟ بل كان استرحاما

للسلطان العموى ، وإبعاداً للسيف المصلت على أبدع جيد ؟ لقد قدمت الأميرة نفسها قربانا عن بنات جنسها ، عارفة بما ينتظرها . ولكنها قبل أن تتقدم تأملت في غريمها وغريم بنات جنسها وبجشت عن مواضع الضعف في نفسه ، فتبيتها في جهله بالطبيعة البشرية ، وقصار نظره ، وفي ذلك الغرور البالغ الذى اخترع له الذكور اسم الغيرة ، والذى لم يجد له السلطان علاجاً إلا بإغراقه في دم المذنب الأولى ، ودماء الأبرياء قبل أن يعطيهم الفرصة للمعصية أو للوفاء . فلتتقدم شهرزاد إذن إليه بصور من الضعف الإنسانى فى المرأة ، وبأكثر منها فى الرجال . لم تتوقع الأميرة أن يتقبل السلطان الغرور منها درساً أخلاقياً مباشراً ؛ إنما هى تغربه وتسترضيه بقصصها ، ولعلها بذلك تنجو من القصاص الظالم ، وتنقذ حياة الأبرياء . أ يكون كل هذا القصص حيلة للتخلص من قضاء السلطان الغشوم ؟ ربما ، وهو قليل إذا قيس بالحياة الغالية التى يبقى عليها ، حياة الأميرة شهرزاد .

فى الهزيع الأخير من الليلة الأربعين بعد التسعمائة تختم الأميرة الساسانية قصة من القصص ، كمعادتها فى أغلب الليالى ، ثم تبدأ قصة جديدة ، على نغمة هادئة مترددة كأنها ألحان مرتجلة : ” كان فى قديم الزمان صياد فقير اسمه عبد الله “ .

أ كاد أراه هذا الصياد المعدم عاد من صيده فارغ الجعبة ، ينتظره بالبيت تسعة عيال وأمه التى وضعت فى ذلك اليوم مولودها العاشر ، أراه فى عودته واقفاً بباب الخباز وسط الزحام ، وكان « وقت غلاء ولا يوجد عند الناس من المؤن إلا القليل » ، يرمى الأرغفة المتراسة بنظر زائف ، ويستعبر رائحة

« العيش السخن » تشتهيهِ نفسه . أكاد أراه ماثلاً أمامي هذا « الغلبان » خرج صباح اليوم يلقي الشبكة « على بخت المولود الجديد » فلا تعيد إلا رملا وحصى وحسكا . وهو يتساءل « كيف يخلق الله هذا المولود من غير رزق » وقد يما قالوا « من شق الأشداق ، تكفل لها بالأرزاق ، فالله تعالى كريم رزاق » . وإذا بالخباز يناديه ويسأله إن كان يطلب خبزاً ، ثم يلح عليه في أن يحمل منه ما يريد فهو صابر عليه حتى يأتيه الخير . ويرضى الصياد على شريطة أن يقدم شبكته رهناً ، فيرفض الخباز احتجاز الشبكة التي يقوم عليها أود الصياد ، ويعطيه خبزاً بعشرة أنصاف فضة ، ويقدم له عشرة أنصاف فضة « ليطبخ بها طبخة » على أن يجيئه بسمكه في الغد .

وفي اليوم التالي يتحقق في صيده كما أخفق في اليوم السابق ، فيخجل أن يقف بباب الخباز ، ويعجل بخطاه أمام دكانه . ولكن الخباز يناديه : يا صياد ، تعال خذ عيشك ومصروفك فقد نسيت . ودام الحال على هذا أربعين يوماً حتى سئم الصياد الحياة ، وود أن لم يكن الخبز في طريقه إلى البحر حتى لا يضطر إلى المرور بالخباز الكريم . ولكن زوجه تشجعه على المضي إلى البحر ، وتشكر الله الذي قيس لهم هذا المحسن .

يذهب الصياد في اليوم الأول بعد الأربعين وهو يدعو الله أن يرزقه « ولو بسمكة واحدة يهديها للخباز » ، وإذا بالشبكة متشابكة يسحبها في مشقة ، حتى إذا هي عادت إليه ، ألفاها تحمل . . . حاراً ميتاً ! وهرب من الرائحة الكريهة إلى ناحية أخرى من الشاطئ ، وتثاقلت عليه الشبكة أكثر من المرة السابقة ، حتى إذا ما جذبها إليه خرج منها رجل حسب الصياد

”عفريتاً ممن اعتاد سليمان أن يحبسهم في القمام يرمى بها إلى البحر“ . وصاح
الصيد : الأمان يا عفريت سليمان ! .

فيجيبه الرجل : تعال يا صياد ، لا تهرب مني فأنا إنسان مثلك .
خلصني لتثال أجرى .

يخلصه الصيد ويعلم من أمره أنه ليس عفريتاً من الجن . فيسأله عن
رماء في البحر ، ويجيبه بأن البحر مقره ومشواه ، فهو من « أولاد البحر »
وقع بالشبكة صدفة . وكان بوسعه أن يقطعها ليخلص نفسه ، لولا أنه « راض
بما قدره الله » . ويسأل الصيد أن يعتمقه « ابتغاء لمرضاة الله » .

ثم يتفق وإياه أن يجتمعا في ذلك الموضع كل يوم ، فيأتيه الصيد بفواكه
البر : ”وعندكم منها العنب والبطيخ والخوخ وغير ذلك“ ، ويأتيه هو
بمعادن البحر من لؤلؤ وسرجان . ويقرآن الفاتحة ، ويخلصه الصيد من الشبكة .
ثم يتفقا أن ينادى الصيد عليه من البر كلما أراد ، قائلاً : أين أنت
يا عبد الله يا بحرى ؟ فيلبي نداءه .

— والآن ما اسمك أيها الصيد ؟

— اسمي عبد الله .

— أنت إذن عبد الله البرى وأنا عبد الله البحرى . انتظر حتى آتى

لك بهدية . . .

ويختفي عبد الله البحرى في الماء هنيئة تبدو لعبد الله البرى دهرأ ،
ويتأسف على تركه هذا المخلوق يفلت من يده ، وكان في استطاعته أن يأخذه
إلى المدينة يعرضه في الأسواق ، ويدخل به بيوت الأكاابر .

ويعود عبد الله البحرى بالؤلؤ والمرجان ملء اليدين ، ويعتذر لأخيه
البرى عن عدم تمكنه من أن يحمل إليه أكثر من ذلك . ولو « أن عنده
مشنة للأهاله » ويتواعدان على اللقاء فى الأيام التالية .

وغدا عبد الله البرى رجلا واسع الثروة بفضل صداقته لسميه البحرى .
وقد أخفى سره إلا عن الخباز الذى أحسن إليه فى عصره ، وراح يقاسمه
الجواهر البحرية . ولكن الثروة المفاجئة توقف شكوك الناس ، وتنتهى به
إلى موقف الاتهام بسرقة حلى ابنة السلطان . ويقتاده الحرس بأمر شيخ
الجهورية إلى القصر . فتنكر الأميرة أن الجواهر لها وتقول بأن بعض اللآلى
أجل من كل ما فى عقودها . فيغضب السلطان وينهر شيخ الجهورية وأتباعه .
فإذا اعتذر الرجل بأن الصياد " كان فقيراً فاستكثرنا عليه هذا الغنى
المفاجئ " ، صاح السلطان فيه وفيمن حوله : " أتستكثرون النعمة على مؤمن ؟
اغربوا عني لا بارك الله فيكم ! " .

وسأل الصياد عن حقيقة أمره ، فسرد قصته . وهنا يطأطأ السلطان
الحكيم رأسه هنيهة ثم يرفعه قائلاً : " هذا نصيبك ؛ ولكن المال يحتاج
إلى الجاه ، وأنا أسندك بجاهى " . ثم يزوجه ابنته ، ويقيمه وزيراً ، ويحنو
على أطفاله العشرة . وتكون زوجة الصياد موضع تكريم السلطانة ، فتتم
عليها « وتجعلها وزيرة عندها » .

وغداة الزواج يطل السلطان فيرى وزيره وصهره عبد الله خارجاً من
القصر يحمل على رأسه « مشنة » ملأى بالفواكه ، فيناديه وينكر عليه
ذلك . ويدفع عبد الله عن نفسه بأنه لا يملك أن يخلف ميعاد صديقه البحرى ،

لأنه يتعرض لاتهامه بأن « إقبال الدنيا عليه ، قد ألهاه عنه » .
يحافظ عبد الله البرى على عهد صاحبه البحرى ، ويواصل قسمة الجواهر
بينه وبين صاحبه الخباز . ثم ينتهى إلى التحدث بشأنه مع الملك الذى يقول
له : أرسل إلى صاحبك الخباز ، وهاته لنجعله وزير ميسرة .

قد تنتهى القصة عند هذا ، فاستقرار الحال يؤذن بختامها . وعبد الله
يذهب كل يوم بسلة الفواكه يستبدلها بجواهر البحر ؛ وحين تخلو البساتين من
الفواكه يحمل لصاحبه الزبيب واللوز والبندق والجوز والتين ، ويدوم الحال
على ذلك عاماً . ولكن الأميرة شهر زاد أبرع من أن تقف عند هذا الحد ،
ومهما أن تثير شغف السلطان القدم باقتياده إلى غير ما ينتظر ، حتى تبعد عن
رأسها سيفه المصلت . وهى عند هذا القدر من القصة تعود إلى حديث عادى ،
وتصف له كيف دام الحال بين الصديقين ، وكيف كانا يجلسان على ساحل
البحر ، عبد الله البرى على الشاطئ ، وعبد الله البحرى مغموراً إلى نصفه فى
الماء ، يتحدثان فى شتات الأمور . وقد جرى الحديث بينهما مرة عن المقابر ...
وهنا يبادر عبد الله البحرى صاحبه قائلاً :

— يقولون يا أخى إن النبى مدفون عندكم فى البر ، فهل تعرف قبره ؟

— نعم ، فهو فى مدينة يقال لها طيبة .

— وهل يزوره أهل البر ؟

— نعم .

— هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة قبر النبى الكريم ، فمن زاره استوجب

شفاعته ؛ هل زرتَه أنت يا أخى ؟

— لا ، فقد كنت فقيراً لا أجد ما أنفقه فى الطريق ، حتى عرفتك .
والآن وجبت على زيارته بعد الحج إلى بيت الله الحرام ، وما معنى عن هذا
إلا محبتى لك .

— وهل تفضل محبتى على زيارة قبر رسول الله الذى يشفع لكم يوم
العرض على الله ؟

— إن زيارته والله مقدمة عندى على كل شيء ، وأطلب منك إجازة
أزوره هذا العام .

— أعطيك الإجازة بزيارته ، وإذا وقتت على قبره فاقربه منى السلام .
وعندى أمانة فادخل معى فى البحر حتى آخذك إلى مدينتى وأدخلك بيتى ،
وأهلك الأمانة لتضعها على قبر الرسول .

— يا أخى ، أنت خلقت فى الماء ، ومسكنك الماء فلا يضرك ؛ هل
إذا خرجت منه يصيبك ضرر ؟

— نعم ، يجف بدنى ، وتهب على نسائم البر فأموت .
— كذلك أنا ، خلقت فى البر ، ومستقرى البر ؛ فإذا غطست فى
البحر دخل الماء فى جوفى فأختنق وأموت .

— هوّن عليك ، فإنى آتيك بدهان تدهن به جسدك فلا يضرك
الماء ، حتى لو قضيت فيه بقية عمرك .

وعبد الله رجل كله إيمان واستكانة ، فهو راض بما قدر الله . ويحمل
عبد الله البحرى « المشنة » ويفوص فى البحر ، ثم يعود بها ملأى " شعما

كشحم البقر ، لونه أصفر كلون الذهب ، ورائحته زكية “ . ويخبر صاحبه بأنه شحم نوع من الأسماك يقال له الدندان ، أعظم أصناف السمك خلقه .

— وماذا يأكل هذا المشؤوم يا أخى ؟

— يأكل من دواب البحر ؛ أما سمعت المثل القائل : مثل سمك البحر

التقوى يأكل الضعيف ؟

— أخاف يا أخى إذا طوفت معك أن يصادفنى هذا الدندان فيأكلنى .

— هون عليك ، فإنه متى رآك عرف أنك ابن آدم فخاف منك وهرب

فالدندان أشد ما يكون خوفاً منكم لأن شحم ابن آدم سم قاتل له ، ويكفى أن يسمع صياح ابن آدم ليموت هلعاً .

” وتوكل عبد الله البرى على الله ، وخلع ملابسه ودفنها فى رمال

الشاطئ “ ، ثم دهن نفسه بشحم الدندان وغاص فى الماء . وفتح عينيه ومشى يميناً وشمالاً والماء لا يضايقه ، وجعل ينزل إلى القرار ثم يرتفع بكل سهولة “ .

واندفع عبد الله البحرى أمامه دليلاً له فى تلك الزهرة البحرية النادرة .

فرأى عن يمينه وشماله جبالا ، وشاهد أصنافاً عديدة من الأسماك ” البعض

كبير والبعض صغير ، منه ما يشبه الجاموس ، ومنه ما يشبه الكلاب ، وشئ

يشبه الآدميين “ . وكما دنا عبد الله البرى من نوع تهارب منه فيسأل صاحبه :

— يا أخى ، ما لى أرى كل هذه الأسماك تهرب منى ؟

— مخافة منك يا أخى ، فجميع ما خلق الله يخاف ابن آدم .

ووصلا إلى جبل شاهق الارتفاع ، فشى عبد الله البرى بجانب الجبل ،

وإذا بصيحة عظيمة اتجه إلى مصدرها بنظره فرأى شيئاً أسود منحدرأ

نحوه من الجبل ، وهو أكبر من القيل والجل ، وسمع صديقه البحرى ينادى عليه :
— دونك وهذا الدندان ، فهو متجه إلينا فى طلبى لياكلنى ، ازعق عليه !
وصاح عبد الله طائماً فرعاً ، فإذا بالدندان يقع ميتاً . فیتعجب عبد الله
البرى ويقول : ” سبحان الله ! لم أضربه بسيف ولا بسكين ، وهاهو على
ضخامة جسده لا يتحمل صيحتى “ .

ويدخل الصاحبان مدينة « بنات البحر » فيهتم عبد الله البرى بأمر كل
تلك الإناث لا ذكور لها ، ويتساءل عن علة اجتماعهن فى مدينة واحدة .
— إنهن منفيات فيها بأمر ملك البحر ، ولا يمكنهن الخروج منها
أو تلتهمهن دواب البحر .

— هل فى البحر غير هذه المدينة ؟

— كثير غيرها .

وجعل عبد الله البرى « يتفرج على عجائب البحر » ، وقد رأى لبنات
الماء ” وجوهاً كالآقمار ، وشعوراً كالنساء . ولهن أيد وأرجل نابتة فى
بطونهن ، وأذنان كأذنان السمك امتدت من مؤخرتهن “ ، والرجال كذلك
فما يتعلق بالأيدي والأرجل والذئب .

— يا أخى ، إني أرى الجميع مكشوفى العورة .

— لأن أهل البحر لا قماش عندهم .

وما زال عبد الله البحرى بصاحبه يدور به على المدن وأهلها فى أغوار
البحر ثمانين يوماً ، فيسأله عبد الله البرى :

— يا أخى ، هل بقيت فى البحر مدائن ؟

— لو فرجتك ألف عام ، كل عام على ألف مدينة ، وأطلعتك في كل مدينة على ألف أعجوبة ، لما أظهرتك على كل مدائن البحر ومعجائبه !
— يكفيني هذا ، فقد شمت أكل السمك وأنت لا تطعمني صباحاً ومساءً إلا سمكا طريا ، لا مطبوخاً ولا مشويا . أين مدينتك من هذه المدائن ؟
ويبلغان مدينة عبد الله البحرى ، فيقتاده إلى مغارة ويقول له :

— هذا بيتى ، وكل من أراد من أهل البحر أن يكون له بيت ذهب إلى الملك وعين له الموضع الذى اختاره لسكناه . فيرسل معه الملك طائفة من السمك تعرف بطائفة « النقارين » لأن لها مناقير تفتت الجلود .

وإذ يدخلون البيت تتقدم ابنة عبد الله البحرى وتبادر أباها بالسؤال وقد نال منها العجب أن ترى مخلوقاً لا ذنب له :

— يا أبى ! ما هذا الأزعر الذى جئت به ؟

— هذا صاحبى البرى يا بنيتى ، من كنت أحب لك من عنده بالفاكهة للبرية . تعالى سلمى عليه .

وتتقدم إليه الغادة وتسلم عليه ” بلسان فصيح وكلام بليغ “ ، وتتقدم له القرى سمكتين كبيرتين ، ” كل واحدة منهما مثل الحروف “ . فياً كل متبرماً بهذا السمك النىء . وتحضر امرأة عبد الله البحرى وهى ” جميلة الصورة ، ومعها ولدان ، كل ولد فى يده فرخ سمك يقرش فيه كما يقرش الإنسان فى الخیار “ . وما إن رأت عبد الله البرى حتى صاحت :

— أى شيء هذا الأزعر ؟

وتتقدم هى وولداها يطيلون النظر إلى مؤخرة عبد الله البرى ويقولون :

أى والله إنه لأزعر ، ويتضحكون طويلاً حتى ضاق ذرع عبد الله البرى بهذا الضحك والتفت إلى صاحبه وقال :

— يا أخى ، هل جئت بى إلى هنا لأكون سخرية زوجك وأولادك ؟
فيعتذر عبد الله البحرى عنهم مؤكداً لصاحبه أن المخلوق الذى لا ذنب له فى البحر نادر ، ” فلا تؤاخذ هذه المرأة وهؤلاء الصغار ، فعقولهم ، كما تعرف ، ناقصة “ .

وبينما هم فى الحديث يفد عليهم عشرة أشخاص كبار شداد ، ويقولون لعبد الله البحرى : لقد عرف الملك بأنك جئت بأزعر من زعر البر ، وهو يريد أن يراه حالا . ويأخذونه إلى الملك فيلتقاه ضاحكاً ويقول : مرحباً بالأزعر . وجعل من فى حضرة الملك يتضحكون مرددين : أى والله إنه لأزعر . ويقص عبد الله البحرى على الملك قصة صاحبه ، ثم يستأذنه فى أن يعود به إلى البر ” لأنه سمأ أكل السمك نيا ، ولا يحب أكله إلا مطبوخاً أو مشوياً “ . فيتبادل الملك مع بطانته نظرات التعجب والابتسام ، ويأذن للرجل البرى بالرحيل بعد أن يزوده بهدية عظيمة من الدر والمرجان .

ويعود عبد الله البحرى إلى مغارته حيث يسلمه الهدية التى يرجو أن يوصلها إلى قبر النبي ، ويصطحبه عائداً إلى البر .

وبينما هما فى طريقهما وسط الماء ، يلتفت عبد الله البرى إلى جماعة من أهل البحر يغنون ويرقصون حول سباط ممدود من السمك ، فيسأل عما إذا كان ذلك عرساً ، ويحييه عبد الله البحرى : إنما هو مأتم .

— أو إذا مات عندكم ميت تفرحون له ، وتغنون وتتأدبون ؟

— نعم ، وأنتم يا أهل البر ، ماذا تفعلون ؟
— نحن نحزن عليه ، ونبكي ، وتشق النسوة جيوبهن ، ويلطمن
ويندبن الميت .

وهنا يخلق عبد الله البحرى فى صاحبه هنية ، ويسترد أمانته فى شىء
من العنف . وعند وصولهما إلى البر يقول له :

— لقد قطعت صحبتك وودك ، فلن ترانى بعد اليوم

— لم هذا الكلام ؟

— أستم يا أهل الأرض أمانة الله ؟

— نعم .

— كيف يحزنكم أن يسترد الله أمانته ؟ وأنتم إذا أتاكم المولود وهو
أمانة الله تفرحون به ؟ كيف أحملك أمانة للنبي وأنتم تندبون وتولولون إذا
أخذ الله أمانة حملكم إياها إلى حين ! كلا ، لست أطمئن إليكم ، وما بى
حاجة إلى صحبتكم بعد اليوم يا أهل البر !

ويختفى عبد الله البحرى وسط الأمواج . ويعود عبد الله البرى إلى
صهره السلطان يقص عليه ما رأى من عجائب البحار .

وقد لبث زمناً طويلاً يذهب إلى الشاطئ ينادى على صاحبه : أين
أنت يا عبد الله يا بحرى ! ، فتردد الأوعار صدهاء . ولكن العباب أبى أن
يكشف له مرة أخرى عن سر سكان البحار .
واختفى عبد الله البحرى إلى الأبد .

كانت القصص التي سردناها قبل هذه القصة نماذج أولية prototypes لقصة البحرية . أما قصة عبد الله البرى والبحرى فهي القصة البحرية الكاملة . ولقد أشرت إلى إخفاق مؤلف قصة « بنت الملك السمندل » في الإيحاء بالوسط البحري ، مع أن قصته تجري أغلب حوادثها في قاع البحر أما هنا فقد نجح المؤلف تمام النجاح في هذا الإيحاء . فالبحر هو المنصر الغلاب في القصة من أول لحظة ؛ تكاد تتشقق نسجته بحجاب عبد الله البرى وهو يلقي شباكه فتخرج له الحصى والحسك ، وتشاهد بريق الماء في ضوء الشمس الساطعة على جسم عبد الله البحري .

وحين يفوص الصاحبان في البحر تكتمل الصورة ، كأن مؤلفها غاص في الماء بنفسه . لأن من الصعب أن أتصور مؤلفاً لم يغطس تحت سطح ماء البحر يستطيع أن يقول عن عبد الله البرى أول ما غاص في الماء وفتح عينيه : ” ورأى ماء البحر نجياً عليه مثل الخيمة “ . ثم وصف الوهاد والجبال والكهوف تحت سطح البحر ، ولم أر ما يشبه هذا الوصف إلا في كتاب العالم الأمريكى وايم بيبى W. Beebe « نصف ميل تحت سطح البحر » يصف ما رآه سنة ١٩٣٠ حين هبط في كرة معدنية ذات نافذة إلى نيف وتسعمائة متراً من عمق البحر . ولقد ورد في تاريخ كلستينس المزعوم Pseudo-Callisthenes أن الإسكندر نزل في بيت من الزجاج إلى قاع بحر الظلمات ، وجعل يتأمل بدائع الخالق أمام بيته الزجاجي ، فيعبر به تنين يستغرق مروره يوماً وليلة ، ثم تنين آخر يستغرق مروره يومين وليلتين ، ويأمر الملاك تنيناً ثالثاً أن يمر أمام الإسكندر بسرعة البرق ، فيستغرق مروره ثلاثة ليال وثلاثة أيام . أما

المسعودى ، فيقيم علاقة بين هذه الحكاية وبناء مدينة الإسكندرية . حينما كانت تخرج فى الليل دواب من البحر فتأتى على البنيان . وهى صيغة أخرى من أسطورة إنشاء الإسكندرية كما وردت فى « مختصر العجائب » ، عن الراعى والوليد العالقي ، والجنينة بنت الماء ، التى علمت الراعى كيف يصنع الطلاس [انظر صفحة ١٢٩] . قال المسعودى فى « مروج الذهب » :
« فسنتت للإسكندر الحيلة فى ليلة عند خلوه بنفسه وإيراده الأمور وإصدارها . فلما أن أصبح دعا بالصناع فأتخذوا له تابوتا من الخشب طوله عشرة أذرع فى عرض خمسة . وجعل فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باستدارته ، وقد أمسك ذلك بالقار والزفت وغيره من الأطلية الدافعة للماء حذراً من دخوله إلى التابوت . وقد وضع فيه مواضع للحبال . ودخل الإسكندر التابوت هو ورجلان من كتابه ممن لهما علم بإتقان التصوير وأمر أن تسد عليه الأبواب وتطلى بما ذكرنا من الأطلية . وأمر فأتى بمركبين عظيمين فأخرجا إلى لجة البحر ، وعلق على التابوت من أسفله مثقلات الرصاص والحديد والأحجار لتهوى بالتابوت سفلا ، إذ كان من شأنه لما فيه من الهواء أن يطفو ولا يرسب فى أسفله . وجعل التابوت بين المركبين فألصقهما بخشب بينهما لئلا يفترقا ، وشد حبال التابوت إلى المركبين . وطول حباله فخاص التابوت حتى انتهى إلى قرار البحر ، فنظروا إلى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف فى صفاء ماء البحر ، فإذا بصور شياطين على مثال الناس ورؤوسهم على مثال رؤوس السباع ، وفى أيدي بعضهم المناشير والمقارع ، يحكون بذلك صناع المدينة والقلة وما فى أيديهم من آلات البناء .

فأثبت الإسكندر ومن معه تلك الصور ، وحكوها بالتصوير من القراطيس على اختلاف أنواعها وتشويه [تسوية ؟] خلقها ، وقدودها وأشكالها . ثم حرك الحبال فلما أحس بذلك من في المركبين دفعوا التابوت .“

وإذا كانت حكاية كلستينس المزعوم والمسمودى قيدت ذا القرنين في بيت زجاجي ، فقد أطلق المؤلف العربي بطله يطوف في البحر كيفما شاء بفضل دهان الدندان ، ويشهد غرائبها كما طالعها المؤلف أو سمع بها في كتب الجغرافيا والمعجائب . فالأسماء التي تشبه الجاموس والبقر والكلاب والآدميين يتوارد ذكرها في تلك الكتب . وما زالت جميع اللغات تسمى أحياء البحر بأسماء الحيوانات والنباتات الأرضية ، بل والأجرام السماوية . معتمدة في هذه التسمية على التشابه القريب أو البعيد : سباع البحر ، ونجوم البحر ، وزهور البحر الخ . ويغلب أن يكون الدندان هو البال . أما إنه يخاف صياح ابن آدم فالمؤلف هنا واضح التأثير بما سمع به من أن البحريين يضربون بالنواقيس والأخشاب ، ويتصايحون لإبعاد هذه الدابة عن المراكب . ولست أعرف لكلمة الدندان أصلاً إلا في كلمة أوردتها الإدريسي اسماً للبال وهي « السان » وردت في المخطوط غير منقوطة ولا مشكولة . وسمعت أحد شيوخ الصيادين بالسويس يسمى دابة العنبر « البتّان » . ولعلها الكلمة نفسها التي وردت في جغرافية الإدريسي ، وربما حرفت في مخطوطات قصة عبد الله البري والبحري فصارت « الدندان » .

بيد أن ما يعنينا هنا أكثر من البحث عن مصادر القصة ، وهي واضحة كل الوضوح بعد كل ما ذكرناه من الأساطير البحرية ، هو التوفيق الفني

في الإيماء بالوسط البحري ، فهذا كاف وحده ليجعل من قصة « عبد الله البري وعبد الله البحري » عملاً أدبيًا فذا في اللغة العربية . ولم يعمد الكاتب إلى الأسلوب الشعري توسلاً لهذا الإيماء . فهو يكتب بأسلوب سهل ، ويتدرج من عالم الواقع حيث الصياد كثير العيال يكدح لقوته وقوتهم ، إلى عالم بين الواقع والخيال حين يقع عبد الله البحري في شباك الصياد ، إلى عالم كله خيال إذ ينزل الصاحبان إلى أغوار البحر ، يتجولان في أرجائه ، دون أن يغير المؤلف في أسلوبه ، كأن الأمر عادي ، وكأن الصاحبين غادرا البصرة أو سيراف إلى سفالة الزنج ، أو سواحل الملبّبار . ودخل عبد الله البري منزل صاحبه البحري فعرض له منظر عائلي كله أنس وبهجة . فهذه أسيرة عبد الله البحري تتندر بالضيف الأزعر . ويدخل ولداه ” وفي يد كل ولد فرخ سمك يقرش فيه كما يقرش الإنسان في الخيار “ .

ومع كل هذا ترتفع القصة لا إلى المستوى الفني العالي فحسب ، بل إلى ما يجعل منها قصة من أقدم القصص الرمزية في آداب العالم . وذلك حين تكشف لنا في ثناياها عن فلسفة دينية عميقة ؛ فليست قصة عبد الله مجرد حكاية بحرية حسنة السرد ، إنما هي صورة للإيمان والاستسلام كأساس فلسفي للحياة ، إنها أصدق صورة لتلك الفلسفة الشرقية القديمة التي يسلم فيها المخلوق نفسه ليد الخالق ، لا يناقش إرادته ولا يسأله رد القضاء . وإذا كنت أخفيت هذه الناحية في سرد القصة فلأرّكز العناية بها في هذا التعقيب ، وأنا أصدر فيه لا عن خيال ، بل عن النص الأصلي للقصة في الجزء الرابع من كتاب ألف ليلة طبع القاهرة .

فهذا رجل معدم كثير العيال تقول القصة بأنه لا يملك إلا شبكته يروح بها كل يوم إلى البحر، فإن اصطاد قليلا باعه وأنفق على أولاده بقدر ما رزقه الله، وإن اصطاد كثيراً "طبخ طبخة" واشترى فاكهة، وما زال يصرف حتى يأتي على آخر ما معه وهو قائل في نفسه: "رزق غد يأتي غداً". ويوم تضع زوجته مولودها العاشر يخرج "على بركة الله تعالى إلى البحر ليرمي شبكته على بخت المولود الجديد"، فتقول امرأته: "توكل على الله". يمارس هذا الرجل الفقير وامراته فضيلة من الفضائل الدينية بإيمان كامل؛ ولكن التجربة في الولد العاشر كانت شديدة الوقر على الصياد، فقد مضى عليه أربعون يوماً لا يجد في شبكته رزقا.

وتكون القصة قد انتقلت إلى طبقة اجتماعية أرق قليلا من طبقة الصياد، لتقدم لنا مثلاً جديداً من أمثلة الطيبة والورع في صاحب الخبز الذي يتكفل بأود الصياد وأسرته أربعين يوماً — وأكثر إذا لزم الأمر — دون تملل بل وفي لباقة مؤثرة إذ يؤكد للصياد بأنه لا يعطيه إحساناً، وإنما هو محاسبه يوماً على ما قدم من خبز وأنصاف فضة، ولكن "عندما يأتيه الخير" لا قبل ذلك، "فالله كريم".

وحينما يشكو الصياد لامراته أمره مع الخباز تقول له: "الحمد لله الذي عطف قلبه عليك. هل آذاك بكلام؟"، فيجيبها: "كلا، وهو يقول لي دائماً: انتظر حتى يأتيك الخير. وأنا أسألك، متى يجيء الخير الذي نرتجيه؟"، فترد الزوجة: "الله كريم"، ولا يتردد زوجها في القول: "صدقت" ويحمل شبكته إلى البحر في اليوم الأول بعد الأربعين.

فإذا بها تصيد حماراً ميتاً "منفوخاً ورأى تحت كربيته" فيقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"، ثم يكاد إيمانه يتزعزع، وهو يخاطب نفسه: "قد عجزت وأنا أقول لهذه المرأة ما بقى لى رزق فى البحر، دعينى أترك هذه الصنعة، وهى تقول: «الله كريم سيأتيك بالخير»، فهل هذا الحمار الميت هو الخير؟". كلا، لم يكن الحمار الميت هو الخير، ولكنه كان بشيراً بالخير، كل الخير، فقد صادت الشبكة صديقه البحرى يبادلها كفة البر بجواهر البحر. وبقينى أن صاحب القصة لم يختار اسم عبد الله اعتباطاً، وهذا الاسم يعزز ما أنا بسبيله من أن القصة يحركها روح دينى، ويسرى فى أعطافها إيمان عميق. فلم يختص عبد الله البرى وعبد الله البحرى بذلك الاسم، لأن السلطان يسأل صهره الصياد عن يكون صديقه الخباز، فيجيبه: "اسمه عبد الله الخباز، واسمى عبد الله البرى، وصاحبى عبد الله البحرى" فيقول السلطان: "وأنا أيضاً اسمى عبد الله، وعبيد الله كلهم إخوان". هل عرف صاحب القصة بما ورد فى الأثر: "خير الأسماء ما عبّد وُحِّد"؟

وهنا نحن أولاء نرى شخصاً آخر من أشخاص القصة — وليس من الطبقة العاملة كالصياد، ولا من البورجوازية كتاجر الخبز، بل هو السلطان نفسه — مفعماً إيماناً وثقة بالله. فهو قائل لشيخ الجوهريّة، ولمن جاءوا يتهمون الصياد بالسرقة: "يا قبحاء! أتستكثرون النعمة على مؤمن؟ لماذا لم تسألوه أولاً؟ ربحوا رزقه الله من حيث لا يحتسب. اخرجوا لا يبارك الله فيكم". ثم هو القائل بعد سماع قصة الصياد: "يا رجل، هذا نعيبك؛ ولكن المال يحتاج إلى جاء، فأنا أسندك بجاهى". "ويزوجه الأميرة ابنته. فما هو

اسم هذه الأميرة يا ترى ؟ اسمها «أم السعود» ، السعود الذى يلمع فى طالع اللؤلؤ من القانت . لو أن كاتباً رمزياً كتب قصة الإيمان والتوكل لما اختار للأميرة اسماً أفضل من هذا .

يسأل عبد الله البحرى صاحبه عن قبر النبي ثم يقول : ” هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة النبي الكريم “ ، ويدعو عبد الله البرى أن يفرس بصحبته فى أغوار البحر ليحمله هدية يضعها على قبر النبي . وتتجه القصة بعد ذلك أنجهاً فلسفياً واضحاً لمن يطالع بين السطور . فهذا البحر مظهر من مظاهر الكون تتضاءل حياله الأرض التى نعرفها . وكان نزول ذى القرنين إليه صورة من صور العبادة . وها هو ذا الدندان أكبر أحيائه طراً يا كل من دواب البحر ” أما سمعت المثل القائل : مثل سمك البحر ، القوى يأكل الضعيف “ ، حكمة الخالق يصدع بها المخلوق .

ويؤكد عبد الله البحرى أن الدندان يموت لساعته إذا أكل ابن آدم ، بل إن صيحة الإنسان وحدها قاضية عليه ، وكأن المؤلف يقول : تأمل ما تميز به الإنسان الضعيف بجسمه ، القوى بعقله ، يتغلب به على كافة المخلوقات . وهذا عبد الله البرى يسبح فى أمواه البحر فيرى جميع أحيائه تهرب منه ، فإذا سأل صاحبه عن هذا أجابه : ” مخافة منك ، لأن جميع ما خلقه الله يخاف ابن آدم “ .

ومع أن المؤلف واضح التمييز لابن آدم على سائر المخلوقات ، فإنه لا يتركه حتى يلقي عليه درساً دينياً كبير المعنى ، على لسان المخلوقات البحرية الشبيهة بالإنسان . وذلك حين يغضب عبد الله البحرى إذ يسمع بأن ابن آدم يبكى

موتاه ، وهم في البحر يفرحون إذا ما استرد الله أمانته ، أى « الروح التي أودعها الجسد » .

لم يأت صاحب القصة بهذه الحادثة من خياله ، وأرجح كل الترجيح أنه تأثر بحديث عن ابن عباس قال فيه :

” بأقصى المشرق مدينة اسمها جَابُرْس [جَابُرْسَا] أهلها من ولد نوح ، وبأقصى المغرب مدينة اسمها جَابُلُق أهلها من ولد عاد ؛ ففى كل واحدة بقايا من الأمتين . يقول اليهود إن أولاد موسى عليه السلام هربوا فى حرب بخت نصر فسيرهم الله تعالى وأنزلهم بمجارس ، وهم سكان ذلك الموضع ، لا يصل إليهم أحد ، ولا يحصى عددهم . ولقد قال النبي لجبرائيل عليه السلام فى ليلة أسرى به : إني أحب أن أرى القوم الذين قال الله تعالى فيهم « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » . فقال جبرائيل : بينك وبينهم مسيرة ست سنين ذاهباً وست سنين راجعاً ، وبينك وبينهم نهر من رمل يجرى كجرى السهم لا يقف إلا يوم السبت . ولكن سل ربك . فدعا النبي ، وأمن جبريل ، فأوحى الله إلى جبرائيل أن أجيئه إلى ما سأل . فركب البراق وخطا خطوات فإذا هو بين أظهر القوم ، فسلم عليهم فسألوه : من أنت ؟ فقال : أنا النبي الأتم . فقالوا : نعم ، أنت الذى بشر بك موسى ، وإن أمتك لولا ذنوبها لصاغت الملائكة . قال رسول الله : رأيت قبورهم على باب دورهم فقلت لهم لم ذاك ؟ قالوا : لنذكر الموت صباحاً ومساءً ، وإن لم نفعل ذلك ما نذكر إلا وقتاً بعد وقت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالى أرى بنيانكم مستويا ؟ قالوا لئلا يشرف بعضنا على بعض ، ولئلا يفسد

بعضنا الهواء عن بعض . فقال صلى الله عليه وسلم : مالى لا أرى فيكم سلطاناً ولا قاضياً ؟ فقالوا : أنصف بعضنا بعضاً ، وأعطينا الحق من أنفسنا ، فلم نحتاج إلى أحد ينصف بيننا . فقال صلى الله عليه وسلم : مالا سواكم خالية ؟ فقالوا : نزرع جميعاً ، ونحصد جميعاً ، فياخذ كل منا ما يكون ويدع الباقي لأخيه . فقال صلى الله عليه وسلم : مالى أرى القوم يضحكون ؟ قالوا : مات لهم ميت . قال . ولم يضحكون ؟ قالوا : سروراً بأنه قبض على التوحيد . قال صلى الله عليه وسلم : وما هؤلاء يبكون ؟ قالوا : ولد لهم مولود ، وهم لا يدرون على أى دين يقبض“

لا سراة إذن فى أن قصة «عبد الله البرى وعبد الله البحرى» ، وهى القصة البحرية الكاملة ، تختلج من أولها إلى آخرها بروح دينى عميق ، هو روح استكانة المخلوق للخالق ، واعتباره الخضوع لأحكامه صورة مثلى للإيمان .

رحلات السندباد البحري

قصة السندباد هي القصة البحرية الكبرى في الأدب العربي ؛ وهي فوق هذا واحدة من أهم قصص البحار في آداب العالم . ولولم يحتو كتاب ألف ليلة على قصة عبد الله البري والبحري لكانت قصة السندباد هي القصة البحرية الكاملة الوحيدة في اللغة العربية . بيد أن البحر في قصة عبد الله كان وسيلة إلى غاية العرض الفلسفي ؛ أما البحر في قصة السندباد فهو الغاية التي تنتهي إليها القصة . البحر هو مثلها الأول [البروتاجونست] أو أنها حوار بين اثنين : البحر والسندباد . حوار يتطور من الهدوء إلى العنف ، ومن تبادل الود إلى تداول اللكمات ، والمناجزة والصراع . لن نحاول أن نستخرج عبرة أو فلسفة من ثنايا القصة ، إلا أن تكون عبرة المقابلة بين السندباد البحري وبين السندباد البري [أو الهندباد كما يسمى في بعض مخطوطات القصة] . فالسندباد البري رجل حمال فقير عاش في زمن هرون الرشيد ولم يغادر بغداد . بينما السندباد البحري « من أولاد الذوات وأكابر الناس » أضاع ثروة أبيه ، ثم خرج يطوف في البحار حتى توفرت له أسباب الثراء والنعمة . وقد بدأ المؤلف قصته بالجمع بين الرجلين في ظروف تكشف عن غرضه الفني في هذه المقابلة ، قالت شهرزاد :

” بلغني أيها الملك السعيد أنه كان في زمن الخليفة هارون الرشيد بمدينة بغداد رجل يقال له السندباد الجمال “ ، تعب من أحواله ذات يوم شديد الحر ، فالتقى بها إلى مصطبة عريضة بباب بيت عظيم ” أمامه كنس ورش ، وهواء

معتدل“. وما إن استقر به المقام ، وهب عليه عبير رائق منعش ، حتى سمع في البيت نغم أوتار وأصوات مطربة ، وتغريد طيور تناغى ، من قمارى وهزار وشحارير وبلابل وفاخت وكروان . فتقدم ينظر إلى داخل البيت فوجد بستانا عظيما ، وفيه خدم وحشم ، وشيء لا يوجد إلا عند الملوك والسلاطين . ثم استروح رائحة أطعمة شهية ، وأشربة طيبة ، فرفع طرفه إلى السماء وقال : ” سبحانك يارب ، يا خالق يارزاق ، ترزق من تشاء بغير حساب . اللهم أستغفرك من جميع الذنوب ، وأتوب إليك من العيوب . لا أعترض عليك في حكمك وقدرتك ، فإنك لا تسأل عما تفعل ، وأنت على كل شيء قدير . سبحانك تغنى من تشاء ، وتفقر من تشاء ، وتغنى من تشاء ، وتذل من تشاء . أنعمت على صاحب هذا المكان بنعمائك ، فهو سعيد في عيشه بلا عناء . وتركتنى أشقى وأنوء بأحمالي في حمارة القيظ أليف الشقاء . شتان ما بينى وبين صاحب هذا الدار ، وكلنا عبيدك . لا إله إلا أنت ما أعظم شأنك ، وأقوى سلطانك“. وإذ هو بهم بأحماله ليواصل سيره ، جاءه رسول من قبل صاحب الدار يدعوهم إليه . فرأى مجلساً عظيماً فيه ” من السادات الكرام ، والموالى العظام ، وفيه من جميع أصناف الزهر كافة أنواع المسموم ، والنقل والفواكه ، وشيء كثير من الطعام وأطيب بنت الكروم ، وفيه من آلات الطرب ، والجوارى والحسان . والكل فى مكانه من المجلس الذى يتصدره رجل عظيم محترم ، وكزه الشيب فى عارضيه ، مليح الصورة ، حسن المنظر ، عليه هيبة ووقار ، وعز وافتخار“ .

يكرم العظيم وفادة الجمال ، ويسأله عن اسمه وصناعته . فإذا عرف بأن

اسمه السندباد ابتسم وقال :

اعلم يا حال أن اسمك مثل اسمي ، فأنا السندباد البحري . وأرجو أن لا أثقل عليك إذ سألتك أن تردد شكواك التي كنت تبثها إلى الله بياي . فحجل الحمال وقال : بالله عليك لا تؤاخذني ، فالتعب والشدة ، وقلة ما في اليد تعلم الإنسان السفه وقلة الأدب . فأجابه السندباد البحري :

لا يأخذتك الحياء ، فلست ألوّمك على شكواك . بل أنا أرثى لك وبنفسي أن أصطفيك خلا . إنما أردت أن أصحح من شعورك نحوى ، وأعدل من حكمك على . فلم أصب كل هذه الثروة إلا بعد جهاد شاب له فوداي ، ونصب نال من روحي وجسدي كل منال ، على مضي السنين والأعوام .

والتفت إلى من في المجلس واستطرد : أجل ياسادتي ، لم تتدأقط على الثروة منا من السماء . وإن ما قاسيت من تعب ومشاق في حياة المخاطر التي عشتها ، لتحذو بأشد الناس حرصاً على جمع المال وجرياً وراء الغنى ، أن يتجنب ركوب البحار حتى لا يعانى الأهوال التي عانيت . واقد ترمى إليكم ولاشك بعض خبري ، وسمعت طرفاً من مغامراتي البحرية ، والمصائب التي حافت بي في رحلاتي السبع . وما دامت الفرصة التي أتاحها لنا أخى السندباد البري قد سنحت ، فأني أحدثكم بحديثي ، لعلمكم واجدون فيه بعض التسلية .

بهذا يقدم لنا صاحب القصة بطله . بالمقابلة بين الرجل القابع في داره ، القانع بالكفاف ، وبين الرجل بعيد المهمة ، متوثب الروح . لا يستنم لمصيبة ولا ينحضع لصروف الحداث .

وهذه المقابلة يمكن أن تكون أيضاً بين قصة عبد الله وقصة السندباد .

قصة عبد الله البري كانت قصة الاستكانة والإيمان بقضاء الله ، وقصة السندباد البحري قصة العزم والجهاد ، ومجالدة الأحداث ، ومحاولة التغلب عليها . قصة عبد الله هي قصة الرجل الخامل الساذج تحمله الأقدار إلى مراتب العز ، وتتهيأ له دون عناء أسباب الثروة والجاه ، لا فضل له في كل هذا غير حسن إيمانه ، وقوة اتكاله . وحكاية السندباد هي قصة جميع الرحالين المستكشفين ، أولئك الذين يتركون السبيل المطروق السوي إلى المسالك الوعرة المجهولة رغبة في المعرفة وتحقيقاً لأحلام نفوسهم الغلابة .

خرج السندباد من المراهقة إلى الشباب يتيماً ورث عن أبيه ثروة طائلة . فأنكب على الملذات ، وأضاع أغلب ثروته فيما يضيع فيه مال أهل الفراغ والجدوة . ثم لم تهدأ نفسه العاصرة إلى هذه الحياة الفارغة ، وقد مل توالي الأيام والليالي على وتيرة واحدة . ولم تك أمامه وسيلة للتغيير غير بيع ما تبقى من عقاره وأملكه ، وشراء بضاعة والسفر بها إلى البصرة ، حيث استقل مركباً مع جماعة من التجار . فساروا في البحر أياماً وليالي ، وصروا بالجزيرة بعد الجزيرة ، وعبروا من بر إلى بر ، يبيعون ويشترون ويقايضون .

وليس فيما فعل السندباد موضع للغرابة ، فهو إما عرف البصرة غلاماً سافر إليها بصحبة أبيه ، واجتمع فيها بالتجار والبحريين ، واستمع إلى حكاياتهم العجيبة ؛ أو أنه التقى بهم على ضفاف الدجلة ، بحكم الصلة بين والده وبينهم . وقد أشرنا في الكتاب الأول إلى ما حدث به أبو زيد حسن السيرافي عن المدعو ابن وهب ، من نسل هُبَّار بن الأسود القرشي ، وكيف غادر البصرة إلى سيراف في سنة ٨٧٠ م ، حينما خربها الزنج ، وسافر من سيراف إلى الصين .

ولم يكن أول من ذهب إليها من العرب ، ولكنه كان من القلائل الذين توغلوا في داخلها ، وجاهد حتى وصل إلى ملكها الملقب بالبغبور .
وذكر الإصطخرى في كتابه « المسالك والممالك » أن من بين سكان سيراف وسواحل بحر فارس من يجوبون البحار ، فربما غاب أحدهم عامة عمره في البحر . وبلغه أن رجلا من سيراف ألف البحر حتى ذكر أنه لم يخرج من السفينة نحو أربعين سنة . وكان إذا قارب البر أخرج صاحبه بقضاء حوائجه في كل مدينة . وكان يتحول من سفينة إلى أخرى إذا انكسرت وتشعث فاحتاج إلى إصلاحها .

ونحن لا نتخيل للسندباد رغبات لم تقم في نفسه ، حينما نتكلم عن نزوعه إلى الأسفار . فلو أن الرجل سافر للكسب وحده لا كتنفي بما أصابه منه في الرحلة الأولى ، خصوصا بعد أن قامى ما قاساه . ولكن الرجل نسي بعد تلك الرحلة أهواله وتحرق للسفر ، بل هو ينسى عقب كل سفرة مصائبه ليعود إلى الرحيل . وإنا لنسمع منه وهو يسرد أخبار رحلاته أمثال هذه الجمل قبل كل رحلة : ” واشتأقت نفسي للتجارة والتفرج في البلدان والجزائر ” . أو ” وتشوقت إلى السفر والفرجة والفوائد ” ، ” فحدثتني نفسي الخبيثة بالسفر إلى بلاد الناس ، واشتقت إلى مصاحبة الأجناس ” . بل هو يبدأ حكاية رحلته السادسة بهذه الجملة التي تبدد كل شك في نزعته الغلابة : ” وبينما أنا جالس ، وإذا بجماعة من التجار وردوا عليّ ، وعليهم آثار السفر . فعند ذلك تذكرت أيام قدومي من السفر ، وفرحي بلقاء أهلي وأحبابي ، وسروري بدخول بلادى ؛ فاشتأقت نفسي إلى السفر والتجارة ” . فهي رغبة مستحكمة ، ونفس

أتمارة ، ولذة نادرة ينسى في سبيلها المشاق والأهوال ، ويعود إليها كما يعود المدمن إلى خمره أو أفيونه . فإذا قال بعد آخر رحلاته بأنه ” تاب إلى الله من السفر في البر والبحر ، بعد هذه السفرة التي هي غاية السفرات وقاطعة الشهوات “ فهو إيدان بأن روح الشباب المتوثب فيه قد خبا . ولقد حدثنا بأن رحلته السابعة استغرقت وحدها سبعة وعشرين عاما ، ونرجح أن مجموع غيابه في كل أسفاره كان ذلك القدر . وكانت غيبة عبد الله بن بطوطة عن طنجة أربعة وعشرين عاما . فإذا حسبنا للسندباد فترات إقامته في بغداد ما بين عام وعامين ، وقدرنا أنه بدأ رحلاته في سن العشرين ، يكون انصرافه عن السفر في العقد السادس من عمره ، وقد وصفه السندباد البري بأنه ” رجل عظيم محترم وكزه الشيب في عارضيه “ .

إن نحاول إذن في هذه القصة أن نستخرج درساً غير الدرس الذي ذكرنا ، ونكتفي بسرد رحلات السندباد والتعقيب عليها ، فنختم كتابنا بقصة طبقت شهرتها الخافقين ، هي خلاصة المعارف البحرية الجغرافية عن البحر الشرقي الكبير فيما قبل عصور الاستكشافات الأقيانوسية في مبدأ القرن الخامس عشر ، كما أنها واحدة من روائع الأدب الخيالي في الشرق والغرب .

الرحلة الأولى

الجزيرة المتحركة والخيول البحرية

حينما أحس السندباد بأن ثروته على وشك الضياع تذكر ما رواه أبوه عن سليمان الحكيم: "ثلاثة خير من ثلاثة ، المات خير من الولادة ، وكلب حي خير من أسد ميت ، والقبر خير من الفقر". فسارع إلى ما بقي له من متاع وعقار وباعه بمبلغ ثلاثة آلاف ذهباً ، وانحدر إلى البصرة برفقة تجار ، وركب السفينة إلى "البحر الشرقى الكبير ، وطوله من القزم إلى الوقواق أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخاً". وكان أول إحساس له أن "تغير مزاجه قليلاً من الموج والاضطراب" ثم اعتدل ، أو "جلس مزاجه" كما يقول . وساروا من بر إلى بر ، ومن جزيرة إلى جزيرة ، يبيعون ويشتررون ويقايضون حتى أشرفوا على جزيرة لطيفة منبسطة ، أرضها كالريحان الأخضر . فطوى الرئيس الشراع ورمى بالأناجر . ونزل الركب إلى الجزيرة فانتشروا فوق بساطها يستريحون ويأكلون ويشربون . وإذا أرض الجزيرة تميد بهم وتضطرب ، والربان ينادى بالناس أن يعجلوا بالرجوع إلى المركب أو يهلكوا ، فليست هذه جزيرة ، وإنما هي حوت كبير يستريح فوق الماء . فلحق بالمركب من لحق ، سباحة أو فى الزوارق ، وأقلعت السفينة وقد غاصت "الجزيرة" ، والسندباد متشبث ببعض الأخشاب مما جاء بها السفار إلى البر لفصل ملابسهم . وبقى معلقاً يومه وليلته يقذفه العباب من جهة إلى جهة حتى رأى الموت بعينه ألواناً . ورمت به الأمواج إلى بر منخفض تتدلى فوقه شجرة غريبة تعلق بها ، وتحامل حتى بعد عن مرمى البحر ، وانطرح

على الرمال أقرب إلى اللمت منه إلى الحياة . وظل مطروحا حتى صباح اليوم
التالى ، ثم قام يسى فى أنحاء الأرض التى هو عليها ، وكانت جزيرة . تارة
يمشى وتارة يستريح ، يتقوت من أوراق الشجر وحشيش الأرض حتى وود
عين ماء فشرب منها ، وبدأ يسترد روعه وقواه . واصل سيره على غير هدى
حتى خرج من أجمة إلى سهل منبسط رأى فيه عن بعد فرسا مربوطا فاتجه
إليه بين الأمل والرغبة . وإذا رجل يصرخ عليه من سرب تحت الأرض ،
ثم خرج إليه واقتاده عاجلاً إلى السرب وقدم له بعض القوت ، وسأله عن
حاله وطيب خاطره . ورأى السندباد جماعة فى السرب علم منهم أنهم ساسة
خيال الملك الملقب بالمهراج صاحب الجزيرة ، وأنهم يقدون إليها فى موسم معلوم
ومعهم حجرات المهراج يربطونها متفرقة فى السهل المنبسط . فيخرج إلى
كل منها حصان من البحر ينزو عليها ، ثم يحاول اقتيادها فيخرجون عليه
صارخين يضربون بالأخشاب والنواقيس فيهرب إلى البحر . ويقتادون الأفراس
إلى حاضرة الملك ، حيث تلد أمهارة نادرة يعنى المهراج بتربيتها عناية كبرى .
وبينما هم فى الكلام يسمعون صهلا عاليا ، ويخرج من البحر حصان
يلو الحجرة ، ثم يهجم بقتلها حين لا يجد وسيلة لاقتيادها ، فيخرج الساسة
من الأسراب فى جلبة عظيمة يهرب منها الفرس عائداً إلى مقره فى البحر .
واجتمع الساسة جماعة كثيرة مع كل منهم حجرة . وسافروا إلى مدينة
المهراج ومعهم السندباد ليقدموه إلى ملكهم . فرحب به وأمر له بكساء
وقرى ومنزل . ثم عينه عاملا على الميناء وكاتبا على المراكب . وكان السندباد
يجتمع بمن يمر بها من البحر ين يسألهم عن بلاده وأين تكون من بلاد المهراج .

والتقى من بينهم بكثير من الهنود سالمين عن بلادهم . فعرف أنهم أجناس مختلفة . منهم " الشاكريه " وهم أشرف أجناسهم لا يظلمون أحدا ولا يقهرونه ، ومنهم البراهمة وهم لا يشربون الخمر ، أهل صفاء ولهو وطرب .

وسمع من أهل بلاد المهرج بأمر جزيرة يقال لها « كاسل » يسمع فيها دق الطبول الليل كله ، " والبحريون يقولون إن الدجال فيها " .

ورأى في بحرهم سمكا طوله مائة ذراع يخاف منه البحريون فيقرعون على بعض الأخشاب فتهرب في البحر . ورأى سمكا طول الواحدة ذراع ، وجهها كوجه البوم . كما رأى كثيراً من العجائب لم يذكرها .

و ذات يوم أقبلت سفينة تشكك السندباد في أمرها ، وكأنه عرفها . وأخذ بحارتها يخرجون متاعها ، والسندباد يقيد ذلك في أزمته باسم صاحبه ، حتى أخرجوا أحمالا كتب عليها كارين السفينة « هذه وديعة السندباد البغدادي » . فدخل السندباد على الربان يسأله عن صاحب تلك الأحمال ، فقال له : رجل كان معنا منذ زمان فنزلنا بظهر دابة بحرية فحسبناها جزيرة ، فلما شعرت بدفء النار التي أوقدناها على ظهرها لعلها طعامنا تحركت وغاصت في البحر . وغرق بعض الناس ومنهم هذا السندباد . وقد أبحرنا بتجارته ، وفي غمرنا أن نوصل ودائعنا إلى أهلنا في بغداد !

فصرخ السندباد وعرف الربان بنفسه ، وحكى حكايته . وبعد لآى تحقق الربان من أنه السندباد بعينه ، فعانقه وقبله وأعاد إليه ماله مضاعفاً . وعرض عليه السندباد أن يهدي إليه بعضه فأبى وقال : تكفينا سلامتك . فتخير هدية للمهرج ، ودخل عليه يطلعه على جليلة الخبر ، ويستأذنه في العودة

إلى بلاده . فقبل الملك الهدية وأذن له بالسفر وأنعم عليه بالكثير من متاع بلاده .
وسافروا حاملين من جزائر المهرج وبلاد الهند العود والصندل والكافور
والقرنفل والكبابية والزنجبيل وأمثالها ، حتى انتهوا إلى البصرة . وانتقل
السندباد منها إلى بغداد ومعه من المال ما يزيد على مائة ألف دينار ذهباً
غير المتاع والتحف . واجتمع بأهله وخلانه ، واقتنى الدور والعبيد ، وأهدى
ووهب ، وقضى أوقاته هانئاً مسروراً .

ليس في رحلات السندباد إلا القليل لم أجد له أصلاً أو مقابلاً فيما
فحصته من كتب الجغرافيا العربية ، أو كتب العجائب . ومهمتنا في هذا
التعقيب أن نتقن أثر تلك الأصول لنبين كيف جمعت قصة السندباد طائفة
من المعارف البحرية كانت ذائعة بين العرب وغيرهم في القرون الوسطى .
ونحن لا نلزم في سرد القصة نصاً من نصوصها بعينه ، بل نسردها على
أساس النص الذي نشره لاندجيس سنة ١٨١٣ بباريس ، ونصوص طبقات
برسلاو ، وكلكتا ، والقاهرة . ويتبين من مجموعة هذه النصوص أن صاحب
القصة ألفها وفي رأسه صورة جغرافية للبحر الشرقي الكبير ، إن لم تكن
شديدة الوضوح ، فهي ليست أكثر إيهاماً من الصورة التي تنطبع في أذهاننا
من مطالعة كتب الرحلات والعجائب والمسالك والممالك .

ويظل لمؤلف القصة بعد هذا فضل السرد المحكم والتصوير البارع دلالة
على موهبة قصصية نادرة ، وفن قوى . وهو يذكّرنا بقصة فرنسية عن رجل
لم يغادر قريته إلى أكثر من الأسواق المجاورة ، ولكنه أوتي قدرة على

سرد الحكايات جعلت الناس يلتفتون حوله ويستمعون لقصصه الخلابية عن رحلاته المزعومة في القارة الإفريقية حتى أصبح معروفا في قريته باسم « باقا الإفريقي ». فإذا جاءهم رجل جاب إفريقيا ، وحاول أن يثبت كذب صاحبهم بأن يحكى لهم ما رآه حقا في القارة المظلمة ، أغضوا عنه ، وانصرفوا إلى صاحبهم يستمعون لقصصه . فلما أصر الرحالة المنطقيء الأسلوب على تكذيب قصاصهم المحبوب ، وضايقهم في إصراره ، اتهموه بالكذب ، واعتبروه ، وهو الرحالة الحقيقي ، أفاقا . وتآلبوا عليه حتى طردوه من القرية .

فلم يكن يعنى سكان القرية بالحقائق عن إفريقيا ، إنما هي الصورة التي رسمها باقا للقارة المجهولة ، كانت بمثابة نافذة فتحت لهم على العالم الفسيح ، في حياتهم الضيقة . وقد عرف مؤلف قصة السندباد قراءة أو سماعا بالكثير من أخبار البحر الشرقي الكبير ، وأوتى موهبة القصاص النابغ . فأخذ في وضع قصته عن ذلك البحر في أسلوب ريع خلاب . وأخرج صورة لذلك البحر ، إن كان للخيال فيها نصيب أكثر من الواقع ، فإنها منسقة تنسيقاً فنيا لا نجده بسهولة في الكتب العربية الأخرى التي تتكلم بلسان العلم .

جاء في « مختصر العجائب » : ” وبحر آخر يقال له هِرْ كَنْد فيه جزائر كثيرة ، وفيه سمكة ربما نبت على ظهرها الحشيش والصدف وربما رسا عليها أهل المراكب يظنون أنها جزيرة ، فإذا فطنوا أقلعوا عنها “ .

وقال القزويني : ” السلحفاة حيوان برى وبحرى . أما البحرى فقد يكون عظيما جدا حتى تظن أصحاب المراكب أنه جزيرة . وحكى بعض التجار قال : وجدنا وسط البحر جزيرة مرتفعة عن الماء ، فيها نبات أخضر ،

نخرجنا إليها وحفرنا للطبخ . وإذا الجزيرة تحركت ، فقال الملاحون : هلموا إلى مكانكم فإنها سلحفاة أصابتها حرارة النار ، لئلا تنزل بكم . قال وكان من عظم جسمها ما شابه جزيرة واجتمع التراب على ظهرها بطول الزمان حتى صار كالأرض ونبت .“

وقال يصف فرس الماء : ” قالوا هو كفرس البر إلا أنه أكبر عرفاً وذنباً ، وأحسن لونا . جثته دون فرس البر ، وفوق الحمار بقليل . وربما يخرج هذا الفرس من الماء ، وينزو على فرس البر ، فيتولد منهما ولد في غاية الحسن . حكى أن الشيخ أبا القاسم ، ويعرف بكر كان ، نزل على ماء وكان معه حجرة . فخرج من الماء فرس آدم عليه نقط بيض كالدرهم ، ونزا على الحجرة . فولدت مهرأ شبيها بالذكر عجيب الصورة . ولما كان ذلك الوقت ، عاد إلى ذلك المكان ، والحجرة والمهرة معه ، طمعا في مهر آخر . فخرج الفحل وشم مهره ، ثم وثب في الماء فوثب المهر بعده . فكانت الشيخ يعاود ذلك الموضع مع الحجرة ، فسمى أبا القاسم كركان .“

فلنفتح ذلك الكتاب الجغرافي القيم الذي ألفه عبيد الله بن خرداذبة صاحب بريد الخليفة المعتمد على الله ، وعنوانه « المسالك والممالك » لنطالع ما جاء به عن جزائر الزابج Javaga [جزائر الهند الشرقية] : ” وملك الزابج يسمى المهراج . وفي مملكته جزيرة يقال لها برطایل ، يسمع فيها العزف والطبول الليل كله ، والبحريون يقولون إن الدجال فيها . ويخرج من البحر خيل مثل خيلنا ، لها أعراف تجرها على الأرض .“ وقال في موضع آخر ” وطول البحر الشرقي الكبير أربعة آلاف فرسخ من القلزم إلى الوقواق .“

لا نريد أن نجزم بأن صاحب قصة السندباد قرأ كتاب ابن خرداذبة ،
أو القزويني . فلسنا بحاجة إلى كتاب بعينه من هذه الكتب . وقد نقلت
أغلبها عن بعضها البعض ، ونسخ ابن الفقيه في جغرافيته «مختصر البلد»
صفحات كاملة عن مذكرات التاجر سليمان دون أن يذكر اسم صاحبها .
وتمت فقرات ترد بصيغة واحدة في أكثر هذه الكتب ، منها الفقرة التي
نقلناها عن ابن خرداذبة خاصة بجزيرة « برطایل » . وقد وردت بعينها في
نص الحكاية الأولى من حكايات السندباد . ولا عبرة بأن تكون كلمة برطایل
تحولت في مخطوط القصة إلى كاسل . فإنا أكاد أوقن بأن النساخ قرأ
« جزيرة برطایل » فحذف الحرفين « ب ر » وقد حسبهما كلمة « بر » مكتفياً
بكلمة جزيرة ، وكتب جزيرة طایل . ويكفي أن تنقل هذه الكلمة بلا
نقط ، وأن تكتب الطاء بشيء من الميل حتى يقرأها النساخ التالي كاسل .
وقال السندباد بمجرد ركوبه البحر الشرقي الكبير بأن " طوله من
القلزم إلى الوقواق أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخاً " ، وهي الفقرة التي
نقلناها عن ابن خرداذبة ونقلت بنصها أو ما يكاد في كتب أخرى .

غير مجد أن نسعى وراء أصول القصة في كتاب دون غيره . وأهم من
هذا أن نفهم بأن مصادر كتب الجغرافيا العربية ، وكتب العجائب ، ومصادر
قصة السندباد واحدة . هي مجموعة المعارف [lore] المتداولة عن البحر الشرقي
الكبير فيما بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر .

يقول ابن خرداذبة عن البحر الشرقي الكبير : " وفيه سمك طول
السمكة مائة باع ومائتا باع يخاف منها على السفن فتتفر بضرِب الخشب على

الخشب . وفيه سمك مقدار الذراع يطير . وجوهه كوجوه اليوم “ . وورد كل هذا بنصه في قصة الرحلة الأولى للسندباد .

ويحدث ابن خرداذبة عن أجناس الهند بهذه الصيغة : “ الشاكثرية وهم أشرفهم ، منهم الملك ، تسجد الأجناس كلها لهم ولا يسجدون لأحد . والبراهمة وهم لا يشربون الخمر والأنبذة “ . وترد هذه الفقرة في الحكاية الأولى ، بما فيها من خطأ . فقد حسب عبید الله أن طبقة الشاكثرية Kchatrya هي أرفع طبقات الهند لأن الملك منهم . ولكن تتبع الملوك والفرسان لهذه الطبقة لا يغير من الحقيقة الواقعة ؛ وهي أن البراهمة [البرهمان] ، أو طبقة الكهنة والفقهاء ، هي أرقى الطبقات الهندوسية . ويبدو أن ابن خرداذبة أصلح خطأه دون أن يعلم . إذ ذكر بعد البراهمة طبقة “ الكسترية ” لاتزوجهم البراهمة ويتزوجون منهم . والكسترية والشاكثرية واضحة الأصل في Kchatrya وهي طبقة الملوك والفرسان . فيكون ابن خرداذبة قسم هذه الطبقة إلى الملوك وميزهم على البراهمة ، وإلى غير الملوك وميز البراهمة عليهم . وهو قائل بعد هذا “ وملل الهند اثنتان وأربعون ملة “ . وقال السندباد : “ وأعلموني أن صنف الهندي يفرق على اثنتين وسبعين فرقة “ ، وفي بعض النسخ “ اثنتين وأربعين “ . وحكاية الخيول الناتجة من حجر البر وأفراس الماء ، وهي التي فصل أمرها القزويني في القرن الثالث عشر ، لم يكتف معها ابن خرداذبة في القرن التاسع بما نقلناه عنه آنفا ، بل ذكر عن رائض بن الحارث بن أسد أن “ أصل البراذين الخطئية التي محمد جنسها من عين ناز — كول [من بنايس مدينة خُطَلان ببلاد جينحون] وأنه كان في زمن ملك هناك يسمى بيك له رمك كثيرة يرسلها

في الكلاء ترعى في المراعى وتأوى إلى تلك العين في الهاجرة إلى ظل شجرة ،
تقيل هناك . ويجمع الراعى إليها دوابه ، وهي واسعة عريضة مقدار أربعائة
ذراع في مثلها ، فيها ماء ساكن راكد صاف . فرأى الراعى يوماً وقد انتبه
من نومه في براذينه برذوناً طويلاً كأطول ما يكون . فظهر له برأى العين
شيء هائل . فطلق يرصده أى شيء . هذا إذ دنا وقت العصر فخاص في العين
فبقى الراعى مترصداً حتى إذا كان ذات يوم خرج ذلك البرذون بعينه ومعه
مهره وبراذين سواء كثيرة . واختلطوا ببراذينه دائماً في المرعى حتى اعتادوا
مع براذينه . وألقح البرذون مهرأً من مهارة ذلك الملك التى مع الراعى فنتجت
مهرأً كبيراً جيداً حسان القامات . فلما رأى ذلك الراعى سرراً واستبشر وأخبر
بذلك سيده فاعظم سرور الملك . وخرج مع قهارمته للصيد مائلاً إلى مرعى
براذينه وكلائه ، فوافى حظيرة راعيه ، وأمر راضيه بأن يتوهم مهرأً من تلك
المهر التى من نتاج الفحل الذى في العين . فرمى بالوهق مهرأً منها فأسرجه
وركبه . فإذا هو كأنه يطير بين السماء والأرض سلس في اللجام ، خفيف في
النهوض . فلما نزل وحط سرجه ، إذا أولئك البراذين خرجوا من المرعى مع ما قد
توالد فيما بينهم سوى التى نتجن أمهارة ، فعادوا إلى العين بأجمعهم . ولم يخرج
منها دابة إلى هذا الوقت ولا ظهر . فبقى جنس البراذين الخطلانية منها .
تقصينا إذن حوادث الرحلة الأولى في مجموعة الجغرافيا العربية وكعب
العجائب . وعرفنا بأن السندباد وصل في رحلته الأولى حتى جزيرة من
جزائر المهرج ، ربما كانت سومطرة أو واحدة من مجموعة الجزائر التى كانت
تعرف في القرون الوسطى باسم بلاد الزابنج Javaga .

الرحلة الثانية

رحلة جوية إلى وادى الماس

يحكى ابن بطوطة كيف سافر الجُنك بمتاعه وجواريه من دونه في أحد المرافىء الهندية . وشيء من هذا حدث للسندباد في رحلته الثانية ، فبعد أن سافر من جزيرة إلى جزيرة ، ومن بر إلى بر ، نزل والسفار بجزيرة "كثيرة الأشجار ، ياتعة الثمار ، مترنمة الأطيّار . وليس بها ديار ولا نار" . وحمل الرحالة وطابه وغذاه وشرابه وجلس وحده على ضفة عين ماء صاف ، يستظل بوارف ظلال أشجار باسقة ، وأكل وشرب والنسيم يداعب وجهه . ثم أخذته سنة من النوم . فلما استيقظ لم ير أثراً لأصحابه في البر ، وإن شاهد شراعات منشورة في الأفق . ففهم أن السفينة أقامت ونسيته .

نزل بالرجل القهر والنم حتى كادت "سمراته تنفقع" ، وذكر حياة الدعة في بغداد ، وتأسف على هجره عيشة الاستقرار والهدوء إلى حياة السفر والنقل فوق ظهر العباب . والسندباد لا يتنصل من تبعة عمله ، فهو المسؤول الأول عن مصائبه . وربما لم يكن يفهم سر هذا بقدر ما يفهمه . فهو ضحية روحه المغامر . هو الرجل الفرد يرفض أن يتبع المجموع حتى في تجواله بالجزيرة الغامرة التي نزل إليها ركب السفينة . إنا لتصوره يسلك بنفسه مسالكها غير المطروقة ، ويتوغل في أحراجها تواقاً إلى المعرفة ، ومثلاً من أمثلة الطموح البشرى إلى تعرف المجهول .

قام السندباد يتجول في أرجاء الجزيرة غير المسكونة ، فلم ير غير السماء والماء والأشجار والرمال . فصعد إلى شجرة يستكشف سبيله فيها ، فلاح له

شبح أبيض . فتقدم إليه حتى بدا كأنه قبة بيضاء ، دار حولها يبحث عن باب فلم ير غير حوائطها الملساء ، وقدر محورها بما لا يقل عن خمسين خطوة . وأشرفت الشمس على المغيب رويداً ، ثم إذا هي تغرب فجأة . ورفع السندباد رأسه فرأى طيراً هائل الحلقة ، غطى وجه الشمس . فتذكر ما سمعه على السنة البحرين من أن هناك طيراً يقال له الرخ ، ” يزق أولاده بالأنفال “ . فلما رأى الرخ يحط فوق القبة البيضاء أدرك أنها بيضته ، فألممه ذكاؤه ، وشجعه روحه المغامر على أن يحمل عمامته ويفتلها كالحبل ، ويربط نفسه بمخلب الطير العظيم . حتى إذا ما تنفس الصبح رفرف الطائر بجناحيه ، ثم صاح وارتفع في الجو حاملاً السندباد . وبذلك دخل الرجل في زمرة الطيارين من القدماء : « إيكار » اليوناني وقد وقع صريعاً ، ثم « هيل » الإغريقية التي طارت على ظهر كبش وسقطت في مضيق الهيلسبون ، و « بليروفون » الذي امتطى صهوة الفرس الطائر « بيغاسوس » ، وسليمان وقد ركب بساط الريح . ولم يكن السندباد على أى حال الأول ولا الأخير في طياري ألف ليلة ، ولا في الخرافات الإيرانية ، أو الكلدانية والآشورية . ممن حملهم الجن فوق أكتافه ، أو الرخ بين مخالبه ، أو الفرس الطيار فوق ظهره .

حط الرخ بالسندباد على ربوة فأسرع بفك رباطه ، ونزل يتمشى في الأرض الجديدة . فإذا هو أسوأ حالا مما كان فيه . فلقد هجر جزيرة نضرة ، جارية الماء ، إلى ربوة تشرف على واد واسع عميق ، تحيط به جبال شاهقة جرداء ملساء . والوادي مقفر جدد ، لا خضرة فيه ولا ماء . وهذا الرخ قد غادر الربوة وانقض على الوادي فحمل بين مخالبه حية عظيمة الحلقة وطار

بها إلى أعلى الجبل . والوادي يلمع لمعاناً شائناً ، ويبرق بريقاً يخطف الأبصار . انحدروا إليه السندباد حذراً فاكشف أرضاً حصاباً من الماس ، ولكنها تموج بحيات كأنها جذوع النخيل .

تضي السندباد أيامه ولياليه في وادي الماس والحيات لا يستقر له قرار ، ولا تغمض له عين . هرباً من حيات سمع بأنها تبيع الأنفال ، وبحثا عن قوت غير موجود ، وماء لا أثر له في ذلك الوادي المحرق . وإذا شاة مذبوحة تسقط عليه من السماء ، أو من أعلى الجبل . ثم غيرها وغيرها . فتصاعد من أغوار ذكرياته ما سمعه في صفرة من أخبار البحريين وحكاية تجار الماس ، وكيف يسافرون إلى الجبال المحيطة بوادي الماس . ومعهم الأغنام يذبحونها ويسلخون جلدها ، ويشترحون لحمها ثم يلقون بها من أعلى الجبل ، فيعلق بلحمها بعض حصي الماس . وتأتي النسور والعقبان فتتنقض على الأغنام المذبوحة ، وتحملها إلى قمة الجبل . وهناك يتلقاها الجلابون بالضجيج ، والضرب على الصفائح والخشب ، فتهرب تاركة اللحم وقد علقت به حجارة الماس .

ويضع السندباد معارفه البحرية موضع التجربة كما يفعل في كل مأزق . فيجمع من الماس ما يملأ به جيوبه ، وعبه ، وحزامه ، وقلنسوة عمامته . ويربط نفسه بشال العمامة العتيدة إلى ذبيحة من الذبائح ، ويستلقي على ظهره ، والذبيحة فوق صدره . فيجيئ نسر أو عقاب يحمل الذبيحة والسندباد ، ويرتفع بهما إلى قمة الجبل . ثم يطير عنهما لدى سماع جلبة التجار . فإذا تقدم صاحب الذبيحة فوجدها نظيفة من الماس ، عالقة برجل ، صاح وولول ، واشتكى وحوقل ، وتعوذ من الشيطان الرجيم ، وقرع الكف بالكف .

فأنسرح السندباد إليه يلوح له ببعض ما حمل من الماس . ثم قص عليه قصته ، وقاسمه ثروته من الحجارة النادرة ، وهي أكبر مما يعلق بلحوم الأغنام . ويعود جلاب الماس بصحبة الرحالة ، ويمرون بجزيرة « الرها » وبها شجرة الكافور كل شجرة تظل مائة رجل وأكثر ، فينقبون أعلى الشجرة ، ليسيل منها ماء الكافور يملأ عدة جرار . ثم تظهر قطع الكافور وهو كالصنع ، وتبطل الشجرة وتجف . وبتلك الجزيرة وحش يسمى الكر كند [أو الكر كدن] وهو دون الفيل وأكبر من الجاموس ، يرعى نبات الأرض كالبقرة ، له قرن واحد وسط رأسه طوله ذراع وعرضه قبضة ، وفيه صورة من أوله إلى آخره إذا انشق ، وهي بياض في سواد تشبه صورة إنسان ، أو بعض الحيوان . وتصنع من هذا القرن مناطق ، كل منطقة تساوى ألف ديتار . وهذا الكر كند يضرب الفيل بقرنه فيشق بطنه ويحمله على رأسه ويسير به ، فيسيل دهنه على عيني الكر كند ويعميه ، فيرقد الكر كند ويأتى طير الرخ فيحمل الفيل والكر كند معاً في غخابه ويطير في الجو إلى أفراخه يزقها بفريسته سويًا .

ورأى السندباد بجزيرة « الرها » عجائب كثيرة تحير العقول . وسار مع التجار من جزيرة إلى جزيرة يبيعون الماس ويبادلون به أمتعة ونخفاً ، حتى وصلوا إلى البصرة . وعاد السندباد إلى دار السلام يحمل ثروة طائلة . ودخل داره ثم تصدق ووهب ، وأعطى وأهدى . وأمسى منزله مقصد الأهل والخلان ، الكل يسأل عما رأى من عجائب ، والكل مستمع إلى أحاديثه كما يستمع لما للسندباد الجمال والضيوف الكثيرون .



إذا كان مؤلف السندباد قد احتاج إلى بعض الجهد في كتابة الرحلة الأولى لينشئ قصة كاملة من الفقرات القليلة التي قرأها عن الخيول البحرية ، وعن السلاحف التي تبدو في البحار كالجزائر ، فإنه في كتابة الرحلة الثانية وجد حكايات كاملة عن الرخ ، وعن طريقة الحصول على الماس في وادي الحيات ، لم ير حاجة إلى أكثر من وضعها على لسان بطله . أما ما ذكره عن شجرة الكافور والكركدن ، فقد نقله بنصه من كتب الجغرافيا العربية ، ومجموعات المعجائب التي انحدرت إلينا من القرون الوسطى .

ومنذ أشار ابن خرداذبة إلى شجرة الكافور في القرن التاسع ، وجميع الكتاب العرب يحذون حذوه ، وينقلون عنه حتى بعد القرن الرابع عشر . فهي " شجرة كبيرة تظل مائة إنسان وأكثر وأقل . ينقب أعلاها فيسيل ماء الكافور منها ما يملأ عدة جرار . ثم ينقر أسفل من ذلك وسط الشجرة فتساب منها قطع الكافور وهو صمغ ذلك الشجر . ثم تبطل الشجرة وتجف " . وقال ابن خرداذبة إن بجبال الزابج حيات عظيماً تبلع الرجل والجاموس ، ومنها ما يبتلع الفيل . وهو ما يذكره السندباد حين يرى الحيات في وادي الماس . ووصف الكركدن في جزيرة الرامي [سومطرة] بأنه دابة دون الفيل وفوق الجاموس ، تأكل الحشيش وتجتز كما يجتز البقر والغنم [كلام غير صحيح ، فالكركدن لا يحتر] لها قرن واحد في الجهة طوله ذراع ، وغلظه قبضتان ، فيه صورة من أول القرن إلى آخره ، فإذا شق رأيت الصورة بيضاء في سواد ، في صورة إنسان أو دابة أو سمكة أو طاووس أو غيره من الطير . فيتخذها أهل

الصين مناطق تبلغ المنطقة ما بين ثلثمائة دينار إلى ثلاثة أو أربعة آلاف دينار.
وقال القزويني في «عجائب المخلوقات» : ” وإذا رأى الكركدن
الفيل ، يأتيه من ورائه ، ويضربه بقرنه ، ثم يريد أن يتخلص فلا يمكنه ،
فيخرج على الأرض ويموت هو والفيل أيضاً “ . ولا حاجة بنا إلى سرد
أسماء المؤلفين الجغرافيين وأصحاب كتب العجائب ، فكل ما جاء بكتبهم عن
الكركدن شبيه بما جاء في كتاب « المسالك والممالك » لابن خردادبة .
أما قصة تعلق السندباد بمخالب الرخ ، فتصف طريقة في الانتقال
كثيرة التوارد في القصة العربية . وقد جاء في «عجائب الهند» ما يلي :
” وحدثني أحمد بن علي بن منير الناخوداه السيرافي ، وكان أيضاً من
النواخذة الذين سافروا في البحار ، ومضى لهم الاسم والصيت في البحر ، أن
بعض شيوخ الهند حدثه بسرنديب أن مركباً كسر له فسلم نفر من أهله في
القارب ، ووقعوا إلى جزيرة بقرب الهند . فبقوا بها إلى أن مات أكثرهم ،
وبقي منهم سبعة . وكانوا مدة مقامهم قد رأوا طيراً عظيماً يقع في الجزيرة
ويرعى ، فإذا كان وقت العصر طار فلم يدروا إلى أين يمضي . فأجمع رأيهم
على أن يتعلق واحد منهم برجليه ليحمله لما ضاقت صدورهم ، وعلموا أنه
لا بد من الموت ، وتعلقت نفوسهم بأمر الطائر . وإن كان يطرحهم بقرب
بلد فهو الذي يتمنونه ، وإن قتلهم فهو الذي يتوقعونه . فطرح واحد منهم
نفسه بين الشجر ، وجاء الطائر على الرسم فرعى . فلما جاء وقت انصرافه
تلطف الرجل في الدنومنه ، وتعلق آخذاً برجليه ، وشد نفسه على ساقيه
بقشور الشجر ، فطار به في الهواء ، وهو متعلق بفخذه ، وقد جعل رجليه

مشتبكة برجليه . فعبر بجرأ وطرحه وقت غروب الشمس على جبل . فحل نفسه وسقط كالليت مما تعب وكل ، وصرّ به وعين من الأهوال . فكث لا يتحرك إلى أن طلعت الشمس من غد ، فقام ينظر فإذا راعى غنم فسأله بالهندية عن الموضع ، فذكر قرية من قرى الهند وسقاه لبناً ، فتعامل حتى دخل القرية . ولم يزل الطائر ينقل القوم من تلك الجزيرة على تلك الصورة حتى اجتمعوا بأسرهم في القرية . وتسببوا إلى النفوذ إلى بعض بلاد الهند التي يوجد فيها المراكب ، وركبوا في مركب . وأنهم حدثوا بأمر مركبهم والجزيرة التي وقعوا إليها ، ومقدار مسافة ما حملهم الطائر إلى تلك القرية ، فوجدوه زيادة على مائتي فرسخ .“

وحدث القزويني عن رجل من إصفهان أنه بذل نفسه في سبيل نجاة رفاقه من إحدى الملمات البحرية ، فعد المركب في شاطئ مجهول ، قال : ” فلما كان آخر النهار أحسست بهزة شديدة ، فإذا طائر لم أر حيواناً أعظم منه ، جاء ووقع علي سطح تلك الشجرة . وبقى حتى الصباح ، ثم نفض جناحيه وطار . فلما كانت الليلة الثانية جاء ووقع على عشه ، وكنت أيضاً آيساً من حياتي ... فدنوت منه . فلم يتعرض لي بشيء ، وطار مصباحاً . فلما كانت الليلة الثالثة قدمت عنده من غير دهشة إلى أن نفض جناحيه عند الفجر ، فتمسكت برجله ، فطار أسرع طيران إلى أن ارتفع النهار . فنظرت نحو الأرض فما رأيت سوى لجة البحر ، فكدت أترك رجله من شدة ما نالني من الملح . فحملت نفسي على الصبر ، إلى أن نظرت نحو الأرض فما رأيت القرى والعمارات . فدنا من الأرض وتركني على صبرة تين في بيدر لبعض

القرى ، والناس ينظرون إلى ، ثم طار نحو الهواء وغاب عني ، فاجتمع الناس إلى وحلوني إلى رئيسهم ، فأحضر لي رجلا يفهم كلامي . فحدثته بحديثي كله وهم يتعجبون وبقيت عندهم أياما . ومشيت ذات مساء إلى طرف البحر ، فإذا قد وصل المركب الذي كنت فيه . فأمرعوا يسألون عن حالي ، فقلت لهم يا قوم ، إني قد بذلت نفسي لله تعالى ، فألقوني بطريق عجيب وجعلني آية للناس .“

وهذا يضيف القزويني ، وبمنه غبار من الشك ، أو على الأقل إدراك لعدم تصديق التبراء لها : ”فهذه حكاية تجميعية ، وإن كانت غير بعيدة من لطف الله“ . ويلاحظ في الحكاية اجتماع الرجل بالمركب نفسها التي غادرها ، ولنا أن نتساءل عما إذا كان مؤلف قصة السندباد قد انتفع بهذا الحادث في حكايته الأولى عندما جمع في جزيرة المهراب بين السندباد ومركبه ومماته ، بعد أن سافرت المركب بدونه ، واعتبرته من الهالكين .

هذه حكايات عن الريح ، من الصعب أن لا نرى فيها أصلا من أصول رحلة السندباد الثانية

والحادث البارز الآخر في هذه الرحلة هو وصول السندباد إلى وادي الماس ، وهي أسطورة نطالها لافي كتب الجغرافيا العربية والعجائب وحدها ، بل في رحلة ماركو بولو وفيما أورده الرحالة الصينيون .

فإن ماركو بولو في الفصل التاسع عشر من الكتاب الأول عن رحلته ، يصف مملكة «موتفيلي» حيث الجبال الشاهقة تحيط بمعادن الماس : ”وبتلك الجبال حيات عظام من أشد الحيات سموما . ويذهب التجار إلى تلك الجبال

ومعهم اللحوم يلقون بها في الأودية والموات بين الجبال ، فتأتي نسور بيضاء ، وتنقض عليها ، وتحملها إلى قنات الجبال . فيجري التجار ويتصايحون ، حتى تنفر الطيور ، تاركة قطع اللحم وقد علقت بها حجارة الماس .“

وقال الرحالة الصيني « تشانج تي » Ch'ang Te في كتاب « سي شي كي » Si Shi Ki ، وهو وصف رحلته من منغوليا إلى غرب آسيا حيث أرسله « مانجو خان » إلى أخيه « هولاجو » في سنة ١٥٢٩ م ، بعد أن استولى الأمير التتري على بغداد وقصى على آخر الخلفاء العباسيين :

”والماس يأتي من بلاد الهند ، يأخذ الناس اللحم ويلقون به إلى الأودية العظيمة ، فتأتي الطيور وتأكل اللحم ، ويوجد الماس بعد ذلك في رؤسها .“ وجاء في كتاب « عجائب الهند » : ” وحدثني بعض من دخل بلاد الهند أنه سمع أن الأدماس الجيد النادر المرتفع يجنب من نواحي قشмир ، وأن هناك واديا بين جبلين فيه نار توقد طول الدهر ليلا ونهاراً ، وشتاء وصيفا ، والأدماس فيه . وليس يطلبه إلا طائفة من الهند سفلة ، يحملون أنفسهم على المهالك . فيجتمع جماعة منهم ويقصدون هذا الوادي ويذبحون النعم الهزلة ، ويقطعونها قطعاً ، ويقذفون بالقطعة بعد القطعة في كفة منجنيق يعملونه . لأن التقرب من المواضع لا يمكنهم لجهاش شتى ، منها أن وهج النار يمنع من ذلك ، ومنها أن حول النار من الأفاعى والحيات مالا يوصف ، وفيها مالا يمهل حتى يتلف . فإذا قذفوا باللحم انحدرت عليه النسور وهي كثيرة فتخطفه إن وقع بعيداً من النار فترفعه فإذا رأوا التسر قد أخذ اللحم اتبعوه حيث يمضي ، وربما سقط من قطعة اللحم التي أخذها شيء من الأدماس ، وربما انحدر في

موضع نياً كلها ، فيجدون في ذلك الموضع الأدماس . وربما سقطت القطعة اللحم في النار فتحترق . وربما وقع بعض الناس على قطعة لحم بقرب النار فيحترق ويتشيط . وربما اختطفها النسر قبل وقوعها إلى الأرض حسب ما يتفق . فهكذا يؤخذ الأدماس ، وفي أكثر ما يتلف طالبه بالأفاعى والحيات والنار . وملوك الناحية يطلبون الأدماس ، ويشددون في طلبه وطلب من يلتمسه ، ويفتشونهم أشد تفتيش لجلالة الأدماس وعظم خطره . وفي هذا يقول القزويني : ” والموضع الذي فيه الماس لم يصل إليه أحد . وهو واد بأرض الهند لا يباحق البصر أسفله ، وفيه الأفاعى التى لا يراها أحد إلا مات وقيل بأن الإسكندر راقب وقت غيبتها ، وألقى بالوادى قطع اللحم ، فتشبثت بقطع الماس . وجاءت الطيور من الجو ، وأخذت اللحم ، وأخرجته من الوادى . فأمر الإسكندر باتباع الطير ، والتقاط ما ينتثر من ذلك اللحم “

وذكر عمر بن الوردى فى « فريدة العجائب » كلاماً شبيهاً بهذا عن الياقوت ، وكيف يجلب من أرض خرخيز [القرغيز] ، ويغلب أن يكون قد نقله عن « نزهة المسافر » للإدريسى وهو القائل :

” وبقرى المدينة التى يسكنها ملك خرخيز جزيرة الياقوت ، ولها طريق يتصل بالبر . غير أن هذه الجزيرة يحيط بها جبل مستدير صعب الصعود إلى أعلاه . لا يُقدَّر على الوصول إلى رأسه إلا بعد جهد ومشقة . ولا يقدر أحد على النزول إلى أرض الجزيرة بوجه . ويحكى أن بها حيات قتالة وبأرضها حصا الياقوت كثيرة . وأهل تلك الناحية يتصيدون هذه الياقوت على

أصناف حيل يعرفون صنعها“ .

ونطالع حكاية الماس في « مختصر العجائب » على أنها بجبال سرنديب . ولم أجد لهذه الأسطورة أساساً ثابتاً من الواقع ، غير أن التفسير الفوكلورى يرجعها إلى طقوس دينية نشأت عن الاعتقاد بالروح الذى يحمى الكنز ، والطلسم الذى يمنع الوصول إليه . فكان جلابو الماس يقدمون الذبائح قربانا للطلسم أو للروح الحارس قبل البدء بعمليات التنقيب ، فتجتمع الطيور الجارحة وتتخاطف الذبائح مما يحتمل التفسير الشعبى المتأخر لهذه الطقوس على الوجه الذى ذكره كتاب العرب ، والصينيون من قبلهم . وقد لا يبعد أن يكون تجار الماس أنفسهم هم الذين شجعوا على رواج الخرافة وبالغوا فى وصف أخطار البحث عن الماس إبعاداً للزاحمين ، وإرهاباً لمن تحدته نفسه أن يشاركهم فى تجارتهم الراحمة .

هذه إذن حكاية الرحلة الثانية من رحلات السندباد مشتقة بمخاديفها من الكتب العربية . وهى تردد بدورها أقوالاً سجلها الرحالة والملاحون فى مختلف أنحاء المحيط الهندى وبحر الصين . وقد تمكن صاحب القصة من أن يلائم بين أسطورتين وردتا فى كتب علمية أو شبه علمية ، ويؤلف منهما حكاية واحدة متناسقة سهلة ، ترد على لسان الرحالة الخرافى كأنها تجارب شخصية يتحرى فى وصفها الدقة ، وصدق التعبير .

الرحلة الثالثة

الغول الأسود

سافر السندباد في رحلته الثالثة بريح طيبة ، وعبرت مركبه من بر إلى بر ، وجزيرة إلى جزيرة ، وهو ورفاقه يبيعون ويشترون ويقايضون . ثم أصابتهم العاصفة أياما طويلا ضل فيها الربان سبيله . فلما هدأت أخذ يجرى مجرى الرياح بحثا عن علامة يستدل بها على موضعه من البحر دون جدوى . وقد لاحظ الركاب حيرته ، وتعلقت نفوسهم بما يبدو على سياه . وإذا أرض ظهرت والربان ينظر إليها نظرة الفرع ، ثم يأمر بالشرع فتطوى والأناجر فتلقى في البحر ، ويتساءل الناس عن سر فرعه فيخبرهم بأنهم وقعوا في أرض الزغب . وهم قوم كالقروء ، لا قبل لهم بمحاربتهم لكثرة عديدهم . ويحيط الزغب بالركب من كل جانب وقد جاءوا إليها ساجدين ، فإذا هم من الأتزام لا يتعدى طول الواحد منهم أربعة أشبار ، عرايا يغطى جسمهم زغب أحمر ، ويتكلمون بكلام غير مفهوم . وصعدوا مذنت وآلافا إلى المركب يتسلقون صواريخها وأخشابها بأذرعتهم الطويلة ، كأنهم القروء . ونشروا الشرع وقطعوا الأناجر وساروا بالسفينة إلى جزيرة أنزلوا فيها جميع الركاب ، واتخذوا بالركب سبيلهم في البحر .

مشى ركاب المركب في الجزيرة يقتاتون بما فيها من عشب حتى بان لهم بيت من بعد فقصدوا إليه ، ورأوا أمامهم قصرا على البنيان له بابان عظيمان من الأبنوس ، فدفعا الباب ودخلا فإذا هم في باحة كبرى يتصدرها إيوان رفيع وبجانبه آثار نار وسقايد ، وعظام كثيرة . ولم يكن في المنظر ما ينزل

العلماء نينة بقلوبهم ، خصوصا وقد توهج واحمر إذ مالت الشمس إلى المغيب .
وزلزلت الأرض تحت وقع خطوات عملاق أسود ، عيناه تلعبان كالبحر ،
وأنيا به بارزة من فم كفم البعير ، شفته السفلى مدلاة على صدره ، وآذانه
كأذان القبيلة ، منبسطة على أكتافه ، أظفاره طويلة كأظلاف الوحوش .
فتراعى الناس بعضهم على بعض رعباً ، والعملاق يتقدم بخطوات وثيدة إلى
الأيوان حتى جلس عليه . ومد يده إلى السندباد فحمله قبالة وجهه ، وجعل
يقلبه كالدرجة . ثم ألقاه من يده وأخذ يتحسس من بين ركب السفينة
أعظهم لحماً حتى وقع على الربان . وكان سميناً عريض الأكتاف فأعجبه .
وأخذ سفوداً حديداً فأدخله في حلقه حتى خرج من الجانب الآخر . وأوقد
ناراً ركب عليها السفود وجعل يدير الربان على الجمر الموقد حتى نضج لحمه
واستوى شياً . فأخرجه وأخذ يفسخ في عصلاته ، ويفصص في مفاصله ،
ويتبلغ بلحمه ، ويمصص في عظمه حتى تركه هيكلاً متناثراً ألقي به إلى جانب
العظام الأخرى المبعثرة فوق الأيوان . ونام وهو يشخر شخيراً هائلاً .

وخرج مع الشمس في شؤونه ، تاركاً السندباد وأصحابه يودع بعضهم
بعضاً ، ويحاولون عبثاً أن يجدوا في مكان بالجزيرة مأوى أو منجى . وجاءهم
الغول الأسود متخيراً أطراهم لحماً وأكثرهم شحماً ، فسيخه وشواه وفسخه ،
وأكله كما فعل برفيقه . ونام وأرسل شخيره عالياً .

فصح عزم السندباد وأصحابه على إلقاء أنفسهم في البحر تخلصاً من الموتة
الشنعاء ، إن لم يجدوا سبيلاً إلى قتل العملاق . ونصح السندباد بأن يصنعوا
أولا « كلكات » تحملهم في البحر ، يعدونها ببعض الزاد والماء . فإذا نجحوا

فى قتل الغول أقاموا بالجزيرة ؛ وإذا أخفقوا وجدوا فى الكلكات أطوافا
بتركونها للبحر والريح حتى يفيض الحظ لهم سفينة تنتشلهم .

فلما انتهوا من بناء الكلكات — والغول يلتم منهم واحدا فى كل
ليلة — جاءوا ببعض السفافيد ووضعوها فى النار حتى احمرت . فلما نام قاموا
إليه وأدخلوا السفافيد حامية فى عينيه ، واتكأوا عليها يدفعونها إلى أعماق
بحاجره دفعا . فقام العملاق يصيح صياحا عظيما ، ويخبط ويخبط باحثا عن
الرجال وهم يتهاربون منه يمنة ويسرة ، ولما ظن أنهم خرجوا من القصر
تحسس سبيله إلى بابه وهم يتبعونه ، ثم تسللوا إلى ناحية الشاطئ . وصعدوا
إلى كلكاتهم . وإذا بالعملاق يتجه ناحيتهم تقوده أنثاه ومعها عمالقة آخرون ،
فدفعوا بالأطواف إلى البحر ، والعمالقة ترجهم بحجارة كبار حتى غرقت جميع
الكلكات إلا كلك السندباد ومعه رجلاان ، وقد أسرعوا فابتعدوا عن
الجزيرة . وجعلوا يمدفون آنا ، ويتركون طوفهم للريح والواج آنا آخر حتى
انقضى الليل وطلع الفجر وهم بمرأى ساحل يقذفهم إليه العباب . فوقفوا على
الساحل صرعى كالأموات . وبعد أن استراحوا قاموا يبحثون عن مأوى فلم
يجدوا ، ولا حقهم المساء فالتوا بأنفسهم متعبين على رمال الشاطئ . وصحوا
على صوت فحيح صرعب ، وإذا حية أحاطت بهم والتقت أحدهم وابتلعتة على
دفتين ، فى الأولى إلى أكتافه ، وفى الثانية اختفى الرجل بأكله فى جوفها .
وبقى السندباد ورفيقه الليل كله ساهرين ، وقد أيقنا بالهلاك . ودارا
نهارا يبحثان عن مأوى ، حتى أدركهما المساء فتسلقا شجرة عالية . وعادت
الحية تنساب بين الأشجار وتنشتم سبيلها إلى الرجلين حتى عرفت موضعهما ،

فتسلقت الشجرة وأطبقت على رفيق السندباد فابتلمته حتى أكتافه . وسمع السندباد عظام صاحبه تتكسر ، ورأى الرأس تتبع الحسد مخفية في جوف الحية . ثم رآها تنساب إلى حيث تهتضم فريستها ، وهو عالم بأن الدائرة لا شك تدور عليه ، ويفضل أن يلقي بنفسه في الماء ليموت غرقا لولا « أن الروح عزيزة » . والسندباد واسع الحيلة وقد هداه يأسه إلى جمع عيدان الشجر وربطها حزما ، جعل منها حوله قوائم ربطها إلى حزم أخرى فوق رأسه ، وغيرها عند أقدامه .

وجاءت الحية بفحيحها ومثار غبارها فحاولت ابتلاعه ، وجعلت تدور حول العيدان المربوطة لتجد سبيلا إلى السندباد . ودامت محاولاتها طول الليل حتى إذا طلع النهار تركته نصف ميت من هول ما قاسى .

وتخلص السندباد من العيدان المربوطة ، وقام يجرى وهو على غير شيء يلوى حتى انتهى إلى الشاطئ ، ولاحت له في الأفق سفينة عابرة فلوح لها بأغصان الأشجار وقد ربط فيها شال عمامته . واقتربت من الشاطئ ، وأرسلت له زورقا حمله إلى سطحها حيث ستر الربان عورته وقام بأوده . فثاب إلى رشده واطمأن إلى نجاته ، وحكى حكايته .

فلما سمعها شيوخ المركب قالوا بأن أمر السود العماليق معروف ، ذكره البحريون . وهم أمة كثيرة العدد يأكلون ابن آدم حيا ومشويا . وكذلك أمر الحيات التي تختفي بالنهار وتظهر بالليل ولا ينجو من شرها من وقع إليها . وسافرت السفينة حتى جاءت إلى جزيرة شِلاهِطْ ، وبها الصندل الكثير . فنزل التجار ومعهم السندباد ، وإذا الربان يستدعيه ، ويعرض عليه أن

يتجرف في بضاعة رجل فقد من المركب ، مقابل أجر يتفقان عليه . أما الأموال الأصلية وأرباحها فسوف يبحث الربان عن أهل التاجر المفقود يسلمها لهم . ويكتشف السندباد ، كما اكتشف في رحلته الأولى ، أن المتاع متاعه . ويؤيد كلامه واحد من تجار الماس كان ضمن ركاب السفينة . وسافروا من جزيرة شلاط عائدین . وقد حملوا منها الشنبل والقرنفل والدار صيني وعبروا بسواحل الهند . وشاهد السندباد سمكا طوله عشرون ذراعا ، وسلحفاة عرضها عشرون ذراعا ، وسمكا على شكل البقر يلد ويرضع ، ويعمل من جلده الدرق ، وسمكا على خلقة الجمل أشكالا وألوانا . وما زالوا مسافرين حتى وصلوا إلى البصرة . وسافر منها السندباد إلى دار السلام ومعه الأموال والأحمال . فاجتمع بأهله وإخوانه ، وتصدق وأعطى ، وبقي مدة يستمتع بحياة الهدوء والدعة حتى نزلت نفسه إلى البحر مرة أخرى .

قال ابن خرداذبة : ” وبعد سرنديب جزيرة الرامي . . . وبها ناس عمراة في غياض لا يفهم كلامهم لأنه صغير . وهم صفار يستوحشون الناس ، طول الإنسان منهم أربعة أشبار . . . شعر رؤوسهم زغب أحمر . ويتسلقون الأشجار بأيديهم من غير أن يضعوا أرجلهم عليها “ .

وجاء في « مروج الذهب » للمسعودي : ” بحر الصين ويعرف ببخر صَنْخَى وهو بحر خبيث كثير الموج والخب . وتفسير الخب الشدة العظيمة في البحر . . . وذلك أن البحر إذا عظم خبه وكثر موجه ظهرت منه أشخاص سود طول الواحد منهم الخمسة أشبار والأربعة . كأنهم أولاد الأحايش الصفار

شكلا واحدا وقدًا واحدا . فيصعدون على المراكب ويكثر منهم الصعود من غير ضرر . فإذا شاهد الناس ذلك تيقنوا الشدة ، فإن ظهورهم علامة الخب ... وما ذكرنا فلا تناكر فيه عند أهل المراكب والتجار من أهل البصرة وسيراف وعمان وغيرهم ممن قطع البحار . وما ذكرناه عنهم فممكن غير ممتنع ولا واجب . ونقل القزويني عن ابن الفقيه قوله : ” وبجزيرة الزابج سكان شبه الآدميين ، إلا أن أخلاقهم بالوحش أشبه . ولم كلام لا يفهم . وبها أشجار وهم يطرون من شجرة إلى شجرة “ .

في هذه الفقرات ما يمكن أن يعد مصدرا من مصادر الرحلة الثالثة حينما تقع سفينة السندباد بأرض الزغب ، ” وهم قوم كالقروء ... لا يتعدى طول الواحد منهم أربعة أشبار ... “ .

وإذا كنا نترك الإيضاح الكامل لحكاية الغول الأسود حتى نسرد قصة الرحلة الرابعة ، فليس ما يمنع أن نشير هنا إلى ما جاء بكتاب « مختصر العجائب » : ” وعن يمين جزيرة كَلَّه جزيرة بالوس وأهلها يأكلون الناس “ . وبموسوعة الإدريسي : ” وأهلها [جزيرة بالوس] قوم سود عراة يأكلون الناس . فإذا وقع لهم الغريب علقوه من أقدامه وشرحوه تشريحاً وأكلوه ... وهم سود وحشوا الحلقة ، مفلقوا الشعور . ولم كلام لا يفهم . وبها أشجار وهم يطرون من شجرة إلى شجرة “ . ” ومن وراء ذلك [يقصد وراء جزيرة النِّبَّان] جزيرتان عظيمتان طولاً وعرضاً فيها قوم لهم خلق عادي [نسبة لعاد] أجسامهم عظيمة وشعورهم مفلقة ، ووجوههم طوال ، وقدم أحدهم مقدار ذراع ، ويأكلون الناس أيضا “ .

هذا ومثله مما سيحىء في تعقيبنا على الرحلة الرابعة ، يطلب أن يكون عرف به صاحب القصة ، ورتبه في قصته أحسن ترتيب . حتى حكاية الحية التي بلغت رفيق السندباد ليست غريبة على ما ذكره ابن خرداذبة في كتاب « المسالك والممالك » : ” بجبال الزابج حيات عظام تبلع الرجل والجاموس ، ومنها ما يبتلع الفيل “ . وهذا كلام نقله عنه أغلب المؤلفين العرب . فقال القزويني مثلاً في كتاب « آثار البلاد » : ” وبها [بحيرة الزابج] جبل النصبان ، وهو جبل فيه حيات تبلع البقر والجاموس ، ومنها ما يبتلع الفيل “ . وورد في « مختصر المعجائب » : ” وتخرج من بحر هز كند حيات عظيمة تبتلع الفيل ... ويسمع لها فحيح مرعب “ . وقال ابن الوردي : ” ومنها [من عجائب بحر الصين] حيات عظام تخرج من البحر فتبتلع الفيل العالى الهائل ، وتنطوى على شجرة عظيمة تجذبها ، أو على صخرة فتتكسر عظام الفيل في بطنها وتسمع قعقة ذلك عن بعد “ .

ورأى السندباد وهو يعبر بسواحل الهند سمكا على شكل البقر يلد ويرضع ، ويعمل من جلده الدرق . وهذا ما يذكره ابن الوردي في خريدته : ” ومن عجائبه [أى بحر القلزم] سمكة على خلقة البقر تلد وترضع كالبقرة “ . وابن الفقيه في « مختصر البلاد » : ” وفي البحر سمك على خلقة القرود ، من جلوده تكون الدرق الذى تذبو عنه السيوف . ويقال إنها تحتضن وترضع “ . حتى المتاع والتجارة التي جاء بها أهل مركب السندباد تظهرنا على تأثر مؤلف القصة بما طالعه عن جزائر الراعى [أو الرامنى] وبالأوس وشلاط وغيرها من جزائر الزابج ، قال ابن الفقيه : ” والعنبر يؤتى به من جزيرة شلاط .

وَالْقَرْنَفُ وَالصُّنْدَلُ وَالْجُوزْبُومُ مِنَ الزَّائِجِ“ . وقال المسعودى : ” قد حاز هذا الملك [أى المَهْرَاج] أنواع الطيب والأفاويه . . . ومما يجهز من أرضه من ذلك الكافور والعود والقرنفل والصندل والجوزبوم والقاقلة والكبابة وغير ذلك“ . وفى « مختصر العجائب » : ” جزيرة جَابَة وَشِلَاهُطُ . . بها نارجيل وموز وقصب سكر . وصندل وسُنْبُل وقرنفل“ . وقال الإدريسى : ” جزيرة شلاهط يخرج منها الصندل والسنبُل والقرنفل“ . وفى « معجم البحار » : ” جزيرة الشلاهط . جزيرة فى بحر الهند يجلب منها الصندل والسنبُل والكافور“ .

الرحلة الرابعة

السندباد يدفن حيا

سافر السندباد في رحلته الرابعة ، وجاب أنحاء البحر الشرقى الكبير ، حتى خرجت على السفينة ريح غير مؤاتية طوى الربان على إثرها شراعه ، وألقى بمراسيه . وإذا ريح صرصر عاتية تهب عليهم فتغرق المركب ، ويتعلق السندباد وبعض رفقاته بأخشاب طافية تحملهم أياما وليالى إلى جزيرة مجهولة . يسدون رمقهم ويطفئون ظمأهم بما وجدوا فيها من نبات كثير وماء صاف . وينامون مطمئنين إلى اليوم التالى حين ينهضون ليمتصوا حال الجزيرة . فإذا لاحت لهم عمارة عن بعد اتجهوا إليها فطالع عليهم قوم عمارة سود مفلقلو الشعور قادوهم إلى ملكهم فأكرم مشواهم ، وقدم لهم حشيشة أكلوها باعتبارها من مراسيم الضيافة ، كأوراق التنبول وحبوب الفوفل عند الهنود . ولكن السندباد الشديد الحرص ، القوى الملاحظة ، الواسع المعرفة ، أوهم أنه يأكل فكان فى هذا نجاته . أما أصحابه فقد زاغت عيونهم وذهلت عقولهم . ثم جاءوا لهم بدهن النارجيل فسقوهم منه ودهنهم به ، وقدم إليهم الأرز المطبوخ بدهن النارجيل فتناول السندباد منه القليل . بينما أصحابه راحوا يزددون ما بالصحاف كالجانين . والسندباد يختلس النظر إلى مضيفه العراة فيمتلى ، قلبه رعباً من سحناتهم الخفيفة .

وسلم الملك ضيوفه إلى رجل سار بهم فى أنحاء الجزيرة يرعاهم كالسائمة ، والسندباد معهم نحيف هزيل لقلة أكله . مما جعل أهل الجزيرة يهملون أمره ، ويتركونه وحده يتجول حيث شاء . ولقى ذات يوم رجلا جالسا على

ريرة يشرف على خلق كثير يرعاهم وقد فقدوا عقولهم واكتنز لحومهم وتضخم
سجدهم . فلما لاحظ الراعى أن السندباد مالك لحواشه أشار إليه أن يدنو ،
وسأله إذا كان يفهم معنى رعى هؤلاء المساكين . فأجابه السندباد بأنه يحسب
مسيرهم منتهياً فوق مائدة الملك ورجاله المتربين ، وقبرهم موزعاً بين بطون
أهل المملكة ، فقال الراعى : الأمر كما قلت . الملك وحاشيته يفضلون
أكلهم مطبوخين ، أما عامة الشعب فيأكلونهم بلا شئ ولا طبخ . وما أنقذك
إلا تمغفك عن أكل الحشيشة التى قدمت لكم أول مجيئكم ، فأنج بنفسك .
ودله على معبر يسلك منه إلى طريق عام . وسلكه السندباد وهو يجرى أنا
ويمشى أنا آخر ويمتقوت بنبات الأرض ، ولا ينظر خلفه حتى أقبل الظلام
فاستراح قليلاً وحاول النوم . ولكن حالة القلق باعدت بينه وبين النعاس ،
فقام وقد انتصف الليل يسير على غير هدى حتى مضت عليه سبعة أيام ، وهو
يسترق النوم كل ليلة فوق الأشجار . وفى صبيحة اليوم الثامن رأى أشباحاً
بعيدة تتحرك فاقترب منها حريصاً أن لا يرى . فلما لاحظ أنهم فئة من تجار
القفل يشتغلون فى جمعه تقدم إليهم وحكى حكايته . فأبدوا أشد العجب
لخلاصه من آكلى لحوم البشر ، من لم ينبج منهم عابر بديارهم .
وعادوا به إلى بلادهم وأدخلوه على ملكهم فاحتفى به وهناك على نجاته .
وقدمه لوزرائه وكبرائه ، ودعاه للتجول فى حضرته ، فوجدوها مدينة عامرة
أنس إلى أهلها وإلى أديبهم وحسن وفادتهم . ولكنه لاحظ ظاهرة لا تتفق
وعمرانهم ، وهى ركوبهم الجياد الملاح عارية غير مسروجة ولا ملجمة . فلما
سأل الملك فى ذلك تبين له أنهم لا يعرفون السرج واللجام ولا فائدتيهما ،

فجاء بنجار ، علمه كيف يصنع هيكل السرج ، وأخذ صوفا فندفه وحشا به الهيكل وكساه بالجلد . وصقله وصنع له سيوراً ولجماً . وأمر الحداد فلدق له ركابات حلاها وفضضها . وعلق بالسرج أهداباً من الحرير ، وشده إلى جواد من خيرة جياد الملك . وتقدم به إليه فركبه ، وأبدي أعظم السرور والارتياح وأمر له بالعطايا وقد كبرت منزلته عنده . وجاء الوزراء والعظماء يعرضون بصنع أسرجة لخيولهم ؛ حتى راجت صناعة السندباد وجمع منها ثروة طيبة .

وذات يوم ناداه الملك ورغب في أن يراه دائماً المقام بينهم . وعرض عليه أن يعقد زواجه على امرأة مليحة من بيت طيب . فلم يحمر السندباد جواباً لكثرة حياته ، ولأنه لم يفكر بالزواج بعيداً عن أهله . وأعاد عليه الملك السؤال فلم ير مناصاً من إجابته إلى ما طلب . فأرسل الملك من وقته وساعته في طلب القاضي والشهود ، وزوجه بامرأة " شريفة القدر عالية النسب ، كثيرة المال والنوال ، صاحبة عفة وجمال " . وأعد له منزلاً وخداماً وحشماً ، ورتب له الجرايات والجوامك . فاستمتع بالراحة وبسط العيش ، ونسى شدائده السابقة . أما عن المستقبل فقد قال في نفسه " إذا سافرت اصطحبتهام معي " .

وحكاية الرحلة السندبادية الرابعة ، عند هذا الحد ، شبيهة في هذونها بما انتهى إليه أمر عبد الله البري بعد زواجه بابنة السلطان . وبعض الفن في القصتين هو في الوصول بهما إلى شيء من الاستقرار ينذر بالختام ، ثم يقفز القصاص فجأة بالحوادث إلى ناحية غير متوقعة . وهو يُعِدُّنا في حكاية الرحلة الرابعة لما يعتبر العقدة الكبرى في قصة السندباد البحري .

تذكر شهرزاد عرضاً للملك شهر يار أن جاراً للسندباد فقد زوجته

فذهب إليه يعزيه . وطبيعى أن يلقي الرجل مهموماً فيقول له : أطلال الله بقاءك ، ورحم الله الفقيدة ، وعوضك عنها خير العوض . فإذا الرجل يسترسل في بكائه ويقول له : وكيف يعوضنى عنها ، وقد أشرفت على الموت بوفاتها . يقدر السندباد في جاره تلك العاطفة النبيلة والإخلاص الكبير المتوفاة ويقول له : تشدد يا صاحبي ولا تذكر الموت فإنك بمنخر وعافية . فيرد الأرمل وقد خنقته العبرات : يا صاحبي ، وحياتك إنك في غد لا ترانى ، فتترحم على كما أترحم الآن على نفسى مقدما . ففى هذا النهار يدفنون زوجتى . ويدفنوننى معها فى قبر واحد . تلك عادتنا فى بلادنا ، إذا ماتت المرأة فإنهم يدفنون معها زوجها بالحياة ، وإن مات الرجل دفنوا معه زوجته حية . فيرد عليه السندباد فى سذاجة : بالله يا أخى إن هذه العادة رديئة جدا ، ولا يقدر عليها أحد . وفى نفسه أنه لا يقدر عليها لو قضى فى أمره بما يقضى به فى أمر أهل تلك المدينة .

وجاء الأصحاب والجيران أفواجا يقدمون العزاء للرجل عن نفسه وعن زوجته . وخرج الجميع يشيعون الحى والميت حتى وصلوا إلى ربوة مشرفة على البحر ، وأزاحوا حجراً ثقيلاً يغطى جبا . وأنزلوا المرأة ومعها ثيابها وحليها . ثم جاؤوا بالرجل وربطوه بحبل تحت إبطيه وهو يبكى ويودعهم ، ودلّوه فى البئر ومعه قدر ماء وسبعة أرغفة . فلما بلغ قاع الجب فك الحبل عنه فسحبوه ، وغطوا فوهة البئر بالصخرة الكبيرة . وعادوا يترحمون على الزوجين رفيق الحياة والموت . وعاد السندباد معهم مطرقا واجما ، وبنفسه أن يسألهم سؤالا يخشى ، بل ينتفض فرقا ، مما قد يكون جوابه .

يدخل السندباد ذات يوم على الملك متجلداً ، ويسأله متكلفاً الهدوء :
يا سيدى ، كيف تدفنون الحى مع الميت فى بلادكم ؟ . قال الملك : تلك عادتنا
توارثناها عن قدمائنا . فالزواج عقدة لا تحل ، وليس من الإنصاف أن يتمتع
أحد الزوجين بالعيش بعد رفيقه . وبعد أن داور السندباد وحاور سأل
الملك : يا ملك الزمان ، هل تعاملون الغريب فى دياركم بمثل هذه المعاملة ؟
فأجابه الملك : الغريب الذى يتزوج من نساءنا خاضع لطقوسنا .
خرج السندباد من حضرة الملك وقد انشقت مرارته ، وكاد يغيب عن
وعيه . وتخيل فى تلك اللحظة أن زوجته ماتت ، أو فى طريقها إلى الموت .
واستعاد صورة جاره وهو يُدلى بحبل إلى البئر العميق فوق جثمان زوجته ،
فعرته قشيرة شديدة . وأخذ منذ ذلك الوقت يدبر وسيلة للهرب ، ولم يكن
أمر هذا سهلاً . ثم ألهته الحياة وشئونها بعض الوقت ، مطمئناً إلى تمتع
زوجته بصحة تامة ، مقدراً لها حياة أطول من حياته . ولكنها أصيبت فجأة
بمرض قضى عليها فى أيام قلل ، وجاء الناس يعزونه فى نفسه وفيها . وأعدوا
المتوفاة بأنحر لباسها ، وزينوها بالقلائد والجواهر . وشيعوا جنازة الحى والماتة
إلى فوهة الجب حيث أنزلوا زوجة الرحالة . وجاءوا إلى السندباد يربطونه تحت
إبطيه ، وهو يصرخ محتجاً بأنه غريب عنهم لا قبل له بطقوسهم الرهيبة .
فأحكموا وثاقه ، وربطوا معه سبعة أرغفة وقدرًا من الماء وأنزلوه إلى قاع الجب ،
وهو صاخب لاعن ، يرفض أن يفك وثاقه ويترك لهم الحبل . فتركوه له وغطوا
فوهة الجب ، وسمع وقع أقدامهم تبتعد وجلبتهم تهذاً . وهو واقف وحده فى ظلام
القبر الموحش الرهيب ... وأدرك شهرزاد الصباح . فسكتت عن الكلام المباح ...

(فلما كانت الليلة الرابعة والخمسين بعد الحسمائة) قالت الأميرة الساسانية موجهة كلامها إلى الملك شهر يار :

بلغنى أيها الملك السعيد أن السندباد البحرى رأى وهو يدلى فى الجب أنه كهف مليء بالرميم البالى والجثث المتعفنة . فلما أطبق الحجر على فتحة القبر اشتمله الظلام الفاحم ، فجعل يتحسس سبيله حتى استطاع الابتعاد عن الموتى « الطريقين » ويأوى إلى ركن يفكر بما آل إليه حاله ، ويتأسف على سابق الفرص التى آتته للموت ، وكان أهون من ميته فى هذا الكهف الموحش اختناقاً أو عطشاً أو قزاعاً . وكلما جاع أكل كسرة من الخبز وشرب جرعة من الماء وهو يحسب حساب نفاذ زاده اليسير .

وترحزت الصخرة ذات يوم عن مكانها فاستضاء الكهف ، وإذا القوم واقفون على رأس الجب ينزلون رجلاً ميتاً ومعه زوجته حية ، وهى تبكى وتولول . وقد أنزلوا معها شيئاً غير قليل من الزاد والماء . والسندباد ينظر إلى المرأة من ركنه المظلم ، يرمق خبزها وماءها وقد تعلقت بهما أسباب حياته . تنازعت السندباد ولا شك عوامل شتى ، ويغلب على الظن أن المرأة أغشى عليها بمجرد وصولها إلى قاع الكهف جزعاً ورعباً ، وهى محكوم عليها بالموت البطيء مجارة للتقاليد والطقوس ، فما ذنبه هو الرجل الغريب حتى يموت ؟ قد يكون السندباد فكر طويلاً بموقفه ، أو قد يكون خوفه من الجوع والعطش انتزع منه ملكة التفكير . الغالب أنه ظل متجهاً بكل مشاعره فى الظلام الخالك إلى مامع المرأة من خبز وماء ، وإلى تلك الخلوة التى دفنت حية وسوف تموت على كل حال ، وأنه لم يرفارقاً كبيراً بين أن تموت بعد

فراغ خبزها ومائها ، أو أن يعجل هو بموتها فيطيل في حياته بقدر ما معها من قوت وماء . ولقد حكى الملاحون كثيراً من الحكايات اضطر فيها الناجون إلى أكل لحم الميتة ، بل والتضحية بواحد من بينهم ليعيش الباقون . وذكر يرون في قصيدته « دُنْ جَوَان » كيف غرقت سفينته وكيف ركب الناجون زورقا ولبثوا في البحر أياماً دون طعام ، وكيف اقترعوا أخيراً على من يؤكل منهم ف وقعت القرعة على مربى « دُنْ جَوَان » فأكلوه .

وهي ضربة واحدة يضرب بها رأس المرأة بقصة ميت تخلصها من عذابها ، وتوفر للسندباد شيئاً من الخبز والماء يبقى على حياته أياماً آخر .

عاش السندباد في الكهف الرهيب على خبز من دفنوا أحياء فعجل بموتهم . وقد تكون حياته امتدت أياماً أو أسابيع . ولكنها بدت له عمراً لا أول له ولا آخر . ولا أشك في أن هذا الرجل الشجاع الذي رأى الموت بعينه في أشد الصور هولاً ، لم يخط الشيب رأسه إلا من جراء حادث رحلته الرابعة . وقد عرف في هذا الحادث أن الشجاعة كلمة جوفاء ، وأن غريزة حب البقاء هي المحرك لأعمال الشجاعة والجلين على السواء . كان السندباد شجاعاً حيال الغول الأسود يفسخ في مفاصل رفقائه ، شجاعاً وهو ينصت إلى صوت عظام رفيقه تقعقع في جوف الثعبان . كما كان جباناً ندلاً وهو يضرب المرأة المدفونة حية على أم رأسها بقصة ميت ليستولى على قوتها . ولكنه شعر في محنته الحالية ، وهو يقتل المدفونين أحياء ، بأن لا فضل له في شجاعته السالفة ، كما لا ذنب له في نذالته الحاضرة . وأن لحظة بين الحياة والموت تمحو المعايير الأخلاقية أمام غريزة حب البقاء .

لسنا في عرض تبرير عمله أو تخطئته . وما دمنّا مطمئنين في عقر دارنا
فليس لنا أن نصدر حكماً على ما يرتكبه إنسان في ظروف لا يمكن أن تقدر
قسوتها . لا بدّ أنّا أن نقشع هولاً ، ولنفوسنا أن تعاف ، ولعقولنا أن تثور .
ولكن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً ، ولا هو معين لنا على إصدار حكم
أخلاقي للرجل أو عليه .

إنما أنا معجب بسلامة فن القصة حين أقارنه بفن كاتب عظيم كإدجار
ألان پو Edgar Allan Poe يعالج الموضوعات الرهيبة . وأذكر له قصة ينتقم
فيها أحد أبطاله من غريمه بأن يستدرجه إلى قبر مظلم في قصره ، ويحبسه في
ركن منه ، ثم يبني حول الركن جداراً أصم على صراخ الرجل الحى وأنيبته .
ما أبقت فيه الحياة قدرة على الصراخ والأنين .

أدب الكاتب الأميركي العظيم أدب عقلية يشوبها المرض ، وشعوره
يعتوره الاعتلال . تكاد تحس وأنت تطالع باللذة التي يجدها الكاتب في
سرد التفاصيل القاسية . أما صاحب قصة السندباد فسلامة عقله وصحة شعوره
تنقذان فنه حتى في أقسى المواقف . وآية هذا في بساطته وسذاجته . وحينما
يقص هوميروس حكاية دخول فريام الشيخ على أخيليس قاتل ابنه هكتور ،
ومطالبته بجثة هذا الابن ، وهو منظر من أشد مناظر الإلياذة قسوة ،
لا نحس بأن الشاعر راض أو غير راض بتلك القسوة . إنما هو يقصها على
أنها ضرورة من ضرورات القدر ليس غير . وكذلك موقف مؤلف قصة
السندباد البحري من بطل قصته وهو سجين في المقبرة .

وبينما كان السندباد نائماً ذات ليلة ، أحس بزفير سبيلك زهم فوق وجهه .

فقام فزعا وإذا صوت حيوان يولى هاربا . فقام يتبعه حاملا سلاحه المرتجل من قصبة الأموات ، وكان الحيوان دليله إلى سرب ضيق حشر السندباد نفسه فيه حتى يعرف آخره . ورأى عن بعد بصيصاً من النور يتألق كالنجم ، فأيقن بوجود منفذ إلى الخارج نقبه ذلك الحيوان ليتسلل إلى المقبرة . فجرى إليه ، وتنشق الهواء البارد المنعش ، وحفر بيديه حتى أوسع المنفذ وخرج منه إلى لطف أكمة على شاطئ البحر ، قائمة بينه وبين المدينة . ورمى بنفسه على الأرض لاهثاً ، سعيداً بخلاصه من المقبرة . ثم عاد إليها يحمل منها زاده وبعض ما فيها من حلى وجواهر . ولبت ممدداً فوق الأكمة يترقب مرور سفينة عابرة . واجتاز به مركب كبير لوح له بهامته . فأرسل له الربان زورقا حمله إلى السفينة . وهناك حرص أن لا يحكى حكايته خشية أن يكون من ركاب السفينة واحد من أهل المدينة التي يدفن فيها الأحياء مع الأموات . فادعى أنه غرق بسفينته ، واستطاع أن ينجو وبعض متاعه . وقدم للربان هدية فرفضها الرجل معتذراً بأن تقاليد النواخذة تمنع أن يتقاضى مكافأة على إنقاذ الغرق والضائعين ، بل هو متكفل بكسوتهم وأودم حتى يعيدهم إلى ديارهم . ولا ريب في أن حادث المقبرة كان من أشد حوادث السندباد وقعاً على مشاعره . وكما ذكر "تعوده في المغارة مع جثمان زوجته" غاب عقله وتشتت فكره . ووصلت السفينة إلى جزيرة كلاً بعد ستة أيام . ودخلوا مملكة كلاً ، "وهي مملكة في جانب الهند ، بها معدن الرصاص ، ومنابت الخيزران ، وفيها كافور جيد ، وملكها عظيم الشأن ، ويحكم على جزيرة الناقوس" . وباع واشترى وتعرض وعاد إلى البصرة ببغداد . ودخل داره ومعه من

الأموال والجواهر مالا يعد ولا يوصف . فتصدق على المساكين بالعطاء الكثير ، وانصرف إلى ما اعتاد عليه من التمتع ، ولكنه قائل هذه المرة بأنه "تمادى في أكل وشرب مع الندمان ، وانهماك في اللذات ، واثهاب للسرات" . ونظن أنه عاد إلى نزوات شبابه محاولاً أن يغمر في لجة اللهو الصاخبة آثار ما اقترفته يدها بحكم الضرورات القاسية . كذلك حال الكثيرين ممن يعودون من الحروب والمغامرات الخطيرة ، حيث تضطرم جبرية الأحداث إلى إتيان أعمال وحشية تأبأها نفوسهم المهدبة ، وتنفّرز منها مشاعرهم الرفيعة .

أشار النص الجغرافى^(*) للقصة إلى المكان الذى وصل إليه السندباد بعد خلاصه من القبر . فهو جزيرة ككلا ، وقد بلغها بعد ستة أيام ، ودخل مملكة كلا وقال عنها : "وهى مملكة فى جانب الهند بها معدن الرصاص ، ومنابت الخيزران ، وفيها كافور جيد . وملكها عظيم الشأن ، ويحكم على جزيرة الفاقوس" .

(*) نقصد « بالنص الجغرافى » صيغة القصة تبعاً للمخطوط الذى ترجم عنه جالان ، ونشره لانجليس فى باريس . وذلك لتمييزه عن نص طبقات القاهرة . وقد اصطلح بعض المستشرقين على تسمية النص الأول « النص السورى » ، والثانى « النص المصرى » ، باعتبار أن مخطوط النص الأول وجد فى سوريا ، والنص الثانى وجد فى القاهرة . ولا يهمنى المكان الذى عثر فيه على نص من النصوص بقدر ما يهمنى أسلوبه . فما يسميه المستشرقون « النص السورى » لا يمكن أن يكون مؤلفه سوريا بأى حال ، لأن لفته أقرب ما تكون إلى اللغة الدارجة المصرية القاهرية . وتسميتنا للنص الذى نشره لانجليس « بالنص الجغرافى » يرجع إلى أنه أكثر النصوص ذكراً لأسماء الأعلام الجغرافية وأعظمها تعريفاً بالمواضع التى سافر إليها السندباد ، أو رمت فيها المقادير .

ووقع السندباد ومن نجا من ركاب سفينته بجزيرة قوم سود مفلقلي
الشعور يأكلون الناس بطريقة خاصة ، يبدأون فيها بإطعام ضحاياهم « حشيشة »
تذهب يعقولهم ، ثم يسقونهم « دهن النارجيل » ويدهنونهم به ، ويقدمون
لهم صحاف أرز مطبوخ بذلك الدهن . ويرسلونهم مع حارس يرعاهم كالإبل .
وحينما هرب السندباد من السود المتوحشين ، وصل إلى منابت الفلفل
ورأى التجار مشتغلين بجمعه . ثم ساروا به إلى ملكهم ، وهناك لاحظ
السندباد أن القوم يركبون الخيل بلا عدة . وجمع ثروة من صناعة السروج
واللجم والركابات . وتزوج المرأة التي ماتت ودفنوه حيا معها .
كل هذه وقائع ذات أهمية كبرى في الاستدلال إجمالا على المواضع
التي حدثت فيها .

فحكاية الخيل التي تركب غير مسروجة ، لم يتخيلها مؤلف السندباد .
فهو إما طالعها أو سمع بها . وقد قال البيروني عن الهنود بأنهم " يركبون
بغير سرج ، وإن أسرجوا ركبوا عن يمين الدابة " . وتحدث رشيد الدين
ووصاف عن الخيل في بلاد المغرب ، أي شاطي " كوروماندل " : " وقال من
يعتد بكلامهم أن قد بلغ ما يصدر من الخيل سنويا إلى بلاد المغرب وكنبابة
والمواني الهندية الأخرى في زمن أتاك أبي بكر الفارسي عشرة آلاف
فرس ... ويأخذ الهنود هذه الخيل فير بطونها بحبال في سراطها أربعين يوما
حتى تسمن ، ثم يركبها الجنود كأنهم المردة والشياطين دون ترويضها ولا
سرج ولا لجم ... فلا يمضي وقت طويل حتى يصعب أقواها ويبطئ سراعها ،
ويهد ناشطها ، فتصبح كلها خيلا خرقاء لا فائدة فيها " .

وجزيرة « كَلا » أو « كَلَّه » موضع بعينه ذكره الرحالون والجغرافيون العرب ، وأشاروا إلى معدن « الرصاص القلعي » - وهو القصدير - بذلك الموضع . كما أشاروا إلى منابت الخيزران ، فقال ابن خردادبة : ” وبعد سرنديب جزيرة الرامي ... وجزيرة فيها ناس مفلقون يأكلون الناس أحياء يشرحونهم تشريحاً ... ومن أراد الصين عدل من بلّين وجعل سرنديب عن يساره . فمن سرنديب إلى جزيرة اللنجبالوس مسيرة عشرة أيام إلى خمسة عشر يوماً . وأهلها عراة وطعامهم الموز والسّمك الطرى والتارجيل وأموالهم الحديد . وهم يجالسون التجار . ومن جزيرة اللنجبالوس إلى جزيرة كله مسيرة ستة أيام . وهي مملكة جابة الهندي ، وفيها معدن الرصاص القلعي ومنابت الخيزران . وعن يسارها جزيرة بالوس أو جالوس على مسيرة يومين وأهلها يأكلون الناس “ .

وقال أبو زيد حسن السيرافي : ” نبتدى بذكر مدينة الزابج [Javaga] إذ كانت تحاذي بلاد الصين وبينهما مسير شهر في البحر وأقل من ذلك إذا ساعدت الرياح . وملكها يعرف بالمهراج . ويقال إن تكسيها تسع مائة فرسخ . وهذا الملك مملك على جزائر كثيرة يكون مقدار مسافة ملكه ألف فرسخ وأكثر . وفي مملكته جزيرة تعرف بسريرة ، تكسيها على ما يذكرون أربع مائة فرسخ . وجزيرة أيضا تعرف بالرامي تكسيها ثمانمائة فرسخ فيها منابت البقم والكافور وغيره . وفي مملكته جزيرة كَلَّه ، وهي المنصف بين أراضي الصين وأرض العرب ، وتكسيها على ما يذكرون ثمانون فرسخاً . وبكلّه مجمع الأمتعة من الأعواد والكافور والصندل والعاج والرصاص

القلعي والأبنوس والبَقَم والأفاويه كلها وغير ذلك مما يتسع ويطول شرحه“ .
وقال أبو دَلَفٍ مِسْعَر بن مَهْلَهْل يصف رحلته وما شاهده في بلاد الترك
والصين والهند [انظر « معجم البلدان » لياقوت الحموي] : ” نخرجت إلى
الساحل أريد كله وهي أول الهند وآخر منتهى مسير المراكب لا يتهاها أن
تتجاوزها وإلا غرقت . قال فلما وصلت إلى كله ، رأيتها وهي عظيمة عالية
السور كثيرة البساتين غزيرة الماء . ووجدت بها معدناً للرصاص القاهي لا يكون
إلا في قلعتها في سائر الدنيا ... وخرجت منها إلى بلد الفلفل فشاهدت نباته
وهو شجر عادي لا يزول الماء من تحته . فإذا هبت الرياح تساقط حمله فذلك
تسجنه . وإنما يجتمع من فوق الماء . وعليه ضريبة للملك . وهو شجر حر
لا مالك له . وحمله أبدا فيه لا يزول شتاء ولا صيفا . وهو عناقيد فإذا حيت
الشمس انطبق على العنقود عدة من ورقه لئلا يحترق بالشمس ، فإذا زالت
الشمس زالت تلك الأوراق “ .

وقد انتهى تحقيق الجغرافيين والمستشرقين إلى أن « جزيرة » كله هي
شبه جزيرة مَلَقَا [يلاحظ أن كلمة جزيرة عند العرب تطلق على الأرض المحاطة بالماء من
كل جهاتها أو من أكثر جهاتها] . وكانت محط التجارة المنقولة بين بحر الصين
وبحر الهند وفارس . لعبت في القرون الوسطى دوراً شبيهاً بالدور الذي تؤديه
سنغافورة في العصور الحديثة . والرصاص القلعي هو القصدير الذي اشتهرت به
ملقا حديثاً كما اشتهرت قديماً . ويظهر أن نسبة هذا « الرصاص الأبيض » ،
كما يصفه المسعودي ، إلى « قلعة كله » خطأ نشأ عن سماع العرب بنسبته
إلى كله أو كَلَاه [كَلَاهِي] . ولم يتفق علماء الجغرافيا الحديثون على موضع

كله بالذات في شبه جزيرة ملقا . وقد ذهب فلكيناير إلى أنها ربما كانت فيما يسمى اليوم « مقاطعة كيداه » .

وكانت « جزيرة » كله ضمن مملكة المهرج ، أى من بلاد الزابج . وهذه تشمل على الأقل الجزيرتين العظيمتين سومطرة وجاوة . وإذا كان ابن بطوطة قد ذكر أمر نزوله إلى مدينة سمطرة في جزيرة « جاوة » فليس ذلك عن خلط بين الجزيرتين . لأن إطلاق اسم سومطرة على الجزيرة التي تعرف الآن بهذا الاسم جاء بعد ابن بطوطة وماركوبولو بزمان طويل . وكان اسمها في عهد ابن بطوطة « جاوة » بينما كان اسم ما تعرف اليوم بجاوة ، هو « مل جاوة » . وعرف ماركوبولو الجزيرتين باسم Java major وهذه هي جاوه حالا و Java minor وهذه هي سومطرة حالا . أما جزيرة الرامبي أو الرامني فقد أثبت الكولونيل يول Yule أنها موضع في الطرف الشمالي من جزيرة سومطرة . وإلى الغرب من شاطئ سومطرة موضع اسمه باروس وهو الذي يرد في الجغرافيا العربية تحت اسم بالوس . وفي بحر بنغالة مجموعتان من الجزائر ، أولاهما جزائر النكوبار ، وهذه تسمى في كتب العرب اللنج بالوس أو اللنكبالوس . وثانيتهما جزائر الأندمان ، وهذه تزد في تلك الكتب بهذا الاسم . وقد تكتب الأندمان .

المهم أن نكون أولا صورة واضحة من الجغرافيا الحديثة لتلك المنطقة حتى نستطيع فهم الفقرات التي نقلناها عن كلة [انظر الخريطة في صدر الكتاب] والفقرات الأخرى التي سنوردتها . وهذه وتلك في مجموعها سوف توضح لنا المواضع التي فرض مؤلف القصة وقوع بطله فيها . وتكشف لنا من جهة

أخرى عن المصادر التي استرشد بها ، أو بما يعد في حكمها ، لينشئ حكاية الرحلة الرابعة في مجموعها ، وحادث القول الأسود في مطلع الحكاية الثالثة .

قال التاجر سليمان : ” وفي هذا البحر [مِرْكَنْد] إذا رُكِبَ إلى مِرْكَنْدِيب جزائر ليست بالكثيرة غير أنها واسعة لا تضبط . فيها جزيرة يقال لها الرامني ، بها عدة ملوك ، وفيها كثيرة ، وفيها البقم والحيزران ، وفيها قوم يأكلون الناس . وهي تشرع على بحر ين : هِرْكَنْد وشِلَاهِط . وبعد هذه جزائر تدعى لَنْجَبَالُوس ، وفيها خلق كثير عراة ، الرجال منهم والنساء ، غير أن على عورة المرأة ورقاً من ورق الشجر . فإذا مرت بهم المراكب جاؤوا إليها بالقوارب الصغار والكبار وباعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد . . . ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال له أندمان وأهلها يأكلون الناس أحياء ، وهم سود مفلقلو الشعور ، مناكير الوجوه والأعين ، طوال الأرجل ، قدم أحدهم مثل الذراع ، عراة ليس لهم قوارب . ولو كانت لهم لأكلوا كل من مر بهم . وربما أبطأت المراكب في البحر وتأخر بهم السير بسبب الرياح ، فينفذ ما في المركب من ماء ، فيقربون إلى هؤلاء فيستقون الماء . وربما أصابوا منهم ، ويفلتون أكثر . . . وذكروا أن في جزيرة يقال لها ملحان فيما بين سرنديب وكله ، وذلك من بلاد الهند في شرقي البحر ، قوما من السود عراة إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علقوه منكساً ، وقطعوه وأكلوه نيا . وعدد هؤلاء كثير في جزيرة واحدة ، وليس لهم ملك ، وغذاؤهم السمك والموز والفارجيل وقصب السكر ، ولهم شبيه بالغياض والآجام . “

وجاء في « نزهة المشتاق » للإدريسى : ” وبالقرب من جزيرة الرامى
فى جهة الجنوب . . . جزيرة جالوس [باروس] . . . وأهلها قوم سود غزاة
يأكلون الناس . . . ومن جزيرة لنجبالوس إلى جزيرة ككه مسير
سته أيام . . . وهى مدينة كبيرة يسكنها ملك يقال له جابه الهندى . وبها
معادن كثيرة للرصاص القلعى . . . وفى هذه الجزيرة عجائب يقع واصفها فى
فى حد التكذيب [لا أشك فى أن الإدريسى هنا لا يقصد ككه ، وإنما يقصد بلاد
الزايج كلها] . ويلى هذه الجزيرة جزيرة جابه وجزيرة شلاهط وجزيرة
هزلج . وبين كل منها وأختها فرسخان وأكثر وأقل . وهذه الجزائر كلها
إلى ملك واحد يسمى جابه “ [وهو المهرج ملك جابه ، أو جايجا Java أو جايجا]
لا بد وأن يكون مؤلف السندباد فكر بهذه الجزائر وهو يكتب
حكايته الثالثة والرابعة . فقد عرفت من قديم الزمان بأنها مسكن قوم سود
مفللى الشعور يأكلون الناس سواء فى ذلك جزائر اللنجبالوس [النكوبار]
أو الأندمان . أو النيان [نياس Nias] أو بعض مواضع من جزيرة سومطرة
مثل الرامنى ولاسرى وبالوس أو باروس . والواضح أن بطل القصة وقع
بأحدى جزائر العراة آكلى لحوم البشر ، وهرب منها إلى مكان رأى فيه
الناس يجمعون الفلفل ، ثم سافر معهم إلى حاضرة ملكهم وهناك انتهى بأن
يدفن حيا . فلما تخلص من المقبرة سافرت به المركب ستة أيام إلى ككه معدن
الرصاص « القلعى » . وقد يشير كل هذا إلى أنه وقع فى أول أمره بين أيدي
جماعة من آكلى لحوم البشر القاطنين بجزيرة سومطرة — وما تزال قبائل
البتاك Bataks معروفة إلى هذا اليوم بجمبال سومطرة ، وكانوا إلى عهد حديث

جدا يا كلون الناس — ثم هرب إلى منابت القنطار . ومنها سافر مع تجار القنطار إلى مكر ملك من ملوك الجزيرة . وقد يكون وقوعه بين أيدي سكان جزيرة التنجبالوس [الكوبار] ، أو الأندمان . كما لا نستبعد أن تكون جزيرة التانوس التي أشار مؤلف القصة إلى أن ملك كله « يحكم عليها » ، هي « بالون » وخرقها السائح إلى فانوس كما حرقوا جزيرة « بر — طابل » إلى جزيرة كاسل . ولقد أشار ماركوبولو في رحلته إلى جزائر التكو بار [نكوتيران] والأندمان [أجمانيان] ، فقال عن هذه الأخيرة : « وصدقني ، إن لسكان هذه الجزيرة رؤوساً كرهوس الكلاب ، وأسناناً وغيوناً كذلك . وفي الحق إن سمعتهم كسمعت نوع من الكلاب . . . وهم قوم قساة يا كلون من يقع لهم من الناس من غير قومهم »^{٤٤} .

وسكان الأندمان سود شرميون من أوضع وأوحش المخلوقات . ويؤكد الكولونيل يول بأنهم كانوا يقتلون ويأكلون البخارة الضالين قبل احتلال البريطانيين للجزيرة سنة ١٨٥٨ . وما زالوا — على الأقل إلى عهد يول ، أي في أواخر القرن الماضي — يسيزون عرايا ، إلا النساء فيغطين سواآتهن بأوراق الشجر . وتشبه وجوه بعض المتوحشين بوجه الكلب ، تشبه قلائم يزد على لسان قداماء الجغرافيين حتى كوتريلان . والأصل فيه تقرر الناح من السمعة الرافضة . وقد وصف أهل كوبا الكولومبيون سكان الكاريب بأنهم آكلو لحوم البشر ، ولهم أنوف الكلاب . وكذلك شبه ابن بطوطة أنوف بعض أهل سواحل أركان بأنوف الكلاب .

وقال السائح الصيني هوي تشانج Huen-Tsang بأن سكان التكو بار

— وهى كَنَجِيَّالوس العرب — لايتعدى طولهم ثلاثة أقدام ، ولهم أنفواه كنفائر الطير ، ويعيشون على النارجيل . وسمى الصينيون هذه الجزائر « الراكشاه » ، أى « الشياطين » لاعتقادهم بأنهم يأكلون الناس . وقال تو-ين Tu-yen إن سكانها يهولوا الحلقة ، جر الشعور ، سود الجلود ، أسنانهم كأسنان الوحوش ، وأظلالهم كأظلال الصقور . ووصفهم الكولونيل مان الكولونيل يول : « وسكانها متوحشوا الحياة ، بأذرع طويلة ، وأنياب بارزة » . والحشيشة التى أضاعت عقول أصحاب السندباد يظلب أن تكون حشيشاً خالصاً [hemp] ، أو خليطاً من « الحشيش » والداتورة والأفيون والخربق [hellebore] والبنج [henbane] وذكر السائح ديفيس الذى زار سومطرة سنة ١٥٩٩ م أن بتلك الجزيرة "حباً إذا أكل منه الإنسان انقلب مجنوناً ، وتغيرت له معالم الأشياء" . وقال دامبير Dampier "إن سكان سومطرة يستعملون حشيشة يسمونها جَنَج أو بَنَج ، إذا نعت وشربت ، أثرت في شاربها حسب مزاجه . فالبعض يصبح كالمتوه ، والبعض الآخر يستولي عليه النعاس ، أو ينتشى فرحاً ، أو يصاب بحس في عقله" .

وننتقل الآن إلى حكايات يعينها يبدو فيها شبه غريب بما حدث للسندباد في رجليه الثالثة مع الغول الأسود ، والرابعة مع السيود المقلبي الشعور .

أورد القزويني في كتابيه « عجائب المخلوقات » و « آثار البحور » حكاية عن جزيرة سَكْسَار وهى "جزيرة بعيدة عن العيران في بحر الجنوب" [آثار البلاد] ، وإحدى جزائر بحر الزنج [عجائب المخلوقات] ، قال :

"حكى يعقوب بن إسحاق السراج قال : رأيت رجلاً في بعض الأسفار

بوجهه خموش ، فسأله عن ذلك فقال : ركبت البحر فالتقتنا الريح إلى جزيرة لم نستطع أن نبرح عنها . فأتى قوم وجوههم كوجوه الكلاب ، وسائر أبدانهم كأبدان الناس . فسبق إلينا واحد منهم بعضا ، ووقف الآخرون . فساقنا إلى منازلهم فرأينا هناك الجماجم والسيقان وأذرع الناس ، وأدخلونا بيتاً رأيت فيه إنسانا . فجعلوا يأتوننا بالفواكه والمأكول . فقال ذلك الرجل : يطعمونكم لتسمنوا ، ومن سمن منكم أكلوه . قال : فكنت أقلل المأكول حتى لا أسمن . وكل من سمن من أصحابي أكلوه حتى بقيت أنا وذلك الرجل ، لأنى كنت هزيبا والرجل عليلا . فقال ذلك الرجل إنهم قد حضر لهم عيد يخرجون كلهم إليه ثلاثة أيام . فإن أردت النجاة فأنج بنفسك ، وأما أنا فقد ذهبت رجلاى لا يمكننى الهرب . واعلم أنهم أسرع شىء طلبا ، وأشد استنشاقا وأعرف بالآثر ، إلا من دخل تحت شجرة كذا فإنهم لا يطلبونه ، ولا يقدرّون عليه . قال : فكنت أسير ليلا وأكن نهاراً ، فلما رجعوا وتفتدوني جعلوا يقصون أثرى فأدركونى وكنت تحت الشجرة فانقطعوا عني ، ورجعوا فأمنت .“

ليس بعيداً أن تكون هذه الحكاية مصدر حادث أكلة البشر في الرحلة الرابعة . خصوصاً وأن مؤلف القصة قد انتفع في حادث من حوادث الرحلة الخامسة ببقية ما ذكره القزويني عن جزيرة سيكسار .

على أن الحكاية التي نوردناها فيما يلي نقلا عن كتاب « عجائب الهند » — والأغلب أنه أقدم تأليفاً من كتب القزويني — تثبت في أقل ما يمكن إثباته أن مصادر القزويني وبزرک بن شهریار ومؤلف قصة السندباد هي

حكايات البحريين . فحدث جزيرة سكسار بالذات شبيه بما جرى لاسندباد وأصحابه في رحلته الرابعة ، وكلاهما وحادث الغول الأسود في الرحلة الثالثة قريب الشبه بما نوردته توأ من كتاب « عجائب الهند » ، وبما جاء في النشيد التاسع من « الأوديسية » عن العمالقة العور « الكيكلوبي » Cyclopaes . قال بزرك بن شهر يار الناخداة في « عجائب الهند » : ” سمعت من حكى أن رجلا من أهل البصرة خرج منها قبل الزايج أو ما قاربه فتخلص ووقع إلى جزيرة . قال : فصعدت تلك الجزيرة وتعلقت بشجرة كبيرة فواريت شخصى بين أوراقها وبت ليلتى . فلما أصبحت رأيت غنا قد أقبلت نحو مائتى رأس فى قدر العجاجيل ، يسوقها رجل لم أر مثله ، عظيم الحلقة ، طويل عريض ، بشع المنظر ، ومعه عصاة يسوق بها الغنم . فعد على ساحل البحر ساعة ، والغنم ترعى بين ذلك الشجر . ثم طرح نفسه على وجهه فنام إلى حدود نصف النهار . ثم قام فرمى نفسه فى الماء واغتسل ، وخرج وهو مع ذلك عريان ليس عليه إلا ورقة تشبه ورق الموز إلا أنها أعرض منه ثم عاد إلى شاة فقبض رجلها وأخذ ضرعها فى فيه ومصه إلى أن أشرب ما فيه . ثم فعل ذلك بعدة من الغنم ، ثم استلقى فى ظل شجرة . ففى تأمله الشجرة وقع طائر على الشجرة التى أنا فيها . فأخذ حجرا ثقيلا وحذف الطائر فلم يكذب ، فسقط الطائر بين أغصان الشجر بالقرب منى ، فأومى إلى يده أن أنزل . فلدخوفى منه بادرت وأنا ضعيف ميت خوفا وجوعا . وأخذ الطائر ورمى به إلى الأرض ، فقدرت أن وزن الطائر نحو مائة رطل . ثم نتف ريشه وهو حى يضطرب ، وأخذ حجرا قدر عشرين رطلا فضرب به

رأسه ، وتركه حتى مات ، ثم لم يزل يضربه بالحجر حتى فسخه ، ثم جعل ينمشه بأسنانه ويأكل كل كائناً كل السباع حتى أتى عليه ولم يبق إلا عظامه . فلما اصفرت الشمس قام وأخذ العصا وساق الغنم بعد أن صاح صيحة أفرعتني . فاجتمعت الغنم إلى موضع واحد ، وأوردتهم خليجاً في الجزيرة فيه ماء عذب ، فسقام ، وشرب وشربت وقد أيقنت بالموت . ثم ساقنا جميعاً حتى جئنا موضعاً قد علمه بين الأشجار وحوله الخشب طويلاً وعرضاً ، وله شبه باب . ودخلت الغنم ودخلت معها ، وإذا وسط ذلك الموضع مثل الغزالة في ارتفاع نحو عشرين ذراعاً ، على خشب وثيق ، والغزالة شبه بالبيت . فما عمل شيئاً دون أن أخذ شاة كانت من أصغر الغنم وأهز لها فوق رأسها بحجر ثم أجاج ناراً وجعل يقطع بيديه وأسنانه كما تفعل السباع ، ويرمي اللحم مع الجلد والصوف في النار . فأكل كل ما في جوف الشاة نياً . ثم عمد إلى الغنم فلم يزل يشرب من هذه وهذه حتى شرب من عدة كبيرة . . . ثم أخذ شيئاً كان يشربه ، ثم نام فجعل يغط كما يغط الثور . فلما انتصف الليل جعلت أدب قليلاً قليلاً إلى موضع النار وتبعته ما بقي من اللحم ، فأكلت ما يمسك رمقي ، وخفت أن تنفر الغنم فينتبه فيجعلني مثل الطائر أو كالشاة . وبقيت مطروحة إلى القد . فلما أصبح نزل وساق الغنم وساقني معهم ويومى إلى بكلام لا أفهمه ، فأتكلم بما أعرف من اللغات فلا يفهم مني . وقد صار على شعر عظيم ، وأظنه لما رأى على هذه الصورة عافتني نفسه . وكان ذلك سبب تأخير أكله . ولم أزل معه في تلك الحالة عشرة أيام يفعل كل يوم مثل ما يفعل قبله ، ولا يمشي يوم إلا ويمطاد الطير والطيور . . . فإن حصل له من الطيور

ما يشبعه لم يأكل شيئاً من الغنم ، وإن اقتصرت الطيور أكل شاة . وصرت
أعوانه في وقيد النار ، وجمع الحطب ، وأخدمه وأدبر الحيلة لنفسه إلى أن
مضى لى عنده شهران وصلاح جسمي ، ورأيت في وجهه آثار السرور ، وفهمت
أنه غنم على أكله . وكان يأخذ من شجر في الجزيرة له ثمر ينقعه في الماء
ثم يصفيه ويشربه فيسكر طول ليلته حتى لا يعقل . وكنت أرى في تلك
الجزيرة طيوراً كباراً كالقيل والجاموس وأكبر وأصغر ، ومنها شيء قد
أكل بعض غنمه . وإنما يبيت هو وغنمه في تلك الحظيرة خوفاً من تلك
الطيور ، لأنها [أي الحظيرة] بين شجر كبار ، وقد جعل تحت الشجر
مثل السرايب . والطيور يفرع أن ينزل إلى هناك فيتعوق في الأشجار . فلما
كان في ليلة من الليالي صبرت حتى سكر ونام فقامت وتعلقت بشجرة ،
ودليت غصناً من أغصانها إلى الأرض ، ومضيت على وجهي أطلب صحراء
قد كنت أشرفت عليها من تلك الشجرة . فلم أزل أمشي إلى الصباح ، ثم
خفت وتعلقت بشجرة عظيمة الساق ومعي خشبة قد أعذدتها . وعملت على
أنه إن لحقني ضربت رأسه ، فإما أن أدافع عن نفسي ، وإما أن يقتلني ،
فالموت لا بد منه . فمكثت يوم في شجرة فلم أره . وقد كنت أخذت معي
قطعة من اللحم . فلما أمسيت أكلتها ونزلت فمشيت ليلتي إلى الصباح فوجدت
نفسى في صحراء ، وفيها أشجار متفرقة . فمشيت وما أرى أحداً إلا الطيور ،
ووحوشاً لا أعرفها ، وحيات . ورأيت ماء عذبا ، فأقت بمكانى ، وجعلت
أخذ من تلك الثمار واللوز فأكل وأشرب ، والطيور تطوف بالنوطة .
فمايت طيراً منها ، فأعددت شيئاً من قشور الشجر مثل الحبال ، ولم أزل

أرصد ذلك الطائر حتى سقط يرعى . ودرت من خلفه فتعلقت بساقه وهو مشغول يرعى فشددت نفسي . فلما فرغ من أكله شرب ماء وحلق في الهواء فأشرفت على البحر ، فاستبسلت للموت على أى حال كان لا محالة ، فأنحط على جبل فى جزيرة فخلت نفسي من ساقه وأنا ضعيف ، فجعلت أجر نفسي خوفا منه ، ونزلت من الجبل وتعلقت بشجرة وأخفيت شخصى فيها . فلما أصبحت رأيت دخانا فعلمت أن الدخان مع الناس ، فنزلت أمشى إلى ناحية الدخان . فما مشيت قليلا حتى استقبلنى جماعة فأخذونى وكلونى كلاما لم أعرفه فحملونى إلى القرية ، فأدخلونى إلى منزل ، وحبسونى مع ثمانية أنفس ، فسألونى عن خبرى فحدثتهم . وسألتهم ، فخبرونى أنهم أهل مركب فلان ، وكان قد خرج من الصَّنْف إلى الزَّابَج ، فوقع عليهم الخب ، فتخلصوا فى قارب المركب نحو عشرين رجلا ، فوقعوا إلى هذه الجزيرة ، فأخذهم قوم فاقتسموم ، فأكلوا منهم جماعة إلى هذا الوقت . فنظرت وإذا مقامى عند صاحب الغنم كان أصلح ، فجعلت أتأسى بالقوم وإن كنت أو كل فقد هان على الموت ، وبعضنا يتأسى ببعض . فلما كان من الغد جاءونا بسمسم أو شيء يشبهه ، وموز وسمن وعسل وضعوه عندنا . فقالوا هذا طعامنا منذ وقعنا هاهنا ، فأكلنا مقدار ما يسد رمقنا . ثم جاءوا فنظروا إلينا ، وأخذوا أحسننا حالا فى جسده ، فودعناه وقد كان بعضنا أوصى ببعض ، فأخرجوه إلى وسط المنزل ، ودهنوه من رأسه إلى قدمه بالسمن ، ثم أقعدوه فى الشمس مقدار ساعتين ، ثم اجتمعوا عليه فذبحوه وقطعوه قطعا ، ونحن نرى . ثم شوره وأكلوه وطبخوا بعضه ، وأكلوا بعضه نيا مملوحا . ثم شربوا شرابا

وسكروا ، فناموا . فقلت لهم قوموا نقتل هؤلاء فإنهم سكارى ، ونخرج على وجوهنا ، فإن سلمنا فالحمد لله ، وإن هلكنا فهو أسهل من هذا البلاء الذى يحل بنا ، وإن لحقنا أهل القرية فهى موتة واحدة . فاختلف رأينا بقیة يومنا ، وأضعنا الليل . وأصبحنا فجاءوا بما نأكل على الرسم المعتاد ، ومضى أول يوم وثانى يوم وثالث يوم ورابع يوم ونحن على تلك الحالة . فلما كان فى اليوم الخامس جاءونا فأخذوا منا واحداً ففعلوا به مثل الأول . فلما سكروا وناموا أقامنا إليهم فذبحنهم بأسرهم وأخذ كل واحد منا سكيناً وشيئاً من العسل والسمن والسمن . فلما أظلمت الدنيا خرجنا من المنزل . وقد كنا ميزنا النهار فمشينا نطلب ساحل البحر من جانب آخر لا من شط القرية ، ودخلنا غوطة فتعلقنا بالشجر ونحن سبعة خوفاً من القوم . فلما جن الليل نزلنا ومشينا ونحن نأخذ الطريق على الكواكب ، وأخذنا نمشى على الساحل يومنا . ثم أمنا القوم فكنا الآن نمشى ونستريح ، ونأكل من ثمار الغيضة وهى كثيرة الموز زمانا طويلا . إلى أن وقعنا فى غوطة حسنة وفيها ماء عذب طيب فعزمنا على البقاء بها أبداً إلى أن يقع إلينا مركب أو نموت فيها . فمات منا ثلاثة ، وبقينا أربعة . فبينما نحن فى بعض الأيام نمشى ، وإذا بقارب خلق قد قذف به الموج وفيه جماعة موتى قد تقطعوا والقارب جانب فى الطين ، والموج يضربه وهو مطروح . فاحتلنا فى رميهم إلى البحر ، وغسلنا القارب ، وأخذنا معنا طينا من طين الجزيرة مثل الغرى ، وأصلحنا فيه دقلا من الشجر ، وسوينا حبالا من خوص النارجيل وشراعاليفا ، وملأنا بطن القارب من النارجيل والفاكهة ، وملأنا معنا ماء ، وبعضنا يدرى سفر البحر . وسرنا نحو خمسة عشر يوما ،

موقعنا بقرية من قري الصنّيف بعد أهوال وعجائب مرت بنا . وسرنا من تلك
القرية إلى أن وصلنا الصنّيف ، وخبرنا الناس بأخبارنا فجمعوا لنا زواجا
وخرج كل واحد منا يقصد بلدا ، ورجعت إلى البصرة بعد أربعين سنة .
وقد مات أكثر أهلنا ، ووجد لوالده ولداً فأنكروه . فقد كانوا لما انقطع
خبره قسموا ماله وكان موسراً ، حسن الحال فلم يصل من ماله إلى شيء ثم
مات بعد ذلك .“

جمعت هذه الحكاية بين ما يشبه أن يكون قصة الغول الأسود في رحلة
السندباد الثالثة ، وقصة المتوحشين في الرحلة الرابعة . وإذا لم يكن صاحب
حكاية « عجائب الهند » قد أعنى الغول كما في حكاية السندباد ، فإن ما يحدث
لأصحابه مع المتوحشين كثير الشبه بما جرى لأصحاب السندباد في الرحلة الرابعة
من دهنهم بالسمن [دهن النارجيل في قصة السندباد] قبل أكلهم . فهذه ، إلى
ما جاء بكتب الجغرافيا والرحلات والعجائب مما أوردناه ، آثار ما كان يترامى
إلى الناس على ألسنة الرحالين والبحريين من حوادث المتوحشين على شواطئ
الزايج [سومطرة] ، وجزائر الأندمان والبنجبالوس [النكوبار] والنيان [نياس] .
ولكن هذا لا يفسر التشابه العجيب بين حكاية الغول الأسود في رحلة السندباد
الثالثة ، وبين حادث العملاق الأعور [الكيلوب] في « الأوديسية » .

وأوديسيوس بطل ملحمة هوميروس الذائعة الصيت هو سندباد يوناني
أقدم بكثير من السندباد العربي ، جاب أنجاء البحر الأبيض تائها ، كما
طوف السندباد في البحر الشرقي الكبير . ولقد خرج أوديسيوس من
بلاطه إيثاكا مع العشار اليونانية التي أخذت بناصر مينلاوس الإتريدي

خند قاريس بن فريام خاطف زوجته هيلانة الجميلة . خرجت جحافل اليونان ونزلت بأرض « إليون » ، وحاصرت المدينة المنيعه عشر سنوات . لم تتغلب عليها إلا حينما اصطنع أوديسيوس الواسع الحيلة حصانا خشبياً كبيراً ، اختبأ في باطنه نخبة من محاربة اليونان ، وجاء الطرواديون فسحبوا الفرس الخشبي إلى داخل أسوار مدينتهم ، على اعتبار أنه مرسل من الآلهة . فخرج أبطال اليونان تحت ستار الليل وهجموا على أبواب المدينة وفتحوها لأصحابهم . وهكذا سقطت إليون الحصينة ، وأعمل فيها الإغريق التقتيل والسبي والنهب ؛ ثم عادوا إلى ديارهم ، إلا أوديسيوس فقد ركب البحر الأخضر يشيعه غضب الإلهة الحامية لطروادة ، التي استنجدت بإله البحر فوسيدون ، واستطاعت أن تؤخر عودة ملك إيثاكا سنوات طويلةً يجوب في البحر تائهاً ، ويجتاز شتى الأهوال قبل أن يعود إلى أحضان زوجته الوفية فيلوكا .

يتحدث أوديسيوس ، وهو في بلاط الملك أليكنوس ، عما جرى له في جزيرة العمالة المور مع رئيسهم بوليفيموس ، وحديثه يكون النشيد التاسع من أناشيد الأوديسية ، وهذا مجمله :

كان بوليفيموس كالطود الشامخ ، دخل إلى كهفه يسوق غنمه . وكان أوديسيوس قد لجأ ورفاقه إلى ذلك الكهف ، فلما رأوا القلاق الأعور سارعوا إلى الاختباء فرقا ورعباً . وإذا الكيكاوب يدخرج صخرة هائلة على باب الكهف فيحبسهم .

ثم يتخير اثنين منهم فيضرب بهما الأرض ، ويفسختهما فسختاً ، وياً كلهما الحما ، ويمصصهما عظماً . ويكرر ذلك ليلة إثر ليلة حتى يهتدى

رب الحيل أودسيوس إلى غصن شجرة زيتون يحميه في النار ، ويقوم ورفاقه إلى الكيكلوب النائم يحملون العود المتوقد . ويدفعونه في محجر عين العملاق الوحيدة وسط جهته ، ويدير أودسيوس العود كالثقاب حتى لا يقصر عن غرضه . وينهض العملاق الأعمى يطارده غماده ، فيختبئون تحت بطون الغنم متشبثين بفرواتها . ويقف العملاق بباب الكهف ويفتحه مترقباً هروب أودسيوس ورفاقه ، ولكنهم أفلتوا من بين يديه محتمين ببطون الغنم ، وركبوا صراخهم وأقلعوا سراعا . ونادى أودسيوس على بوليفيموس يتندر به ، ويعرفه بنفسه ، وكيف انتقم لرفاقه . فاقتلع بوليفيموس شطراً من جبل ، وألقاه في البحر فأخطأ السفينة ؛ وواصل أودسيوس سخريته والتفاخر بانتصاره ، فاقتلع الكيكلوب قطعة جبل آخر وألقاها على سفينة البطل اليوناني دون جدوى .

وكان أودسيوس قبل هذا قد قص على الملك أليكنوس قصته في « جزيرة اللوتس » ، حين قدم أهلها لأصحابه ثمار « اللوتس » فأكلوا منه ، وإذا هم يفقدون رشدهم ، وينسون ماضيهم وأهلهم وأوطانهم .

ففي الحكايتين شبه غريب بما جرى للسندباد مع العملاق الأسود ، ثم مع المتوحشين الذين قدموا لرفاقه حشيشة غشيت على بصائرهم فعادوا كالبهائم . وفي إحدى القصص الفارسية المعروفة ، يحكي البطل « أبو القوارس » كيف وقع بين يدي راعي غنم عملاق يقرر بالسفر الضالين ، ويدعوهم إلى حظيرته . وهناك يسمنهم ويأكلهم ، وينجو أبو القوارس وبعض الأسرى بعد أن يعمى العملاق بالسفود الحمى ، ولكنه بدل أن يتعلق ببطن شاة ، يذبحها ويخرج

مع قطع العملاق وقد غطى بفروتها ظهره .

ليس من المهم ، ولا من الممكن في ظني ، التحقق من أن صاحب السندباد قرأ أو عرف بالأوديسية . وليس ينبغي أن يكون سمع طرفا من حكايات أوديسيوس . فما لا شك فيه أن العرب عرفوا هوميروس . وقد ذكره أبو الريحان البيروني في « الآثار الباقية » ، ويعتبر المستشرق النمساوي فون هامر ملاحم هوميروس من مصادر كتاب ألف ليلة . ومن الثابت أن تاوفيلوس الرهاوي رئيس الفلاسكين ببلاط المأمون ترجمها إلى السريانية . وقد ذكر ابن أبي أصيبعة في تراجم الأطباء عن يوسف بن إبراهيم معتوق إبراهيم بن المهدي ، أن يوسف هذا دخل على صاحب له مريض ، فوجد عنده رجلا يتمشى في الحجرة ذهاباً وجيئة وقد غطى وجهه ، "وهو يرتل أشعاراً يونانية لهوميروس أعظم شعراء اليونان" . وعرف يوسف أن هذا الرجل هو حنين بن إسحق المشهور بتراجمه العربية لكتب الطب والفلسفة اليونانية .

ولو أخذنا بالنص القديم لقصة السندباد ، وهو النص الذي نشره لانجليس Langlès بباريس سنة ١٨١٣ ، وترجم عنه جالان Galland قبل ذلك بمائة عام ، لوجدنا أن الغول الأسود ربما كانت له عين واحدة : "ودخل من الباب صورة إنسان لونه أسود وطوله أعلا من نخلة وعينه تلمع كالجمهر" .

ليس عجيباً على أية حال ، في قصة ألفت فيما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر الميلادي ، أن يكون صاحبها قد سمع بحكاية أوديسيوس . وليس غريباً أن يتداول غرب آسيا أساطير يونانية ، كما تداول شرقها الأساطير

العربية في القرون الوسطى . ويتضح ذلك لكل من يقرأ يبحث النصوص التي تركها الرحالة والحجاج الصينيون . أو ما جاء بالموسوعات الصينية واليابانية . وقد رأينا أمثلة على هذا التداول فيما أوردناه عن أسطورتى الوقواق والرخ . ويريد بعض أهل الذكر أن تكون قصة العملاق بوليفيموس منقولة عن الشرق . وربما كان الأقرب والمقول أن تكون القصة قد انتقلت من اليونان إلى العرب إما مباشرة ، وإما عن البهلوية أو السريانية .

وما دمننا بصدد انتقال قصص إغريقية إلى الشرق ، فلنذكر على سبيل المقاربة ما جاء في التاريخ اليوناني عن القائد أريستومينس Aristomenes حين أسره الإمبرطيون ، وألقوا به وبخمسين من رفاقه في جب عميق ، ومات رفاقه ، وبقى أريستومينس حيا بين الرمح حتى رأى ثعلبا فاتبعه ، وعرف منفذه إلى الجب . وكان هذا سببا في خلاصه ، كما تخلص السندباد من المقبرة مقتنيا أثر حيوان يطلب أن يكون ابن آوى .

ولم نجد لحكاية دفن السندباد حيا مع زوجته المائنة أثرا واضحاً في كل ما اعتدنا الرجوع إليه من الكتب العربية ، إلا أن يكون المؤلف قد انتفع بما قرائه في تلك الكتب ، أو سمع به ، من عدة المفسرين في إحراق الزوجة مع جثمان زوجها . ولقد ذكر أبو زيد حسن الليثاني أن ملك سرنديب إذا مات وأحرق ، تدخل نسائه النار فتحرقن معه ، ثم أضاف : " وإن شئت لم ينسلن " . ووصف أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد ، رسول القنصل إلى ملك السغالة ، كيف يلقن ملك الزومى وخلقاتهم .. وهو وصف طويل نقله ياقوت الحموي في معجمه « السجستان » ، وألقى على ابن فضلان عمدة

ما حكاه . وورد في هذا الوصف خبر دفن بعض جوارى الملك ونسائه معه .
وفي قصة حاتم طي التي ترجمها فوربس Forbes ، يدفن الزوج حيا مع جثمان
زوجته في مدينة عبر دهاس إلى الشمال من حدود الهند . فلا يبعد أن يكون
مصدر هذه الأخبار طقوسا جنائزية عند قبائل التفرغزو والكيمائية والخزلوك
وغيرهم من شعوب آسيا الوسطى . وقد أشار القديس جيروم Jerome إلى
عادة دفن الأحياء مع الأموات عند شعوب الإسقوتيين Scythes . وكلمة
إسقوتيا كانت تطلق قديما على مجموعة الشعوب التي تقطن شمال البنطس
[البحر الأسود] وإلى الشرق من بحر الخزر [قزوين] .

وإذا عجزنا أن نجد في الكتب العربية إشارة صريحة إلى دفن الرجل
حيا مع زوجته إذا مات ، فلا أقل من الإشارة إلى الأفاق الملقب نفسه
سيرچون موندقيل . وقد وصف هذه الطقوس في مذكرات رحلته التي ادعى
القيام بها في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، بجزيرة سماها « كالونك » ،
لا تبعد كثيراً عن جاوه ، قال :

And Zif a man that is maryed dye in that contree, men
buryen his wif with him all quyk, For men seyn there that
it is resoun that sche make him companye in that other
world as sche did in this.

وطقوس دفن بعض الأحياء من الأقارب والعبيد والخدم مع الأموات
لم تكن قاصرة على آسيا ، بل عرفها الرحالون والمرسلون ، ووصفها علماء
الأنثروبولوجيا عند كثير من الشعوب البدائية في بقية القارات .

شيخ البحر

عادو السندباد الحنين إلى البحر ، أو ما يسميه "السفر والتفرج في بلاد الناس والجزائر" . ولكنه ، وهو عارف بأمر البحر الغادر ، اشترى مع ذلك سفينة ، واكثرى لها الملاحين والربان . ولم يعد مرة أخرى إلى هذه التجربة فيما تلا من رحلاته . وبعد سفر طويل موفق ، ووقوف بالبرور والجزائر ، وبيع وشراء ، ألقت السفينة مراسيها أمام جزيرة جرداء . فنزل فريق من التجار إليها ، وخالف السندباد عادة له في الخروج إلى البر . وإننا لنتصوره في هذه المرة جالساً في بيلنكه ، أو فوق سطح سفينته ، كبير العمامة ، منتفخ الأوداج ، وحوله الربان ومساعدوه ، وخدمه قائمون بين يديه . وهو بطر بملكيته للسفينة وتعاليه عن النزول إلى تلك الجزيرة ، « وكم رأى ، وكم شاهد من مثلها ، وهو ذلك الرحالة القديم » . ولكنه لم يكن يعلم ما يكلفه هذا انتعالي ! فلو أنه تابع رغبته الأصلية في تعرف المجهول ، ونزل مع السفار إلى الجزيرة ، لحال بينهم وبين ارتكاب حماقة كلفتهم حياتهم وبضاعتهم ، وكلفته هو مركبه بمقتاعها وجهازها ، وجميع المتاعب التي عاناها في هذه الرحلة الخامسة .

فبينما يتحدث إلى من حوله ، عاد من البر رجل وقال له : قم ياسيدى إلى الجزيرة ، فقد وجدنا فيها بيضة كبيرة الجرم ، دخل في روعنا أنها قبة بيضاء . فتذكر السندباد بيضة الرخ التي رآها في رحلته الثانية ، وقام مسرعاً ليشاهدها وهناك رأى منظرًا لا يندر بخير . فقد دار التجار بالبيضة يكسرونها ، وأخرجوا

منها فرخ الرخ وأخذوا منه لما كثيراً . فصاح بهم أن يقلعوا عما يفعلون ، وأن يسرعوا إلى السفينة قبل عودة الطائر الهائل ، واكتشافه ما حل بفرخه . فصدقه البعض وجرى معه ، وتريث آخرون . وإذا وجه الشمس يختفي ، والنهار قد أظلم . فلاحق المتلكثون بإخوانهم ، وقد رأوا الرخ ناشراً أجنحته بعرض الأفق . وركبوا السفينة ، وأمر الربان بالشرع فنشرت ، وأقلعت السفينة بسرعة . ولم تمض عليهم ساعة في عرض البحر حتى رأوا الرخ طائراً في أثرهم ، ومعه أنثاه . واصوت أجنحتهما هزيم كهزيم الرعود ، وبمخالب كل منهما جلود صخر . فلما وصل الطائران إلى سمت السفينة رمى الرخ بجلوده فأخطأ المرمى . ولكن الصخرة إذ سقطت في البحر أثارت أمواجاً اهتزت لها السفينة اهتزازها بالإعصار ، وخيل للسندباد أن قد رأى من البحر قراره . ثم قذفت الأنثى بجلودها فوق على مؤخرة السفينة فهشمها " وأطار دفتها عشرين قطعة " .

غرقت السفينة ، وتعلق السندباد ببعض أخشابها ، وجعل يجدف برجليه حتى " رمته المقادير بإذن الله تعالى " إلى براطرح عليه ساعة يستريح مما عاناه . وقام يتمشى فإذا هو في جزيرة يانعة الأشجار ، دافقة الأنهار ، مفرغة الأطيار . فأكل من ثمارها ، وشرب ماءها ، واستراح ليلة وهو بمحمد ربه ويثني عليه .

وقام في الصباح يتجول بين الأشجار حتى ورد غديراً جلس إلى جانبه شيخ مليح الوجه ، يأتزر بإزار من ورق الشجر . فدنا منه يقرئه السلام ، والشيخ يرد عليه بإيماءة . فلما سأله السندباد عن حاله ، وسبب جلوسه في

هذا المكان ، هز الشيخ رأسه أسيفاً . وأشار إلى ساقيه بما يحمل معنى الرجاء أن يحمله السندباد على أكتافه ، وينقله إلى مكان آخر . وإنها النخوة تهز الرحالة ، والثواب يلتمسه شكراً لله على نجاته ، فيتقدم إلى الشيخ ويحمله على أكتافه ، ويسير به إلى حيث يريد ، ثم يحاول أن ينزله عنه . ولكن الشيخ كان قد لف رجله حول رقبته لفاً ، وإذا ساقاه يغطيها شعر كثر ، كأنهما سيقان الجاموس خشونة وسواداً . فحاول السندباد أن يلقيه عنه في عنف ، ولكن الشيخ ضغط على رقبته بقوة حتى جحظت عيناه ، وكاد يغيب عن وعيه . والشيخ يضربه بيديه ورجليه ضرباً مبرحاً ، ويأمره أن يدخل بين الأشجار . يصدع السندباد بأمره كالبهيمة الذلول . والشيخ يمد يديه إلى الثمار فيقتطفها ويأكل ، ويأمره أن يبرك على ضفاف الغدران ليشرب . وكما بدا للسندباد أن يقاوم ضربه برجله وكفيه ضرباً كالسياط . فإذا جاء وقت النوم لف الشيخ رجله لفاً عنيفاً على رقبة السندباد ، ونام قليلاً ثم قام ليضربه ويسوقه في معابر الجزيرة .

والشيخ المربوط بأكتاف السندباد حاجات وضرورات جثمانية لا يتورع عن تأديتها فوق أم رأس الرحالة الكبير . وقد لبث راكباً كتفيه زماناً لا يرى السندباد له نهاية ، ولا يعرف من محنته خلاصاً . وقد لاحظ أن بالجزيرة بعض اليقطين ، وكثيراً من الكروم . فاختر يقطينة جافة ، وعصر فيها شيئاً من العنب وترك العصير حتى اختمر . وجعل يحتسى منه إغراقاً لهمومه ، واستعانة به على عنائه . ولاحظ الشيخ الكسيح ما يكسبه الشراب صاحبه من نشاط وجذل . فأشار كمن يسأل عن ذلك الشراب ، فأجابه السندباد :

”هذا شيء مليح يقوى القلب ويشرح الخاطر“ ، ثم جرى ورقص بين الأشجار ، وجعل يغنى ويصفق بيديه طرباً طرياً . فتناول الشيخ اليعقوبية وجرع ما كان باقياً فيها ، وأشار بالمزيد . فجعل السندباد يسقيه قرات دهاقا ، من شراب غنى أن يبلغ به أقصى درجات التخمير . والشيخ يكرع دراكا ، وقد سرت حميا العقار في عروقه ، فأخذ يرقص فوق أكتاف السندباد ويترنم ، حتى أصيب بالغثيان وغيره ، وتراخت عضلاته ، ونفكت مفاصله . فانتهرها السندباد فرصة وقعد بالرجل ، وخلص رقبتة من بين ساقيه ، فقال الشيخ الخمور وسقط على الأرض فاقدأً وعيه . وجاء السندباد بصخرة كبيرة نزل بها على رأسه فحشمها ، وجرى إلى ساحل البحر . فانتظر حتى عبرت به سفينة وأنقذته . وهناك علم من بعض رجالها بأن الشيطان الذى امتطى أكتافه ، يعرف عند النواتية باسم « شيخ البحر » ، وأنهم لم يسمعوا بإنسان وقع فى قبضته ونجا .

ووصل ركب السفينة إلى مرفأً كبير ، نزل إليه السندباد بصحبة واحد من التجار أعطاه مخللة ، وجاء به إلى جماعة من أهل المدينة ، وأوصاهم أن يساعده على كسب قوته . وما يستطيع العودة به « مستوراً » إلى بلاده . وخرج السندباد من المدينة مع أهلها فى الصباح الباكر ، وكل يحمل وطأبا . وأخذوا يجمعون الحصى والحجارة من أرباض المدينة . ثم واصلوا السير حتى جاءوا وادياً فسيحاً به أشجار عالية تشبه النخيل ، ولكنها أرفع قمة وأدق جذعا ، ملساء لا سبيل إلى تسلقها . وكان بالوادي قرود كثيرة هربت إلى أعلى ذلك النخيل بمجرد رؤيتها للناس . وجاء كل رجل إلى شجرة يحصب القرد

فوقها بالحجارة ، والقروء ترد عليهم بإلقاء ثمار ذلك الشجر . فإذا الثمار هي النارجيل . وجمع السندباد منه قدراً تزايد على مدى الأيام ، وكان يبيع منه للمراكب العابرة حتى ادخر مالا غير قليل . ثم استقل مراكباً حملها ما تبقى له من جوز الهند ، وسافر بها إلى جزيرة الفلفل . ثم إلى جزيرة قمار حيث ينبت العود القمارى والصنفي . ووجد أهل قمار يحرمون الشرب والزنا . وبعد أن باع واشترى وقايض سافر عائداً . ومرت سفينته في عودتها بمغاصات اللؤلؤ ، فاستأجر الفاصة على نصيبه ، وأخرجوا له من اللؤلؤ كما وفيرا . وعاد إلى بغداد ، وإلى صلاته وهداياه ، وخلاته ونداماه .

كان عبد الرحمن المغربى يحدث بالفرائب . وقد سافر إلى الصين وأقام به وبجزائره مدة طويلة حتى عرف بالصينى . ونقل عمر بن الوردى خبره عن الحافظ ابن الجوزى مؤلف كتاب الحيوان . قال ابن الوردى فى « جزيرة العجايب » :
” ذكر عبد الرحمن المغربى أنه سافر فى بحر الصين ، فألقتهم الريح فى جزيرة عظيمة كبيرة واسعة . فخرج إليها أهل السفينة ليأخذوا الماء والحطب ومعهم القوس والحجاب والقرب وهو معهم . فأوا فى الجزيرة قبة عظيمة بيضاء لماعة براقه ، أعلى من مائة ذراع . فقصدها ودنوا منها ، فإذا هى بيضة الرخ . فجعلوا يضربونها بالقوس والصخور والحشب حتى انشقت عن فرخ الرخ كأنه جبل راسخ ، فتعلقوا بريشة من جناحه واجتذبوها ، فنتفت تلك الريشة من أصل جناحه ولم تكمل خلقة الريش ، فقتلوه . قال وحملوا ما أمكنهم من لحمه ، وقطعوا أصل الريش من حد القصبة ورحلوا قال فلما طلعت

الشمس والقوم في السفينة وهي سائرة بهم إذ أقبل الرخ يهوى كالسحابة العظيمة ، وفي رجليه قطعة جبل كالبيت العظيم . فلما حاذى السفينة من الجو ألقى ذلك الحجر عليها وعلى من بها ، وكانت السفينة مسرعة في الجرى ، فسبقت الحجر . فوقع الحجر في البحر ، وكان لوقوعه هول عظيم .“

ولنعد إلى حكاية يعقوب بن إسحق السراج عن الرجل الخموش كما جاءت بكتابي القزويني . وقد نقلنا أولها في تعقيبنا على الرحلة السابقة ، ووصلنا إلى هرب الرجل الخموش من آكلة لحوم البشر واختبائه تحت شجرة حتى انقطعوا عنه ، قال :

” فلما أمنت منهم جعلت أسير في تلك الجزيرة إذ رُفِعت إلى أشجار كثيرة فأنتهيت إليها فإذا بها من كل الفواكه ، وتحتها رجال أحسن صورة . فتعدت إليهم لا أفهم كلامهم ولا يفهمون كلامي . فبينما أنا جالس معهم إذ دنا واحد منهم ووضع يده على عاتقي ، فإذا هو جالس على رقبتى ، ثم لوى رجليه على فأنهضنى . فجعلت أعالجه لأطرحه عن رقبتى فغمشنى في وجهى ، وسخرنى كما يسخر أحدكم مركوبه . فجعلت أدور به على الأشجار وهو يقطف ثمارها ، يأكل ويرمى لأصحابه ، وهم يضحكون . فبينما أسير به وسط الأشجار إذ أصاب عينيه بعض عيدان الأشجار فعصى ، فعمدت إلى شيء من العنب ، وأتيت نقرة في صخرة عصرته فيها . ثم أشرت إليه أن اكرع ، فكرع منه ، فتحلت رجلاه . فرميت به فأثر الخموش من ذلك في وجهى .“

هاتان هما الحادثتان اللتان أنشأ عليهما صاحب السند بادأهم ما جاء بحكاية الرحلة الخامسة . وقد أتعب نفسه ريتشارد هول ، ومن بعده إدوارد لين ،

في تفسير أصل هذه الحكاية . فاعتبر كلاهما أن شيخ البحر لا علاقة له
بإنسان الماء ، ويغلب أن يكون قرداً من نوع الأراجيح — أوتان .
وأسطورة الرجال « ذوى السيقان الرفيعة الطرية » أو « ذوى الأرجل
الجلدية » أسطورة هندية قد تكون المصدر الذى ادعاه لنفسه يعقوب بن
إسحق السراج . وقد وصف ريتشاردسون فى قاموسه أولئك الرجال بأنهم
” من أهل الهند ، لهم سوق رفيعة مرنة كشرائط الجلد ، بدعون الكساح ،
ويلتهمسون من السفار أن يحملوهم . فإذا استجابوا إليهم تقوا سيقامهم حول
رقاب السفار وخنقوهم “ .

وحكاية استفزاز القردة لرمى الناس بالنارجيل ، شبيهة بما ذكره بعض
الرحالين فى وصف طريقة جمع أوراق الشلى بنواحى الصين ، وبما نقش
المصريون القدامى على حوائط قبورهم بما يبدو كأنه يمثل طريقة فى جمع الثمار
بواسطة قروود مستأنسة . ولم أعثر على فقرات بعينها فيما بين يدي من الكتب
تشير إلى المصدر الذى استقى منه مؤلف قصة السندباد حكايته الطريفة عن
جمع النارجيل . ولكنى رويت فى كتاب « سربار مصرى » ما حدث لى
مع « القردة الخطافة » بإحدى محطات السكة الحديدية بجنوب الهند ، وكيف
تآمرت على سبط موز ادخرته لغدائى فى عربة القطار . فشاغلتنى من إحدى
ناحيتى العربة ، بينما استعد فريق منها للوثوب من نوافذ الناحية الأخرى
واختطاف الموز . وفى الكتب العربية حكايات عديدة عن ذكاء القردة
وانصياعها لكبير منها يسمى الهزار . وربما وقع لمؤلف قصة السندباد كتاب
فى طبائع الحيوان استخرج منه حكاية القردة والنارجيل ، كما استخرج حكاية

مقبرة الأفيال في الرحلة السابعة .

وصل السندباد في رحلته الخامسة إلى « جزيرة قمار » . وقمار هذه هي البلاد التي تعرف اليوم باسم كامبوجيا أو بلاد « قير » Khmer حيث معبد « أنكور » Angkor وهو تحفة فنية رائعة من آثار الفن القماری القديم . كأن حوادث القصة فرض حدوثها في بحر الصَّنْف ، أى فيما يعرف في العصور الحديثة باسم خليج سيام . وبلاد الصَّنْف [Tsiampa] تصاقب بلاد قمار ، وهي صقع مما نسميه حالا سيام وكوشين صين . وقد اشتهر البلدان من قديم الزمان بنخشب العود *Aquilaria agallocha* . والعود الصنفي ، وهو أفضل ، ناشئ عن مرض الشجيرة البقولية المسماة *Aloexylon agallochum* .

وجد السندباد أهل قمار يحرمون الشراب والزنا . وأمر هذا مشهور في كتب الجغرافيا والرحلات العربية ، قال فيه ابن خرداذبة : “ وملوك الهند وأهلها يبيحون الزنا ويحرمون الشراب ، إلا ملك قمار فإنه يحرم الزنا والشراب وبقمار العود القمارى ومن قمار إلى الصنف على الساحل مسيرة ثلاثة أيام . وبها العود الصنفي وهو أفضل من القمارى لأنه يغرق في الماء لجودته “ .

ومر السندباد في عودته بجزيرة سرّنديب مجتازاً أغابها ، حيث اكثرى الغواصين ليجمعوا له بعض اللآلئ من المغاصات التي اشتهر أمرها منذ أقدم العصور .

الرحلة السادسة

رحلة نهريّة في كهف

لا غرو إذا كان السندباد ، بعد تجاربه القاسية في المقبرة ، وفيما جرى له قبل هذا الحادث وبعده ، أصبح أقل جرأة على السفر . وفي نصوص القصة دلائل على أن قد قارب العهد الذي ينفذ فيه السندباد عزمه على الاستقرار ببغداد . فإنه في مآزق الرحلة التي نحن بصددّها يبدى من لوم نفسه ، ومن معاهدتها ، ما يمكننا من الحكم على نيته الجديدة في التوبة عن الأسفار . فهو قائل في أزمة من أزمت الرحلة السادسة : ” وصرت ألوم نفسي على قلة عقلي ، وسفري إلى البلاد بعد الذي قاسيته أولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً ، ولا سفرة من الأسفار إلا وأقاسى أهوالاً وشدائد أشق وأصعب من الأهوال التي قبلها . ولست محتاجاً لمال وعندي شيء كثير لا أقدر أن أفنيه أو أضيع نصفه في باقى عمري “ .

ويقول في محنته أثناء الرحلة السابعة ، وهي خاتمة رحلاته : ” أستحق جميع ما يجرى لى حتى أرجع عما أنا فيه من الطمع . والآن قد رجعت لعقلي ، وتبت إلى الله تعالى توبة نصوحاً عن السفر ، وما بقيت عمري أذكره على لساني ولا على بالى “ .

ومع هذا فقد سبق له أن لام نفسه في محناته السابقة . ولكن اللوم في رحلته السادسة يتخذ صيغة أشد إلحاحاً ، والتوبة في الرحلة الأخيرة تتخذ شكل العهد أمام الله .

ثم إن النص الذي ترجم عنه جالان قصة السندباد في القرن السابع عشر

يشير إلى أنه في عودته من الرحلة السابعة لم يصل بالسفينة إلى البصرة ، بل غادرها في ميناء على الشاطئ الغربي للهند ، وسافر منه براً إلى بغداد عبر بلاد فارس .

بيد أن حادثين حدثا للسندباد في بغداد جعلاه لا يقوى على مغالبة حبه للسفر والمغامرة ، بعد عودته من الرحلة الخامسة . أولهما كان باعثاً له على القيام بالرحلة السادسة ، والثاني على السفر للمرة السابعة والأخيرة ، وسنذكره في حينه .

أما الحادث الأول ، فهو رؤية السندباد ، بعد عام من استقراره ، لجماعة من التجار مروا عليه وعليهم آثار السفر . مما أعاد إلى ذكره أيام قدومه من رحلاته ، وفرحه بقاء أهله وأصحابه ، وسروره بدخول بلاده . فلم يستطع أن يكبح جماح الحنين والتحرق إلى الرحيل . وهي ظاهرة نفسية عرفها ووصفها كل من ركب البحار طويلاً وذاق أهوالها . هي نوع من « النوستالجيا » أو الحنين إلى الأوطان . ولكنها « نوستالجيا » أصعب تفسيراً من نزوع الوجدان إلى بقعة من الأرض تفتحت فيها عيوننا أول مرة على ضوء النهار ، وأرهفت أسماعنا إلى الحارتِ الطبيعة وأغاني الروائم ، ونشقت صدورنا واستروحت أريجاً آخذاً سحاراً . هي حنين إلى ممتد واسع من الزرقة تضرب إلى الحضرة آناً ، وإلى لون رصاصي عابس في أشد الآوان ، موشى بالزبد الناصع البياض ، حنين إلى عبير خاص وطعم لا ينسى ؛ وأصوات يختلط فيها اصطغاب الموج بهدير الرياح وهزيم الرعد وقعقة أخشاب السفينة وهممة متصاعدة كأنها من الأعماق هي في الواقع اصطفاق الحبال والشرائع وتذبذب أطراف الصواري . حنين غير مفهوم ؛ وأقل ما يفهم منه أن تعود إلى البر متبرماً بالبحر ، كارهها له ، راغباً عن العودة إليه ؛ فتدق الباب عليك في عقر دارك

المطمئن الدافئ ، في أقل اللحظات ترقباً لها ، جنة زرقاء العينين سوداء القلب ،
وتطبع على شفتيك قبلة مالحة الطعم ؛ ثم تختفي وقد سلبتك هدوءك ، وأشاعت
في جنبات نفسك القلق ، وأوقدت سعيراً لا يطفئه إلا أن تنزع نفسك من
كل من تحب وما تحب ، وتعود إلى امتطاء صهوات الجياد الشهب الجموح ،
أعرافها الزبد الأبيض وأفواها ذات الرغاء .

سئل رجل من رجال البحر أثناء الحرب العالمية الأولى عما اعتزم عمله
إذا عاد السلام إلى الربوع والبحار ، قال :- ” سوف أغادر سفينتي حاملاً
مجدافاً ، وأضرب في البر إلى ركن يتساءل الناس فيه ما هذا الذي أحمل .
وهناك أعرف أنني وجدت مستقري ومشواي “ . ووضعت تلك الحرب أوزارها ،
وبقى الرجل يذرع البحار حتى هرم واشتعل منه الرأس شيباً ، وقد نسي
حكاية البر والمجداف . وفي قصة « البحر » للكاتب اليوناني العصري
أنتريا كركافيتساس Arirea Karkavitsas يحذر الأب البحار ابنه : ” باعد
ما بينك وبين « تالاسا » [البحر] يا بني . إياك أن تصدق ابتساماتها الغادرة ،
وهي تعدك بالثروة الطائلة . عاجلاً أو آجلاً سوف تحفر لك في جوفها قبراً ،
أو هي تلغظك على البر خطاماً لا تملك غير جسدك وعظمك . البحر
والمرأة سيان ! “

ولكن الفتى ، مع ما عرف من الدعة في البر ، بين أحضان زوجة ناعمة
بضة ، كحيلة العينين سوداء اللمة ، وتحت ظلال أشجار الزيتون والليمون ،
يعود إلى ذات الأعين الزرقاء منيياً نداء « تالاسا » !

سافرت السفينة بالسندباد في رحلته السادسة . وعبر التجار إلى البرور

والجزائر ، يبيعون ويشترون ويتفرجون على المدائن وقد " طاب لهم الوقت والسعد أشهراً طوالاً " . إلى أن جاء اليوم المحتوم في حياة كل مسافر بالبخر الشرقى في العصور الوسطى . حين يزعم الربان ويرمى عمامته ، ويلطم وجهه وينتف لحيته ، وينذر السفار بأنهم تنكسوا في لجة مجهولة . وجنح المركب بهم ثم جلس على ترش من التروش حيال جبل قائم وحده في الماء على بعد فراسخ منهم . فصعد الربان إلى أعلى الدقل ونفذ ببصره إلى ما تحت الماء ثم اصفر وجهه ، وزر عينيه يطالع الأفق ، ثم حلق وهبط وقد رأى نذر الإعصار ، وطلب من الركاب أن يتوادعوا فقد حم القضاء . وهجمت الزعازع تطارد أمامها موجا كالجبال ، ارتفع بالمركب الجالس ثم نزل به فتحطم فوق الأقاصير ، وتناثر السفار في الماء ومتاعهم ؛ ولبثوا بعض يوم والبحر يتراجع عن خبه ، وينحصر عن تلك التروش والأقاصير في جزر هائل ، يكشف عن ساحل يمتد حتى أقدام الجبل الذي استوقف أبصارهم . وإذا هم فوق جزيرة مستطيلة ، حفلت بعظام الأموات البيضاء ، وبقايا جهازهم ، وحطام سفائنهم . يتجولون فوق شاطئها المنبسط مبتعدين عن متناول البحر الغشوم في مده . أذهلتهم الرزية ، بقدر ما أذهلهم ما بدءوا يلحظونه في حصباء الجزيرة من البلور واليواقيت . ثم وردوا عينا تنضب مادة كالقير . وذكروا ما سمعه أكثرهم من أن العنبر يخرج من عيون على سواحل البحار ، أو في قيعانها . فإذا ابتلعت دواب البحر ، أو « الهوايش » ، حى في بطونها فحادت وقذفت به ، فكان منه العنبر السمكى . أما ما يخرج من القيارة فهو العنبر الخام . وأشجار الجزيرة من أنحر أنواع العود . كيف يبلغ السفار هذه الجزيرة ولا صرفاً إليه

يرفأون . وما السبيل إلى الخروج منها ، أو الوصول إلى داخلها وقد أحاط بها
الجبل مستديراً حولها كالسور ؟

وكان الناجون يتماوتون جوعاً بعد أن أتوا على ما ملكوا إنقاذه من
أقوات سفينتهم ، وإن وجدوا الماء جارياً في نهر عجيب ، يتهدر على لحف
الجبل . ولكنه بدل أن ينحدر إلى البحر ، يجري داخلًا في فوهة كهف
واسع المنفذ . وكل من مات منهم كفتوه ببواقى ما قذف البحر من قماش
وملابس . وبقي السندباد آخر من ينتظر الموت منهم ، ولا من يسجيه في
كفن أو يهيل عليه رمال . فحفر لنفسه قبراً يتمدد فيه إذا دنا أجله ،
وهو دان قريب .

ولست أعرف رجلاً تنفتق حيلته على ذكر الموت ، وينفتح له باب
الأمل وهو على باب الفناء أكثر من هذا السندباد . فقد خطر له أن النهر
ذاهب إلى مكان غير هذا المكان ، ما دام داخلًا في بطن الجبل . فلماذا
لا يحاول أن يركبه ويتبع مجراه ؟ اصطنع كلكاً من حطام السفن ، وقيل
من خشب العود أو الصندل ، وحشد فوق الكلك من العنبر الخام والجواهر
والعود ما يحتمل ، ثم جلس فوقه وترَّكه للتيار يحمله ، فما لبث أن نفذ إلى
داخل الكهف ، وانعقدت الظلمة وادهمت كلها أوغل فيه . وقد يضيق
مجرى النهر ويطبق سقف الكهف فوقه حتى يضطر السندباد إلى أن يستلقي
على وجهه ، ويفطى رأسه بذراعيه توقياً من الاصطدام بسقف الكهف ،
يتوقع أن ينحشر فيه طرفه فلا يملك إلى الأمام حراكاً ، ولا إلى الخلف .
وقد يتسع المجرى فجأة ، ويرتفع السقف ، فيجرى الطوف وهو يتخبط

بين الشطين . ولكن الذى لا ينتشم هو الدجنة الدائمة ، مما أفقد السندباد ملكة تقدير الوقت وتميز النهار من الليل . وما يتزايد هو جوع السندباد ، وضيق صدره بالغياب ، وتعبه وفرعه ، مما أنهك أعصابه ، وفث في عضده حتى نام أو فقد وعيه إعياء . ولم يعرف السندباد كم قضى في الكهف صاحياً وناماً . كل ما يعرفه أنه عاد إلى نفسه في ضوء ساطع ، وما زال ممدداً فوق الكلك ، والكلك مربوط بشط فسيح ، وحوله جماعة من « الهنود » كلوه بلسانهم فلم يفهم . وكأن ما يراه أضغاث أحلام . ولكنه وهو يهذى بببت من الشعر السخيف ، ربما كان : ” ما بين غمضة عين وانتباهتها ” أو شيئاً من هذا الطراز ، انبرى له واحد من الجمع يخبره في لغة عربية سقيمة بأنهم وجدوه يتقاذفه النهر ، فربطوه وانتظروا أن يثوب من غيبوبته . ثم يسأله عن حكايته فيقول السندباد ، وهو يفرك عينيه : بالله عليك يا سيدي ، جئني عاجلاً بشيء من الطعام أولاً ، ثم سلني بعد ذلك ما شئت .

وأكل وشبع وهدأ روعه ، وحكى ما جرى له . فأخذوه والكلك بما فيه إلى قصر منيف على شاطئ النهر ، وأدخلوه على صاحب القصر ، حيث عرف بأنه بحضرة ملك مرنديب . وقص على الملك حكايته ، فأطل هذا على الكلك وقدر ما فيه من الجواهر والعنبر والعود . فتقدم إليه السندباد يرجوه أن يتقبل هديته ، ولكن الملك أجابه : ” حاشا يا سندباد أن نطمع فيما رزقك الله ، بل حقت علينا معونتك حتى تعود إلى ديارك ” .

وأنزله ملك مرنديب أحسن مكان ومكانة ، إذ عرف أنه من تجار بغداد ، عاصمة الخليفة العظيم هرون الرشيد . وكان السندباد بعد أن ينفض

مجلس الملك يدور في المدينة . كما استطاع أن يتجول في الجزيرة ، وعرف
”أنها تحت خط الاستواء“ ، ليلاً اثنتا عشر ساعة ، ونهارها كذلك . طولها
كعرضها ثمانون فرسخاً . بها جبل شاهق يرى من مسيرة ثلاثة أيام ، وفيه
ألوان الياقوت والمعادن المختلفة ، وأشجاره أصناف الأفاويه والطيب . وأرضه
ومن السبازج الذي يعالج به الجوهر . وسمع بأن اسم ذلك الجبل « الرثون »
أن آدم هبط عليه من الجنة . فلما عرف بأن في قمته أثر قدم أبي البشر ،
تسلى إليها ليتبرك بها . ورأى الماس في أنهار الجزيرة . وعرف بأن
اللؤلؤ في أغبارها .

وعاد إلى الملك يستأذن في الرجوع إلى بغداد . فأذن له بعد أن أنعم عليه
بشيء كثير من خزائنه ، و سلمه رسالة للخليفة هرون الرشيد كتبت باللازورد
على صفحة من جلد الخاوى [الجادى ؟ أى الجلد المدبوغ بالزعفران ؟] وهو أحسن
من الرق ، مائل إلى الصفرة . وقد جاء في الرسالة : ” من ملك سرنديب ،
الذى يسير في موكب ألف فيل ، ويرصع شرفات قصره ألف حجر من الجوهر
وبعد ، فقد أهدينا إليك القليل فاقبله عربوناً على أخوتنا لك ، ومحبتنا إليك ،
وإقرارنا لك بالفصل . ووجهنا إليك كتاب « صفرة الزهراء » ، وهديتنا
وكتابنا دون قدرك ، نسألك أيها الأخ أن تتنازل بقبولهما والسلام “

والهدية جام ياقوت أحمر ارتفاعه شبر وصمكه إصبع . وهو مملوء بالدر ،
كل درة مثقال . ومعها فراش من جلد حية تبلغ القيل ، وهو جلد منقط كل
نقطة كالدينار ، من جلس عليه لا يمرض أبداً . ومائة ألف مثقال من العود
الهندي . وثلاثون حبة كافور كل حبة بقدر الفستقة . وفوق هذا جارية

بحليها ، كأنها القمر الزاهر .

وسافر السندباد وقد ودعه الملك وأوصى به التجار والربان . ووصل إلى بغداد ودخل داره واجتمع بأهله ، ثم حمل الرسالة والكتاب ، ومعه الهدية ، ودخل على الخليفة فقبل يده ، ورفع الجميع إليه . فسر الخليفة بها سروراً عظيماً ، وسأل السندباد عن يكون هذا الملك ، فحكى له الرحالة عما رآه من عظمة ملك سرنديب . إذ ينصب له في الأعياد سرير فوق فيل عظيم ، ارتفاعه أحد عشر ذراعاً . ويقف بين يديه صفان من خواصه وحاشيته وغلمانه . ويتقدمه رجل بيده رمح ذهبي ، ويقوم فوق رأسه حارس ممسك بقضيب من ذهب ، تعلوه زمردة طولها شبر وسمكها إبهام . فإذا ركب سار في موكبه ألف فيل عليها سروج الذهب المزركشة ، وفوقها الركبان يرفلون في الدمقس والجوهر . ويتقدم الموكب مناد يصوغ للملك آيات المديح تنتهى بهذه الجملة التقليدية : ” هذا الملك صاحب التاج ، الذي لم يملك مثله سليمان ولا المَهْرَاج “ فيرد عليه مناد آخر يسير وراء الملك قائلاً : ” يموت ثم يموت ، ثم يموت “ فيقول المنادي الأول : ” سبحان الحى الذى لا يموت “ . وليس في مدينته قضاة . لأن أهل بلاده يعرفون ما لهم وما عليهم .

وأنعم الخليفة على السندباد ، وأذن له بالانصراف إلى منزله . وهناك أخرج الزكاة والصدقات ، ووزع الهدايا ، ولزم داره راضياً مسروراً . فقد سمع الخليفة به وبمحكايات رحلاته ، فأمر أن تكتب وتحفظ في خزائنه ، إذ عرف بأن من بين رعاياه رحالة فذا ، حمل إليه هدية ملك من ملوك الجزائر النائية . هذا الاعتراف الرسمى برحلاته قد توج به مغامراته ، وضمن بذلك

لاسمه البقاء ، ولرحلاته أن تطلع عليها الأجيال القادمة .

كانت جزيرة سرنديب في ذهن مؤلف القصة منذ البدء بحكاية الرحلة السادسة . ولا يبعد أن يكون قد فكر بأغباب سرنديب ، وضعا لتحطم مركب السندباد . قال أبو الريحان البيروني : ” الغب وهو كالزاوية والعطفة يدخل من البحر إلى البر ، ويكون للسفن منه مخاوف ، وخاصة من جهة المد والجزر . والخور هو شبه الغب ولكنه ليس من جهة دخول البحر . وإنما هو من مجىء المياه الجارية ، وتصله بالبحر ساكنا . ومخاوف السفن من جهة العذوبة التي لا تستقل بالاثقال استقلال الملوحة بها “ . وقال أبو زيد حسن السيرافي : ” ويحاذي هذه الجزيرة [سرنديب] أغباب واسعة . ومعنى الغب الوادي العظيم إذا أفرط في طوله وعرضه ، وكان مصبه إلى البحر . يسير المجتازون في هذا الغب المعروف بغب سرنديب بين شهرين وأكثر في غياض ورياض وهواء معتدل . وفي فوهة هذا الغب البحر المعروف بهر كند “ . وقال الشريف الإدريسي : ” ويحاذي هذه الجزيرة من أرض الهند أغباب وهي أجوان تقع فيها أنهار ، وتسمى أغباب سرنديب ، وتدخلها المراكب السيارة وتمر فيها الشهر والشهرين “ .

وجاء في رحلة ماركو پولو إذ يتكلم عن بلاد المغير [شاطئ كورمانديل] : ” واعلم أن البحر هنا يكون غبا بين جزيرة سيلان والأرض . ولا يزيد عمق الماء في هذا الغب عن عشرة أو اثنتي عشر باعا ، وفي بعض المواضع لا يتجاوز باعين “ .

وسِرَندِيب هي الجزيرة التي تعرف اليوم باسم سيلان . ومعنى الاسم « جزيرة الأسد » [أسد = Sinhal ، جزيرة = dvipa باللغة السنسكريتية . وينطق بكلمة أسد في اللغة البالية Sihalan . فيكون اسم الجزيرة بتلك اللغة -Sihalan- dvipa سِيلَانْدِيب ، أي جزيرة سيلان أو سرنديب] . وتعد من أجمل جزائر البحر الشرقي الكبير . وعن النبي أن " خير بقعة ضربت إليها آباط الإبل مكة ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى ، وجزيرة سرنديب " . وقال التاجر سليمان : " وآخر هذه الجزائر سرنديب في بحر هر كند ، وهي رأس هذه الجزائر كلها وهم يدعونها الدِّيَبَجَات [أرخيل المهديب والكاديب حالا] . وبسرنديب منها مغاص اللؤلؤ بمرها كله حولها . وفي أرضها جبل يدعى الرَّهُون [روهانا في اللغة السنسكريتية] ، وعليه هبط آدم عليه السلام وقدمه في صفا رأس هذا الجبل منغمسة في الحجر قدم واحدة . ويقال إنه عليه السلام خطا خطوة أخرى في البحر . ويقال إن هذه القدم التي على رأس الجبل نحو من سبعين ذراعاً . وحول هذا الجبل معدن الجواهر والياقوت الأحمر والأسمانجوني . وفي هذه الجزيرة ملكان . وهي جزيرة عظيمة عريضة فيها العود والذهب والجوهر ، وفي بمرها اللؤلؤ والشنك [Chank ، وهي المحارة المقدسة التي تستعمل في العابد الهندوسية والبوذية صوراً ينفخ فيه] وهو هذا البوق الذي ينفخ فيه مما يدخرونه " .

وقال ابن خرداذبة : " وسرنديب ثمانون فرسخاً في ثمانين فرسخاً . وبها الجبل الذي هبط عليه آدم . . . وهو جبل ذاهب في السماء يراه من في مراكب البحر من مسيرة أيام . فذكرت البراهمة ، وهم عباد الهند ، أن على

هذا الجبل أثر قدم آدم مغموس في الحجر . وهو نحو سبعين ذراعاً قدم واحدة ، [يعتقد البراهمة حتى اليوم بأن الأثر القائم على رأس ما يعرف في سيلان باسم Adam's Peak ، هو أثر قدم براهما ، رأس الثالث البرهمني المقدس . كما ينسب البوذيون إلى جوتاما ساكياموني الملقب بالبوذا . ويحج إليه المسلمون باعتباره قدم أبي البشر] . وأن آدم خطا الخطوة الأخرى في البحر ، وهو منه على مسيرة يومين أو ثلاثة . وعلى هذا الجبل وحوله الياقوت وألوانه كلها ، والأشباه كلها . وفي واديه المساس . وعلى الجبل العود والفلفل والعطر والأفواه ودابة المسك ودابة الزباد وبسرنديب النارجيل ، وأرضها السنباذج الذي يعالج به الجوهر . وفي أنهارها البللور ، وحولها في البحر غوص اللؤلؤ .

وفي نص صيني تركه أحد الحجاج البوذيين : " وبالجبيل اليواقيت الكثيرة من جميع الأنواع ، وأحجار كريمة أخرى . وهذه الجواهر تغسل من الأرض بالأمطار ، ويحملها السيل فيبحث عنها الناس في الرمال التي يجرفها السيل من أعالي الجبال إلى الأودية . ويقول الناس إن هذه الجواهر هي دموع البوذا وقد تجمدت " *

واضح أن مؤلف القصة كان يفكر بكل ما قرأ أو سمع عن بسرنديب حينما ألف حكاية السندباد السادسة . وفي ظني أنه فرض وصول المركب إلى أغباب بسرنديب ، وجلوها على أحد التروش وتحطمتها . وليس في حكاية المتاع وحطام السفن وجماجم الناس ما يستغرب له . ففي بحار العالم حول

(*) البوذية هي الديانة الغالبة بين سكان سيلان ، ولها في الجزيرة أماكن مقدسة أهمها « معبد الضرس » في كاندى . وشجرة البودي في آنورادابورا .

بعض الجزائر جونات يقذف الريح والتيار المراكب إليها فتتخطم . ولقد قيل
عن سكان جزيرتي « سان بيير وميكلون » أنهم شواطئ أمريكا الشمالية
إنهم يوقدون بالليل مصابيح في موضع أقاصير ، تنجبه إليها السفن العابرة
فتصطدم بالصخور وتتكسر ، ويأتي القوم لينضموا ما بها . وسمعت في إحدى
الجزر الواقعة إلى الشمال الغربي من الشاطئ الفرنسي بأمر جونة تحمل
التيارات إليها المتاع والحطام عقب الزعازع . وأن بعض متاع أهل الجزيرة
من تلك الحطام وما يقذف البحر .

والمؤلف ، مع تفكيره بسرنديب ، يترك القارئ أو السامع جاهلا بأمر
الجزيرة حتى يحمل تيار النهر بطل القصة فوق الكلك عبر الكهف ، ويأتي
قوم من « الهنود » يصحبون السندباد إلى قصر يعرف أنه قصر ملك سرنديب
عندئذ ينقل المؤلف معارفه الجغرافية عن الجزيرة ، ومنها أنها تحت خط
الاستواء . وقد كان هذا اعتقاد الجغرافيين الخاطئ منذ بطليموس القلوزي .
وأن بها جبل آدم ، وفي واديه الماس والياقوت وألوانه كلها إلى آخر ما جاء
في كتب الجغرافيا العربية مما أوردناه .

حتى هدية ملك سرنديب لخليفة بغداد ، نرى فيها أثر اطلاع المؤلف على
هذه الكتب . فالياقوت والدر والعود الهندي مما ذكرته عن سرنديب .
وجلد الحية التي تبلع الفيل ، لا يمرض من يجلس عليه ، أشارت إليه إشارات
عديدة . منها ما قاله البهمني في كتاب « نخبه الدهر » ، عند كلامه عن
جزائر بحر الزنج : ” جزيرة جانا وبها حيات قتالة ، وجلودها بالخاصة تبرى
من علة الدق والسل لمن يجلس عليها إذا اتخذها مفرشا . وهذه الحيات تصاد

بدخان حمى اللبان . وهو أن الصيادين لما يجمعون ما أمكنهم من حمى اللبان مما يجلبه التجار إليهم . ثم إذا كان وقت مهب الريح الأزيب أو الشمال العاصف ، دخنوا بالقرب من بقاع تلك الحيات ، فيحمل الهواء ذلك الدخان ويمر به إلى الحيات ، فيسكرن منه ، والصيادون يتتبعونهن بالقتل والجمع ... ذكر ذلك أحمد الورّاق في كتاب المباحج .

وجاء في « مختصر العجائب » : « وفيه [أى بحر مركند] حية يقال لها الملك لا تطعم إلا مرة في العام . وربما احتال فيها ملوك الزنج فأخذوها وطبخوها حتى يخرج ودكها ، ويدهن به فيزيدهم في قوتهم ونشاطهم . ولهذا الحية وبر إذا قعد على جلدها صاحب السل أمن من السل وبرى فلا يصيبه أبدا . وربما وقعت عند ملوك الهند فاستعملوا جلدها ولابها في خزائنهم » .

رأى السندباد ملك سرنديب ، ومكث ضيفاً عنده مدة من الزمن . وحينما عاد إلى بغداد وسأله هرون الرشيد عن ذلك الملك ، وصفه بكثير من الصفات الطيبة . هل يمكن إلا أن يكون مؤلف القصة قرأ ما قاله الإدريسي عن ملك سرنديب أو قرأ بعض مصادره ؟ قال الشريف الإدريسي في « نزهة المستأنى » : « وملك هذه الجزيرة يسكن من هذه المدن أغنا ، وهي مدينة القصر ، وبها دار ملكه . وهو ملك عادل كثير السياسة يقظان الحراسة ، ناظر في أمور رعيته ، حافظ لهم ، وذاب عنهم . وله ستة عشر وزيرا ، أربعة منهم من أهل ملته ، وأربعة نصارى ، وأربعة مسلمون ، وأربعة يهود . وقد رتب لهم موضعا يجتمع فيه إليهم ويكتب حججهم وأخبارهم

ويجتمع إلى علماء كل منهم ، أعنى الهندية والرومية والإسلامية واليهودية ،
جمل من الناس وعدة طوائف ، فيكتبون عنهم سيرة أنبيائهم وقصص
ملوكهم في سالف الأزمان ، ويعلمونهم شرائعهم ويفهمونه ما لا يعلمونه .
وللملك في يده صنم من ذهب لا يُدْرَى لما عليه من الدر والياقوت وأنواع
الأحجار أثمان ، وليس يملك أحد من ملوك الهند ما يملكه صاحب سرنديب
من الدر النفيس والياقوت الجليل ، وأنواع الأحجار . لأن أكثر ذلك موجود
في جبال جزيرته وفي أوديتها وبحرها . وإليها تقصد مراكب أهل الصين
وسائر بلاد الملوك المجاورين له ويُجَلَّب من سرنديب الحرير والياقوت
بجميع ألوانه كلها ، والبللور والماس والسبازج وأنواع من العطر كثيرة .
وبين هذه الجزيرة والبر المتصل بالهند مجاز صغير ، ثم يصف الإدريسي
أغراب سرنديب بمثل ما اخترناه من كتب أخرى .

بقي خبر حكاة السندباد للخليفة وقد جاء في الكتب العربية بوضع
نكاد نلس فيه طريقة تخوير مؤلف القصة لمثل هذه الأخبار خدمة لأغراضه
القصصية ، ذلك هو خبر موكب ملك سرنديب ، وما يقوله المنادي الذي يتقدم
الموكب ، وما يردّ به عليه المنادي القائم على رأس الملك . فقد حكى التاجر
سليمان في مذكراته ، ونقل عنه الإدريسي بشيء من التفصيل هذا القول :
”وأهل الهند يحرقون موتاهم ولا قبور لهم . وإذا مات الملك صنعت له عجلة
على قدره ، عريضة ، ارتفاعها عن الأرض مقدار شبرين أو نحوها . ويوضع
على العجلة قبة مكحلة ، ويوضع الملك على تلك العجلة ، ويطاف به على المدينة
كلها يحرقه عبيده ورأسه مكشوف لمن يراه ، وشعره ينجر على تراب الأرض

وينادى عليه مناد بلسان الهندية ، بكلام تفسيره بالعربية : أيها الناس ، هذا ملككم فلان بن فلان ، عث في ملكه فارحاً قادراً كذا وكذا سنة وها هو قد مات وفتح يده بما معه بما لا يملك من ملكه شيئاً ، ولا يدفع عن جسمه أذى . ففكروا فيما أنتم إليه صائرون ، وإليه راجعون . كل هذا باللغة الهندية . فإذا فرغ من الطواف به ، أخرج إلى مكان النار التي من عادتهم أن يحرقوا بها موتى بلوكهم فيعلقونه في النار حتى يحترق .“

وإذا كان الإدريسي قد أطلق الخبر على أهل الهند ، فقد خص به سليمان في مذكراته ملك سرنديب قائلاً : “وإذا مات الملك ببلاد سرنديب صير على عجة قريباً من الأرض...“ إلى آخر الخبر ، وأضاف سليمان إليه أن امرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه وتنادى : أيها الناس هذا ملككم بالأمس . . إلى آخر ما نقله الإدريسي . ويقول سليمان في طريقة حرق جثمان الملك : “ثم يهيا له الصندل والكافور والزعفران فيحرق به ، ثم يرمى برماده في الريح . واخذ كلهم يحرقون موتاهم بالنار . وسرنديب آخر الجزائر وهي من بلاد الهند . وربما أحرق الملك فتدخل نساؤه النار فيحترقن معه ، وإن شئن لم يفعلن“ .

أليس يبدو أن مؤلف القصة ، حينما قرأ أو سمع بهذا الخبر ، أراد أن ينتفع به في قصته ؟ ولكنه وجد نفسه مضطراً أن يقصر حياة ملك سرنديب وفي ذلك ضياع لكل السياق بين الرحلة السادسة والرحلة السابعة . ففضل أن يغير موضع المناداة فيجعلها في حياة الملك وفي موكبه ، كرد على كلام مناد يمتدح صفات “صاحب التاج ، الذي لم يملك مثله سليمان ولا المهرج“ . فإذا

رد المنادى الثانى قائلا : ”يموت ثم يموت ثم يموت“ ، تاب المنادى الأول إلى حقيقة الدنيا فقال : ”سبحان الحى الذى لا يموت“ .

وورد السندباد وأصحابه ، بعد تحطم سفينتهم وطلوعهم إلى الجزيرة ، عينا تفيض مادة كالقير أو كالقار . وذكروا أن هذا هو العنبر ، وما أراى بحاجة أن أعيد قليلا أو كثيرا مما سبق لى بحثه فى الكتاب الأول . ولكنى هنا أبحث عن مصادر قصة ، وأحاول أن أجِد فى كتب الجغرافيا العربية دليل إلى أن مؤلف تلك القصة لم يكن يخطط بخط عشواء ، وينتقل من مفالة إلى مبالغة لا أساس لها إلا تخريفاته وأخيلته . فحينما كان يتكلم المسعودى فى «سروج الذهب» عن جزائر الديبجات قال : ”وبين البحر الثالث وهو هِرْكَند ، والبحر الثانى وهو لَازَوِى على ما ذكر ، جزائر كثيرة هى فرز بين هذين البحرين . ويقال إنها نحو من ألفى جزيرة ، وفى قول الحق ألف وتسعمائة جزيرة كلها عامرة بالناس . وملكة هذه الجزائر كلها امرأة ... والعنبر يوجد فى هذه الجزائر يقذفه البحر ، ويوجد فى بحرها كأ كبير ما يكون من قطع الصخر . وأخبرنى غير واحد من نواخذة السيرافيين والعمانيين بعمان وسيراف وغيرها من التجار ممن كان يختلف إلى هذه الجزائر أن العنبر ينبت فى قعر هذا البحر . ويكون كتشكون أنواع القطر [الفطر؟] من الأبيض والأسود والكساء ونحوها . فإذا خبث البحر واشتد ، قذف من قعره الصخور والأحجار وقطع العنبر ... وهذه الجزائر تعرف جميعا بالدايهات [الديبجات] وآخر هذه الجزائر جزيرة سرنديب“ .

أما حكاية الرحلة النهرية فى الكهف فلم أر لها أثرا فى الكتب التى بين

يدى ، ويظن إدوارد لين أن مؤلف القصة طالعها أو عرفها من قصة سيف بن ذي يزن . ولكنى أرفض الاعتقاد بأن هذه القصة أقدم من قصة السندباد . ويرجع ريتشارد هول R. Hole أن يكون مصدر الحكاية في وصف نهر زند رود التى تجرى تحت الأرض بين إصفهان وكِرمَان . ولا يبعد أن يكون قراءة أو سماع شىء من هذا القبيل قد أوحى إلى مؤلف القصة بفكرة الرحلة النهرية في باطن الجبل .

وربما كان أهم من ذلك أن نشير إلى القصة الألمانية التى ألفها الشاعر هنرى فون فلديك H. von Weldeck حوالى سنة ١١٦٠ م ، وجعل بطلها دوق إرنست الباقرى . وفى هذه القصة رحلة هوائية تشبه رحلة السندباد الثانية ، وحكاية الغول كما فى رحلة السندباد الثالثة ، والرحلة النهرية كما فى الحكاية التى نحن بصدددها . ولم يثبت أن هنرى فون فلديك نقل عن ألف ليلة — وإذا ثبت هذا فسوف يكون حجراً هاماً فى الطريق إلى تحديد تاريخ تأليف الكتاب أو بعض قصصه — ولهذا يمكننا أن نفرض بأن قصة الرحلة النهرية واحدة من القصص التى كانت شائعة فى القرون الوسطى كغيرها من الحكايات والأساطير التى ذكرناها .

وحكاية خطاب ملك سرنديب إلى هرون الرشيد تشبه شهاً غريباً حادثاً حكاية القرىزى ، وهو أن رسولا من ملك سرنديب الوثنى وصل إلى القاهرة سنة ١٢٨٣ م يحمل إلى السلطان خطاباً بالخط السرنديبى ، على لحن شجرة التوز ، فى صندوق ذهب جاء فيه : ” والجواهر كثيرة فى بلادى ، وعندى سراكب فى البحر ، وفى أسواقى القيلة ، ونسيج الكتان والحريير ، والقرفة

والدارصيني وغيرها من الأفاويه ، والرماح التي تستعمل في الحرب . فإذا
جهز السلطان عشرين سفينة إلى بلادى ، استطعت أن أوسطها له سنويا .
وفي بلادى سبعة وعشرون قصراً بها الدر والياقوت الأحمر . ومغانص
للؤلؤ تحت حكمى .

لست أدري إلى أى مدى نستطيع أن نعلق أهمية على هذا الحادث .
لأن حكاية تبادل الرسائل والمدايا بين ملوك الهند وسيلان وشرق آسيا ،
وبين الخلفاء المسلمين وردت في كتب الأخبار العربية ، ورددها مؤرخو
القرن إبان اشتداد الحركة الشعبية . وسنعود إلى موضوع سفارة السندباد
في التعقيب على الرحلة السابعة .

وقد اعتمدت في سرد حكاية الرحلة السادسة في الأكثر على نص
لانجليس Langlès . لأن نص القاهرة لم يرد فيه أى ذكر لاسم الجزيرة التي
حل السندباد هدية ملكها إلى الخليفة . وهو إلى هذا نص مقتضب يقف
عند حد رفع الهدية إلى هرون الرشيد ، وعودة السندباد إلى أهله ، ثم تحرقة
للسفر مرة أخيرة ، وقيامه بالرحلة السابعة .

أما نص لانجليس ، وهو ما أسميه « النص الجغرافى » ، فإنه يذكر اسم
الجزيرة ولا يترك مجالاً للشك في أن آخر رحلات السندباد — أى الرحلة
السابعة — كانت بتكليف من الخليفة هرون الرشيد . وهذا التكليف « الرسمى »
هو الحادث الثانى الذى أشرنا إليه في صدر حكاية الرحلة النهرية كخافز
للسندباد على القيام بآخر رحلاته .

مقبرة الأفيال

بينما السندباد يتمتع بحياة الرخاء والدعة ، طرق عليه الباب رسول الخليفة يستدعيه إلى حضرته . فإذا مثل الرحالة بين يدي هرون الرشيد طلب إليه الخليفة أن يمضى إلى ملك سرنديب ليحمل إليه الرد على كتابه ورسالته وهديته . ووجد السندباد في نفسه القوة على معارضة الخليفة في طلبه ، لأنه ” ارتعد عند ذكر السفر . وحلف بالله العظيم أنه انصرف عنه ، وأنه يغشى عليه من الجزع كلما فكر بما وقع له في أسفاره “ . فيرد عليه الخليفة العباسي بذلك الأسلوب المصري « البلدى » الذى يؤيد ما ذهب إليه بعض البحاثة من أن كتاب ألف ليلة ، كما نعرفه اليوم ، من تأليف قصاص مصرى فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلادى . يقول أمير المؤمنين هرون الرشيد : ” والله العظيم يا سندباد ما سمعت من قديم الزمان أحداً أصابه الذى أصابك ، وقد وجب عليك أن لا تذكر السفر أبداً . لكن لأجل خاطرى تمضى هذه المرة وتوصل هديتنا وكتابنا إلى ملك أرض سرنديب . وتعود عاجلاً بإنشاء الله تعالى ، حتى لا يبقى للملك علينا فضل ومنة “ .

سافر السندباد إلى سرنديب حاملاً هدية الخليفة العباسي ، ومعها كتاب ورسالة . ودخل على ملك سرنديب ، فتلقاها بترحيب « بلدى » مصرى أيضاً : ” أهلاً بك يا سندباد ، والله العظيم لقد اشتقنا إليك ، ويوم مبارك الذى نظرناك فيه تانى مرة “ وأجلسه إلى جانبه . ثم أمر السندباد ، باعتباره سفيراً مفوضاً فوق العادة ، ورئيس بعثة دبلوماسية ممتازة ، بالهدايا فحملت إلى

الملك ، ومن بينها فرس بكامل عدة ذهبية ، وخمسة أصناف من الكسوة ، ومائة صنف من البياض المصرى ، وخز السويس والكوفة والإسكندرية ، وفرش قرمز وفرش طبرى ، ومائة نصفية من حرير وكتان ، وجام من زجاج فرعونى فى وسطه صورة رجل قد برك على ركبتيه وأعرق السهم فى القوس وصوبه إلى أسد ، ومائدة نقش عليها خاتم سليمان . ثم رفع السندباد رسالة الخليفة ومعها كتاب عنوانه « ديوانه الأولباب ، وستانه العقول » . ونص الرسالة : ” سلام من الملك الرشيد ، إلى السلطان المؤيد السعيد . من عبد الله بن الرشيد بالله ، الذى وهب الله له ولآبائه مقام أهل الكرم عليهم السلام ، وتحت يده مراتب البيع والشراء (؟؟) قد وصل كتابكم إلينا وسررنا به . ولقد أرسلنا كتاب « ديوانه الأولباب ، وستانه العقول » لتطالع ترجمته ، وتتحقق عندك فضيلته . وقد جعلنا لك عنوان الكتاب وقبولك له لطف منك والسلام “ وبعد انقضاء مدة الضيافة ، استأذن الرحالة ملك سرنديب فى العودة إلى مدينة السلام . وسافر محملاً بالعطايا ، على مركب به عديد من التجار ، وكثير من الأحمال والمتاع . وآتتها الرياح فسارت ميممة شطر بحر فارس ، وإذا بقوم كالأباليس ، عليهم الزرد والعدد ، ومعهم القسى والنبال يعترضون بمركبهم سفينة السندباد ، وينزلون إليها ينكّلون بمن فيها ويقتلون من قاومهم ثم يسوقون الباقين إلى البر ويبيعونهم فى سوق النخاسة .

وكان السندباد من نصيب رجل غنى أطعمه وكساه ، ثم سأله عن صناعته فلما علم بأنه تاجر ، سأله إذا كان يرمى بالنبال . ورد السندباد بالإيجاب ، فأحضر له قوساً وكفانة ملأى بالسهام ، وأردفه معه على فيل . وخرجا عن

المدينة إلى الأدغال . ووافى الليل وهم يخترقون الآجام سيرا حثيثا حتى أتته شجرة باسقة ، فأمره سيده بتسلقها ، وبأن يلبث فوقها حتى الصباح ، وسوف تمر به الأفيال رائحة غادية ، فيطلق عليها سهامه ليصيب منها ما يصيب . وهكذا حتى يرخى الليل سدوله .

ثم ترك السندباد وحده فوق الشجرة وعاد إلى داره . وجاءت القيلة في الصباح فجعل يضربها بالنبال حتى أصمى منها واحداً ، وذهب في المساء ليخبر سيده . فجاء معه ودفن الفيل المقتول . ودام الحال على هذا زمناً غير قصير . وذات يوم والسندباد يتربق فريسته اليومية ، أقيت الأفيال من كل صوب وحذب ، لا يملك لها السندباد حصراً ولا عداً ، وهي تزجر وتندمدم ، ولوقع أقدامها ديب ووجيب ، وأحاطت بالشجرة ، وجعلت تحرب خراطيمها نحوه . ثم جاء فيل عظيم الحلقة ولف خرطومه على الشجرة ، وتحامل عليها حتى اقتلعها ورمى بها . فسقط السندباد من فوقها كالثمرة الناضجة ، وحوله الأفيال هائجة مانجة . ثم دنا الفيل الكبير فلف عليه خرطومه وحمله ، وألقى به على ظهره . وسار والأفيال تتبعه في سير حثيث تهتز له الأرض كأن قد زلزلت زلاها . وغاب السندباد عن وعيه فلم ينتبه إلا حين وصلت به القيلة إلى فرجة واسعة وسط الأدغال ، وألقى به الفيل الكبير على الأرض ، ومضى والأفيال في طريقها بين الأشجار . وقام السندباد كأنه في حلم مزعج ، فرأى أمامه أكمة تبينها فإذا هي عظام كثير من القيلة . فتذكر السندباد عندئذ ما كان قد سمعه عن مقبرة الأفيال ، وكيف يتخذ الفيل سمته إليها حين يشعر بدنو أجله ، وهناك يتوارى عن الأعين ، ويموت هادئاً حيث مات أقران له

من قبل . وفهم السندباد أن القيلة وقد ضاقت ذرعاً بصياديهـا رأـت في نقل السندباد إلى مقبرتها وسيلة لإشباع جشع الإنسان حين يجد في المقبرة من السن والعظام ما يكفيه ، ويكفي القيلة شر صياديهـا .

وقام السندباد يتبين الطريق إلى دار مولاه ، فسار يوماً وليلة حتى بلغه زائغ العينين جائعاً ، وحكى حكايته . وعادا على ظهر فيل إلى مقبرة الأنفال ، وحملـا الكثير من أنياب القيلة ، وأعتق السيد عبده السندباد ، فرجـاه أن يتم عليه جميله بإعادته إلى بلاده . فوعده بهذا عندما يوافي موسم العاج ، فيوجهه بصحبة تجاره إلى دياره . وجاء التجار يوسقون سراكبهم بأنياب القيلة ، ونزل السندباد معهم مزوداً من مولاه بهدية عظيمة من العاج . وسافروا من جزيرة إلى جزيرة ، يبيعون ويشتررون حتى أوصلتهم السفينة إلى بر السلامة . فماتم السندباد أن غادرها وقد اعتزم أن يتم رحلته برأ ، فاكترى الجمال وسافر إلى بغداد في قافلة عظيمة . ودخل على الخليفة فقص عليه حكايته ، وفرح هرون الرشيد بنجاته وعودته . وأمر فـكـتبت قصته بماء الذهب . ثم رجع الرحالة العظيم إلى منزله ، واجتمع بأهله وإخوانه ، وتاب عن السفر .

إلى هنا يكون السندباد البحري قد أتم سرد حكايته على ضيوفه ، فيلتفت إلى السندباد [أو الهندباد] الجمال ويقول له : أعرفت الآن يا أخى كيف وصلت إلى ما أنا فيه من رخاء ؟ وما قاسيت من شدائد وأهوال حتى أسبغ الله على من نعمائه ومنه ؟ . فيتقدم السندباد البرى إلى السندباد البحري ويقبل يديه ، ويعتذر له عما بدر منه ، ويدعوه بدوام العز والهناء .



أهملت نص القاهرة تماماً في سرد حكاية الرحلة الأخيرة ، لأن هذا النص يتضمن حكاية واضحة فيها تلفيق بعض وقائع خرافية ترد أشباهها كثيراً في كتاب ألف ليلة ، كما أن بها واقعة منقولة عن حكاية الرحلة السادسة ، وهي واقعة الرحلة النهرية في باطن الجبل . وقصة السندباد قصة مؤسسة على بعض المعارف الجغرافية عن البحر الشرق العظيم ، كما ترد في كتب المسالك والممالك ، وكتب المعجائب ، ومذكرات البحريين . فإذا كان السندباد قد حدثنا بالطيور التي تزق أولادها بالأفيال ، والحيات تبتلع الجواميس ، ودواب البحر تبدو وسط المحيط كالجزائر ، فقد عرفنا بكل هذا في الكتب العربية التي رجعنا إليها طوال مطافنا . وبعضه نقله العرب عن بطليموس ونيارخوس وبلينيوس وكليستينس المزعوم . بينما حكاية الرحلة السابعة في نص القاهرة شذت عن هذا واحتوت على عنصر الخوارق . فالسندباد ينزل بجزيرة يقطنها الجن ، وجن طائر فوق هذا ، يحملونه على كواهلهم في أطباق الجوالعيا حيث يسمع تسبيح الأملاك في الأفلاك ، ثم يقع إلى جزيرة يرى فيها حية تخرج من جبل وفي فمها رجل بلعته إلى فوق خصره ، فيهوّش عليها بعود ذهبي كان أهدها إليه أحد العباد ، فتلفظ نخميتها وتهرب . ويتقدم الرجل نصف المبلوع إلى السندباد يشكره على صنيعه ، ويسير به إلى موضع الجن الطائر ، وهم رهط من الشياطين الكفار نقام سليمان إلى أقصى المعمور . مثل هذه الحكاية غير جديرة برحلات السندباد ، وفيها خروج واضح على الوحدة الفنية للقصة . ولا يفوتني مع هذا أن أشير إلى وصف غرق

السفينة في أول هذه الحكاية ، وربما كان بقية قصة بحرية ضاعت . وذلك حين ترّج سفينة السندباد ارتجاجاً عنيفاً ، ويسمع الركاب زئيراً كالرعد القاصف . فإذا بحوت كالجبل العالى ظهر في الأفق متخذاً ممته إلى السفينة ، وإذا بحوت ثان أعظم خلقة وأشد نكيراً طلع عليهم من ناحية أخرى . وجاء حوت ثالث سد عليهم الأفق من ناحية ثالثة . واجتمع ثلاثة الحيتان وجعلوا يدورون حول المركب ويطاردونها ، حتى أفلت قيادها من يد الربان زعباً ، وأصاب ترشاً فتعطلت ، وغرق جميع ركابها ونوتيتها ، إلا السندباد الذي أصبح خبيراً بهذا النوع من المصائب ، بارعاً في التعلق بالواح السفن الفارقة . وحكاية الرحلة السابعة ، كما سردناها حسب نص لانجليس ، بسيطة في تصميمها ، قليلة الحوادث . ولكنها كاملة من الوجهة الفنية ، متناسقة والحكايات الست الأخرى في وحيها وإيحائها ، وفي أسلوب سردها . ومن الواضح أن سفينة السندباد في عودتها وقعت فريسة بين أيدي القراصنة الذين كانوا يخرجون من سواحل المَلَيْبَار في سفن عرفت عند العرب باسم البوارج ، ويقطعون مسالك التجارة البحرية . وقد ظلوا يعيشون فساداً في بحر الهند عند مدخل الخليج الفارسي حتى القرن الثامن عشر ، حين وضع الأسطول البريطاني حداً لشروهم .

ولكنني لم أعث في مراجعي العربية على أصل أسطورة مقبرة الفيلة ، مع ما يرد في هذه المراجع من أخبار عن ذكاء الأفيال . وحكاية السندباد تشير إلى هذا الذكاء ؛ إذ تدرك الفيلة أن عداوة بني الإنسان لها مسببة عن رغبته في اقتناء أنيابها . أي أنها تدرك القيمة التي يعلقها الناس على تلك

الأنياب ، فتحاول أن تدل السندباد على مقبرتها علها تجد في هذه الوسيلة ما يجعلها في مأمن من شر ابن آدم حين يعرف طريقه إلى « معدن » العلاج . ولقد بنى رديارد كبلنج واقعة من وقائع « كتاب الأروغال » The Jungle Book على أسطورة مقبرة القبيلة . فذكر كيف نحت الأفيال الغلام « موجلى » وذهبت به إلى تلك المقبرة التي يعد مكانها سرّاً من الأسرار .

فلنفحص الآن سفارة السندباد إلى ملك سرنديب بأمر الخليفة هرون الرشيد ، رداً على رسالة الملك إليه وهديته . فهذا الحادث الهام تحمس له المستشرق كازانوفا تحمساً بالغاً ، وأراد أن يكون نواة للأساطير البحرية التي انتشرت في أول عهد العباسيين . بل ذهب إلى حد الافتراض بأن مؤلف السندباد بدأ قصته بحكاية هذه السفارة ثم جعل ينشئ حولها ، أو يفرع عنها الحكايات الأخرى . وهذا فرض جرى لا سند له إلا من فكرة « فوكلورية » تغلبت على ذهن كازانوفا يسميها « تفرع الأساطير » .

والحادث نفسه ، كما قلنا في التعليق على الرحلة السابقة ، يكتسب صبغة شبه تاريخية لوروده في بعض كتب الأخبار العربية . فالجاحظ يروى حدوثه بين معاوية الأموي وملك الصين . والكامل المبرد ينسبه إلى عمر بن عبد العزيز وملك الهند . وغيرها يضعونه في عهد هرون الرشيد أو المأمون . ويظهر أن الصورة الأصلية لهذا الحادث ، أو الأسطورة ، هي التي أوردتها المسعودي من خبر سفارة ملوك الصين والهند والتبت إلى كسرى أنوشروان . وقد أشار أبو القاسم الفردوسي إليها في الشاهنامه .

ويعني من أخبار هذه السفارات أن نبحث عن أقربها إلى ماورد

بقصة السندباد . وهي سفارة بين المأمون وملك الهند ، ورد تفصيلها في نص نشره المغفور له أحمد زكي باشا في مجلة « ريقوديجيت » سنة ١٨٩٤ عن مخطوط بدار الكتب المصرية . ويجدر بنا أن نعيد نشره هنا لأنه يلقي ضوءاً باهراً على المصدر الذي نقل عنه مؤلف السندباد حكاية سفارته .

” وكتب رُحْمَى ملك الهند إلى المأمون مع هدية أهداها : بسم الله الرحمن الرحيم . من رُحْمَى ملك الهند وعظيم أركان الشرف صاحب بيت الذهب ذي الأركان الياقوت وفرش الدر ، والذي قصره من العود الرطب الذي إذا ختم عليه قَبِلَ الصورة قبول الشمع ، والذي توجد رائحة قصره من عشرة فراسخ ، والذي في خزائنه ألف تاج من الجوهر لألف أب كانوا له ذهبوا ، والذي يسجد له أمام البد الأكبر الذي وزنه ألف ألف مثقال من الذهب الأحمر ، وعليه ألف حجر من الياقوت الأحمر والدر الأبيض ، الذي يركب يوم السعادة وعلى رأسه التاج في ألف مركب له راية مكللة بالدر وتحتها ألف فارس معلم بالخز والذهب ، والذي يأكل في صحائف الجوهر على موائد الدر المنظوم ، والذي يستحي من الله أن يراه خائفاً في رعيته بعد استكفاء الأمانة عليهم والرياسة فيهم . إلى عبد الله المأمون ذي الشرف والرياسة على أهل مملكته . أما بعد ، فإنه لم يذهب علينا أن ما تقدم من ذكرنا أيها الأخ فيما انتسبنا إليه من الشرف وعلو الحال غير حائل لزواله ، وأنه كان الأولى بنا أن نبدأ بذكر الله تعالى جل اسمه وتعالى ذكره . غير أننا أجمعنا أن لا نبتدئ بذكره إلا في موضع المناجاة له ، عائذين به . وأخبارك ترد علينا بفضلتك في العلم لم نجد لها لغيرك من أشكالك . ونحن شركاؤك في الرغبة

والحبة ، وقد افتتحنا باب المكاتبه ونحب القائده بأن أنفذنا إليك كتابه
ترجمناه « صفوة الزهراء » ، والتصفح له يشهد على صواب التسمية .
وبعثنا إليك لطفاً بقدر ما وقع منا موقع الاستحسان له ، وإن كان دون
قدرك . ونحن نسألك أيها الأخ أن توسع أخاك عذراً في التقصير .

” وكانت الهدية جام ياقوت أحمر فتحه شبر في غلظ إصبع مملوءاً دراً
وزن كل درة مثقال ، والعدد مائتا درة . وفراش من جلد حية في وادي
الزيراج [الزنج أو الزايج ؟] تبلغ الفيل ، وشي جلدھا دارات سود على قدر الدرهم .
وفي وسطها نقط بيض مقرونة بالدلا [؟] ينجو من جلس عليها من مرض
السل ، ومن كان بالسل وجلس عليها سبعة أيام دب . ومصلیات ثلاث
وسايدھا على جلد طائر يقال له السمندل ، موشاة إذا طرحت في النار لم تحترق ،
فراوزھا در وياقوت أحمر . ووزن مائتي ألف مثقال عوداً هندياً رطباً إذا ختم
عليه قبل الصورة . وثلاثة وثلاثون ألف من كافوراً محبباً كل حبة منه مثل
الفسقة ، وأكبر من اللؤلؤة . وجارية سنديّة طولھا خمسة أذرع ، تسحب
شعرھا ، حسنة البشرة ، لها أربعة ضفائر تعقد منها ضفيرتين على رأسھا تاجاً ،
وضفيرتان مسبلتان يبلغان الأرض من خلفھا . وطول كل شفر من أشفار
عينھا إصبع ؛ يبلغ ، إذا مدته ، إلى نصف خدھا . وكان بين شفتيھا برقاً من
بياض أسنانھا . لها نهدان ، وثمان عكن .

” وكان الكتاب في لحا شجرة يقال لها « الكادي » [يرى دوزى أن

هذه شجرة *Pandanus odoratissimus* ويسمىها البيروني في كتاب الهند « تاري »]

أحسن من الكاغد : لونه إلى الصفرة ، والخط لازوردي مفتوح بالذهب .

”جوابه المأمون : بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله الإمام المأمون بالله أمير المؤمنين ، الذي وهب الله له ولاية الشرف بابن عمه نبيه المرسل صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، والتصديق بالكتاب المنزل .

« إلى رُفهي ملك الهند ، وعظيم من تحت يده من أرا كنة الشرف . سلام عليك ، إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم . وصل كتابك فسررت لك بالنعمة التي ذكرت ، ووقع إتحافك إيانا بالموقع الذي أملت من قبول ذلك . وكنت ما ابتدأت به من البر محمودا موجهها ذلك لك إلى الشكر عليه وحسن الذكر له . ولولا السنة جارية بترك تقديم من لم يكن لنا على الشريعة مواليا ، وبها آخذا ، ما تركنا ما تحسن من ميزتك بالتقديم ، والاعتذار لما ذكرنا أحد التقديمين ، وأنت له منا أهل . وقد أهديناك العلم بمودتنا لك ، وهي أوفر حظ المؤمنين . وأنفذنا إليك كتابا ترجمته « ريوارة الأبواب ، وبستانه نور العقول » . ومطالعتك ترجمته تحقق عندك فضيلة أنعمه ، ومشاهدتك له تحقق عندك ما سميناه به . وجعلنا لذلك عيوننا من الهدية ، وهو لطف استقلالنا قدره لك . ولو كانت الملوك تمادى على أقدارها لما اتسعت لذلك خزائنها ، وإنما يجري ذلك بينها على قدر ما يدل على حسن النية ، وجميل الطوية ، وبالله تعالى التوفيق .

” قال وكانت الهدية من المأمون رحمه الله فارسا بفرسه ، وجميع آلاته من عقيق . قيل بل فارس بفرسه وجميع آلاته من عنبر شحري أشهب . ومائدة من الجزع أرضها بيضاء ، وفيها خطوط سود وحمر وخضر ، وسعتها ثلاثة أشبار ، وغلفها إصبعان ، وأركانها ذهب مما أخذ من خزانة مروان بن

محمد الأموى . وخمسة أصناف من الكسوة ، ومائة ثوب من كل فن مر قباطى مصر وخز السوس ، ووشى اليمين والإسكندراني وسلجم خراسان وديباج خسروانى . وفرش قرضوى [قرمزى ؟] وفرش سنجردى . ومائة طنفسة حبرية بوساندها . وكل ذلك خز سوس مائة قطعة من كل صنف . وجام زجاج غلظ إصبع وفتح شبر ونصف ، فى وسطه صورة أسد ثابت ، وأمامه رجل قد برك على ركبتيه ، وقد فوق السهم نحو الأسد . والجام والمائدة من الذى أخذ من خزانة مروان بن محمد الأموى . والكتاب فى طومار ذى وجهين “ [طومار Τομαριον أى ملف من ورق البردى] .

لم يخترع مؤلف قصة السندباد حكاية تبادل الرسائل والهدايا بين ملك سرنديب وال خليفة هارون الرشيد . وإنما اقتبس ما طالع من أخبار السفارات بين ملوك شرق آسيا وغربها ، فجعل منه براءة ملحوظة حادثا هاما فى رحلات بطله ، بل باعثا رسمياً على قيام السندباد برحلته السابعة والأخيرة .

تعقيب عام على قصة السندباد

استطعنا أن نضع إصبعنا على مصادر قصة السندباد البحرى فى الرحلات العربية ، وكتب العجائب ، التى انحدر إلينا بعضها من مؤلفات العرب فى القرون الوسطى بين القرن التاسع الميلادى والقرن الخامس عشر . وقد يضاف إليها بعض الأساطير اليونانية التى انتقلت إلى الشرق مع جيوش الإسكندر وسمع بها المؤلف ، أو بعض ما جاء فى التاريخ الخرافى لذى القرنين الذى وضعه كلستينس المزعوم فى مدينة الإسكندرية ، وانتقل إلى الآداب العربية والسريانية والقبطية والإثيوبية .

وعالجنا أنواعا من المعارف البشرية والنباتية والحيوانية ، يتقدم بها السندباد على أنها مشاهدات شخصية وتجارب ، وهي واردة في الكتب العربية بمعناها ، وبما يكاد يكون لفظها . كذكر القفل والقرنفل والعود والنارجيل والكافور ، والعنبر واللؤلؤ والماس والياقوت ، والسكر كدّْن والقيل ، والأحياء البحرية الغريبة ، ونظام الطبقات عند الهندوس ، وعادات أهل قمار والزابج وسرنديب .

ولا يدع كل هذا مجالا للشك في مصادر القصة ، ولا في أهميتها كقصة جغرافية تُلَخِّص المعارف البحرية عند العرب في القرون الوسطى . ولا نود أن نغالى في تهمب السندباد عبر البحر الشرقى الكبير إلى مواضع بعينها . فلم يعن المؤلف بتحديد هذه المواضع دائما ، ولا هي متخذة في ذهنه وضعا واضحا . على أن ما يظهر من اختياره للحوادث هو عنايته بكل ما يمكن أن يخدم غرضه في التنقل ببطله من مغامرة إلى مغامرة ، وهو يشبه أن يراعى في هذا الاختيار أمكنة تبدو أكثر صلاحية لأغراضه . وقد اتضح لنا على الأقل أن المؤلف سافر بالسندباد إلى جزيرة سرنديب ، وسومطرة وكنله ، وقمار ، وساحل الملايبار ، وربما إلى جزائر اللنجبالوس أو الأندمان . ولا يبعد أن يكون قد نقل متاعه في رحلته الأخيرة إلى إحدى المرافئ بشط السند ، أو على شاطئ مكران . ومن هناك سافرت قافلته إلى بغداد مخترقة بلاد مكران وفارستان وما يعرف بالعراق العجمي . وفي الحكاية السابعة بطبعة القاهرة يغرق المؤلف سفينة السندباد ببحر الصين . فقد أحاطت الخيتان بالسفينة فتكلم الربان كلاما يفهم منه أن المؤلف كان يفكر بذلك البحر ،

إذ قال : ” اعلّموا يا ركب أننا وصلنا إلى إقليم الملوك حيث قبر سليمان بن داود “. ففي بعض الأساطير العربية ما يشير إلى قبر سليمان بجزائر في شرق الصين ، تجاور الجزائر التي نفي إليها ابن داود بعض المردة العصاة . ولكننا نفضل أن لا نعتد بهذا النص لأنه يقضى على الوحدة الفنية للقصة .

ولهذه الوحدة أهمية كبرى ، لأنها دليلنا على أن مؤلف القصة شخص واحد ، قد يكون مسؤولا عن بعض قصص أخرى في كتاب ألف ليلة . ولكنه لا يمكن أن يكون مؤلف الكتاب بأجمعه . بل نحن نشك في أن يكون مؤلف كتاب ألف ليلة شخصا واحدا . فالكتاب في رأي مجموعة بدأت تتكون حول أصل فارسي ، ربما كان مؤسسا على أصل هندي . فأضاف الرواة والمخرفون إلى المجموعة شيئا فشيئا قصصا أجنبية ، وقصصا مصرية ، وحكايات من تأليفهم ، وروايات منقولة عن أخبار العرب . وهذا على أي حال يخرج بنا عن نطاق البحث الذي تناوله كتابنا .

ولا نحسب أن مراجعة توار يخ كتب الجغرافيا العربية وما إليها تساعدنا كثيرا على الجزم بأن مؤلف السندباد قد اطلع على كتاب منهادون الآخر . هذا إلى أن غير قليل من هذه الكتب قد ضاع ، ولا يبعد أن تكون الحوادث التي لم نجد لها ذكرا فيما بين أيدينا من الكتب كحادثة مقبرة الأفيال ، وطريقة جمع النارجيل بواسطة القروء ، قد عرف بها المؤلف من بعض الكتب التي ضاعت ولقد أراد بعض المستشرقين — وعلى رأسهم البارون فون هامر von Hammer في القرن الماضي — أن يروا في إشارة أبي الحسن المسعودي إلى كتاب السندباد بأنه منقول عن ” الفارسية والهندية والرومية “ ، دليلا على

أن قصة السندباد البحري من أصل غير عربي . ولكن بحوث الهندولوجيين وغيرهم أدت إلى الكشف عما يكون هذا الكتاب الذى أشار إليه المسعودى . فهو قصة هندية وردت ضمن المجموعة التى تعرف باسم « پانثا تانترا » Pancha Tantra . وقد نقلت هذه القصة فى كتاب « ألف ليلة وليلة » باسم « حكاية تتضمن مكر النساء » ، ووضعت بالجزء الثالث من طبعة القاهرة . وهى قصة الملك وولده والوزراء السبعة والحكيم سندباد . وربما كان نقلها إلى العربية عن الكتاب الفارسمى المسمى « بختيار نامه » . وقد كشف الباحثون عن العلاقات الوثيقة بين الأدب الهندى والأدب الفارسمى ، كما يظهر ذلك من مقارنة الكتاب الهندى « هيتوباديسا » Hitopadesa بالكتاب الفارسمى « تولى نامه » . وحكاية السندباد الهندية انتقلت إلى الآداب العبرانية باسم الحكيم « سندبار » وإلى اليونانية باسم « سنتباس » .

كانت إذن إشارة المسعودى إلى كتاب السندباد تنصب على الكتاب الهندى . وهو مجموعة حكايات لا تخلو من خلاعة مكشوفة تتضمن مكر النساء . ونحن من جهتنا لا يقوم لدينا أدنى شك أن قصة « السندباد البحري » عربية مستحدثة لا يرجع تأليفها إلى ما قبل القرن الحادى عشر الميلادى . وأسلوبها ، ولغتها الدارجة ، كما تبدو فى النص الذى نشره لانجليس ، قد تنزل بتأليفها إلى القرن الرابع عشر أو بعد ذلك . ولا نستبعد أن يكون مؤلفها مصرياً ، أو على الأقل عارفاً باللهجة القاهرية .

وأياً كان مؤلف السندباد ، فقد استطاع أن ينشئ قصة الخلافة من أشتات المعارف الجغرافية وحكايات الرحالين المتداولة فى عصره دون أن ينتقص

هذا من قدره كفنان بارع . فالقصة تخرج على لسان بطلها مفعمة بالحياة ، تتدافع أحداثها بعضها في أثر بعض ، كأنها أمواج البحر الزاخر الذي لجج فيه السندباد ، وعرف مرءه أكثر من خلوه ، ورضى مع هذا بأن يكون أسير سحره . تخرج القصة من فم متناسقة متلائمة ، قديرة على إبراز صور البحر وجزائره ، وألوان الطبيعة الاستوائية ، بطريقة إيحائية ، تعنى بالجو الفنى أكثر مما تعنى بالتفاصيل . تنبض بالحياة ، وتفيض بالحركة ، وتتوهج ألوانا وأنوارا ، وتشكل أوضاعا وأجراما ، وهى على طولها ، تستأثر بمشاعر قرائها أو سامعيها . فلا سبيل إلى المعجب أن احتضنتها آداب العالم منذ نشر جالان ترجمتها الفرنسية في مطلع القرن الثامن عشر ، وتنشأت عليها أجيال من الشباب ، وتأثر بها كبار الكتاب الخياليين أمثال ديفو وسويفت وهوفمان ، وإدجار آلان بو ، ولاموت — فوكيه ، وهانس أندروون ، وجريم . ولا أحسبني مبالغا إذا لاحظ أثرها في طائفة كبرى من الأدب البحرى في العالم . وقد رفضها الناقد ريتشارد هول إلى مكانة الأوديسية ، قياسا مع الفارق . ولم تقف هذه القصة عند حد أن تكون سمرا للصغار والكبار على السواء ، ولا مصدر وحى لمشاهير القصاصين ، بل كانت موضوع دراسة العلماء المستشرقين والجغرافيين أمثال فالكنباير Walckenaër ورينو ودى خوى وريتشارد هول ولين وكازانوفا وجبريل فرّان . واستشهد بها مؤرخو علم تقويم البلدان كلما عرضوا لجغرافيا القرون الوسطى . وفى ذلك يقول فيثيان دى سان مارتان فى « تاريخ الجغرافيا » : ” وقد احتفظت تلك المواضع القاصية [أى شرق آسيا] عند قدماء العرب [يقصد عرب القرون الوسطى] بخصائص المعجب الغريب ،

وهي الخصائص التي تتصل بالمجاهل البعيدة . فمن لم يطالع بكتاب « ألف ليلة وليلة » حكايات السندباد البحري العجيبة ؟ هذه الحكايات التي تغلو في التصور ، وتتمادى فيها الأخيلة الشرقية ، لا تعدم أهميتها لدى للورخ الجغرافى . ولم يقف نجاح صاحب القصة عند قوة السرد والعرض والإيحاء بالجو البحرى الصادق ، بل تعداه إلى إبراز صورة واضحة لبطل القصة نفسه . فهذا السندباد بدأ شبابه وقد ورث عن أبيه مالا كثيرا أضاعه بين الكاس والطاس ، والخلان والتحليلات . وهو شبیه في هذا بالأغمرار في مثل سنه ، يظلمهم نزع الشباب وحب المغامرة ، فيتردون في مصارع الشهوات . ولكن نفس السندباد العامرة لم تركز إلى حياة الفساد والانحلال ، فأصيب بنوبة روحية عرفها الشعراء والفنانون ، أمثال يترُون وشيللى ورامبو وجوجان ، وهي نوبة عاودت الشباب بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وعرفت حينئذ باسم التملص *évasion* . وكانت وسيلة السندباد إلى التملص هي ركوب البحر الشرقى الكبير . وقد سمع ولا شك بالكثير من حكاياته على ألسنة الملاحين والتجار الذين يملأون موانئ البصرة وسيراف وهرمز ، ويتنقلون بينها وبين بغداد . وعاد السندباد ، بعد رحلات استغرقت على الأقل سبعة وعشرين عاما من عمره ، رجلا وقورا مهيب الطلعة ، وكزه الشيب في عارضيه ، يتحدث عن رحلاته وأحواله بصوت موسيقى متزن ، لا تكاد تبدو في نبراته آثار جهاده الهائل ، ولا هو يحاول أن يؤثر في سامعيه بأكثر من سرد الوقائع سردا منظما محكما ، لا أثر للعمل فيه ، ولا للافتعال الفنى .

والصورة الفنية التي تبرزها القصة للسندباد صورة رجل بعيد الهمة ،

متوثب الروح ، تواق إلى المعرفة ، متوقد القريحة ، واسع الحيلة ، لا يستنم لمصيبة ، ولا يجثو لصروف الحدثان . والسندباد في هذا علم على جميع الرواد والمستكشفين ، من يازُونُس الأرجونوتي وأودسيوس ، إلى ابن بطوطة وماركو بولو وبارتولوميو دياز ، ومن فاشكوداجاما وكولومبوس وماجلان إلى الكابتن كوك وسكوت ونانسن وأمُنْدِسْن . فإذا كانت هؤلاء المكتشفون قد ضاعفوا من كنوز المعارف البشرية ، ومهدوا للإمبراطوريات العظيمة ، فقد أوسع السندباد للخيال آفاقه ، ونشر للكتاب خيوطا فضية ، وللشعراء أشعة ذهبية ، توسلوا بها إلى التحليق ما شاء لهم الشعر والنثر .

والقصة تبدأ سهلة السرد هادئة ، لا تتم على ما تخبئه من روائع :
”... كان في زمن الخليفة هرون الرشيد بمدينة بغداد رجل حمال يقال له السندباد...“ ، ثم تترادف أحداثها وتنشعب حتى تصل إلى عقدها الكبرى عند ما يدفن السندباد حيا . وهي تعود بعد ذلك رويدا إلى هدوئها ، كما تعود حياة السندباد سيرتها الأولى بين : يده وأعوانه ، وأهله وخلاته . وكأني بها مقطوعة سمفونية تبدأ هادئة اللحن . ثم ترتفع أنغامها ، وتتفرع عن لحنها الأساسي شتى الألحان ، تتلفها آلات «الأركسترا» أفرادا وجماعات حتى تدوى بها كافة الآلات الوترية والهوائية والنحاسية ، ويعلو لحن البحر والعاصفة ، وصوت الأمواج المضطربة ، وقعقة السفينة ، وشرعها تضرب ممزقة في صواربها وحبالها تلهب ظهرها كالسياط . ثم هي ترتد إلى هدوئها الأول ، لتنتهي فوق الأوتار ديبيا وحفيفا ، لا تلبث أن تحمله على أجنحتها أخف التسمات .

خاتمة الكتاب

هذا آخر المطاف ونهاية التجوال . لحظة يتوابع فيها السفار على لقيا ،
والأغلب أن يتوابعوا على غير لقاء .

عدتم إلى الديار وعدنا ، من بطون العصور السالفة إلى أواننا ، ومن
آذى البحر الشرقى القديم إلى بحرنا الأوسط . رفأتم ورفأنا بهذا الشجر الجميل
ذات يوم صحو من مطالع الربيع ، وقد غادرناه سوياً منذ نحو عامين في بواكير
الخريف ، لا هجرة ولا هجرانا ، بل هروبا من الحاضر تبرما به ، إلى الماضي
ملاذ ذوى الهوى ، وضيقا بأرض قسى أهلها بعضهم على بعض ، وبحر
امتنع علينا ركوبه ، إلى بحار وأراضين فرز بين الواقع والأساطير .

شفينا غلة ، وأطفأنا لظى ، وحققنا حلم صبا . آلفنا بين نوازع
نفوسنا إلى البحار وركوب الجوارى المنشآت ، وأمان لنا قديمة في فهم سر
علينا استغلق ، وفك سحر آخر من أسحار الطفولة والمراهقة . ولأماننا بين
حاضرنا المادى الموضوعى ، وماضيها الخيالى الوجدانى ، ومزجنا القديم والحديث ،
وجهدنا أن نحبس روحنا الجياشة وراء أسوار عتيقة ، ننزف منها الرطوبات ،
وتكسوها خضراء الطحالب . لا كلفا بالقديم ، ولا قلى للجديد . بل ترويضاً
للروح ، وإسلاسا لقيادها الجموح ، ومرانا لها على ركوب السهل والحزن .

لم يكن ليقدرنى على هذا غير السندباد ، معلمى البحرى الأول . فقد كان
بطبعه وطبيعته من زمن غير زمنى . يمت بصلة إلى آل كايُوليت وأنا من
مونتاجو . ولكن يفتنا حب مشترك أشد من أواصر القربى ، وأقوى من

وازع العصبية . حب أضاع فيه مطى شبابه وكهولته ، وأصرف فيه شبابه وما يقدر لى من كهولة وما بعدها . ذلكم هو حب البحر ، قيعانه وأمواجه وبروره وجزائره .

بيد أن أستاذى لم يعلمنى من حب البحر أن أدون فيه الكتب ، أو أنشىء القصص . بل أن أركبه ملججاً ، وذلك أصدق الهوى .

فلما أقام أوار الكريهة بينى وبين البحر حواجز مستعرة ، وباعد بينى وبين ركوبه ، بل والأمل فى ركوبه قبل ربح ربحا طال من الزمن ، عدت إلى مطى الأول أستوحيه ، وأتقب عن سره ، وأطوف فى البحار التى طوف فيها ، لابساً لبوسه ، عائشاً حياته ، متجاهلاً ما جهل ، عارفاً ما كان يعرف . رحلة خيالية فى الزمان والمكان ، لم أقم بها إلا بين الطروس والمحابر ، وصفحات المجلدات القديمة . فكان هذا الكتاب .

لا هو من العلم كله ، ولا هو من الأدب كله . صفته من صفة مادته ، وإقليمه نوعاً كإقليمه موضوعاً . هو بين العلم والأدب كموضوعه بين الواقع والأساطير . للعلماء أن يقذفوا به إلى مجامع أهل الأدب ، وللأدباء أن يلتقوا به فى أنابيب العلماء . هو عيال عليهم جميعاً .

لو أردته بحثاً علمياً لفاتنى من العلوم كثير : تقويم البلدان ، والتاريخ ، و « الفوكلور » ، وعلم اللغات المقارن ، وفحص المخطوطات ، ومقابلة النصوص . ولو أردته بحثاً أدبياً لأعوزنى ما يتحصن به بحثة الأدب من دراسة اللغة ، تاريخها وأجروميته وبيانها وبديعها ، واضطلاع كامل بأدائها ، وفهم اللهجات ، وموازنة للأساليب .

لم يبق لى بين هذا وذاك غير شىء من العلم بالبحر وأحيائه وأمواجه وتياراته وقيعانه وجوه وشواطئه ، وحب صادق له ، واطلاع عام على الأدب الخاص به ، وخبرة شخصية ببعض أرجاء البحر الشرقى الكبير ، موضع عناية البحرين والجغرافيين وكتاب العجائب وأرباب القصص ممن ألفوا فى العربية بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر الميلادى .

ليس زيفاً فى التواضع أن أقول ما أنا قائل . هى الحقيقة الصراح أن من يتصدى لمثل موضوع هذا الكتاب لا يمكن أن يكون رجلاً واحداً ، إلا أن يجمع فى واحد ما عددناه من أبواب العلم والمعرفة . واتساع المعارف فى عصرنا لم يعد يسمح بالشخصيات الإنسيكلوبيدية . ولقد أقررت فى المقدمة بفضل المستشرقين . ولا أحسبني ، بالغاً ما بلغ هذا الإقرار ، قادراً أن أفهم حقهم من المديح ، وأن أعبر لهم عما يخالج نفسى من تبجيل وإعجاب . ولكنى أترك الإطراء والإعجاب إلى الأمل بأن يكون خلفاؤهم أعرف الناس بالتحرج الذى يبدو فى هذه الخاتمة ، وأول من يفهم معنى إقرارى بعجزى عن أن أتمكن من الوفاء وحدى بما يستحقه موضوع هذا الكتاب من استعداد ودراسة واستقصاء وتأليف .

منهم أتمس العذر إذ جازفت فى بعض المواضع من كتابى بآراء شخصية ، أرجو أن تؤخذ على أنها جرأة طبيعية لا تجرؤ ، وحسن اجتهاد لا صفاقة . وقد يقدر لبعض موضوعات هذا الكتاب أن تفحص من أسامها بمعاهد للبحث بالجامعتين المصريتين الحديثتين ، وأن يؤخذ فرادى ما أخذته جماعة ، وتفصيلاً ما حققته إجمالاً . فإذا أدت البحوث إلى تأييد بعض ما ذهبت إليه ،

فلمست أرجو أن يكون لى من الفضل أكثر من البدء والمحاولة . أما إذا أثبتت فساد زعمى بعضه أو كله ، فأنا أول من يتقدم لأصحابها بالشكران على ما أسدوا . فكلنا نعمل خالصين لوجه الحقيقة والعرفان . وأنا راض على الحاليين ، لأن لى فى كل منهما أعظم مكانة أطمع فيها وأطالب بها ، هى اليقين بأن عملى فى هذا الكتاب لم يكن عبثاً ، وجهدى فيه لم يضع سدى .

الإسكندرية فى ٧ أبريل سنة ١٩٤٢ .

انتهى

المراجع

مراجع عربية

عصر تأليف الكتاب
(بالسنة الميلادية)

- ٧٧٦ ابن حيان (جابر): مختار رسائل . نشر كراوس . القاهرة ١٩٣٥ .
- ٨٤٤ — ٨٤٨ ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) : كتاب المسالك والممالك . نشر وترجمة دى خوى . لندن ١٨٨٩ .
- ٨٥٠ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : كتاب الحيوان .
- ٨٥١ التاجر سليمان : سلسلة التواريخ . طبع بإشراف لانجليس سنة ١٨١١ . ونشره وترجمه رينو بياريس ١٨٤٥ . جزءان .
- ٨٧٥ — ٨٨٠ ابن واضح اليعقوبى (أحمد بن يعقوب بن جعفر) : كتاب البلدان . نشر دى خوى . لندن ١٨٨٥ .
- ٩٠٢ اليعقوبى : تاريخ ابن واضح . نشر هوتسا . لندن ١٨٨٣ .
- ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر) : كتاب الأعلام النفيسة . نشر دى خوى . لندن ١٨٩٢ .
- ٩١٦ السيرافى (أبو زيد حسن) : تعقيب على مذكرات التاجر سليمان . نشر رينو . باريس ١٨٤٥ .
- ٩٤٣ المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) : مروج الذهب ومعادن الجوهر . نشر وترجمة بارييه دى مينارودى كورتى . باريس ١٨٦١ — ١٨٧٣ ، ٩ أجزاء .
- ٩٥٥ المسعودى : التنبيه والإشراف . نشر دى خوى . لندن ١٨٩٤ .

عصر تأليف الكتاب
(بالسنة الميلادية)

- ٩٦٦ المقدسى (مُطَهَّر بن طاهر) : البدء والتاريخ . نشر وترجمة
كليان هوار . باريس ١٩٠٧ . أربعة أجزاء .
- ٩٧٧ ابن حوقل (أبو القاسم محمد) : المسالك والممالك . نشر دى
خوى . ليدن ١٨٧٠ .
- الإصطخرى (أبو اسحق الكرخى الفارسى) : مسالك الممالك
نشر دى خوى . ليدن ١٨٧٠ .
- ٩٨٨ أبو يعقوب النديم (محمد بن اسحق ، أبو الفرج الوراق) :
كتاب الفهرست . نشر فلوجل . ليذج ١٨٧١ .
- ١٠٠٠ المقدسى البشارى (شمس الدين بن عبد الله) : أحسن التقاسيم
فى معرفة الأقاليم . نشر دى خوى . ليدن ١٨٧٧ .
- ١٠٣٠ البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد) : الآثار الباقية من
القرون الخالية . نشر وترجمة زخاو . لوندرة ١٨٧٩ .
- البيرونى : تحقيق ما للهند من مقولة فى العاقل أو مردولة
نشر وترجمة زخاو . لوندرة ١٩١٠ . جزءان .
- ١١٥٤ الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن
إدريس الخوذى الحسى ، الملقب بالشريف) : نزهة
المشتاق فى اختراق الآفاق . مختصر طبع روما ١٥٩٢ .
- الإدريسى : نزهة المغرب وأرض السودان ومصر
والأندلس . مع « نزهة المشتاق » . اختيار دوزى فى
مختصر بالأندلس . ودى خوى فى مختصر بالمغرب والسودان
ومصر . ليدن ١٨٦٦ .

عصر تأليف الكتاب
(بالسنة الميلادية)

- ١١٨٥ ابن طفيل (أبو بكر محمد بن عبد الملك القيسي الأندلسي) :
حي بن يقظان . ترجمة جوتييه . الجزائر ١٩٠٠ .
- ١١٧٩—١١٢٩ ياقوت الحموي (بن عبد الله الرومي) : معجم البلدان .
نشر قوستنفلد . ليبرج ١٨٧٠ — ١٨٨٦ . ستة أجزاء .
- ١٢٤٨ ابن البيطار (ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد الأندلسي
المالقي العشاب) : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية .
طبع القاهرة ١٨٧٤ . جزآن .
- ١٢٠٣—١٢٨٣ القزويني (زكريا محمد بن محمود) : آثار البلاد وأخبار العباد .
نشر قوستنفلد . جوتنجن ١٨٤٨ .
- القزويني : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات . نشر
قوستنفلد . جوتنجن ١٨٤٩ .
- ١٢٦٩ ابن أبي أصيبعة (موفق الدين ، أبو العباس بن القاسم
الخرزجي) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء . نشر
مولر — القاهرة ١٨٨٢ .
- ١٣٢٥ الدمشقي (شمس الدين أبو عبد الله الصوفي) : نخبة الدهر
في عجائب البر والبحر . نشر وترجمة ميرن . النطفي
بترسبرج ١٨٨٦ ، والترجمة في باريس ١٨٧٤ . جزآن .
- ١٣٣٢ النويري (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) :
نهاية الأرب في فنون الأدب . القاهرة ١٩٢٣ —
١٩٣٨ . ثلاثة عشر جزءاً صدرت حتى عام ١٩٣٨ .
- ١٢٧٣—١٣٣١ أبو القداء (اسماعيل بن علي ، الملك المؤيد عماد الدين

عصر تأليف الكتاب
(بالسنة الميلادية)

- صاحب حماة) : تقويم البلدان . نشر وترجمة رينو ودي
سلان وجيکار . باريس ١٨٤٨ — ١٨٨٣ . ثلاثة أجزاء .
١٣٤٠ ابن الوردي (زين الدين أبو حفص عمر) : خريدة العجائب .
القاهرة ١٨٦٣ .
١٣٥٥ ابن بطوطة (أبو عبد الله بن محمد المغربي اللواتي الطنجي) :
تحفة النظار في عجائب الأمصار . نشر وترجمة ديفريمرى
وسانجيتى . باريس ١٨٥٤ — ١٨٧٩ . أربعة أجزاء .
١٣٧٥ ابن خلدون (عبد الرحمن بن يحيى) : مقدمة كتاب
العبر وديوان المبتدا والخبر ، في أيام العرب والعجم
والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر .
١٣٨٠ — ١٤٠٥ الدميرى (كمال الدين) : حياة الحيوان الكبرى .
القاهرة ١٨٥٧ .
١٣٨٨ — ١٤٤٦ الأبيشي (شهاب الدين محمد بن أحمد) : المستطرف في
كل فن مستظرف . القاهرة ١٨٥١ .
١٤٩٠ ابن ماجد (شهاب الدين أحمد) : الفوائد في أصول علم
البحر والقواعد . نشر جبريل فرّان . باريس ١٩٢١ —
١٩٢٣ .
١٥١٦ ابن إلياس (أبو البركات محمد بن أحمد) : نشق الأزهار
في عجائب الأقطار .
ابن إلياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور .

عصر تأليف الكتاب
(بالسنة الميلادية)

- ١٦٦٠ حاجي خلمه (ملا كاتب چلبى) : كشف الظنون عن
أسامى الكتب والفنون . القاهرة ١٨٥٧ جزءان .
- ؟ ؟ كتاب ألف ليلة وليلة . نعر ماكنوتن بكلكنا . وهابخت
في برسلاو . وطبعات القاهرة .
- ؟ ؟ قصة السندباد البحري . نشر وترجمة لانجليس في كتاب
ساقارى (انظر المراجع غير العربية) باريس ١٨١٣ . نشر
الشيخ شروانى بكلكنا في ذيل المائتي ليلة الأولى من كتاب
ألف ليلة وليلة .
- ؟ ؟ بزرك بن شهر بار (الناخذاه الرامهر مزرى) : عجائب
الهند ، بره وبحره وجزائره . نشر فون دير ليت . وترجمة
مارسل ديشيك . لندن ١٨٨٦ .
- ؟ ؟ سيرة فارس اليمين ، سيف بن ذى يزن .

مراجع غير عربية

عصر تأليف الكتاب
؟ ؟

La Bible (Ancien Testament : le Livre
des Rois).

XI°-X° S. Av. J.-C. Homère : L'Illiade et l'Odyssée.

326 B. C. Nearchus : An Account of the Voyage
made by the Fleet of Alexander the
Great; under the Command of Near-
chus, from the mouth of the river
Indus, up the Persian Gulf. From his
Journal, preserved by Arrian. Harris'
Collection of Voyages, 2Vols.
London. 1764.

- 325 B. C.** **Herodotus : History. Rawlinson's Translation, London 1858 — 1860.**
- 1^o Century A. D.** **The Periplus of the Erythraean Sea : Translation and Notes by W. Schoff. New York 1912.**
- 1^o Century A. D.** **The Book of Alexander. Transl. from the Ethiop. by W. Budge. London, 1933.**
- 77** **Pliny : Natural History. Transl. by H. Rackham. 10 Vols. London, 1938.**
- 851** **Relations des Voyages faits par les Arabes et les Persans dans l'Inde et à la Chine dans le IX^eS. de l'Ere chrétienne. T. I. Trad. M. Reinaud; Paris 1845.**
- 851** **Voyage du Marchand Arabe Sulayman en Inde et en Chine. Trad. G. Ferrand; Paris 1922.**
- 933—1021** **Firdousi (Aboul'Kasim) : Le Livre des Rois (Chah-nameh). Trad. J. Mohl. 7 Vols; Paris 1877.**
- ? ?** **L'Abrégé des Merveilles. Trad. Baron Carra de Vaux; Paris 1808.**
- 1160—1173** **Rabbi Benjamin : The Travels of Rabbi Benjamin ben Jonas of Tudela, through Europe, Asia, and Africa, from Spain to China; Harris' Complete Collection of Voyages; 2 Vols. London, 1764.**
- 1253** **Rubruquis : The Remarkable Travels of Willam de Rubruquis, a monk, sent by Louis IX. Ambassador into different parts of the East. Harris' Complete Collection of Voyages; 2 Vols. London, 1764.**
- 1254—1324** **The Book of Ser Marco Polo, the Vene-**

- tian. Transl. & ed. by Sir H. Yule;
Illrd. Ed. by H. Cordier; London 1903.
- 1357—1371 Mandville's Travels. Transl. from the
French by Jean d'Outremeuse, 2 Vols.
London 1919.
- ? ? Mille et une Nuits. Trad. Galland; Paris 1704.
- ? ? Arabian Nights Entertainments. Transl. By
Ed. Lane. N. E. in 3 Vols; London, 1889.
- ? ? Cent et Une Nuits. Trad. Gaudefroy-
Demombynes; Paris 1911.
- 1524 A. Pigafetta : Premier Voyage autour du
Monde. Paris 1925.
- 1650—1663 Pietro della Valle: Voyages. 8 T ; Paris 1745.
- 1697 W. Dampier : A New Voyage round the
World. The Argonaut Press; London 1927.
- 1709 J. A. Dubois : Hindu Manners, Customs
and Ceremonies. Transl. by H. K.
Beauchamps; Oxford 1928.
- 1810 Malte-Brun: Précis de Géographie Paris 1810.
- 1812 H. Weber : Tales of the East. 3 Vols;
Edinburgh 1812.
- 1813 Savary : Grammaire de la Langue Arabe.
Paris 1813.
- 1845 M. Reinaud : Discours préliminaire dans
T. I. de la Relation des Voyages
(voir plus haut); Paris 1845.
- 1848 M. Reinaud : Introduction à la Géogra-
phie des Orientaux. T. I. de la
Géographie d'Aboulféda; Paris 1848.
- 1851 Herman Melville : Moby Dick, or the
White Whale. New York 1851.
- 1871 E. Tylor : Primitive Culture. 2 Vols.
London, 1920.

- 1873** Vivien de Saint-Martin : Histoire de la Géographie. Paris 1873.
- 1886** F. Maynard : Les Baleiniers. Paris 1886.
- 1887** E. Bretschneider : Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources. 2 Vols. London 1887.
- 1885** T.P. Hughes : Dictionary of Islam. London 1885.
- 1889** M. J. de Goeje : De Reizen van Sindebaad. De Gids, No. 8, 1889.
- 1903** Chauvin : Bibliographie des Ouvrages arabes ; Tome VII (les Mille et Une Nuits) Liège et Leipzig 1903.
- 1905** Cl. Huart : Documents persans sur l'Afrique. Rec. de mém. publiés par les Prof. de l'Ec. d. Langues Orient. Ve. Série, Vol. V, Paris 1905.
- 1912** E. Galtier : Mémoires et Fragments inédits. Mém. Institut Français d'Arch. Orient. ; T. XXV II ; Le Caire 1912.
- 1913** E. H. Blakeney : A Smaller Classical Dictionary. London 1913.
- 1913** W. J. Dakin : Pearls. Cambridge 1913.
- 1913—1914** G. Ferrand : Rel. de Voyages et Textes géogr. arabes, persans et turks relatifs à l'Extrême-Orient du VIII^e au XVIII^eS. Paris 1913—1914.
- ? ?** L. G. Seurat : L'Huître Perlière. Paris s.d.
- 1922** P. Casanova : Notes sur les Voyages du Sindbad le Marin. Bull. I. F. A. O. T. XX., Le Caire 1922.
- 1923** D. K. Tessler : Marine Products of Commerce. New York 1923.
- 1924** R. Basset : Mille et un Contes, Récits et Légendes Arabes. 3 Vols., Paris 1924.

- 1925 L. Boutan : La Perle. Paris 1925.
- 1926 L. Rosenthal : Au Royaume de la Perle.
- 1926 Encyclopaedia Britannica : *Apud Sindbad*.
- 1928 G. Ferrand : Introduction à l'Astronomie
nautique Arabe. Paris 1928.
- 1930 A. Berget : Leçons d'Océanographie physi-
que. 2 Tomes, Paris 1930.
- ? ? Clerc-Rampal : La Mer. Paris s.d. (Larousse)
- 1930 Great Sea Stories of all Nations. Ed. by
Tomlinson, London 1930.
- 1935 W. Beebe : Half Mile Down. New York, 1935.
- 1936 T. Regan : Natural History. London 1936.
- 1937 M. Edwards & L. Spence : A Dictionary of
Non-Classical Mythology. London 1937.
- 1937 J. Norman & F. Fraser : Giant Fishes,
Whales & Dolphins. London 1937.
- 1942 E. Kraus : Jabir ibn Hayyan : Contribu-
tion à l'Histoire des Idées scienti-
fiques dans L'Islam. Vol. II. Mém. à
L'Inst. d'Egypte, T. XLV. Le Caire 1942.

تصحیحات : بالسطر ١١ صفحة ٢٠٨ تستبدل كلمة « جغرافی » بكلمة « خرافی »
وبالسطر ٩ صفحة ٢١٨ تستبدل كلمة « مخلوقات » بكلمة « آدمیات »

فائز بأعمال المؤلف المنشورة

أ — تقارير رسمية : تقارير المصايد المصرية عن السنوات ١٩٣١ و ١٩٣٢ و ١٩٣٤ و ١٩٣٥ بالعربية والفرنسية .

Mém. s. l'Org. d. Rech. d. Pêcheries. N. et Mém. No. 1, le Caire 1933.
Rapp. s. les Trav. accomplis par le Gouvern. Egyptien. Rapp. et Proc.
Verb. de la Comm. Internat p. l'Explor. Sc. de la Méditerranée.
Vols. VII, IX, X et XI. Ann. 1932, 1935, 1936, 1937 et 1938. Paris.
Organisation Scientifique et Technique des Pêcheries d'Egypte. Congrès
Internat. d'Aquiculture et de Pêche, à Liège en 1939. Bruxelles 1940.

رحلة الباخرة مباحث إلى المحيط الهندي . كتاب تذكاري — القاهرة ١٩٣٩

ب — محاضرات : البعار وأحيائها وقيمة دراستها للبحر — القاهرة سنة ١٩٣٦
تربية الأسماك وقيمتها للمهندس الزراعي — القاهرة سنة ١٩٤٢ .

ج — مباحث علمية : Epithelium folliculaire et Membranes ovocytaires chez
Solea vulgaris. C. R. de la Soc. de Biol. T. CIV, Paris 1930.

Tube Formation in *Pomatoceros Triquetri* L. J. of the Marine Biol.
Assoc. of the U. K. Vol. XVII, No. 2. Plymouth 1931.

Repeuplement Poissonnier des Sources à Siwa. Direction des Rech. s.
les Pêcheries -- Notes & Mém. (No. 7), Le Caire 1935.

Breeding of Grey Mullet (*Mugil capito* Cuv.) in Lake Qaroun, Egypt.
(with R. S. Wimpenny). Nature, Vol. 135, London. 1935.

Occurrence of Leathery Turtle (*Dermochelys coriacea* Linn.) in Egyptian
Waters. Proc. of Zool. Soc., P. IV, London 1936.

Successful Stocking of Lake Qaroun with Mulletes (*Mugil cephalus* Lin.
& *Mugil capito* Cuv.) from the Mediterranean. Internat. Rev. d.
gesamt. Hydrobiol. ud. Hydrographie, T. 33 Leipzig, 1936.

Lacs en rapport avec le Delta du Nil. Rapp. et Proc. Verb. de la
Comm. Internat. p. l'Explor. de la Méd. vol. X Paris 1937.

Vitellogenèse chez *Solea vulgaris* et quelques espèces voisines. Dir.
des Rech. s. les Pêcheries, Notes & Mém. (No. 27) Le Caire 1937.

Quelques Aspects de la Biologie des Muges en Egypte. Rapp. et Proc.
Verb. Comm. Internat. Explor. de la Méd. Vol. XI Paris 1938.

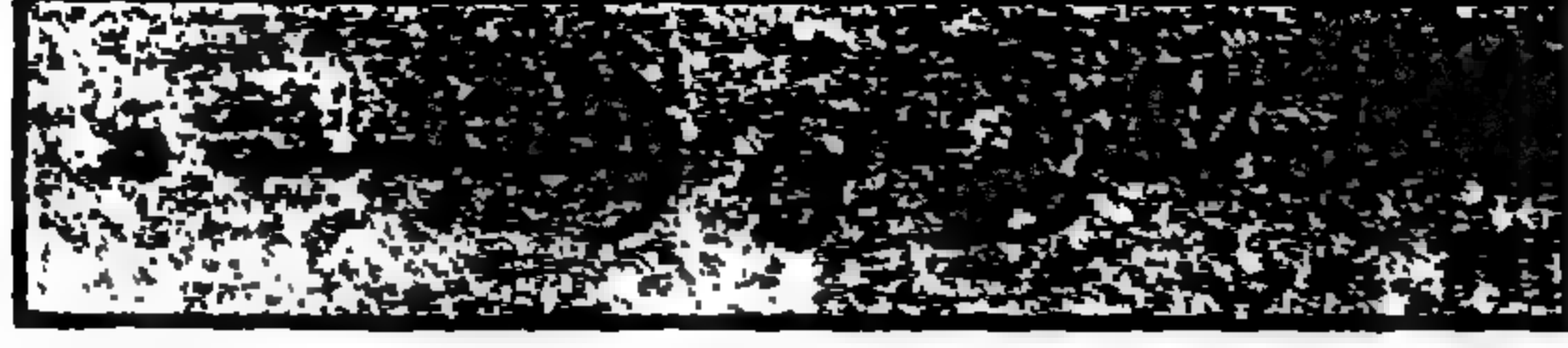
Whale-Shark (*Rhineodon typus*) in Suez Canal. (sous-presse)

Régime des courants dans le Canal de Suez. (sous-presse).

قناة السويس وأثرها الهيدروغرافي والبيولوجي في الوصل بين مياه البحرين
المتوسط والأحمر . المجمع المصري للثقافة العلمية — المجلد السادس (مؤتمر
سنة ١٩٣٦) .

بعض النتائج العلمية لبعثة السيرجون موريج ، المجلد العاشر (مؤتمر سنة ١٩٤٠)

د — أعمال أدبية : سندباد عصري ، جولات في المحيط الهندي ، القاهرة ١٩٣٨ .



١- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الأول)

٢- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الثانى)

٣- الفصن الذهبى (الجزء الأول)

٤- الفصن الذهبى (الجزء الثانى)

٥- كليله ودمنه

٦- ابن جبير

٧- فى موكب الشمس

٨- هاملت

٩- قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور

١٠- الفنون الشعرية غير المعربة (المواليا)

١١- رمز الأفعى فى التراث العربى

١٢- التراث القصصى عند العرب

١٣- تاريخ العرب قبل الاسلام

١٤- حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى

١٥- جماعة أبوللو (الجزء الأول)

١٦- جماعة أبوللو (الجزء الثانى)

١٧- الأساطير

١٨- ابراهيم الكاتب

١٩- ابراهيم الثانى

٢٠- الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر- الجزء الأول

٢١- الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر- الجزء الثانى

٢٢- حديث السندباد القديم

رقم الايداع: ٢٠٠١/١٠٠٩١

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موراليتي سابقاً)

كان موعداً بالبحر صبيّاً قبل أن يراه، عرفه
مراهقاً، واستغرق غرامه للبحر قبل أن يلتقيه لقاء
الوصال عشرين عاماً من عمره.

هكذا ذوبه البحر حتى حل بروحه، لكنه لم
ينس وهو يسطر أولى سطور الغراء قصة السندباد،
وحضات الوصال في أجو المعسم الملبد، وعرق اليود
وهو يملأ مسام روحه.

عائى عمراكب الصيادين بين ضجيج الآلات
ورفرقة السمك حين يتساقط من الشباك على ظهر
السفينة، كما كابد قتاد انتاضء حين جرح قدمه،
إنها رحلة عنق صوفى ادرك فيها حسين فوزى أن
موجة كالجبال ليس صورة شعيرية فحسب،
وعرف كيف ينفذ الزمهرير من أطراف الأنامل
وارنية الانف إلى مخ النظام.

من هذه المكابدات والمعانيات نخرج لنا كتابه
الرابع حديث السندباد القديم

